د. على أحمد محمد السيد

اليهود فى شرق البحر المتوسط

القرن الخامس عشر الميلادى

اليهود فى شرق البحر المتوسط

د / على أحمد محمد السيد

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية - فرع دمنهور

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

الطبعة الأولى

٢٠٠٦م

عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

ʿEIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

د. أحمد إبراهيم الهوارى

د. شوقى عبد القوى حبيب

د. قاسم عبده قاسم

المدير التنفيذي:

شريف قاسم

مدير الانتاج:

جمال عابد

تصميم الغلاف: منى العيسوى

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

حقوق النشر محفوظة ©

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

E-mail : dar_Ein@hotmail.com

book ein @ yahoo.com

الموقع الالكترونى web site: WWW.Dar -Ein.com

الفهرس

الموضوع	الصفحة
– التقديم	٧
– المنهج المتبع.	١٠
– دوافع الهجرة.	١٢
– رؤية عوبديا الجغرافية.	١٥
المبحث الأول: البعد السياسى فى خطابات عوبديا:	٢٣
– الوطن اليهودى وفكرة المشياح عند عوبديا.	
– رودس ودورها السياسى فى شرقى المتوسط.	
– العلاقات المملوكية العثمانية.	
– يهود اليمن.	
– الفلاشا.	
المبحث الثانى: البعد الدينى:	٣٩
نزعة عوبديا الدينية:	
أ–البعد الدينى بين جماعات اليهود فى المحطات الأوربية:	٤٢
– فى باليرمو.	
– فى ميسينا.	
– فى رودس.	
ب– البعد الدينى لجماعات اليهود فى المجتمع المملوكى:	٤٨
– فى الإسكندرية.	
– الحياة الدينية لليهود فى القاهرة.	
– فى غزة.	
– الأماكن المقدس فى الخليل وحولها.	
– مدينة القدس ورؤية عوبديا الدينية لمقدساتها.	
– الأماكن المقدسة خارج القدس وحدود الأرض المقدسة.	

المبحث الثالث: البعد الاجتماعى:	٧٩
أولاً: جماعات اليهود فى الخطابات:	٧٩
– جماعة اليهود فى باليرمو.	٧٩
– جماعة اليهود فى ميسينا.	٨٥
– جماعة اليهود فى رودس.	٨٧
ثانياً: جماعات اليهود ف المجتمع الإسلامى.	٩١
– جماعة اليهود فى الإسكندرية.	٩١
– جماعة اليهود بالقاهرة.	٩٣
– التركيب الاجتماعى لجماعات اليهود فى المجتمع الإسلامى (القاهرة نموذجًا).	١٠٩
– جماعات اليهود فى فلسطين غزة – الخليل – القدس.	١١٥
– اليهود فى باقى الشام.	١٣٩
– جماعة اليهود فى اليمن.	١٤٤
– تقييم اجتماعى لليهود فى ظل السيادة الإسلامية.	١٤٦
المبحث الرابع: إدارة مجتمعات اليهود فى شرق المتوسط من واقع خطابات عوبديا:	١٤٩
أ– الجيتو.	١٤٩
ب– الجهاز الإدارى عند اليهود فى المجتمعين الأوروبى والمملوكى:	١٥٥
– مجلس البرناسيم فى الجيتو الأوروبى.	١٥٥
– النجيد وإدارة جماعات اليهود.	١٥٧
جـ– الضرائب.	١٦٢
د– تقييم عام لمجتمعات اليهود وإدارتها فى شرقى المتوسط.	١٧١
المبحث الخامس: عادات اليهود وتقاليدهم فى شرق المتوسط:	١٧٣
أ– حياة اليهود اليومية فى البلاد الأوروبية:	١٧٣
– عادات يهود باليرمو وتقاليدهم.	١٧٣

ب- حياة اليهود اليومية فى المجتمع الإسلامى. ١٧٨
- مائدة الطعام اليهودية. ١٧٩
- عادات تأثر فيها اليهود بالمسلمين. ١٨٣
- عادة شق الثياب والصلوات الخاصة فى الشرق. ١٨٤
- تقليد دفن الموتى فى الخليل. ١٨٨
جـ- الأعياد والمناسبات. ١٨٩
المبحث السادس: التعليم والعلماء فى خطابات عوبديا: ١٩٣
أ- التعليم. ١٩٤
ب-العلوم والعلماء. ٢٠٠
الخاتمة. ٢١٣
ملحقا الدراسة: ٢٢١
- ملحق (١): الطرق البحرية والنهرية والبرية والموانئ فى خطابات عوبديا. ٢٢١
- ملحق (٢): جدول يتضمن أسماء البلاد وتواريخ الوصول إليها وعدد الأسر اليهودية فيها وفقاً لما ورد فى خطابات عوبديا. ٢٢٣
أشكال وخرائط الدراسة. ٢٢٥
التذييل على الدراسة
عرض لخطابات عوبديا الثلاثة ٢٣٣
قائمة بأهم مصادر ومراجع الدراسة. ٢٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

تزدحم الساحة السياسية فى هذه الآونة بأحداث جسام حول فلسطين، أظن باجتماعها تشكل محورًا هامًا فى تاريخ أمتنا العربية والإسلامية فى المرحلة القادمة. ولما كان علم التاريخ هو نتاج الماضى، فقد اختار الباحث أن يحاكى ما حوله، فتناول موضوعًا له صلة ما بواقع تلك الأحداث خاصةً بعد ما وقع على نصوص لثلاثة خطابات حررها الرابى عوبديا جاردا برتينورو Obadiah Jare Da Bertinoro وهو أحد اليهود الإيطاليين الذين اتخذوا من القدس وطنًا بديلاً لهم، فقد ولد فى بلدة برتينورو الإيطالية فى عام ١٤٥٠م، وعاش فى إحدى ضواحيها بمقاطعة فلورنسا Florence [١]، وخرج منها عازمًا الهجرة إلى فلسطين فى ٢٦ أكتوبر ١٤٨٦م./ ١٨ شوال ٨٩١هـ.، وانتهت رحلته بوصوله القدس فى ٢٥ مارس ١٤٨٨م./ ٣ جمادى الأخر ٨٩٣هـ.، وبذلك استغرق فى ترحاله حوالى عام ونصف، واستقر به المقام هناك مستوطنًا إياها حتى توفى بها عام ١٥٠٠م./ ٩٠٥هـ. وإما فى عام ١٥١٠م./ ٩١٥ - ٩١٦هـ.[٢]، وربما طال به العمر حتى عام ١٥٣٠م./ ٩٣٧هـ. هذا وقد تتلمذ عوبديا على يد جوزيف سلومون كولون Joseph b. Solomon Colon الذى علمه علومًا دينية مكنته من أن يصبح رابيًا أو حاخامًا فى برتينورو

---

(١) وصفها بيروطافور فى النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى بأنها من أعجب مدائن العالم المسيحى اتساعاً وثراءً وحكومة، ويحكمها أشخاص ينتخبون بالقرعة كل شهر، وأنها غاصة بالبيوت الجميلة والشوارع والفنادق الفخمة، والمدينة على غاية من النظافة والنظام، ويكثر بها الكنائس الكبرى والأديرة والمستشفيات، وقد أنجب مجتمعها رجالاً عظامًا بارعين فى العلوم والفنون، ويشهد على ذلك تماثيلها وزخارفها المبهرة. وقد تمكنت حكومة فلورنسا من الاستحواذ على الكثير من الأراضى بما فيها مدينة بيزا التى كانت تابعة لها. انظر: طافور، بيرو: رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى، ترجمة وتقديم: حسن حبشى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٣هـ. - ٢٠٠٢م.، ص٢٤٧ - ٢٤٨.

(٢) Ginzberg, Louise, BERTINORO, OBADIAH (YAREH) Ben R. ABRAHAM, an essay in Jewish Encyclopedia, 12 vols., (ed.) by: Friedenbeirg, A. M., Richard golthid and others, New Yourk, 1901 – 1906, vol. II, p.108, c.f. Also., Wigoder, Geoffrey (ed.), theNew Standard Jewish Encyclopedia. 7 vols., 7th ed., New York, Oxford, 1992, Art. Bertinore,

ويذكر اسمه أحيانا برسم مشابه آخر ((عوبديا أف بارتينورا R. Ovadiah of Bartenura)).

التى التصق اسمه باسمها منسوبًا إليها[١]. وكان من يحمل لقب رابى يعد من كبار رجال الدين اليهودى الذين بوسعهم إصدار الأحكام الدينية والإجابة عن الأسئلة الموجهة إليهم لسعة علمهم. وكان دورهم فى المجتمع اليهودى يماثل دور المفتى فى الدول الإسلامية، كما أن لهم نفوذاً فى السلطة القضائية رغم خروجه عن نطاق الجهاز القضائى النظامى[٢].

وكان الناشر اليهودى النشط الكان ناثان أدلر Elkan Nathan Adler قد عنى بتضمين نصوص الخطابات الثلاثة فى مجموعة رحلات اليهود Jewish travellers التى صدرت فى لندن عام ١٩٣٠م.، وكان قد أشار إلى أن الخطابين الأولين قد نسخا من مخطوطات ضمتها مكتبة جانس برج Ginzberg السوفيتية، وبيعت إلى القدس، ثم تم ترجمتها باللغة الألمانية على يد الدكتور نيبور Neubauer ، ثم عكف ((أدلر)) على ترجمتها إلى الإنجليزية وإيداعها فى مجموعته. أما الخطاب الثالث فهو نسخة من مخطوطة يضمها المتحف البريطانى British Museum، وتوجد له ترجمة باللغة العبرية وضعها الكسندر ماركس Alexander Marx قبل حوالى أربع سنوات من نشره باللغة الإنجليزية فى مجموعة رحلات اليهود أيضًا[٣]. هذا وقد ظهرت ترجمة للخطابات الثلاثة صدرت فى عام ١٩٩٢م. فى القدس إلى اللغة الإنجليزية[٤] أيضًا سبقتها مقدمة من ثلاث صفحات، وتم تذيلها ببعض الحواشى التى لم تكن معنية إلا بتوضيح بعض الألفاظ العبرية والأماكن والتواريخ غير الموثقة. إلا أن الباحث آثر الاعتماد على ما نشره أدلر من نصوص نظراً لأنها أكثر تدقيقاً من النصوص التى ظهرت مؤخرًا ذلك لأنه لم يتدخل بأى إضافات فى ترجمتها فى حين حرص المترجم الآخر للخطابات على تضمينها عبارات جمالية أخلت بالنص الأصلى بغرض وضعه فى ثوب قشيب، وفى الواقع لم تكن لهذه الدراسة لتكتمل إلا بمضاهاة المادة الواردة فى الخطابات بالعديد من مثيلاتها فى المصادر اليهودية الأخرى سواء السابقة عليها مثل: ((رحلة الرابى ميشولام بن مناحم الفولتيرى)) ١٤٨١م./ ٨٨٦هـ.[٥] و((خطاب طالب)) فى عام ١٤٩٥م/ ٩٠٠

---

(١) Marmorstein, Rabbi Avrohom, (ed.), The Travel letters of Rabbi Ovadiah of Bartenura, written between (1488 – 1490) during his journey to The Holy land: pathway to Jerusalem, Jerusalem, 1992, pp.9 – 12.

(٢) عرفة عبده على: ملف اليهود فى مصر الحديثة، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩١م.، ص٢٢٩.

(٣) Adler, E. N., (ed.): Jewish Travellers, London, 1930, p.209.

(٤) Shulman, Yaakov, David, (trans.), The travel letters of Rabbi Ovadiah of Bartenura, written between (1488 – 1490),: pathway to Jerusalem, Jerusalem, 1992.

(٥) Meshullam Ben R. Menahem of voltera, Itinerary of Rabbi Meshullam Ben R. Menahem, 1481 A.D., in: J. T., ed. Adler, E. N., London, 1930, pp.156- 208.

هـ[١] فضلاً عن مقابلتها بعدد غير قليل من المصادر الإسلامية والمسيحية المعاصرة للفترة التى دون فيها عوبديا خطاباته، وسيتم التعرف عليها فى ثنايا الدراسة كلٍ فى موضعه، وما من شك أن هذا الزخم من المادة المصدرية قد وفى كثيرًا من المعلومات التى يسَّرت الوقوف على جوانب البحث المختلفة.

وبقراءة خطابات عوبديا مليًا تبين أنها مفعمة بالمادة التاريخية والحضارية الأصيلة التى يمكن من خلالها الوقوف بصفة خاصة على تجمعات اليهود فى العقود الأخيرة من فترة العصور الوسطى زمانًا، وكذلك على المجتمعات ذاتها فى منطقة شرق البحر المتوسط مكاناً حيث شملت عدداً من المدن والجزر الأوربية فى هذه الجهة، وكذلك شملت الديار المصرية فضلاً عن فلسطين فى ظل الحكم المملوكى، ولما كانت الخطابات تعكس علاقات إنسانية اجتماعية خاصة مرسلة من مهاجر إلى والده وأخيه وصديقه، فمن الطبيعى أنها تتضمن بالدرجة الأولى مادة حضارية تميزت بالزخم الواضح، وكان صاحبها قد عرضها فى شكل تقرير مطول متعدد الاتجاهات. وتصنف على أنها من أدب الرحلة اليهودية فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى/ التاسع الهجرى. ولم لا ! وهى تسجل رحلة أحد المثقفين الدارسين اليهود من أصحاب القلم منذ خروجه من إيطاليا مرورًا بالعديد من المحطات البحرية وجزر البحر المتوسط الشرقية وصولاً إلى ثغر الإسكندرية ميناء الدولة المملوكية المطل على البحر. وما لبث أن شملت الرحلة العاصمة المبهرة بالنسبة له ولغيره القاهرة. ثم انتقل منها وشق البرارى إلى جناح هذه الدولة الشرقى حيث الشام وبالتحديد فلسطين التى رأى فيها منتهى الطريق والموطن الأبدى الذى يجب أن يقضى فيها نحبه[٢] حيث مدينة الله، مدينة القدس.

---

(١) A student's letter, 1495 A.D., ed., Marmorstein Rabbi Avrohom, in: the travel letters of Rabbi Ovadiah of Bertinoro, written between (1488 – 1490), pathway to Jerusalem, Jerusalem, 1992, pp.75- 93.

ويلاحظ أن ((خطاب طالب)) يعد مادة مصدرية قائمة بذاتها منفصلة تماماً عن خطابات عوبديا، وقد شكلت أهمية كبرى نظراً لأنها أكملت وضبطت كثيراً من الثغرات الواردة فى الخطابات موضوع الدراسة. فضلاً على أن الخطاب كتب بعد خمس سنوات فقط من آخر خطابات عوبديا الثلاثة. ولم يكن الطالب مجرد تلميذ عادى إنما كان عوبديا أستاذه، وكان قد وفد من إيطاليا مثله ومعه أخوه ياكوسيل Yekasiel إلى القدس بغرض الدراسة أيضاً.

(٢) يذكر ناشر الكتاب المتضمن خطابات عوبديا الثلاثة طبعة القدس عام ١٩٩٢م. أن قبر عوبديا معلوم مكانه فى القدس، وأن اليهود ما زالوا يزورونه إلى اليوم. انظر:

Marmorstein, Rabbi Avrohom, (ed.), The Travel Letters of Rabbi Ovadiah of Bertinoro, p.11.

يعد أسلوب صاحب الخطابات أسلوبًا أدبيًا رفيعًا يحمل بين طياته روح الأديب القصصى الذى يجيد الوصف والسرد بتصوير أخاذ. وكانت أدواته فى إبلاغ المعلومة فعالة مقنعة. فكثيرًا ما نجده يستخدم عنصر المقارنة خاصةً فيما يتعلق بأوضاع اليهود سواء داخل كلٍ من المجتمعين الأوروبى المتوسطى أو الإسلامى المملوكى. ويبدو عنصر المقارنة أكثر فاعلية حينما تخصهم داخل المجتمعين فى وقت واحد. ومن أدواته أيضًا استخدام الأرقام فى تقدير الأثمان أو المسافات أو الزمن، وهى لغة واضحة لا تخطىء، بل أحيانًا نجده يستخدم النسب المئوية. ولمدون الخطابات، وقد يصح القول مدون الرحلة نزعاته الواضحة بين السطور، فهى تعكس تدينه ونزعته فى الفوز بالآخرة وميله لتأدية الواجب الاجتماعى نحو ذويه، ورغبته فى العمل الاجتماعى وحبه للعلم والتدريس.

ولما كان لكل دراسة علمية أو بحث إشكالياته الخاصة، فإن أهم إشكاليات هذا العمل تكمن فى أنه يقوم على كتابات شخصية يهوديَة لها نوازعها الخاصة، وبرغم المناخ السياسى العام المفعم بالنفور الحالى من هذا العنصر جراء ما تقترفه أيديهم من جرائم إلا أن الباحث تجرد بصعوبة بحكم الأمانة العلمية والتاريخية من أى شعورٍ مضاد بغرض الوصول إلى الموضوعية والحيدة اللازمين لنجاح الدراسات التاريخية. كذلك هناك ما يدعو إلى التنبيه إليه، فقد اعتاد عوبديا أن يذكر شعوب الدولة المملوكية واليمن بالعرب، ونادراً ما يشير إلى حكام الدولة بالأتراك، ومن ثم فكل إشارة إلى العرب عنده، فإنه يعنى بهم المسلمين برغم بعض الاختلافات المدققة فيما تعنيه اللفظتان، وعليه فكثيرًا ما حرص الباحث على التعامل مع الإشارة إلى العرب كما وردت. ونظرًا لاهتمام الدراسة فقط بالمادة الخاصة باليهود مواكبةً لاتجاه الخطابات ذاتها، فأحيانًا ما ترد إشارات عامة عن المجتمعات التى احتضنتهم، وكان من الصعب دراسة المادة الخاصة بهذه المجتمعات، والتى يغلب عليها التعميم، ويندرج هذا على المادة المتعلقة بالنواحى الاقتصادية التى من المعروف أنها تُشكل أهمية خاصة لدى اليهود، بيد أن عوبديا لم يخصهم عند الحديث عن هذه الجوانب. فاتصفت مادة خطاباته عنها بالتعميم أيضًا، وعليه فقد تم استبعاد الجانب الاقتصادى أيضًا لعدم تماشيه مع صلب الدراسة لتخصصُها فقط فيما يعنى اليهود فحسب. وما يمكن إضافته من إشكاليات أيضًا أن الباحث صادف أحيانًا بعض المشاكل فى تفسير بعض عباراته نظرًا إما لتطلبها خلفية اجتماعية تخص ذويه اليهود المعنيين بالخطابات، وإما لاعتمادها على خلفية دينية، إلا أن الباحث حاول قدر إمكانه توفير المادة التى تعينه على إيجاد الأسانيد التى تساعد فى تبيان هذه الخلفيات.

المنهج المتبع:

أما عن النهج المتبع فى إنجاز البحث فإن عوبديا أرسى الأسس التى آثر الباحث أن يسترشد بها، وذلك فى بداية خطابه الأول الذى أرسل به لوالده، وفيه يقول له ((اسمح لى أن أقص عليك وقائع رحلتى منذ البداية وحتى النهاية وفقاً للنهج الذى تمنيت علىَّ اتباعه بأن أصف لك عادات وتقاليد

اليهود فى مختلف الأماكن التى قمت بزيارها متناولاً وقائع حياهم وطبيعة علاقاهم المتبادلة مع السكان الآخرين فى هذه المدن))[١] ولما كان مدون الخطابات رجل دين ذا ثقافة، مهاجراً من بلاد إيطاليا التى بعثت النهضة فيها الحياة، فقد كان جديرًا بأن يضمنها ما يكفى من معلومات وأدلة لوصف أحوال اليهود السياسية منها والدينية والاجتماعية والعلمية فى بقاع مختلفة وبيئات متعددة، وقد اعتمد المستوطن فى كثير من الأحيان على عقد المقارنات بغرض إبراز دقائق الأمور وعناصر الاتفاق أو الاختلاف بين أشكال المجتمعات المختلفة مما شجع الباحث على اعتماد هذا المنهج التاريخى المقارن ما أمكن مستعينًا بالمادة الواردة فى المصادر المعاصرة المتاحة الأخرى، وقد حرص الباحث أيضًا فى دراسته التى انصبت على مجتمعات اليهود الالتزام بالترتيب الجغرافى للبقاع التى أقاموا بها، وتناولها المستوطن فى خطابه الأول، إلا أنه كان يضيف الجزئيات الخاصة بكل منها والواردة فى الخطابين الثانى والثالث كل فى موضعه بغرض الوصول إلى دراسة شاملة من نسيج واحد فى شكل فقرات متجانسة تكمل بعضها الآخر، ولذا جاء ترتيب الأماكن وفقاً لخط سير رحلة الذهاب، وليس حسب أهمية كلٍ منها، أو حتى وفقاً لثقل جماعة اليهود فيها.

ويمكن أن نلخص المنهج المتبع فى إنجاز هذه الدراسة فى أن الباحث اتبع النهج التاريخى الوصفى النقدى ملزمًا نفسه بعرض المادة الأصيلة دون تدخل كبير فى أسطر أو عبارات، ثم يتناولها بالتحليل والدراسة. وأحيانًا ما كان يلزم ترتيب المادة، وهذا يعنى عدم الالتزام بترتيب العبارات كما وردت فى خطابات عوبديا بشكل تام بغرض الوصول إلى فقرات متجانسة تجمع متقاطرة لتعطى موضوعًا متكاملاً، ويتبعه بموضوع آخر كل فى قالبه. وعلى سبيل المثال فعبارات السياسة والحرب تجتمع فى المبحث الأول، أما عبارات الأبعاد الدينية والعمرانية والاجتماعية والإدارية وعادات اليهود وتقاليدهم، والحياة العلمية، فكل فى اتجاهه وموضعه. وذلك بغرض تسهيل الدراسة، هذا وقد يجب التنويه إلى أن ترتيب المادة التى تتألف من مجملها الدراسة بعد تصنيفها تصنيفًا موضوعيًا قد وظفت داخل موضوعها خدمة لها متفقًا مع خط سير الرحلة، ومن ثم يأتى هذا على حساب أولوية أهمية البقاع التى تم المرور بها حيث تأتى المادة الخاصة بمدينتى باليرمو Balermo و ميسينا Messina قبل القاهرة والقدس.

وقد يكون القارئ شغوفًا بالاطلاع على نص الخطابات للوقوف على دقائقها فى وحدة موضوعية متصلة على حالها دون تدخل من الباحث، فله ذلك حيث يتضمن البحث تذييلاً يضم

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.210.

ترجمةً لنصوص الخطابات الثلاثة، وقد حرص الباحث على ترجمتها حرفياً قدر الإمكان دون اللجوء إلى الأدبيات والجماليات - كما لوحظ على الترجمة الإنجليزية التى صدرت مؤخرًا - ولو استخدمت لكان لها أن تضفى عليها رونقًا وبهاءً أكثر. كذلك وتسهيلاً للانتفاع بهذا العمل لجأ الباحث إلى تضمينه ملحقًا بالمحطات أو المواقع التى مرت بها رحلة عوبديا بداية من موطنه فلورنسا بإيطاليا وانتهاءً بموطنه الجديد القدس ذاكراً أعداد أسر اليهود وفقاً لتقدير عوبديا. وملحقاً ثانياً بالخطوط الملاحية والطرق النهرية والبرية والموانئ التى مر بها عوبديا فى الخطابات الثلاثة. وكذلك عددًا من الأشكال والخرائط الخادمة للموضوع مع قائمة تضم أهم المصادر الأجنبية والعربية، وكذلك أهم المراجع التى بها يكتمل العمل واضعين فى الاعتبار أن الخطابات التى وضعها عوبديا قد خطها فى الفترة الأولى من اتخاذه القدس وطنًا وقبل أن تترسخ أقدامه فيها، الأمر الذى يجعل منه رجلا أجنبيًا، ومن كتاباته مادة تحتاج إلى ما يدعمها من خلال المصادر المعاصرة المختلفة.

دوافع الهجرة

وبداية يجب الوقوف من ثنايا الخطابات على الدوافع الحقيقية لهجرة عوبديا، ومن ثم قيامه برحلته هذه مع حرصه على تدوينها؛ فقد خرج عوبديا مستهدفًا القدس محفوفًا بعاطفة والده الجياشة، ومع ذلك لم تثنه عاطفته عن تشجيع ابنه على تركه والهجرة إليها إذ كان بروز أحد الدارسين للعلوم الدينية فى أسرة ما مدعاة للتباهى به بين أسر اليهود الأخرى(١). ومالبث الابن أن استجاب إلى مطالب والده حيث يقول له: ((إنه من الآن فصاعدًا لن تعود مستاءً منى)) ويتحدث إليه عن القدس فيقول: ((وهى التى سوف يعاد بناؤها على يد المشياح Messiah، والله أسأل أن يجعلنا نشهد هذه العودة، ولعل وعسى أن تأتى إلى صهيون فى حبور وسعادة. آمين(٢))) وفكرة

---

(١) Horowitz, Elliott, Families and their Fortunes, : The jews of Early modern Italy, in: Cultures of the jews, III Parts, ed. by Biale, David, Schochen Books, 1st published U. S. A, 1999, Part II (pp.573 – 638), p.579; Johnson, Poul, A History of the Jews. London, 1988, p.183.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.244.

وفيما يختص بلفظة المشياح وفقاً للمفهوم الإسلامى، فهى تشير إلى تنبؤ التوراة بقدوم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ((الكوكب المضئ الذى تشرق الأرض بنوره)) راجع القلقشندى (ت ٨٢١هـ. - ١٤١٨م.) أبوالعباس أحمد: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٤، جـ١٣، ص٢٥٥ - ٢٥٦؛ أما فى المفهوم اليهودى وبالتالى عند عوبديا؛ ((مشياح)) تعنى: المسيح المخلص اشتقت من الكلمة العبرية مشح أى مسح بالزيت المقدس رأس الملك و الكاهن قبل التنصيب. وتشير إلى شخص مرسل من الإله يتمتع بقداسة خاصة يبقى فى السماء حتى تحين ساعة إرساله، من نسل داود عليه السلام، وحينئذ تسود صهيون جميع الأمم. ويفسر رجال الدين اليهودى تأخر وصول المشياح لإعادة مُلك داود بأنه ناتج عن الذنوب التى يرتكبها الشعب اليهودى، ولذا فإن=

النـــزوح إلى فلسطين تتبلور أيضًا فى قولته الصريحة لوالده عند تركه باليرمو حيث قدم وجهاؤها إلـــيه عرضًـــا ((لقد قرروا تقديم راتب كبير لى [مقابل البقاء فيما بينهم لإلقاء الدروس] بيد أننى كـــنت أرغـــب فقـــط فى الوصـــول إلى ما أبتغيه، تلك الأرض، أرض الميعاد The promised land[١])) ومـــن ثم يتأكد أن القدس هى الهدف الأساسى لرحلته. وقد ساق عوبديا عبارة ذكر فيها: ((غدًا يقال: إن مجد اليهود الغابر فى طريقه الآن إلى صحوة عظمى؛ كما أخذت أعدادهم فى التزايد مرة أخرى من جديد[٢])) ورغم أنه كان يقصد يهود أثيوبيا فى هذا الموضع، إلا أن كلماته معـــبرة بشكل واضح عما يجيش به صدره نحو إحياء أمجاد اليهود. وبعد مرور عامين أو يزيد على هجرته إلى القدس أبلغ أخاه بأن ((أرض الميعاد غدت مهيأة للسكنى وإعادة إعمارها)) وبرر ذلك باستصدار السلطات المملوكية لمرسوم متسامح مع اليهود فى دفعهم لضريبة الرأس مؤخرًا ((وعلى ذلـــك فإن كثيرًا ممن كانوا قد غادروا القدس من اليهود أخذوا فى العودة إليها، ولعله بفضل الله وعـــونه أن يعـــاد بـــناء المدينة والهيكل، ولعله كذلك أن يعود سبطا يهوذا Judah وافرايم[٣] Ephraim المشتتان ليلتقيا من جديد ويخر الجميع لله سُجدًا فوق الجبل المقدس[٤])) وكان المعاصر الرحالة اليهودى الرابى ميشولام بن مناحم قد ردد عبارات مشابهة، لكنها لم تتخطَ مجرد الأمانى فى الـــزيارة مـــرجعًا تشـــتت اليهود إلى آثامهم[٥]. ومن ثم لم ترقَ عباراته إلى المستوى العميق الذى استخدمه عوبديا تعبيرًا منه عن الرغبة فى الهجرة والعودة إلى أرض صهيون برغم من أن مدونات اليهوديين كُتبت فى فترة زمنية واحدة – العقد التاسع من القرن الخامس عشر الميلادى – ومن ثم فعلى الرغم من تأثر كليهما بالتراث العبرانى المترسب فى وجدان اليهود جيلاً بعد جيل، فإن الرابى ميشـــولام لم يشعرنا بنـــزعة الارتباط بالأرض المقدسة إلا بشكل عاطفى، وهو بذلك يختلف عن عوبديا الذى تملك الفكر الاستيطانى قلبه وقلمه، وحاول نقله عبر البحار إلى ذويه.

=عودته مرهونة بتوبتهم. وتختلف الرؤية المسيحية فى أنها ارتبطت عندهم بشخص النبى عيسى بن مريم، على عكس الفكرة المشيحانية فى اليهودية؛ حيث أن وصول المشياح يعنى عودة الشعب المختار إلى صهيون. ولمعرفة المزيد. راجع: عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٨جـ، الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٧م.، جـ٥، ص٢٩٤ – ٢٩٧.

(١) Obadiah, Op.Oit, p.214.

(٢) Ibid, p.238.

(٣) Ibid, p.248.

(٤) سبطا يهوذا وافرايم

(٥) Meshullam Ben R. Menahem of voltera, Op.Cit., pp.169, 173, 196.

على ذلك، كان القرار الذى اتخذ بالهجرة إلى فلسطين واستيطانها فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى/ أواخر التاسع الهجرى كان بدافع سياسى دينى على أنه كان مبكرًا بالنسبة للفكر الصهيونى[١] الاستيطانى الذى لم يتبلور إلا فى العصر الحديث، وكانت الهجرة فى ظل ظروف سياسية واجتماعية ودينية أحاطت باليهود أسفرت فى النهاية عن نوع مامن الفكر الاستعمارى. وليس من المستغرب أن تصطبغ دافعيته الشخصية تلك بالسياسة، إذ أنها تواكب النزعات القومية التى سادت شعوب أوروبا فى هذا العصر، عصر النهضة. إلا أن نزعته تسير فى خط متواز مع الدافع الدينى الأصيل لارتباطه بأرض إسرائيل Eares Israel[٢] وأرض الميعاد وبناء الهيكل. ومن هنا يتضح الثقل الذى تشكله شخصية عوبديا التى سعت عمليًا فى تغيير مسار يهود فلسطين اجتماعيًا وعلميًا، ومن ثم سياسيًا فى أواخر العصور الوسطى، إذ أن واقع الكتابة عنده وروحها الكامنة فى الخطابات تؤكد على وجود فكر استيطانى عند اليهود فى تلك الآونة جسدته عقلية هذا المستوطن نموذجًا للفكر المستنير لديهم فى هذه الحقبة التاريخية، ولعل خير دليل على وجود النزعة الاستيطانية المبنية على الفكر الصهيونى عند صاحب الخطابات عدم عودته ثانية إلى وطنه الأصلى فى إيطاليا بهدف إنجاز مهمة معينة فى فلسطين.

---

(١) صِهْيَوْن: هكذا رُسمت فى المعاجم، والاسم فى الأصل عبرى يعنى قلعة، ويطلق على قدس اليبوسيين التى استولى عليها النبى داود عليه السلام، وجعلها عاصمة مملكته. واكتسب اسم صهيون على مر العصور معنى رمزياً يجسد تطلعات اليهود فى إعادة ملكهم. وللاستزادة راجع: بطرس عبدالملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، الطبعة ١٢، القاهرة، ١٩٩٩م.، مادة صهيون؛ ثم تبلورت هذه الأفكار ووضعت فى نظرية سياسية عرفت بالصهيونية Zionism، حيث ظهر هذا المصطلح لأول مرة فى ١٨٩٣م. على يد الكاتب الألمانى ناثان برمبوم Nathan Brembom. انظر: صوفى أبوطالب: المجتمع العربى، القاهرة، ١٩٧٠م.، ص٢١٨.

(٢) إرتس يسرائيل أى أرض إسرائيل هى فلسطين كما يرى اليهود الذين يقولون أيضًا بوحدة الإله والشعب والأرض وحدة مقدسة، وهى الأرض المقدسة التى تفوق فى قدسيتها أى أرض أخرى لارتباطها بالشعب المختار استناداً إلى التلمود الذى ينص على أن ((الواحد القدوس تبارك اسمه قاس جميع البلدان بمقياسه، ولم يستطع العثور على أية بلاد جديرة بأن تمنح لجماعة يسرائيل سوى أرض يسرائيل)) ويرى حكماؤهم أن السكنى فى هذه الأرض بمنزلة الإيمان وفقاً للتلمود ((لأن من يعيش داخل أرض يسرائيل يمكن اعتباره مؤمناً، أما المقيم خارجها فهو إنسان لا إله له)) وأرض يسرائيل هى أيضاً أرض الميعاد عندهم، وقد ارتبطت شعائر الديانة اليهودية بأرض الميعاد ارتباطاً كبيرًا، فهى الأرض التى سيعود إليها اليهود ليقيموا أمجادهم من جديد، وللوقوف على المزيد راجع: عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود جـ٥، ص٧٨ – ٨٢. انظر أيضاً:

Johnson, Poul, A History of the Jews, p.266

رؤية عوبديا الجغرافية:

وقبل الخوض فى دراسة الجوانب المختلفة فى رحلة عوبديا، نلحظ بداية أنها لم تخلُ من مادة جغرافية قد تكون غير ذات قيمة فى عصرنا الحالى لوفرة ودقة مصادرها، إلا أنها تتضمن خط سير الرحلة[١] وكثيرًا من الملامح الجغرافية العامة للمجتمعات التى مر بها كما رأها عيناه. فقد تأهب عوبديا للخروج من بلدة سيتادى كاستيلو Cittade Castelo الواقعة داخل دوقية فلورنسا شمال إيطاليا فى ٢٦ أكتوبر ١٤٨٦م./ ١٨ شوال ٨٩١هـ. وتردد على مدينة روما Roma، وانتقل منها إلى مدينة نابولى Naples، وعرج منها على مدينة ساليرنو Salerno، وبعد فترة عاد إلى نابولى، وعندما شرع فى الرحيل كان قد نما إلى علمه أن الطريق المباشر بين البندقية Venice والأراضى المقدسة حيث القدس معطل، وقد أبدى عوبديا أسفه على ذلك قائلاً ((إذ كان ذلك لن يجعلنى أقضى مدة طويلة فى هذه الرحلة[٢]))، وهذه العبارة تكشف بوضوح أن القدس كانت هى الهدف من الرحلة دون غيرها، ولو توفر لدى صاحبها الوسيلة التى تبلغه إياها ما اضطره إلى سلوكه الطريق الذى طاف به المجتمعات الأخرى.

وعلى كلٍ، فبعد مغادرة نابولى توجه عوبديا إلى جزيرة صقلية أكبر جزر البحر المتوسط حيث مدينة باليرمو Palermo الواقعة فى شمال الجزيرة، وما لبث أن خرج منها فى سفينة فرنسية كانت فى طريقها إلى الإسكندرية، ثم انتقل منها إلى منطقة مضيق ميسينا Messina شمال شرق الجزيرة الذى تشرف البلدة عليه حاملة المسمى ذاته، وتحتل موقعاً محورياً هاماً على الطريق البحرى الواصل بين الشرق والغرب، وفى أكتوبر ١٤٨٧م./ شوال ٨٩٢هـ. غادرت السفينة التى تقل عوبديا ميسينا إلى جزيرة رودس Rhodes ثم أبحر عبر خليج البندقية Gulf of Venice إلى أن بلغ منطقة الأرخبيل Archipelago، وهى عبارة عن مجموعة جزر صغيرة مثل كورفو Corfu الواقعة تحديدًا فى بحر إيونا Ionian sea وكانديا Candia حاضرة جزيرة كريت Crete ونجروبونت Negro – Ponte وهى مدينة داخل جزيرة أوبية Euboia فى الجنوب الشرقى للساحل اليونانى وجزيرتى رودس وقبرص Cyprus الواقعتين فى مياه البحر المتوسط ذاته. وعلى حد علم هذا المستوطن فإن عدد جزر هذا الأرخبيل يبلغ ثلاثمائة جزيرة بعضها مأهول وبعضها الآخر مهجور. وحينما بلغ جزيرة رودس أقام بها بعض الوقت واصفاً إياها ((بأن هواءها نقى

---

(١) عن خط سير الرحلة انظر: الخريطة الخاصة بذلك عقب الدراسة.

(٢) Obadiah, Op.Cit, p.243.

للغايـــة، بـــل هو بديع بشكل يفوق جمال ما شعرتُ به تجاه أى مكان آخر، كما أن مياهها عذبة وتربتها نظيفة، إلا أنها فقيرة، ومعظم أهلها من اليونانيين[١])).

وعلـــى الـــرغم مـــن دقة المعلومات الخاصة بانقسام جزر الأرخبيل إلى قسم مسكون وقسم مهجور، وأن الأرخبيل يضم هذا العدد الكبير منها، إلا أن أسماء الجزر التى أوردها لا نجد معظمها فى قائمة أهم جزر هذا الأرخبيل[٢]. ومما يدل على اهتزاز المعلومات الجغرافية الواردة بالخطابات فى هذا الصدد، أنها أوردت كانديا من الأرخبيل، وهو الأمر الذى يبدو أنه شاع عند المعاصرين الذين يذكـــرون أنها ((جزيرة تبلغ مساحتها سبعمائة ميل وبها العديد من المدن والقرى وبها ميناء شديد السعة[٣])) فى حين أنها بلدة فى جزيرة كريت. كما ذكر عوبديا جزيرة دعاها ((نجرو بونت)) بينما هـــى اسم مدينة تقع فى جزيرة أوبية[٤]، كما أضاف جزيرتى رودس وقبرص إلى الأرخبيل فى حين أنهـــا ليست منه، ومن ثم يكون من المرجح أنه أراد الإشارة إلى جزر شرق البحر المتوسط وليس سلســـلة جـــزر الأرخبيل. وتعد إشارة عوبديا الإجمالية لجغرافية رودس نموذجاً طيباً لقدرته على استيعاب هذا الصنف من العلوم، خاصةً وأنه جاء وليد المعاينة والترحال.

وبالنســـبة لمعلومات عوبديا الجغرافية عن الدولة المملوكية فقد عبر عنها بما سجله حين اقترابه مـــن شـــاطئ الإسكندرية حيث لاحظ ضحالة مياه البحر قبالة أبى قير، وقدر المسافة بينها وبين الإسكندرية بثمانية عشرة ميلاً[٥]، ووصفها ((بأنها مدينة كبيرة جدًا ومحاطة بسور ويلفها البحر)) متفقًا مع الرحالة ميشولام فى الوصف[٦]، وما لبث أن عزم عوبديا على الرحيل إلى القاهرة فى إطار رحلـــته إلى القدس، التى تقرر لها امتطاء الجمال برفقة أحد اليهود، فكانت رشيد Rosetta أولى

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.215, 218., cf. also; Marmorstein, Rabbi Avrohom, ed.; The travel letters of Rabbi Ovadiah, pp.21 – 23, Nos, 12 – 15.

(٢) راجع ما ورد تفصيليا عن أهم جزر الأرخبيل فى: حبيب غزالة: جزيرة رودس، جغرافيتها وتاريخها وآثارها، القاهرة، ١٩٢٩م، ص٧٢ – ٨٧.

(٣) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.200.

(٤) بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية: أمين فارس ومنير البعلبكى، الطبعة العاشرة، بيروت، ١٩٨٤م.، ص٤٣٨.

(٥) ميل العصور الوسطى أقصر قليلاً من ميل العصور الحديثة.

(٦) Obodiah, Op.Cit., p.222; Mesullam of voltera, Op.Cit., pp.159- 161.

محطاته، وعنها ذكر: ((إنها واقعة على النيل))، ثم استقل سفينة هناك مصعداً، وأخذ يصف ما حوله فقـال: ((وعلـى جـانبى النهر مررنا بعدد من البلدان والقرى الواسعة شديدة الجمال والمأهولة بالسـكان لكـنها غير محصنة[١]))، ثم اضطر عوبديا إلى البقاء فى بلدة فوة Foah[٢] لمدة يومين، وعنها ذكر: ((فى الواقع هى مكان رحب وجميل، ويمكن الحصول على الأسماك والخضراوات فيها بـدون مقابل تقريبًا))، ثم استأنف المستوطن رحلته النيلية، فوصل إلى بولاق التى أدرك أنها بداية القاهرة موضحًا: ((أن النيل عندها عريض وماؤه شديد العذوبة، لكنه عكر))، ثم أضاف ((والجزء الذى كنا قد أبحرنا فيه من هذا النهر فرع منه، أما الفرع الآخر الذى يتجه نحو دمياط حيث يصب فى البحـر))، ووصف كبر حجم القاهرة وكذلك موقعها ذاكراً: ((أنها تقع بين البحرين المتوسط والأحمر))[٣].

ثم جـاءت لحظة الرحيل من القاهرة إلى فلسطين، وكانت بداية الطريق فى نظر المستوطن تبدأ من منقطة الخانكة Chanak [٤]، على مبعدة ميلين من القاهرة وما لبث الركب أن وصل إلى بلدة

---

(١) يؤكد الرحالة ميشولام بن مناحم أن جميع القرى والبلدان المطلة على النيل والبالغ عددها ما يزيد عن الأربعين ليس لها أسوار أو حصون. انظر:

Meshullam of voltera, Op.Cit., p.164.

(٢) كانت فوة حين وصول عوبديا لها حاضرة الإقليم المعروف فى المصادر الإسلامية باسم عمل المزاحمتين، واتفق الرحالة جوس فان غستال الذى زارها قبل المستوطن اليهودى بحوالى ست سنوات بأنها مدينة جميلة وبدون أسوار، وفيها يمكن ابتياع كل ما يحتاج إليه المرء. انظر: القلقشندى (ت ٨٢١هـ./ ١٤١٨م.) أبوالعباس أحمد: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية، ١٤جـ، القاهرة، ١٩١ – ١٩١٤م، جـ٣، ص٤٠٢، انظر أيضاً:

Joos Van Ghistele, Le voyage en Egypte, A.D., (1482 – 1483), traduction, introduction, et notes de Mne Renée, Bauwens – Preaux, vol.(16), XVI, l'institut Français d'Archéologie, Le Caire, 1976, pp.132 – 133.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.223

تضمنت ذكريات عوبديا فى هذا الموضع مشاهدته لحيوان التمسـاح، وأبدى اندهاشه من كبر حجمه شأنه فى ذلك شأن الرحالة الأجانب الآخرين، انظر على سبيل المثال:

Felix Fabri, Le voyage en Egypte, A.D., 1483 traduit du latin, présenté et annoté par le R. P. Jacques Masson, S. J, vol. XVII. 3 (parties) institute Français d'archéologie orientale, Le Caire, 1976, tome II, pp.583 – 86, 618 – 621.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.225.

al-maktabeh المهتدين

بلبـــيس بالشرقية[١]، ثم كانت المحطة التالية بلدة ((الصالحية))[٢] حيث مكث المرتحلون فيها خمسة أيـــام مترقبين مرور إحدى القوافل،((نظرًا لأن الطريق عبر البرارى يبدأ من هذه البلدة،وهو غير مأمون لمجرد عبور رحلة مكونة من خمسة جمال فقط))،وشقت القافلة طريقها عبر صحراء سيناء إلى أن وصلت إلى قطيةQatiah الواقعة وسط الصحراء جنوب بحيرة البردويل،وقد حرص عوبديا فى هـــذا الموضع أن يشرح طبيعة الطريق بين مصر وفلسطين قائلاً:((البرية بين مصر وفلسطين ليست واســعة، وبهـــا محطات للجمال بين كل منها مسيرة يوم واحد[٣]، وقد أنشئت فى الأساس لخدمة المسافرين على الطريق،وعلى امتداد الأراضى ما هى إلا رمال، فلا يوجد كذلك أى نوع من أنواع النـــباتات سوى أشجار النخيل،وفى أماكن محددة ومعروفة. وقد يتوفر الماء بعد قطع رحلة يومين، وأحـــيانًا بعد رحلة يوم واحد وفى معظم الأحيان تكون المياه آسنة. وقد تبدأ الرحلة من منتصف الليل حتى الثلث الأول من نهار اليوم التالى، ويتوقف أمر بدء الرحلة على ما يرتئيه المسئولون عن حركة القوافل،لكنهم فى معظم الأحوال كانوا يفضلون السفر ليلاً أكثر من السفر نهارًا))ثم واصل الـــركب بمـــا فـــيهم اليهود إلى أن بلغوا بلدة العريش[٤]وذكرها عوبديا باسمها العبرانى سكوث Succoth.

---

(١) تقع بلبيس فيما بين عين شمس وبين بسطة فى حدود الصحراء الشرقية، وهى من المدن القديمة فى مصر، ووردت فى المصادر العربية باسم (بلبيس) ضمن القرى الواقعة على الطريق من الفسطاط بمصر إلى الرملة التى بفلسطين، وعلى بعد أربعة وعشرين ميلاً من الفسطاط. انظر: المقدسى (عاش فى القرن الرابع الهجرى/ القرن العاشر الميلادى) شمس الدين أبوعبدالله المعروف بالبشارى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٠٣م.، ص١٦١؛ محمد رمزى: القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م.، ٤جـــ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.، جـــ١، ق٢، ص١٠٠ – ١٠١.

(٢) هى من القرى القديمة من أعمال الشرقية ذكر الجغرافى الإدريسى عنها: ((هى مدينة متحضرة فيها عمارات وزراعات))ٍ ونظرًا لأنها تقع على درب الشام وطرق رحلة القوافل وعرضةً لهجمات البدو أضاف: ((أهلها لصوص لهم أذية فاشية وهم بالشر موسومون)) انظر: الإدريسى (ت ٥٦٠هـــ./ ١١٦٤م.) أبوعبدالله محمد: نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمداين والآفاق، نشر: راشن موللر، ليدن، ١٨٩١م.، ص١٥٧.

(٣) Obadiah, Op.Cit., pp.227 – 229.

ويعد الطريق الذى سلكه عوبديا هو الطريق الشمالى المعروف فى شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى، وعن معالم الطريق عبر الصحراء والمحطات عليه من القنطرة حتى فلسطين، انظر: نعوم شقير: تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، مطبعة المعارف، القاهرة ١٩١٦م.، ص١٥٣ – ١٧٨.

(٤) Obadiah, Op.Cit., pp.231 – 232.

هكذا،كان التقيم الجغرافى لصاحب الخطابات لبعض مناطق مصر أقرب إلى الصحة، وخاصةً عند تقديره للمسافات بين المدن ووصفه للنيل والبلاد المطلة عليه وفرعيه رشيد ودمياط والبيئة المحيطة، وأدرك فضل موقع القاهرة، وأقر بما شاع عن البحر الأحمر حيث ذكر أن ((به مغناطيس، ولذا فإن السفن التى تسلكه لا ينبغى أن يكون بها حديد ولا تستخدم المسامير فى صنعها)) وكذلك أقر بقلة المطر فى القاهرة ودفء الطقس فى مصر بصفة عامة[١]، وكان وصفه للطريق البرى الصحراوى عبر شبه جزيرة سيناء وليد التجربة الشخصية، فجاء مدققًا مبرزًا آلية الحركة عليه انتهاءً بالعريش.

وعندما تطرق عوبديا إلى بعض الجوانب الجغرافية فى الجناح الشرقى من الدولة المملوكية حيث فلسطين، نجده يبرز حقيقة أن غزة هى البلدة الأولى عقب الخروج من البرية، وهى التى أفضت بالمسافرين إلى ((بلاد الفلسطينيين)) واصفًا إياها بأنها ((بلدة متسعة وجميلة تشبه فى حجمها حجم القدس[٢])) وهناك وصف مشابه يقدمه الرحالة فليكس فابرى قبل ذلك بسنوات خمس يذكر فيه: ((إن غزة مدينة كبيرة، رائعة الجمال، وقد أصبحت حالياً أكبر حجماً من القدس[٣]))، كما سجل عوبديا ملاحظته بأن ليس لغزة أسوار، وهذا ما كان ميشولام بن مناحم أكده أيضًا[٤].

وحينما تقرر الخروج من غزة امتطى أفراد القافلة الجحاش فى الطريق إلى الخليل. ولقد حظيت مدينتا الخليل والقدس بقدرٍ أوفر من الاهتمام بوصفهما الجغرافى، وعن الأولى يذكر عوبديا ((وصلنا إلى حبرون، وهى بلدة صغيرة تقع عند منحدر الجبل، كان الأتراك قد أطلقوا عليها اسم الخليل، والبلدة مقسمة إلى شطرين: أحدهما بجوار الحرم الإبراهيمى، أما الآخر فهو قاب قوسين أو أدنى من الشطر الأول لكن فى الاتجاه المعاكس))[٥]. هذا الوصف يتفق مع وصف الرحالة اليهودى المعاصر ميشولام بن مناحم الذى أضاف موضحًا أن وادى الخليل هو الذى يقسم البلدة على هذا النحو ممتدًا من جهة الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى، وأن القسم الأكبر من البلدة هو الواقع

---

(١) Obadiah, Op.Oit, pp.222, 224, 225, 230.

(٢) Ibid, p.232.

(٣) Felix Fabri, Op.Cit., tome III, p.801.

(٤) Obadiah, Loc.Cit; Meshullam of voltera, Op.Cit., p.180.

(٥) Obadiah., Op.Cit., pp.232- 233.

جهـــة الشرق[١]. ومن اللافت للنظر أيضًا مما سبق سرده أن القوافل دأبت على استخدام الجمال على الطريق البرى الرئيسى من القاهرة حتى غزة، أما عندما أراد أفرادها التوجه إلى الداخل حيث الخليل، فقد تقرر استخدام الجحاش، ولعل ذلك بسبب طبيعة المكان وطول المسافة، إذ أن الطريق عبر سيناء والساحل يسير فى طرق منبسطة معروفة وممهدة بمقاييس العصر، ولذا يفضل استخدام الجمـــال عليها، أما الطريق من غزة إلى الخليل فهو طريق صاعد متدرج إلى أعلى[٢] ومن ثم تكون الجحاش أفضل من الجمال فى سلوكها.

وكمـــا دون المســـتوطن فى خطابه، فقد غادر الخليل متجهًا نحو الشمال حيث القدس هدفه المنشود، فبلغ بلدة حلحول الواقعة على الطريق، ((وعلى اليد اليمنى للمسافر إلى القدس يوجد تل تقع عليه بيت لحم Beth Lehem وهى مجرد بلدة صغيرة ... وبها كنيسة للكهنة الكاثوليك. تمتد المســـافة مـــن بيت لحم إلى القدس ثلاثة أميال، والطريق على امتداده إلى هناك عامر بالكرمات والبساتين، وتتشابه كرمات العنب فى هذه الجهات مع مثيلاتها فى رومانيا، إذ أن أشجار العنب بها قصيرة وكثيفة، والعنب أكبر حجمًا من الذى فى بلادنا[٣])) ويتبين من خط سير عوبديا أنه اختار مـــنذ مغادرته مصر الطريق الساحلى عبر قطية والعريش وغزة وصولاً إلى بيت جبرين ومنها إلى الخليل والقدس فى الطريق الجبلى[٤] وعلى بعد ثلاثة أرباع الميل من القدس وعبر طريق وعر صاعد إليها، سجل عوبديا هذه الكلمات: ((لقد رأينا مدينة سعادتنا؛ المدينة المبجلة ......، وحينما كنا نقتـــرب رويدًا رويدًا من المدينة المقدسة كنا نرى بيتنا المقدس Beis Hamikdash الجميل، وهو خـــراب)) وعـــن مزروعاتها قال: "وهنا بالقدس رأيتُ العديد من أنواع الفاكهة التى لا يمكن أن نجدها فى بلادنا))، وتعرض إلى شجرة الموز التى وصفها تفصيليًا، وعن المناخ فى المدينة أفاد والده بأنـــه فقـــط دون غيره من المرافقين له فى رحلة الذهاب الذى لم يمرض؛ إذ أن معظم الوافدين إلى

---

(١) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.185.

(٢) راجع: على أحمد السيد: الخليل والحرم الإبراهيمى فى عصر الحروب الصليبية، ١٠٩٩ – ١١٨٧م.، ٤٩٢ – ٥٨٣هـــ.، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٤٥ – ٥٢.

(٣) Obadiah, Op.Cit., pp.233- 236.

(٤) محمود نعناعة: تاريخ اليهود، الطبعة الأولى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، ١٤٢١هـــ.– ٢٠٠١م.، ص٢٩.

القدس من الجهات البعيدة يخرون مرضى بسبب تقلبات الجو وسرعة التغير في درجات الحرارة ما بين الارتفاع والهبوط[١] وهو ما يوصف جغرافيًا بالمناخ القارى.

ولم تقتصر المادة الجغرافية الواردة فى الخطابات على البقاع التى شملها عوبديا فى ترحاله فحسب؛ إنما هناك مادة إضافية تتصف بالأهمية تتعلق ببلاد فلسطينية أخرى، مثل: إقليم الجليل والبحر الميت وشرقى الأردن وكذلك بلاد أخرى فى الشام، ومن ذلك مدينة دمشق التى ذكر عنها ((فيها بيوت رائعة، وحدائق شديدة الجمال، ومن الصعب أن ترى شبيهاً لها فى أى مكان، ومع ذلك، فهواؤها ليس نقياً للغاية، حتى أن الغرباء الذين يذهبون إليها يمرضون[٢])). هذا الوصف الذى يشمل الجوانب الإيجابية والسلبية فى المدينة يتفق مع الوصف الإيجابى الوارد فى خطاب الطالب اليهودى بعد بضع سنوات الذى اهتم بذكر محاسنها[٣]. كذلك تعرض عوبديا بالإشارة إلى جغرافية الحبشة Abyssinia التى ذكرها أيضًا بمسمى أثيوبيا Athieopia، كان قد تعرف عليها من رجل كان على بينة بالجبال العالية والوديان التى هناك، وكان بإمكانه أن يقطع المملكة فى عشرة أيام[٤]، وهذه السمات التضاريسية للحبشة تتفق مع طبيعتها الجبلية المعروفة، أما بلاد اليمن فقد اهتم بها أيضًا بوصفها جغرافياً حيث ذكر عنها ((وكما يقال عدن Aden هى الموضع الذى به جنة عدن، إنها تقع إلى الجنوب الشرقى من أثيوبيا فى حين يفصلهما البحر الأحمر عن بعضهما))، ثم

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.234, 238, 246.

مما يذكر عن مناخ القدس أن هواء البحر يهب عليها، فيلطف حرها فى أشهر الصيف، ويبرد هواءها فى فصل الشتاء، وتتراوح درجة الحرارة صيفًا مابين ٧٧ إلى ٨٦ فهرنهيت، وأما فى الشتاء فطقسها بارد يشمله المطر، ويهطل الثلج أحياناً، ولكنه لا يدوم طويلاً، وللمزيد راجع: عارف باشا العارف: تاريخ القدس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥١م.، ص١٨٦.

(٢) Obadiah, Op.Cit., pp.245- 246.

(٣) A student's letter, pp.89 – 92.

ويعد الطالب اليهودى شاهد عيان إذ أن وصفه يعتمد على الرؤية المباشرة

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.239.

ولفظة أثيوبيا يونانية الأصل، أطلقها اليونانيون القدماء على البلاد التى تلت مصر جنوبًا،وهو ما كان يسميه الفراعنة مملكة كوش، ثم اتسع مدلول هذه التسمية فى العصر الرومانى، فشمل ما بين غربى النيل، والبحر الأحمر، بل أحياناً ما يطلق على اليمن أثيوبيا الأسيوية بالرغم من وقوعها شرق البحر. انظر: محمد جلاء إدريس: يهود الفلاشا أصولهم ومعتقداتهم وعلاقتهم بإسرائيل، مكتبة مدبولى ، القاهرة، ١٩٩٣م.، ص١٣.

أضاف ((والبلاد ذاها ممتدة الأرجاء وخلابة، وينضج بها عديد من صنوف الفواكه الرائعة، وفيها مـــا لا نجد لنوعيتها مثيلاً فيما بيننا [حيث إيطاليا] ...... ويقوم الأهالى بزرع محاصيلهم فى شهر آذار [فبراير – مارس]، ويحصدونه فى شهر كسليف)) نوفمبر – ديسمبر، وأدرك المستوطن حقيقة أن المطـــر فى الـــيمن موسمـــى يســـقط فى أشهر الصيف بغزارة ((أما عن أهلها، فإهم يميلون إلى السُمرة))[١].

وهكذا يمكن أن نخلص إلى أن رؤية عوبديا الجغرافية كانت واضحة متفقة مع الواقع الذى رآه بنفسه فى معظم الأحوال، أما إذا كان هناك بعض الاهتزاز فى المعلومات، فهذا يرجع إما إلى طبيعة العصـــر، وإما إلى أنه نقلها عن أُناس غير مدققين، وفى النهاية كان القدر الذى لديه من معلومات جغـــرافية كافـــياً لشـــرح خلفيات موضوعاته التى تناولها فى خطاباته، وأرسل بها إلى ذويه، وهى معلومات لا يأتى بها فى العادة سوى الرحالة من خلال رحلاقم.

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.246.

al-maktabeh www. .com مكتبة المهتدين

المبحث الأول

البعد السياسى فى خطابات عوبديا

أما إذا انتقلنا إلى الحديث عن أبعاد الرحلة وجوانبها المختلفة، وفيما يتعلق بالبعد السياسى فقد أتـــت خطابات عوبديا بمادة سياسية مبعثرة، ولكنها مهمة، ولما كان الدين هو القاسم المشترك فى كل ما يعنى اليهودى المتدين، ويعد عوبديا نموذجًا؛ فنلحظ أن المادة الخاصة بالجوانب السياسية فى الخطابـــات ممـــزوجة بالدين ومصطبغة به إلى حدٍ كبير، إذ تتضح النـــزعة الاستيطانية عنده فيما اعـــتقد فيه حيث ربطها بفكرة المشياح اليهودى والاثنى عشر سبطاً المشتتين فى الأرض التى تقوم على أساس إنه من أجل الوصول إلى إعادة بناء مملكة الله فى الأرض أن ينادى المشياح تلك القبائل فى منفاها للتجمع بغرض التوجه إلى أورشليم، وهناك ينصبونه ملكاً على عرش الملك داود[1]. وفى ذلـــك يقـــول: ((غدا يقال: أن مجد اليهود الغابر فى طريقه الآن إلى صحوةٍ عظمى؛ كما أخذت أعـــدادهم فى التزايد مرة أخرى من جديد)). ولما كان لجبل صهيون Mt. Of Zion مغزىً دينى وسياسى خاص باليهود منذ القدم رأت عينا عوبديا جانباً من يهود القدس وقت وصوله إليها، وقد حرصوا على سُكنى هذا الجبل[2].

وفى موضع أخر سرد عوبديا عبارات تدور حول نهر أسطورى غير معروف حيث يقول: ((أنه المعـــروف الآن فيما بين التجار العرب أن نهر شامباشن Sambation يقع على بعد رحلة خمسين يومًا من بلادهم عدن داخل البرية، ومن ثم فهو أشبه بخيط يحيط بكل الأرض التى تسكنها سلالات بنى إسرائيل[3]. ويقوم النهر بطرح الأحجار والرمال، ولا يستقر له أمر إلا فى يوم السبت[4]، ومن

---

(1) Johoson, Poul, A History of the Jews, p.266.

(2) Obadiah, Op.Cit., pp.236, 246.

(3) وهم يصنفون على أنهم مجموعة من يهود الهند القاطنين حول بومباى، وهم لا يعرفون التلمود، ويشتغلون أساساً بالتجارة وبعض الحرف اليدوية. ومن مميزاتهم الجسدية أن لونهم أميل للبياض. انظر:

عبدالوهاب المسيرى: الأقليات اليهودية بين التجارة والادعاء، دار نافع، دمنهور ١٩٧٥، ص٩٤.

(4) هناك إشارة فى التلمود لهذا النهر على أنه برغم الانسياب البطئ لمياهه إلا أنه يكون شديد الانحدار حاملاً كتل الأحجار الضخمة، ولا يهدأ إلا فى يوم السبت، ويمكن تحديد مكانه بأنه النهر الذى نفى إليه شلمنصر ملك آشور جانباً من القبائل اليهود العشر حيث بلاد الرافدين انظر:

Marmorstein, Rabbi Avrohom, (ed.) travel letters of Rabbi Ovadiah, p.61, No. 74.

ثم فلــيس هـــناك يهودى واحد من الذين ينتقلون داخل هذا البلد له أن يفتتن بانتهاك حرمة يوم السـبت. وممـا هو سائد فيما بين [يهود عدن] بشكل عقائدى، أن نسل يعقوب [عليه السلام] يعيشون [فيما وراء نهر سامباشن])) وبعد أن كرر عوبديا العبارة الأخيرة مرتين حرفيًا يتحدث عن يهود ما وراء نهر سامباشن فيقول: ((ومما هو سائد فيما بين يهود تلك البلاد أنهم جميعًا ينحدرون من سلالة موسى [عليه السلام]، ولذا فكلهم طاهرون ومعصومون كما الملائكة، ولا يوجد فيما بينهم من يقدم على فعل الشر. أما أبناء إسرائيل فى الضفة الأخرى من نهر سامباشن، فأعدادهم لا تحصـى كـرمال البحر، ويوجد عديد من الملوك والأمراء فيما بينهم، إلا أنهم ليسوا طاهرين ولا مُنـــزهين إلى الحد الذى عليه أولئك اليهود الذين يلتفهم النهر. ويروى يهود عدن كل ذلك على أنـــه حقـيقة مجــردة، كما وكأنها مسلم بها، وليس لأحد أبداً أن يشكك فى مصداقية مزاعمهم الراسخة[1])).

يلاحـــظ أن عوبديا أثبت مصدره عما قدمه من رواية نقلاً عن يهود جاءوا من عدن؛ ولنا أن نوضح فى هذا المقام أن المهتمين بالكتابة عن يهود اليمن أثبتوا أنه لا يُعرف أية حقائق تاريخية عن أصـــل هذه الجماعة فى بلاد اليمن، بل كل ما هنا لك مجرد تخمينات وأحاديث تغلفها الأساطير[2] التى ظلت تتوارث بينهم جيلا بعد جيل، وهكذا لا يمكن تصنيف ما أورده عوبديا فى هذا الصدد إلا أنـــه من قبيل الأساطير أيضًا التى زخرها التراث اليهودى، ولعله أراد بها الإشارة إلى الأسباط العشرة المفقودة التى كانت تسكن مملكة يسرائيل الشمالية التى لها أن تجتمع يومًا من أجل العودة بعـــد تشتتهم فترة السبى الآشورى عام ٧٢١ق.م.[3]. وتنتهى دراسة تحليلية للشخصية اليهودية

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.246 – 247.

(٢) جواد على: تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦ جـ، مطبعة المجمع العلمى العراقى، ١٩٥٢م، جـ٦، ص٣٤، ٣٤؛ فؤاد حسنين مزنر: أطماع اليهود وأسفارهم، دار الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.، ص٦٥ – ٦٦، ٧١؛ كاميليا أبوجبل: يهود اليمن، دراسة سياسية واقتصادية واجتماعية منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، الطبعة الأولى، دار النمير، دمشق، ١٩٩٩م.، ص١٦.

(٣) إسرائيل كلمة عبرية تنطق يسرائيل وتعنى ((المتصارع مع الرب)) وقد استخدمت للإشارة إلى النبى يعقوب عليه السلام ودولة يسرائيل القديمة،واستخدمت حديثا للإشارة إلى دولة إسرائيل. انظر: غازى السعدى: الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، عمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٤، ص٢٢، ٢٨؛ أما السبى الآشورى لليهود فقد تم حينما توجه شلمنصر الخامس ملك آشور (٧٢٨ – ٧٢٢ق.م.) إلى السامرة، وحاصرها ثلاث سنوات حتى سقطت، ونقل يهودها إلى بلاد الرافدين، ثم أتم ابنه سرجون (٧٢٢ – ٧٠٥ ق.م.) هذا العمل، فى حين دفع يهود يهوذا له الجزية، ودانوا له بالولاء. انظر: بطرس عبدالملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، مادتا: شلمنصر، سرجون.

وفكـــرها العام إلى أن الأساطير تشكل جانباً أساسياً من البناء الأخلاقي والتركيب الفكرى عند اليهود على مر تاريخهم[١]، وقد يرجع ذلك إلى وجود سنن شروح أخذت عن موسى عليه السلام مشافهة ضمت قصصاً وتاريخاً وتشريعاً وأساطيراً عرفت بعد تدوينها بالتلمود[٢]. وهذه الأسطورة التى تحمل الصبغة الدينية كماهو واضح لها بعدها السياسى، فهى تعكس الأصول القبلية اليهودية وشـــعور جماعتهم بأنهم الشعب الأثير والمصطفى والمبارك، كما أكسبهم شعوراً بالتفوق وإحساساً بالـــتعاظم، وعـــا جعلهم الرب شعبه المختار إلا لأنهم أولاده وأحباؤه، وهذا يضفى عليهم قداسة لعلاقتهم الوثيقة بالرب هم ومن يأتى بعدهم من نسل. وما ورد فى الديانة اليهودية من تميز لليهود كشعب له خصوصيته أصبح معتقدًا ينتقل من جيل إلى جيل من خلال زعمائهم وكُهنتهم[٣]. وجاء عوبديا ليمثل أحد رواد جيله فى هذا الشأن، ويتبين هذا من بلورته لأسطورة المشياح الذى سيأتى يومًا ما ليقهر أعداءه، ويلم شتات القبائل اليهودية من كل صوب، وبذلك يكون قد شكل حلقة مهمـــة فى بناء الفكر الصوفى اليهودى المتوارث[٤]. بيد أنه يلاحظ أن الأسطورة لم تشر إلى أرض معلومة أقاموا فيها ومحددة المعالم والمسمى؛ فهى أرض غير معروفة، بل هى أراضى شعوب أخرى، ومع ذلك رددها المستوطن، ورأى فى فلسطين صدى لما ورد فيها.

وعلـــى الـــرغم من أن المادة التى أوردها عوبديا فى خطاباته لم تكشف عن نيته فى تقديم مادة سياسية خالصة، إلا أنه يمكن استخلاص بعض الجوانب ذات الصبغة السياسية المجردة، وقد يكون من الضرورى الوقوف عليها تبيانًا لخلفية الأحداث التاريخية التى تحيط بمجتمعات اليهود فى شرقى المتوســـط وقـــتها؛ ومنها ما رواه عن نشاط البحرية الجنوية فى بحر إيجة بعد مغادرة خليج البندقية حـــيث قال: ((أقبلت علينا سفينة صغيرة على متنها رهط من الرجال المسلحين تسليحاً جيداً من الجنويين، وهذه الأخبار بعثت القلق فى نفس الربان ... نظراً لعدم وجود رياح تحرك سفينتنا ... وعلـــيه قرر الربان التوجه صوب بلدة صغيرة تدعى قلعة القديس يوحنا Castle of the Saint

---

(١) Newman, E., Louis, Past Imperatives, studies in the history and theory of Jewish Ethics, State university, New York, 1998, p.101.

(٢) جورجى كنعان: تاريخ يهوه، الدار العربية للعلوم، بيروت ١٩٩٤، ص١٦٨ - ١٦٩. ويلاحظ أن صاحب هذه الدراسة ينسب إلى موسى (عليه السلام) وضع التوراة وتحريرها بنفسه، وعليه فسوف يتدخل الباحث لضبط ذلك مع تقديم ما قدمه صاحب الدراسة من آراء فحسب دون التعرض للنواحى الدينية.

(٣) فؤاد حسنين مزنر: أطماع اليهود، ص١١٨، ١٧٢.

(٤) Johnson, Poul, A History of the jews , p.267.

Giovani خاضعة لسيادة رودس[١] وهى واقعة على جبال الأتراك، وتعد المكان الوحيد فى تركيا الذى بقى تحت يد المسيحيين، حقًا إنها بلدة صغيرة إلا أنها فى غاية من التحصين والمناعة، علمًا بأن كـــل الأراضى التى على أطرافها من ممتلكات الأتراك[٢])). وتدلل الشواهد التاريخية على أنه فى أوائل القرن الخامس عشر كانت لجنوة مراكز تجارية على شواطئ البحر الأسود تهتم بنقل العديد من السلع فضلاً عن العبيد الروس، وخدمة لهذه التجارة حرص الجنويون على السيطرة على جزر إيجة[٣]، إلا أن العثمانيين بعد نجاحهم فى الاستيلاء على القسطنطينية ١٤٥٣م/ ٨٥٧هـ؛ اتجهوا إلى التوسع والعالمية، فاحتكروا التجارة فى شرقى المتوسط، حيث ضموا الممتلكات الجنوية هناك فى الفتـــرة مـــن ١٤٥٦ - ١٤٦٢م/ ٨٦٠ - ٨٦٦هـ، ومنذئذٍ تحول الأسطول الجنوى للعمل كقراصنة بحار فى تلك الجهة[٤].

ومالـــبث أن تطرق عوبديا إلى شذرات من تاريخ رودس السياسى فى أواخر العصور الوسطى منقباً عن دور لليهود فيه حيث ذكر: ((ابتهج أهالى رودس بوصولنا، ورحبوا بنا ترحيباً شديدًا إذ كان ربان سفينتنا تربطه صلة قرابة بحاكم الجزيرة، كما كان صديقاً له[٥])). وفى موضعين آخرين يشـــير إلى حكام الجزيرة بأنهم: ((النبلاء المتسيدين لهذه الأرض)) كما يضيف القول بأن: ((معظم أهلها من اليونانيين، وهم خاضعون لسلطة النبلاء أكومودورس Acomodors[٦])). وهو فى ذلك يقصد مقدمى طائفة فرسان الإسبتارية Hospitaliers الذين قرروا الاستيلاء على الجزيرة بعد أن زال مجدهم فى الأرض المقدسة، وتم طرد بقايا الصليبيين منها فى عام ١٢٩١م / ٦٩٠هـ. وكانت رودس حينـــئذٍ فى حوزة الدولة البيزنطية، حيث اختلت الأوضاع بها، فهاجموها فى عام ١٣٠٩م/

---

(١) عبارة عن جزيرة مساحتها ١٤٠٤ كم مربع، هى أشهر جزائر بحر إيجة أو بحر الأرخبيل المنحصر بين آسيا الصغرى والبلقان. تقع فى الشرق منه مستطيلة الشكل، تخترقها طولاً سلسلة جبال متعرجة متشعبة أعلاها جبل تايروس، معتدلة الجو صيفاً وشتاءً، غنية بمواردها الطبيعية. لمعرفة المزيد عنها راجع: حبيب غزالة: جزيرة رودس، ص٩.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.216.

(٣) بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٤٤٠ - ٤٤١.

(٤) كولز، بول: العثمانيون فى أوروبا، ترجمة عبدالرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.، ص٣٥، ٥٢، ٢١١.

(٥) Obadiah, Op.Cit., p.216.

(٦) Ibid, p.218.

٧٠٨هـــــ.، وحمل حاكمها منذئذ لقب الرئيس الأعظم للطائفة التى اتخذت من الجزيرة مقراً لها، وكان أولهم فولك دى فيلاريه Foulques de villaret (١٣١٠ – ١٣١٩م./ ٧٠٨ – ٧١٩ هــ.) ولما استقام الأمر للإسبتارية فيها قاموا بتحصينها؛ فشادوا الأسوار والقلاع وغيرها من المبانى العظيمة. وقد توالى الحكام من مقدمى طائفة الإسبتارية على رودس حتى بلغ عددهم على التوالى تسعة عشر فارسًا. ويكشف خطاب طالب يهودى عن أن هؤلاء الحكام ينسلون من أصل فرنسى[١]. إلا أنهم اكتسبوا سمعة سيئة فى شرقى المتوسط إذ ((أن رودس غدت مكان تلاقى القراصنة، لأنهم يعطون الحاكم جزءًا من غنائمهم مقابل أن يمروا دون مقاومة)) وأكد الطالب على ((أن رودس مدينة محصنة للغاية، ومعظم منازلها مصنوعة من الأحجار الضخمة)) وحينما مر هذا الطالب فى عام ١٤٩٥م./ ٩٠٠هــــ. بميناء المدينة رفض الهبوط إليه خشية خطر هؤلاء القراصنة[٢].

كذلك يمكن الكشف عن مدى تأثر اليهود فى جزيرة رودس بالسياسة التوسعية للدولة العثمانية فى جزر بحر إيجة استنادًا إلى ما رواه يهود الجزيرة إلى عوبديا، وأورده فى خطابه الأول من أن ((جميع منازل اليهود تقريبًا فى رودس كانت قد تعرضت للتدمير التام أثناء أعمال الحصار على يد الأتراك خلال فترة حكم أول أباطرتهم[٣] الذى أقدم على هذا التخريب فى العام الذى مات فيه، وأن الذى لم يرَ رودس بأسوارها الشاهقة المنيعة وبواباتها وتحصيناتها كأنما لم يرَ تحصينات من قبل قط ، لقد أرسل هذا السلطان التركى جيشاً إلى رودس لمحاصرتها فى العام الذى توفى فيه حيث قاموا بقذف البلدة بوابل من الحجارة التى لا تزال شاخصة للعيان هناك، وعلى هذا النحو أطاحوا بالأسوار المحيطة بأحيائهم، و دمروا منازلهم ...... وحينما دخل الأتراك البلدة قتلوا كل من فى طريقهم حتى وصلوا إلى بوابة معبد اليهود، وهناك أنزل الرب عليهم سخطه، فارتبكوا، وتفرقوا

---

(١) قضى الأتراك العثمانيون على حكم طائفة الإسبتارية فى رودس التى امتدت مدة حكمهم فيها إلى مائتين واثنى عشرة سنة بفتحها عام ١٥٢٢م./ ٩٢٨هــ. على يد السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ – ١٥٦٦م./ ٩٢٦ – ٩٧٣هــ.). راجع: يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ٢جــ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، إستانبول، جــ١، ١٩٨٨، ص٢٦٢ – ٢٦٥؛ وهناك قائمة بأسماء حكام الطائفة وسنى حكمهم يمكن مراجعتها فى: حبيب غزالة: جزيرة رودس، ص٢٤ – ٢٩.

(٢) A student's letter, p.76.

(٣) نظراً لأن من كان يحكم الأتراك فى هذه الفترة يحمل لقب السلطان، فسوف يلتزم الباحث بالإشارة إليه بالسلطان على مدار البحث، وكان الناشر أدلر قد أشار إليه على سبيل الخطأ بأنه السلطان سليمان الثانى القانونى فى حاشيته رقم ٤ بالنص.

فيما بينهم، وأخذوا فى الهروب يقتل بعضهم بعضاً[١])) وما من شك فى أن بطل هذه الأحداث هو السلطان محمد الثانى الفاتح الذى اعتبره عوبديا أول أباطرقم (١٤٥١ - ١٤٨١م./ ٨٥٥ - ٨٨٦هـ.) بصفته أبرز من أوسع حدود الإمبراطورية العثمانية بفتحه القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ م./ ٨٥٧هـ.، وعلى اعتبار أيضًا أنه هو الذى حاصر رودس فى العام التالى ١٤٥٤م./ ٨٥٨ هـ بقصد فتحها ولم يفز بمراده، ثم عاود الكرَّة فى عام ١٤٨٠م./ ٨٨٥هـ. حينما سيَّر السلطان إليها أسطولاً عظيمًا من مائة وستين بارجة ومائة ألف جندى، ولكنه أخفق أيضاً، وما لبث أن توفى فى العام التالى له مباشرة[٢].

كان السبب المباشر لشن هذه الغارة الكبرى هو رغبة السلطان محمد الفاتح فى خلع حاكم رودس، وكان آنذاك المقدم بييردى بوسون Pierre de Busson الذى يأتى ترتيبه الخامس عشر بين المقدمين (١٤٧٦ - ١٥٠٥م./ ٨٨١ - ٩١٠هـ.)، وقد شمل الهجوم الجزء الجنوبى من الجزيرة، والذى يعد أضعف المناطق تحصينًا، وفيه كانت سكنى اليهود الذين أبدوا شجاعةً جنبًا إلى جنب مع المقاتلين الآخرين فى الدفاع عن المدينة. وكانت المعارك قد بلغت معبد اليهود قبل انسحاب القوات التركية، أما منازلهم فقد لحق بها التدمير أثناء إعادة ترميم الأسوار[٣]. وعلى كل استمرت المعارك ثلاثة أشهر، وتمخضت عن قتل عدد كبير من الفريقين، وبلغ عدد من قتل من الجيش العثمانى فى هذه الحرب نحو تسعة آلاف جندى فضلاً عن جرح حوالى خمسة عشر ألفا خلاف السفن التى دمرت والأموال التى أنفقت[٤]. وما تزال الكرات الحجرية الضخمة التى كانت المدافع العثمانية تدك بها الحصون والقلاع ماثلة[٥] تشهد على صدق ما رواه عوبديا بشأن رؤيته للأحجار التى استخدمت فى قذف رودس.

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.216- 217.

(٢) ابن إياس (ت ٩٣٠هـ./ ١٥٢٤م.) محمد بن أحمد بن إياس المصرى: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، ٦جـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤٠٢هـ./ ١٩٨٢م.، جـ ٣، ص١٨١؛ راجع أيضاً: يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، جـ١، ص١٥٦ - ١٧٠؛ بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٤٤١.

(٣) حبيب غزال : جزيرة رودس، ص٢٠.

Marmorstein, Rabbi Avrohom, (ed.) the travel letters of Rabbi Ovadiah, p.25, No.17.

(٤) حبيب غزالة: المرجع السابف، ص٢٠.

(٥) بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٤٤١.

ويقدم الخطاب الأول أيضًا مادة يستقى منها جانبًا من علاقة طائفة الإسبتارية فى رودس بدولة السـلاطين المماليك فى مصر والشام على عهد السلطان الأشرف قايتباى (١٤٦٨ - ١٤٩٦م./ ٨٧٢ - ٩٠١هـ.)[١]، إذ يسجل عوبديا: ((إن حاكم رودس لم يسمح للسفينة التى كنتُ أقلها بالإبحـار إلى الإسـكندرية خشية أنه سوف يكون فى مقدور سلطان[٢] مصر التحفظ عليها؛ فبقينا بالجزيرة [حوالى من الشهر] ذلك أن حاكم الجزيرة كان قد تقاضى مبلغ مائة وعشرين ألف قطعة ذهبـية مـن سـلطان مصر بعد أن وعده بأنه سيسلمه مقابل ذلك شقيق السلطان التركى جم Dschem الـذى كان مسجونًا فى فرنسا، لكن الحاكم لم يكن فى وسعه أن يوفى بالوعد خوفاً من غضـب السلطان التركى؛ ذلك هو السبب وراء مخاوف حاكم رودس من أن يضع سلطان مصر يـده علـى السـفينة، خاصةً أنها كانت محملة بكم كبير من السلع الثمينة، وكل هذا العدد من الـتجار[٣])) ورغـم أن هذه المادة جاءت على سبيل إلقاء عوبديا قدر من الضوء على الظروف

---

(١) الأشرف قايتباى أبوالنصرة الظاهرى المحمودى، قدم إلى مصر سنة ١٤٣٥م./ ٨٣٨هـ.، وأصبح من مماليك السلطان الظاهر جقمق (١٤٣٨ - ١٤٥٣م./ ٨٤٢ - ٨٥٧هـ.)، وبعد عتقه تدرج فى الوظائف حتى عُين أتابكاً، ثم اتفق المماليك على توليته السلطنة فى الفترة المذكورة أعلاه، وعرف الأشرف قايتباى بالثبات على الرأى مع العزم والتصميم على تنفيذ ما يعتقد فيه علمًا وصلاحًا، وكان حاسماً فى قراراته، وله هيبة ومتدينًا ورعًا، أحب العلم والفروسية، وقرر الاعتزال عن السلطنة أكثر من مرة، لكنه كان يرجع عن قراره أمام إلحاح الأمراء، أشرف بنفسه على كثير من الأعمال التى تنسب إليه سواء فى مجال العمارة أو الإدارة، وكان ذلك يتطلب تنقله من مكان إلى آخر داخل دولته الواسعة، ودام حكمه تسعة وعشرين عاماً تقريباً. ولمعرفة المزيد انظر: السخاوى (ت ٩٠٢هـ./ ١٤٩٧م.) شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن محمد: الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع، ١٢جـ، القاهرة، ١٣٥٣ - ١٣٥٥هـ.، جـ٣، ص٤٠ - ٤١، ص٧١ - ٧٤، جـ٥، ص٢٠١ - ٢١١، جـ١٠ ص١٣٦؛ أبواليمن العليمى (ت٩٢٨هـ./ ١٥٢٢م.) عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن مجير الدين الحنبلى: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢جـ، الطبعة الأولى، النجف، العراق، ١٣٨٦هـ. - ١٩٦٦م.، جـ٢، ص٢٨٣ - ٢٨٥. وجدير بالذكر أن أبا اليمن العليمى كان فى القاهرة عام ٨٨٠هـ./ ١٤٧٥م.، ورحل إلى القدس عام ٨٨٦هـ./ ١٤٨١م.، وآخر الأحداث التى دونها فى كتابه فى عام ٨٩٦هـ./ ١٤٩١م.، ومن هنا تأتى أهمية هذا المصدر على مدى الدراسة نظرًا لدقة معلوماته وغزارتها ومعاصرته لوقت كتابة خطابات عوبديا.

(٢) وردت فى النص ((ملك))؛ ولما كان اللقب الذى يحمله حاكم دولة المماليك فى مصر والشام آنذاك هو السلطان، فسوف يلتزم الباحث باستخدامه.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.218.

يجدر بالذكر أن العلاقات الروديسية مع مصر المملوكية قد تعثرت إلى حد الصدام الحربى؛ إذ جاء فى عام ١٤٤٤م. أسطول مملوكى كبير وحاصر الجزيرة مدة اثنين وأربعين يومًا، وكان ذلك فى عهد المقدم جان دى لاستيك Jean de Lastic (١٤٣٧ - ١٤٥٤م./ ٨٤٠ - ٨٥٨هـ.) وهو المقدم الحادى عشر بين رؤسائها=

الصعبة التى أحاطت برحلته إلى فلسطين، إلا أنها أوضحت فى الوقت ذاته جانبًا من طبيعة العلاقات العثمانية المملوكية الأوروبية. ذلك أن الأمير جم قد وصل إلى القدس فى عام (١٤٨١م./ ٨٨٦ هـــ.) بغرض الحصول على مساعدة السلطات المملوكية له، الأمر الذى أدى إلى مزيد من سوء العلاقـــات بينهم وبين العثمانيين حيث آوى السلطان قايتباى الأمير الذى أعلن الثورة على أخيه السلطان بايزيد (١٤٨١ - ١٥١١م./ ٨٨٦ - ٩١٧هـــ.) حين خلف أباه فى السلطنة، ودخل فى حـــرب معـــه، إلا أن جم هزم، فلجأ إلى رودس ومنها إلى فرنسا، وانتهى الأمر بوفاته عام ١٤٩٥م - ٩٠٠هـــ[١]. بعـــد أن أحدث شرخًا كبيرًا فى العلاقات المملوكية العثمانية وعلاقة البلدين برودس والغرب.

وهـــناك مؤشرات دللت على أن علاقات رودس بالمماليك قد أخذت تسوء، ومنها ما اهتمت المصـــادر اليهودية بتسجيله من أن ساحل غزة تعرض عام ١٤٨٠م. لهجمات عنيفة من قراصنة رودس[٢] وهـــذا التردى فى العلاقات كان من شأنه أن يحيط رحلة عوبديا بالمخاطر حيث روى ما يلى: ((غادرنا رودس، وبعد ستة أيام أصبحنا قبالة الإسكندرية. ورفض ربان السفينة إيلاج الميناء إلا بعـــد تقديم الأجرة المادية الواجبة، وعلى ذلك فقد بقينا فى مياه أبى قير ...... وبالإسكندرية

= من طائفة الإسبارية، فأبلى فى الدفاع عنها بلاءً حسنًا ولم يفز هذا الأسطول بطائل. انظر: محمد مصطفى زيادة: المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس زمن سلاطين المماليك فى القرن الخامس عشر الميلادى، مجلة الجيش، ١٩٤٩م. انظر أيضًا: حبيب غزالة: جزيرة رودس، ص١٩.

(١) أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـــ٢، ص٣٢٦. راجع أيضاً: يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، جـــ١، ص١٩٠ - ١٩١؛ بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٤٤٣.

(٢) Meshullam of voltera, Op.Cit., p.179.

ظل قراصنة رودس يشكلون خطراً داهماً على حركة المسافرين فى شرقى المتوسط، إذ سجل الطالب اليهودى المجهول أنه خشى الهبوط فى مينائها أثناء رحلة ذهابه إلى فلسطين عام ١٤٩٥م./ ٩٠٠هـــ. انظر:

A student's letter, p.76

هذا وقد تعهد القبارصة والكتلان وفرسان الإسبتارية بالقيام بأعمال القرصنة فى البحر المتوسط والإغارة على ســـواحل مصـــر والشام، وعلى الرغم من نجاح السلطان الأشرف برسباى (١٤٢٢ - ١٤٣٧م./ ٨٢٥ - ٨٤٠هـــ.) فى الاستيلاء على قبرص ومحاولات جقمق الثلاث للاستيلاء على رودس فى العقود القليلة السابقة على رحلة عوبديا، إلا أن ذلك لم يخفف من حدة غارات القراصنة فى البحر أو على الموانى المصرية والشامية. ولمعرفة المزيد عن نشاط قراصنة رودس وغيرهم على الدولة المملوكية. راجع: محمد مصطفى زيادة: المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، صفحات متفرقة؛ أحمد دراج: المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى، القاهرة ١٩٦١م.، ص٤٨، ٥٤ - ٥٦، ٧٦، ٩٠، ١٠٦.

أمير، وهو يمثل سلطان مصر فيها حيث اتخذ منها مقرًا له. أرسل إلى الربان مؤكداً أن السفينة وكل مـا عليها فى إمكانهم الدخول إليها فى أمان، إلا أن الأخير لم يضع ثقته بهذا الوعد، فأرسل بنفسه سفراء إلى السلطان ...... ولم يسمح الأمير للسفينة بالتحرك نظرًا لأن الربان رفض أن يضع الثقة فيه)) وبالفعل تقرر ألا تدخل السفينة الميناء إلا بعد أن عاد السفراء بموافقة السلطان(١). ويلاحظ أن ربان السفينة قد حرص على أن تقبل السلطات المملوكية المُكس المقرر على السفن دفعه أولاً على اعتبار أن قبوله يعتبر صك أمان للسفينة دون الاستيلاء عليها، وهذا يعكس بالطبع مدى ما آلـت إلـيه العلاقات بين رودس والمماليك من توتر، ويلاحظ أيضًا وقوف عوبديا على الألقاب السائدة عند المماليك إذ عرف والى الإسكندرية بلقبه ((أمير)).

كـذلك أدرك المستوطن اليهودى أن سيادة السلطان المملوكى الأشرف قايتباى شملت الشام فضـلاً عـن مصر والبرارى الواقعة إلى الشرق منها، وعبر عن ذلك قائلاً: ((كل هذه الأراضى خاضـعة للسـيادة المصرية، وهى تمتد لتشمل مجمل فلسطين التى هى موطن الشعب الفلسطينى بالإضـافة إلى سـوريا، ومن بين جميع المدن الواقعة تحت هذه السيادة لا نجد سوى الإسكندرية وحلـب وقـد أحاطتهما الأسوار(٢))). وعادة نجد اليهود على مر تاريخهم يهتمون بإحاطة مدنهم بالأسـوار تأسـيًا بالكنعانيين الذين سبقوهم فى هذا المضمار حمايةً لها من غائلة أعدائهم، وكانت القدس والسامرة (نابلس) من أشد المدن تحصينًا(٣)، ومن هذا المنطلق يبدو أن عوبديا تشبه بأجداده فى إبداء هذا الاهتمام بالتحصينات، ففضلا عن إشارته لأسوار الإسكندرية وحلب نجده قد أشار أيضًا إلى تحصينات مدن أخرى مثل ميسينا ورودس والقاهرة.

من ناحية أخرى ورد فى الخطاب الأول ما يلقى بعض الضوء عن العلاقات السياسية بين دول المـنطقة مـع ربيع عام ١٤٨٧م./ ٨٩٢هـ. فيما نصه: ((وكان قد وقعت اضطرابات فى هذا الوقت تقريبًا فى مصر ذلك أن السلطان أراد أن يجمع أموالاً بغرض تقديمها إلى قادة جيشه الذين كـان علـيهم الخروج للقتال ضد السلطان العثمانى فى حلب؛ إذ قام السلطان المملوكى بفرض

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.218, 219.

(٢) Ibid, p.232.

(٣) فؤاد حسنين على: المجتمع الإسرائيلى منذ تشريده حتى اليوم، ٢جـ فى مجلد، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٨م.، جـ١، ص١٦٢- ١٦٣.

ضــرائب باهظة)) وشملت جميع الطوائف يهودًا ونصارى ومسلمين[١]. والثابت تاريخيًا أنه منذ أن استولى العثمانيون على القسطنطينية وضعوا نصب أعينهم السلطنة المملوكية، وتأرجحت العلاقة معها بين عداء ومؤازرة، إلا أن الطرفين تنازعا حول إمارة ألبستان التى امتدت على الفرات الأعلى بين مرعش وملطية، وهى واحدة من عدة إمارات تركمانية، نشأت فى مناطق الثغور بسبب تجمع التــركمان فــيها، وسميت هذه الإمارة (بألبستان) نسبة إلى عاصمتها، ودعيت كذلك بإمارة ذى القــدر أو القدرية، على اسم أسرة تركمانية حكمتها فيما بين (١٣٥٣ - ١٥٢٢م./ ٧٥٤ - ٩٢٨هــ.) حين احتلها العثمانيون، وقد تدخل المماليك والعثمانيون فى شئون هذه الإمارة العازلة بين منطقتيهما حيث أيد كل منهما أميرًا تركمانيًا، ومارس النفوذ من خلاله، ونتج عن ذلك تأزم فى العلاقــات المملوكية العثمانية[٢]. ونجد عند المؤرخ ابن إياس ما يؤكد ما أورده عوبديا فى هذا الشأن إذ يذكر إنه فى ذلك العام حدثت أزمة بين الطرفين استوجبت من السلطان الأشرف قايتباى تجهيــز الجــيش لمواجهة العثمانيين؛ الأمر الذى دعاه إلى جمع الأموال ومصادرة الممتلكات بشق السبل[٣] وكان ما حدث من نزاع فى هذه الآونة، وهو الذى أشار إليه عوبديا ما هو إلا حلقة من حلقات التوتر فى العلاقات بين الدولتين المسلمتين.

ونقــرأ فى الخطاب الثالث ما آلت إليه الأحداث بين الدولتين العثمانية والمملوكية حيث ورد فــيه: ((والحــرب الــتى نشبت بين السلطان العثمانى [محمد الفاتح] وسلطان مصر [الأشرف قايتــباى]، قــد ران عليها النسيان، وظن الكثيرون، أنهما قد وقّعا منذ عامين اتفاقية عدم اعتداء بيــنهما، علمًا بأن السلطان الذى يعيش هناك [فى مصر] هو السلطان نفسه لم يبدل أو يمت. لقد ظل فى حكم السلطنة المصرية على مدى عشرين عامًا، وأنه قد بلغ من الكبر عتيا[٤])) وإذا كان

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.229, 230.

(٢) عبدالكريم رافق: العرب والعثمانيون (١٥١٦ - ١٩١٦م.) الطبعة الأولى دمشق ١٩٧٤م.، ص٥٩.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جــ٢، ص٢٤٩، ص٣٠٢.

وهناك من يذكر أن الأشرف قايتباى قد أنفق أكثر من سبعين ألف دينار على الحملة الموجهة ضد التركمان عام (١٤٨٣م./ ٨٨٨هــ.)، كما أنفق نحو ألف ألف دينار على الحملة الموجهة ضد العثمانيين عام (١٤٨٧م./ ٨٩٢هــ.)، انظر: عثمان على عطا: الأزمات الاقتصادية فى مصر فى العصر المملوكى وأثرها السياسى والاقتصادى والاجتماعى (٦٤٨ - ٩٢٣هــ./ ١٢٥٠ - ١٥١٧م.)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.، ص١٣٢.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.250.

عوبديا حريصًا على إقرار بقاء السلطان قايتباى فى السلطنة، فلعل فى ذلك إشارة فى المقابل إلى تغير السلطان العثمانى بتولية ابنه بايزيد وهو ما كان قد حدث بالفعل منذ حوالى تسع سنوات. والواضح أن الهدنة المعقودة كانت قد أبرمت عقب المعارك التى دارت بين الطرفين فى عام ١٤٨٧م. - ٨٩٣هـ.[١]

وما زالت الخطابات تمدنا بالمزيد من المادة السياسية التى تساعد على معرفة تاريخ جماعات اليهود فى الشرق خاصةً بعد أن انتقل عوبديا إليه، وأصبح قريباً من الأحداث التى يعج بها، فنجده وقد حرص على إخبار ذويه فى إيطاليا ببعض المعلومات عن بلاد اليمن على أنه لم يزرها محدداً مصادره التى أمدته بهذه المعلومات، إذ يقول: ((ثمة شيخ رابى يهودى من الأشكيناز Ashkanizm [٢]، الذى ولد وتعلم هنا [بالقدس]، أن أخبرنى بأنه يذكر وهو فى مرحلة الشباب أن بعض اليهود قدموا من عدن، وأخذوا فى رواية كل شئ له عما فعلوه تفصيلياً، كذلك فإن يهود عدن يقولون بأن مواطن بنى إسرائيل تقع عند التخوم الخاصة بأراضى بلادهم، وهم أولئك الذين كتبت عنهم فى خطابى الأول، والذين هم حالياً فى حرب مع شعب القديس يوحنا Prester John [٣])) وهكذا شملت خطابات عوبديا حديثًا عن بلاد اليمن وعن وجود طائفة من اليهود بها،

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٣، ص٢٤٢، انظر أيضًا: حياة ناصر حجى: بعض ملامح الأحوال الداخلية فى عهد السلطان قايتباى (٨٧٢ - ٩٠١هـ/ ١٤٦٨ - ١٤٩٦م)، مجلة التاريخ العربى، تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة، العدد الثلاثون، ربيع ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ص١٩٥.

(٢) كلمة أشكيناز فى الأصل اسم لأحد أحفاد نوح. وكانت تستخدم قديمًا للإشارة للشعب والبلد الموجودين على حدود أرمينيا فى أعالى الفرات، ولكنها أصبحت فى العصور الوسطى تشير إلى يهود الأراضى الأوروبية التى يسكنها الجنس الجرمانى، ثم أصبحت تشير إلى يهود ألمانيا. ولكن لم يستقر الأشكيناز فى ألمانيا وحسب، فبعضهم استوطن فى شمال فرنسا وشرقها والنمسا وروسيا، كما هاجر بعضهم إلى شرق أوروبا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين التاسع والعاشر الهجريين، ومعظم اليهود الأشكيناز لا يتحدثون العبرية، وإنما يتحدثون اللغة اليديشية، وهى لغى ألمانيا فى العصور الوسطى مختلطة بالسلافية، وتكتب بالحروف العبرية. انظر: عبدالوهاب المسيرى: الأقليات اليهودية بين التجارة والأدعاء القومى، ص٩٢. انظر أيضاً: عرفة عبده على: ملف اليهود، ص ٢٢١.

Ben-Sasson, H. H., A History of the Jewish people, pp.501 – 508, 512- 515.

(٣) الكاهن يوحنا شاع فى أوربا حول عام ١١٥٠م - ٥٤٥هـ وإبان الحروب الصليبية ذاع خبر كان بمثابة البشرى بظهور زعيم عظيم يدعى الكاهن يوحنا سيكون حليفاً للصليبيين فى مواجهة المسلمين واستعادة جميع الأرض المسيحية معتمدين على ثروته، وما لديه من قوة، وبرغم عدم وجود سند حقيقى للخبر إلا أن البابوية اهتمت بالأمر، وأرسلت من قبلها من يلتقى بهذا الكاهن الأسطورى فى الحبشة عام ١١٧٧م./ ٥٧٣هـ. ولم تحقق هذه الرحلة نتائج محسوسة، وقد ظلت الأسطورة تتردد بل وتتفاقم بين الأجيال المسيحية التالية وصولاً إلى أواخر=

أمــا مصــدر عوبديا التالى فتمثل فى التجار القادمين من هناك حيث نقل عنهم: ((ويقول هؤلاء الــيهود الــذين جاءوا من عدن إنه يوجد فى بلادهم مجتمعات يهودية عريضة، وملك هذه البلاد عربى وهو شديد اللطف مع الآخرين[١]))

وبــذلك أصبح من الثابت من خلال الإشارات المتكررة فى الخطابات أن هناك هجرات قام بها اليهود من اليمن إلى القدس فضلاً عن تلك التى قام بها الأشكيناز، وكانت آخرها إشارة المستوطن إلى أسرى اليهود الذين كانوا قد وقعوا فى الأسر أثناء المعارك فى أثيوبيا، وكانوا يباعون فى القاهرة حيث قابلهم هناك[٢]. وفى الواقع أنه على الرغم من تعدد مصادر عوبديا على هذا النحو، إلا أنه لم يخــض كــثيرًا فى واقع اليهود المعاصر فى اليمن، فمن الثابت أنه فى بداية القرن الثالث الميلادى وجــدت جماعــات يهــودية بين سكان اليمن، بحيث بلغ عددهم قبيل الإسلام نحو ثلاثة آلاف نســمة[٣]، ولم يُعــرف الكثير عن أوضاع يهود اليمن خلال الفترة الإسلامية الأولى، بيد أنه من الضرورى أن نذكر أنه بعد قليل من تأسيس الدولة المملوكية ١٢٥٠م./ ٦٤٨هــ. فرضت هذه الدولــة ســلطتها علــى بلاد اليمن والحجاز إلا أن تصريف شئونها تُرك بيد بنى رسول، واكتفى المماليك بالتدخل لفض المنازعات التى أحياناً ما كانت تنشب بين رجالاتها، وفى أواخر حكم هذه الدولة ظهر تنافس تجارى بينها وبين التجار المصريين فى البحر الأحمر. وقد بعث بنو رسول البعثات إلى الهند وسيلان والصين، وطوروا ميناء عدن حتى أصبح من أكبر مراكز التجارة مع الشرق، وفى النصــف الثانى من القرن الخامس عشر اقتصرت سلطة بنى رسول على الحجاز بينما انحسرت عن زبــيد وعــدن، فخلفهم فيها بنو طاهر عام ١٤٥٤م./ ٨٥٨هــ.[٤] وكان اهتمام هذه الدولة بالــتجارة عظــيمًا، إذ عملوا على زيارة النشاط التجارى فى عدن لارتباط ذلك بتدعيم دولتهم

=العصور الوسطى، وعنها انظر على سبيل المثال: ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ٣جــ، ترجمة: السيد الباز العرينى، الطبعة الأولى دار الثقافة بيروت ١٩٦٨م.، جــ٢، ص٦٨١، ٦٨٢.

(١) Obadiah, Op.Cit., p.246.

كــان ملك اليمن آنذاك هو الــسلطان المنصور عبدالوهاب بن داود الطاهرى الذى توفى فى ٨٩٤هــ./ ١٤٨٩م. فتولى من بعده الظاهر صلاح الدين عامر ولمعرفة المزيد عن عصرهما. راجع محمد عبدالعال أحمد: بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية فى عهدهما (٦٢٨ – ٩٢٣هــ./ ١٢٣١ – ١٥١٧م.) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠م.، ص٢٦٨ – ٢٨٢.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.247.

(٣) كاميليا أبوجبل: يهود اليمن، ص١٦ – ١٩.

(٤) عبدالكريم رافق، العرب والعثمانيون، ص١٦- ١٧.

الناشئة، فشجعوا السفن على الرسو فى ميناء عدن طمعًا فى المزيد من العوائد، وما لبث أن نشطت تجارتهم مع كل من الحجاز ومصر[١]، ويبدو أن حركة السفن النشيطة فى البحر الأحمر قد أنعشت الحياة الاقتصادية بشكل عام فى المنطقة مما انعكس ايجابياً على جماعة اليهود[٢] فبدا الملك الظاهرى لطيفاً فى نظر عوبديا فى تعامله معهم.

وثمــة مزاعم بأن لليهود كيانًا فى أراضى أثيوبيا امتدادًا لكيانهم فى بلاد اليمن يرجع إلى الفترة الممتدة من القرن العاشر قبل الميلاد حتى القرن الثانى الميلادى من سبط دان Dan؛ وهم نسل أحد الأسباط العشرة[٣] المفقودة، وهو الأمر الذى لم يتأكد تاريخيًا، فى حين تأسست دولة مسيحية قوية فى الــبلاد خــلال القرنين السادس والسابع الميلاديين عرفت بمملكة أكسيومُ Aksiom، ولكن تاريخهــا اتصف بالغموض وصولاً إلى القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى، حيث ظهرت ثــلاث ممالك: إحداها مسلمة، والثانية نصرانية متمسكة بدينها، والثالثة يهودية من الصدوقيين. وهــم لا يقدســون الــتوراة قدسية مطلقة، وينكرون التلمود[٤]، وقد تبلورت تقاليدهم الدينية والاجتماعــية المميــزة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين/ الثامن والتاسع الهجريين

---

[١] محمد عبدالعال أحمد: المرجع السابق، ص٤٦٥.

[٢] يتجه بعض الباحثين إلى اعتقاد أن اليهود نشطوا فى مجال التجارة بين البحر المتوسط والهند عن طريق عدن فى نقل التوابل والعطور والحرير بحيث وصفت حالتهم الاقتصادية حتى فترة الحكم المملوكى بالجيدة، انظر: كاميليا أبوجبل: يهود اليمن، ص١٦ – ١٩.

[٣] بلغت قبيلة دان مكانة عزيزة فى المجتمع الإسرائيلى القديم، فحملت مسمى قبيلة "شبط"، ثم فقدت مكانتها، فأصبحت بطناً أو كما تسمى فى العبرية ((مشباحاه)) . انظر: فؤاد حسنين على: المجتمع الإسرائيلى، جـ ١، ص١١٦.

[٤] الصدوقيون: فرقة رئيسية من فرق اليهود، ظهرت فى العصر البطلمى، دعت إلى أن تقوم الدولة اليهودية فى ذلك الوقت على التوراة مع مجاراة الواقع والظروف المحيطة، وعندما تدعو الظروف يُباح الاندماج بالأغيار. وهم لا يؤمنون ببعث ولا حساب. وقد قويت شوكتهم فى عصر السيد المسيح، ولكنهم ما لبثوا أن اضمحلوا، انظر: عبدالجليل شلبى: اليهود واليهودية، الطبعة الثانية، أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٧، ص١٢٣، ١٢٤؛ كامل سعفان: اليهود تاريخ وعقيدة، دار الاعتصام، القاهرة ١٩٨٨م.، ص٢٠٦، ٢٠٧، أما التلمود فهناك تلمودان؛ أحدهما فلسطينى والآخر بابلى. وكلمة تلمود دون تحديد تشير إلى التلمود البابلى الذى يعتبر أكثر النصوص قداسة لدى اليهود والأرثوذكس. انظر: شاحاك، إسرائيل ومتسفينسكى، نورتون: الأصولية اليهودية فى إسرائيل، ترجمة: ناصر عفيفى، الكتاب الذهبى، روزاليوسف، القاهرة، ٢٠٠١، ص٢١.

نتيجة لامتزاج عناصر دينية وسياسية أدت إلى تكوين جماعات متعددة أطلق عليهم إيهود أو يهود، الذين عرفوا فيما بعد باسم الفلاشا[١].

وكـان عـوبديا قد روى أهم الأحداث التاريخية ذات الصلة بالحرب التى شنها ملوك أثيوبيا المسيحيون ضد اليهود فى البلاد، حيث ذكر: ((إن بنى إسرائيل لديهم خمسة أمراء أو ملوك تمكنوا من الاستحواذ على مدى قرن كامل أو يزيد على تلك البلاد بعد حروب طاحنة مع اتباع الكاهن يوحنا Johannites ، ولكن للأسف فقد انتصر اتباع الكاهن يوحنا وانهزم إفرايم Ephraim[٢]، وأخـذ اتـباع الكـاهن يوحنا فى النفاذ إلى بلادهم وعصفوا بها. وتم القضاء تقريباً على ذكرى إسـرائيل فى تلك الربوع، ذلك أن هناك مرسوماً استصدر ضد من بقى منهم يحظر عليهم ممارسة واجباتهم الدينية ... غير أن الرب ذو رحمة. فإن ملوكًا آخرين فى الهند آل إليهم حكمها بالوارثة، ولم تكـن قلـوبهم قاسية كأسلافهم؛ إذ غدا يقال إن مجد اليهود الغابر فى طريقه الآن إلى صحوة عظمـى؛ كما أخذت أعدادهم فى التزايد مرة أخرى من جديد، ومع ذلك فقد استمروا فى دفع الجزية إلى أتباع الكاهن يوحنا إلا أنهم لم يخضعوا لهم بشكل كامل، وقد قيل إنهم دخلوا فى حرب مـنذ أربـع سنوات مع جيرانهم[٣])) والرواية اليهودية تمدنا بالخلفية التاريخية لهذه الأحداث فهى تذكر أن عام ٩٦٠م./ ٣٤٧هـ. قد شهد بدء سلسلة ثورات يهود الفلاشا مع أسباط وعشائر الآجاو ضد ملوك أكسيوم من أسرة منليك المسيحية، ونجحت الثورة فى إقصاء المسيحية عن البلاد لمـدة تزيد عن ثلاثة قرون. إلا أن أسرة منليك المسيحية عادت مرة أخرى وبقوة لحكم البلاد فى

---

(١) محمد جلاء إدريس: يهود الفلاشا، ص١٦، ٢٢، ٣٤. وتخلص هذه الدراسة المتخصصة إلى أن كلمة فلاشا أو فلسين معناها الغرباء أو المهاجرون، وتعنى فى لغتهم "الجعزية": عبر أو هاجر. وفى العبرية تعنى: غزا، اقتحم،وفى السريانية تعنى: نهب، سلب. وربما أخذت عن العربية من مادة فلس، والذى يتعامل به فلاس= =كناية على اشتهار اليهود بدورهم فى مجال الصرافة. فهذه الأمور جميعها تتفق وطبيعة هذا الشعب. انظر: نفسه، ص٨٧، ٨٩.

(٢) المقصود سبط إفرايم شقيق منسى، ابنا يوسف عليه السلام الذى أنجبهما فى مصر، فاعتبرهما يعقوب عليه السلام ولديه، وأصبح لكل منهما قبيلة على اسمه معدودة من قبائل اليهود. انظر: ذكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٤١٦ - ٤١٧.

(٣) Obadiah, Op.Cit., pp.238, 239.

عـــام ١٢٧٠م./ ٦٦٨هـــ. باســم الأســرة السليمانية بعد أن تغلغلوا بين اليهود وأثروا فى عقيدهم[١]، ودخلوا فى حروب شرسة ضدهم شملت القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادين/ الثامن والتاسع الهجرين[٢]. والملاحظ أن نظرة عوبديا إلى مسيحيى الحبشة على أهم اتباع الكاهن يوحــنا تطابق المعتقد المسيحى المعاصر[٣]، وهذا التطابق يتأكد عنده حتى اعتبر أن بلاد الهند أيضًا موطــنًا لهؤلاء، بيد أن المستوطن أدرك اختلاف موقف ميسحيى الحبشة حيال اليهود على موقف القوى المغولية الإسلامية فى الشرق الأسيوى الذى وصفهم بأن قلوبهم لم تكن قاسية.

وما لبث أن تحدث عوبديا عما جد فى شأن يهود الفلاشا سياسيًا فى خطابه الثانى إلى أخيه حيث يذكر: ((وقد حكى المسيحيون القادمون من الأراضى الخاضعة لملوك اليوحانيين، والذين هم فى حرب مع شعب القديس يوحنا، أنه قد ألمت بهم هزائم مريرة، ونحن فى غاية الشغف للتحقق مما إذا كانت هذه الأحداث قد وقعت بالفعل، وهذا الأمر لا يعلمه إلا الله وحده، وعسى الرب أن يحمى على الدوام شعبه وعبيده[٤])). وتتضح هذه المعلومات إذا ما علمنا أن يهود الفلاشا واصلوا العادة التى جُبِلَ عليها اليهود المتمثلة فى الثورة ضد حكام البلاد التى يقيمون فيها، خاصةً وأن حكام أثيوبيا المسيحيين من الأسرة السليمانية قد تشبعوا بكثير من الأفكار الصليبية التى حملها الأوروبيون معهم فى غزوهم للشرق الأدنى ولذا نكّل بهم قياصرة هذه الأسرة ومنهم القيصر عمدا صهيون (١٣١٤ – ١٣٤٤م./ ٧١٤ – ٧٤٥هـــ.) والنجاشى داود الأول (١٣٨٢ – ١٤١١م./ ٧٨٤ – ٨١٤هـــ.)، كما واصل ابنه القيصر إسحاق (١٤١٤ – ١٤٢٩م./ ٨١٧ – ٨٣٢هـــ.) حروبه ضد الفلاشا ودمر معابدهم وأقام الكنائس مقامها، واستمر القيصر زرع يعقوب (١٤٣٤ – ١٤٦٨م./ ٨٣٧ – ٨٧٢هـــ.) فى أداء المهمة ذاتها، كما استمر ابنه بادامريام (١٤٦٨ – ١٤٧٨م./ ٨٧٢ – ٨٨٣هـــ.) فى السياسة العدائية تجاه الفلاشا، وشن عليهم حربًا لمدة سبعة أعوام حتى استسلم الفلاشا له، وتم تجميعهم فى مكان واحد ودكهم دكًا؛ وكان نتيجة هذه

---

(١) قشانى، رئوبين: الفلاشا: التاريخ والعادات والتقاليد، بالعبرية، القدس، د.ت، ص١٣. نقلاً عن محمد جلاء إدريس: يهود الفلاشا، ص٧٧ – ٧٨.

(٢) صلاح عبداللطيف: الفلاشا، الخيانة والمحاكمة، الطبعة الأولى، مكتبة المدبولى، القاهرة، ١٩٨٦، ص٢٢.

(٣) Joos Van Ghistele, Le Voyoge en Rgypte, pp.208 – 209.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.247.

السياسة أن تظاهر العديد من اليهود باعتناق النصرانية[١]. والواضح أن عوبديا قد وقف على تفاصيل تلك الأخبار من مصادره المختلفة سواء المسيحيين القادمين من أثيوبيا بغرض الحج إلى القدس، أم من اليهود الذين وقعوا أسرى فى الحروب، وبيعوا عبيداً فى أسواق النخاسة بالقاهرة.

هذه النكبات التى تعرض لها يهود أثيوبيا مدعاة لاجترار عوبديا ذكرى الأحداث المؤلمة القديمة التى تعرض لها بنو ملته، وذلك فيما يخص المرسوم الذى استصدره الملك السلوقى أنطيوخس الرابع Antiochus IV وربط بين الموقفين العدائيين ضدهم فيذكر: ((وشأن هذا الأمر شأن المرسوم الذى أصدره أنطيوخس فى الماضى فى عصر الحشمونيين Hasmoneans [٢])) (١٦٦ - ٣٨ ق.م). وقد حدث أثناء فترة السيادة الإغريقية على الشام (٣٣٢ - ٦٣ ق.م.) أن أراد الملك أنطيوخس الرابع السلوقى أن تكون المعتقدات اليونانية هى ديانة كل الممالك الخاضعة لليونان بما فيها المناطق التى يعيش فيها اليهود، فأسرع أغلبهم، وأقاموا مذابح للآلهة اليونانية فى بلادهم، بل وفى هيكل سليمان ذاته، وأحرقوا ما لديهم من أسفار التوراة، ونبذوا كل أحكام الشريعة، إلا أن طائفة منهم عرفت بالحشمونيين أو الميكابيين تمردت، وأعلنت الثورة، ونجح زعيمهم يهوذا الميكابى فى الاستيلاء على أورشليم ورمم الهيكل، وأعاد بناء المذبح، وأخضع عديدًا من بلاد الفلسطينيين لسلطانه فى الفترة الممتدة من عام (١٦٧ - ١٦١ ق.م.). واستقر الأمر بأن تولى الحشمونيون حكم بلادهم فى ظل السيادة اليونانية[٣]، وبذلك أصبح الصدام حتمياً بين اليونانيين واليهود بعد أن عرفوهم على حقيقتهم[٤] وهكذا ربط عوبديا بين الأحداث التى عاشها يهود عصره فى أثيوبيا وبين ما حدث لهم قديماً على يد السلوقيين، ليؤكد مرة أخرى على ثقافته التاريخية ذات الصلة ببنى ملته.

---

(١) محمد جلاءُ إدريس: الفلاشا، ص٧٨ - ٨٠؛ صلاح عبداللطيف: الفلاشا، الخيانة والمحاكمة، ص٢٢.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.238.

(٣) ذكى شنوده: المجتمع اليهودى، ص٤٣٤ - ٤٣٦؛ ديورانت، وول: قصة الحضارة، ٨جـ، ترجمة: محمد بدران، القاهرة، ١٩٦٨م.، جـ٣، ص١٥١.

(٤) جلوب باجوت، فون: السلام فى الأرض المقدسة تحليل تاريخي لمشكلة فلسطين، ترجمة: رشاد الشامى، ونشره تحت عنوان: اليهود واليهودية فى العصور القديمة بين وهم الكيان السياسى وأبدية الشتات، الطبعة الأولى، المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات، القاهرة، ٢٠٠١م.، ص١٦٢.

المبحث الثانى

البعـــد الديـــني

تهـــدف الدراسة فى الصفحات الآتية إلى إبراز البعد الدينى، وهو يشكل أهمية قصوى بالنسبة للـــيهود بعامـــة وعـــوبديا بخاصة؛ فعلى الرغم من أن خطاباته تعد من قبيل المعاملات الشخصية الأســـرية، والمتوقع لها أن تنأى عن الأمور الدينية العميقة، ولذا فبكل المقاييس ليس لها أن تعد من المؤلفات المتخصصة فى هذا الاتجاه إلا أن الخطابات الثلاثة مفعمة بالمادة التى قد تلقى أضواء جديدة على النواحى الدينية عند محررها، وبادئ ذى بدء يلاحظ تغلب الصبغة العبرانية على كتابة عوبديا خطاباته نظرًا لحرصه على استخدام التأريخ بالسنة القمرية اليهودية(1) لوقائع رحلته خطوة بخطوة، فعلـــى سبيل المثال حدد تاريخ تأهبه للخروج من سيتا دى كاستيلو فى الأول من الشهر التاسع مـــن العام اليهودى ٥٢٤٦ وهو شهر كسليف Kislev (2). كما أرخ لمغادرته نابولى فى الشهر الرابع فى يوم الصيام وهوشهر تموز Tammuz(3) فى التقويم الدينى والشهر العاشر فى التقويم المدنى الـــيهودى(4). وعندما وصل باليرمو أرخ لفترة تواجده فيها وحدد التاريخ الذى كلف فيه بإلقاء الـــدرس فى أيام السبت للأهالى عند ظهور القمر الجديد من شهر آب ٥٢٤٧. كذلك استخدم

---

(1) العام اليهودى عامٌ قمري يضاف إليه شهر كل أربعة أعوام حتى يتفق التقويم القمرى والتقويم الشمسى. وتتحدث المشناه عن أربعة تقاويم ليبدأ بها العام: أول نيسان وهو التقويم الدينى، أول أيلول، لدفع عشور الماشية، أول تشرين وهو التقويم المدنى، وأول ومنتصف شباط لغرس الأشجار. وحينما يعدد اليهودى شهور السنة، يبدأ بشهر نيسان أول شهور التقويم المدنى. انظر: عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـــ٥، ص٢٥٦؛ فؤاد حسنين على: المجتمع الإسرائيلى حتى تشريده، جـــ١، ص٩٢ – ٩٥.

(2) هو الشهر التاسع من العام وفقاً للتقويم اليهودى، و هو يتكون من ٢٩ أو ٣٠يوماً، ويوافق نوفمبر – ديسمبر. ويبدأ عيد التدشين فى الخامس والعشرين من كسليف، حين تُشعل شموع أو شمعدان التدشين. ويستمر العيد ثمانية أيام. انظر:

Ben- Sasson, H. H., A History of Jewish people, p.281.

(3) يعادل الشهر العاشر المدنى عند اليهود، وتحدد اليوم المذكور أعلاه مناسبة للصيام إحياء لذكرى هدم جدار الهيكل الأول والثانى. انظر:

Ben- Sasson, H. H., A History of Jewish people, p.551.

(4) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـــ٥، ص٢٥٨ – ٢٥٩.

مناسبة عيد المظال عند اليهود Day of Tabernacles[١] لتأريخ وصول السفينة التى خرجت به من باليرمو إلى الإسكندرية. كما أرخ لخروجه من ميناء ميسينا بالحادى عشر من شهر Marcheshvan التاسع والعشرين من أكتوبر، وسجل فترة الشهر التى تعطلت فيه السفينة فى رودس قبل الإقلاع بها إلى الإسكندرية فيما بين: ((اليوم الثالث من شهر كسليف حتى الخامس عشر من شهر تيبث Teves)) نوفمبر – ديسمبر ١٤٨٧م./ ذو القعدة – ذو الحجة ٨٩٢هـ.، وأخيرًا حدد موسم المطر فى بلاد اليمن بما يوافق شهر آب[٢]/ يوليو – أغسطس حيث المطر الموسمى الصيفى هناك.

نلمس النزعة الدينية أيضًا عند عوبديا فى محاولته ربط بعض الظواهر الطبيعية بالإسرائيليات؛ ومن ذلك ما سجله عن تماسيح النيل الضخمة حيث قال عنها: ((لعلها تكون هى تلك الضفادع التى تعود إلى زمن [النبى] موسى))، كذلك سجل ما قيل عن أهرامات مصر بأنها ((المخازن التى بناها يوسف)) عليه السلام إلا أنها بدت له وكأنها أطلال[٣]. وعليه كان عوبديا شأنه شأن باقى اليهود خاصة المثقفين منهم، وقد شكل الدين جزءًا عضويًا من تركيبته الاجتماعية، ولذا كان من الطبيعى أن نلمس ذلك فى أسطر الخطابات الثلاثة بل وبين ثناياها.

والعبارات الدينية المستخدمة فى الخطابات الثلاثة عديدة، إلا أن لجوء عوبديا إلى تضمينها خطاباته أصبحت من سمات الكتابة عنده، ويكتفى فى هذا الموضع بذكر أحد نماذج هذه العبارات؛ فقد ورد فى الخطاب الثالث، وفيه يوجه حديثه إلى من يرسله إليه، ويتوقع أن يكون من تجار اليهود: ((أرجو من الله أن يغمرك برحمته وبطول العمر، كما أرجو أن تنال شرف رؤية المقدسات والهيكل. آمين)). وجاء فى خاتمة الخطاب ((ليس لدى اليوم يا سيدى جديد أخبرك به سوى إننى أفكر مليًا فى قبور آبائى المقدسة، وأصلى كل يوم فى اتجاه الهيكل هذا الذى بيده السلام متدفقاً

---

(١) جمع لكلمة مظلة العربية، وهو ثالث أعياد الحج عند اليهود إلى جانب عيد الفصح وعيد الأسابيع، ويبدأ فى الخامس عشر من تشرين أكتوبر، ومدته سبعة أيام بعد عيد يوم الغفران، والمناسبة التاريخية لعيد المظال هى إحياء ذكرى خيمة السعف التى آوت العبرانيين فى العراء أثناء الخروج من مصر، ولذا يحتفل اليهود به بالجلوس تحت مظلة صغيرة داخل مساكنهم حيث يتناولون الطعام. راجع:

Ben- Sasson, H. H., A History of Jewish People, p. 548.

ولمعرفة المزيد انظر: عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٥، ص٢٦٤– ٢٦٥.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.239.

(٣) Ibid, p.224.

كالنهر، وبيته العادل الذى يملأه السلام، هو الله الذى يباركنا فى كل أفعالنا وفقاً لمشيئته ووفقاً لما يتمناه عباده[١])). وبذلك جسد صاحب الخطابات الشخصية اليهودية التى تتصف بعمق التدين، فهو يؤدى الصلاة يوميًا موليًا وجهه شطر قبلة اليهود وداخل القدس حيث يفضل الصلاة فيها عن أى مكان دونه فى العالم[٢] على أن أسلوبه هذا يعد أسلوباً معتاداً عند يهود ذلك العصر فى الكتابة كما هو ثابت على سبيل المثال فى رحلة ميشولام بن مناحم، إلا أن الأسلوب التعبيرى عند عوبديا أكثر اصطباغًا بالدين، وربما تأثر به تلميذه فى نص خطاب طالب يهودى، وهو ما لاحظه الباحث.

لم تقتصر الصبغة الدينية على مجرد عبارات وردت فى الخطابات إذ أن هناك معتقدات وقرت فى قلـوب بـنى إسـرائيل على أنها أمور مسلم بها رددها عوبديا، ومنها ما سجلهُ عن البحر الأحمر وبالأحـرى خلـيج السويس فذكر: ((أنه فيما يختص بهذا البحر فهو الماء الذى انشق أمام آبائنا الأقدمين. وقد قيل إن مكان ذلك معروف، وأن كثيرًا من القساوسة يذهبون لزيارته[٣])) كذلك فحيـنما بلغ بلدة بلبيس ذكر ((يقال أن هذا المكان هو جوشن Goshen حيث نزل اليهود مصر فيه بشكل مؤقت[٤])) ومن ناحية أخرى ذكر بلدة العريش بمسمى سكوث Succoth [٥] أما غزة فقد أورد ما نصه ((رأيت بأم عينى هناك أطلال الأبنية التى هدمها شمشون Samson [٦] فوق رأس الفلسـطينيين)) وعند الإشارة لمدينة الخليل عمد عوبديا إلى ذكرها باسمها العبرانى القديم حبرون

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.250.

(٢) حسن ظاظا: الفكر الدينى الإسرائيلى - أطواره ومذاهبه، القاهرة، ١٩٧١م.، ص١٧١.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.225.

تقع عيون موسى جنوب غرب شبه جزيرة سيناء على خليج السويس.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.226

ذكر المقريزى أن بلبيس سميت فى التوراة أرض جاشان، وأضاف: ((وفيها عدة بساتين، وأهلها أصحاب يسار ونعم)). المقريزى: الخطط، جـ٢، ص١٨٩.

(٥) Obadiah, Op.Cit., p.231.

ورد الاسم العبرانى لبلدة العريش فى سفر الخروج: ١٢: ٣٧.

(٦) اسم عبرى معناه (شمس)، وكان قاضيًا لبنى إسرائيل لمدة عشرين سنة. ونظرًا لنصرته لليهود على الفلسطينيين بما منحه الله من قوة خارقة أعده اليهود نموذجًا لحب الوطن. راجع سفر القضاة: ٢١ - ٣٠: ١٦؛ انظر كذلك:بطرس عبدالملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، مادة : شمشون؛ راجع أيضاً:

Ben- Sasson, H. H., A History of the Jewish people, p.486.

Hebron رغم علمه بمسماها العربى الإسلامى. وأمعن فى التأكيد على هذا الاتجاه حيث قال: ((كنت قد بلغت مغارة ماكفيلا Machphelah أو مغارة الأنبياء Cave of the Patriarchs)) وهى كلمة عبرانية تعنى ((مزدوج)) على اعتبار أن قبور الأنبياء فيهاكانت قد اتخذت وضع الصفين. وفى موضع آخر نلحظه يؤكد على أنه ((ما تزال عديد من القرى فيما حول الخليل حاملة نفس أسمائها الواردة فى كتب الأنبياء(١))).

أ- البعد الدينى بين جماعات اليهود فى المحطات الأوروبية:

وإذ نحن بصدد دراسة الجوانب الدينية فى خطابات عوبديا نلحظ أن معبد اليهود سيناجوج Synagogue يشكل ركنًا أساسيًا فى اهتماماته، وهذا يتضح فى مراحل رحلته المختلفة ومنذ البداية، وعليه فقد حرص حين وصوله باليرمو على تفقد معبدها ليصفه فقال: ((إن معبد اليهود الكائن فى باليرمو لا يوجد له مثيل فى العالم كله؛ إذ أن الأعمدة الحجرية بالساحة الخارجية تتسلقها أفرع كرمات العنب، وهو أمر لم أرَ فى حياتى شبيهاً له. ولقد قمتُ بقياس أحد هذه الأعمدة، فوجدتُ سُمكه خمسة أشبار(٢)، ومن هذه الساحة يمكنك النزول عن طريق سلالم مصنوعة من الحجارة إلى ساحة أخرى تعد امتداداً لردهة المعبد، ولهذه الردهة ثلاثة جوانب ورواق يضم كراسى كبيرة لمن لا يريد أن يدخل إلى المعبد، كما يوجد بالردهة ينبوع مياه رائع المنظر، ويقع المدخل عند الجهة الرابعة من المعبد الذى يتخذ شكل المربع إذ أن طوله كعرضه أربعون ذراعًا(٣))). ووفقًا لتقدير المهتمين بالتأريخ لمعابد اليهود فإن بناء معبد باليرمو قد تم فى عام ١٤٦٧م./ ٨٧١هـ.(٤)، أى قبل وصف عوبديا له بعشرين عامًا. ويعد هذا النمط المعمارى أكثر الطرز تطورًا فى مجال بناء المعابد اليهودية، ويعتبر نموذجًا لأكثرها ثراءً وفنًا، وقد عرفت صقلية هذا الطراز للمعابد منذ القرن الرابع عشر الميلادى/ الثامن الهجرى بتأثير كنسى وأندلسى. وجاء تطورًا لنمط سابق حيث كان للمعبد خمس ردهات، فضلاً عن المدخل، وتُعرف الحجرة المربعة التى

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.231 – 233, 249.

المقدسى البشارى: أحسن التقاسيم، ص١٧٢– ١٧٣.

(٢) ورد ما يفيد استخدام اليهود لمقياس الشبر فى سفر الخروج ٣٧: ١٢ . وهذه واحدة من الإشارات الإضافية التى تدل على سيطرة الدين ونصوص التوراة على ثقافة عوبديا وفكره.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.211.

(٤) Meek, H. A., The Synagogue, 1 st. ed., London 1995, p.127.

تمثل قلب المعبد فى هذا الطراز باسم Squarish room [١]. والثابت أن التأثير الأندلسى (الإسلامى) جاء مع وفود جماعات اليهود الهاربة من قشتالة Castile إلى صقلية فى الموجة الأولى تحت وطأة رعب مذابح ملك قشتالة المسيحى بدايةً من النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى/ النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى، وكانت هجراتهم قد شملت بلادًا إسلامية تطل على البحر المتوسط فضلاً عن صقلية[٢]. بيد أن أبنية معبد باليرمو هذه قد اندثرت تمامًا بعد غزو الأسبان لصقلية فى عام ١٤٩٢م./ ٨٩٧هـ. وطردهم ليهود الجزيرة[٣]، وذلك الوصف التفصيلى نسبياً لأبنية المعبد من قبل عوبديا يشكل أهمية خاصة؛ حيث انفرد هو بوصفه مع تحريه الدقة فى ذلك. وهكذا نلحظ أن المستوطن اليهودى قد أبدى اهتمامه بمجرد بلوغه باليرمو للتحدث عن معبدها نظراً لقيامه بدور محورى فى حياة اليهود ليس فى تلك المدينة فحسب، وإنما فى كل مجتمع يجمعهم.

وعن مكونات معبد باليرمو الداخلية الأساسية سجل عوبديا أن: ((الجهة الشرقية تضم بناءً حجرياً يتخذ شكل القبة حيث تابوت العهد The Ark of Covenant [٤] وبداخله لفائف الشريعة[٥] وهى مزخرفة بالتيجان وبحب الرمان المصنوعة من الفضة والأحجار الكريمة تبلغ قيمتها

---

(١) Krinsky, Carol Herselle, Synagogues of Europe, Architecture History, Meaning, reprinted in New York, 1996, pp.42, 47.

(٢) فارج، فيليب، يوسف كرباج: المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى، ترجمة: بشير السباعى، الطبعة الأولى، سيناء للنشر، القاهرة، ١٩٩٤م.، ص٦٨.

(٣) Meek, H. A., Op.Cit., p.127.

(٤) يقال إنه صندوق صنعه موسى بأمر الله تعالى، طوله ذراعان ونصف،وعرضه ذراع ونصف، وارتفاعه ذراع ونصف. وكان مصنوعاً من خشب السنط ومغشى بصفائح ذهب من الداخل ومن الخارج، ويحيط برأسه إكليل من ذهب فوقه غطاء من ذهب نقى. وكان المنوط بحراسته وحمله أناس من اللاويين Levites، وكان فى التابوت الوعاء الذى يحتوى على المن، وعصا هارون، ولوحا العهد، وكان عليهما وصايا الله العشر، ثم وضع بجانبه كتاب التوراة. وعندما سكن داود عليه السلام أورشليم نقل التابوت إليها على غاية من الجلال، فبقى هناك إلى أن بُنى الهيكل. ثم وضع التابوت فى الهيكل. إلا أن التابوت لم يكن فى الهيكل الثانى. غير أنه ليس من المعلوم هل أُخذ عندما نهب البابليون أورشليم أو اختفى؟ انظر: بطرس عبدالملك وآخرون : قاموس الكتاب المقدس، مادة: تابوت العهد.

(٥) مخطوط الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، ولابد أن يقوم بكتابته كاتب خاص وفقا لقواعد محددة على قطع من الجلد المجفف تخاط الواحدة بالأخرى لتكون لفافة طويلة، يثبت طرفى اللفافة على عمودين من الخشب،=

وفقًا لتقييم الأهالى المقيمين فى باليرمو من اليهود أربعة آلاف قطعة ذهبية. وهذه اللفائف المخطوطة موضــوعة على أرفف خشبية، ولم تكن موضوعة فى صناديق كما نضعها نحن. أما حجرة تابوت العهــد فلها بابان أحدهما مفتوح إلى جهة الشمال والآخر مفتوح جهة الجنوب، ثم أضاف قائلاً: ((يــوجد خلف بابى حجرة تابوت العهد مكتب لبعض الرجال المتدينين الموثوق فى أمانتهم يتولون الإشراف عليها. وفى قلب المعبد توجد منصة خشبية تيباه The Theba يقف عليها المرتلون لتلاوة صلواتهم، وبالفعل فهناك فى هذا المجتمع خمسة مرتلين يؤدون هذا العمل فى أيام السبت Sabbath وفى الاحتفالات، ويقدمون أناشيدهم بعذوبة لم يسبق لى سماعها من أى مجموعة مرتلين آخرين(١))).

لعلــه واضح أن عوبديا أقدم على استخدام المقارنة بين ما تراه عيناه، وبين ما هو مألوف عند يهود وطنه الأصيل فلورنسا، وأهم ما يمكن الوقوف عليه من وصفه لمعبد باليرمو التعرف على ما تطــرق إليه من عناصر، وينبغى تسليط الضوء عليها بغرض التوضيح؛ فهو يشير إلى حقيقة توجه أبنــية معــبد باليرمو شطر الشرق حيث القدس، ويتفق ذلك مع جميع معابد اليهود الأخرى فى الغرب(٢). كما تطرق إلى احتواء معبد باليرمو وبالأحرى جميع معابد اليهود على ما يعرف بتابوت العهــد، وهــو فى الواقع يعتبر أقدس الأشياء فى المعبد اليهودى بعد اللفائف نفسها التى هى تمثل الخمســة أسفار الأولى من التوراة(٣)، وعلى المصلين أن يقفوا احترامًا عند فتح التابوت. ولا يفتح إلا فى المناسبات العامة، ويثبت التابوت فى الحائط الشرقى المتجه إلى القدس. وكثيرًا ما يغطى هذا الجــزء مــن المعبد بما يسمى باروخيت (ستارة)، وقد وُشيت ببعض الرموز الدينية، ويشعل أمام الــتابوت مشــعل أزلى معروف عند اليهود باسم ((مينوراه))(٤). ومن بين العناصر الأساسية التى

=وتحفظ فى تابوت الشريعة، ولا تخرج إلا للصلاة أو للمناسبات العامة، ويُحمل للخروج به إلى المصلين. انظر: غازى السعدى: الأعياد والمناسبات، ص٧٠.

(١) Obadiah, Op.Cit., p.211.

(٢) Meek, H. A., The Synagogue, p.70.

(٣) وهى: سفر التكوين وسفر الخروج وسفر اللاويين وسفر العدد وسفر التثنية.

(٤) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٥، ص٢١٩- ٢٢٠، ويضيف أن كلمة المينوراه تستخدم للإشارة للشمعدان الذى يوجد فى كثير من المعابد اليهودية بصفة خاصة، وهو يشير إلى الشمعدان الذهبى ذى الفروع السبعة الذى كان يوجد منه داخل هيكل سليمان عشرة شمعدانات ذهبية فضلاً عن شمعدانات أخرى فضية، وللشمعدان معانى رمزية عديدة؛ ومنها أنه يشير إلى قدرة الله وعدد أيام خلق الأرض. ويتخذ المتصوفون من شمعدان المينوراه رمزاً لأفكار صوفية معقدة، وتتخذ دولة إسرائيل حالياً من شمعدان المينوراه ذى الأفرع السبعة=

يضـــمها المعبد، وأشار إليها صاحب الخطابات، المنصة التى يقف عليها المرتلون لتلاوة صلواتهم؛ وتقـــع فى العادة فى وسط المعبد كما هو الحال فى معبد باليرمو، حيث يقف عليها الحَزان[١] لإدارة الصـــلاة الجماعـــية. وعادة ما ترتفع المنصة أيضًا عن مستوى أرض المعبد ببضع درجات سلم[٢] وبـــذلك اشتمل معبد باليرمو على العناصر الأساسية الواجب توفرها داخل المعبد اليهودى بصفة عامة.

إلا أن حرص صاحب الخطابات على إبراز جانب من العناصر التى يختلف فيها معبد باليرمو عن مثيله فى إيطاليا يعد إضافة مهمة؛ فبالنظر إلى أن التابوت الذى توضع فيه اللفائف يعد جزءًا عضويًا ثابـــتًا فى المعبد عند السفارد Saphards [٣] وعادة ما يكونون يهودًا شرقيين، فى حين كان جزءًا تكميلـــيًا متنقلاً عند الأشكيناز الغربيين فى شكل صندوق خشبى. وبالنظر أيضًا إلى ما يخص وضع المنصـــة؛ حيث تقع وسط المعابد السفاردية و الشرقية فى مواجهة التابوت بحيث لا يفصل بينهما شـــئ[٤] يتضح أن يهود باليرمو كانوا من طائفة السفارد لتوافق عاداتهم وطبيعة معبدهم مع هذه الطائفة. ويتأكد من العبارات أن عوبديا نفسه من طائفة الأشكيناز حيث بدا مختلفًا هو ومجتمعه عن مجتمع باليرمو السفاردى.

ومَالبث صاحب الخطابات أن ألقى بعض الضوء على الحياة الدينية ليهود باليرمو خلال الفترة الـــتى مكثها فيما بين ظهرانيهم فيقول: ((ومنذ أن حللتُ بهذه المدينة فى الثانى والعشرين من تموز

=شعاراً رسمياً لها. راجع أيضاً: غازى السعدى: الأعياد والمناسبات، ص٨٨؛ وكذلك شكل رقم (٣) فى هذه الدراسة.

(١) لفظة تُطلق على الموظف المكلف بإمامة اليهود فى الصلاة، وعليه أيضاً الإشراف على القداس، والوعظ والخطابة، ويشترط فيه الإلمام بأحكام التلمود. انظر: عرفة عبده على: ملف اليهود، ص٢٢٧.

(٢) Ben- Sasson, H. H., A History of the Jewish people, p.513.

انظر أيضاً: عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٥، ص٢١٦.

(٣) كلمة سفارد كانت تشير إلى مكان شمال فلسطين نفى إليه اليهود بعد السبى البابلى، وفى العصور الوسطى اختلف معنى الكلمة بحيث أصبحت تدل على يهود أسبانيا والبرتغال، كما انتشر السفارد فى فترات مختلفة عرقياً وفكرياً فى الأراضى المنخفضة وإنجلترا وإيطاليا وفرنسا، وبصفة خاصة فى البلقان و تركيا وشمال أفريقيا بعد سلسلة الاضطهادات التى تعرضوا لها على يد ميـسيحى أسبانيا التى وصلت ذروتها بطردهم منها عام ١٤٩٢م.، وهم يتحدثون لهجة أسبانية محرفة تعرف بلهجة اللادينو Ladino . وللمزيد راجع: جمال حمدان: اليهود أنثربولوجياً، القاهرة، ١٩٩١م، صفحات متفرقة؛ عبدالوهاب المسيرى: الأقليات اليهودية، ص٩٣.

(٤) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٥، ص٢١٩ - ٢٢١.

لعام ٥٢٤٧ [بالتقويم العبرى ويوافق ١٣ يوليو ١٣ ١٤٨٧م./ ١٣ رجب ٨٩٢هـ.] دعانى رئيس اليهود بها إلى إلقاء الدروس الخاصة بيوم السبت قبل صلاة منشا Mincha Prayer (١) وقد رحبت بذلك، وبالفعل شرعت فى هذا العمل بداية من يوم السبت عند ظهور القمر الجديد من شهر آب ٥٢٤٧ [أغسطس ١٤٨٧م./ شعبان ٨٩٢هـ.] ، وقد أبدى الناس إعجابهم بالدرس الذى ألقيته حتى أصبحتُ مضطراً إلى الاستمرار فى إلقاء درس كل يوم سبت، ولم يكن لهذا وقعه الطيب على نفسى إذ لم أجد من وراء ذلك طائلاً نظرًا لأن هدفى لم يكن باليرمو، إنما كنت عاقدًا النية على الذهاب إلى سيراكوز، وهى المدينة الواقعة فى أطراف صقلية. وفى ذلك الوقت نمى إلى علمى أن هناك سفناً تخرج من البندقية تصل إلى سيراكوز، وهى فى طريقها إلى بيروت القريبة من البيت المقدس. وقد تمكن يهود باليرمو من تجنيد بعض الناس بغرض ترويج إشاعات ليس لها أى قدر من الصحة بغرض إثنائى عن عزمى على الرحيل، وبالفعل نجحوا فيما عمدوا إليه، إذ أننى فقدتُ الوسيلة الأفضل للنفاذ إلى سيراكوز، وبقيتُ وسطهم لاستأنف إلقاء دروسى على الأهالى التى كانت تمتد ثلاث ساعات قبل صلاة منشا، وخلالها حملتُ بشدة على أولئك الواشين والخارجين عن الأعراف. وقد أخبرنى وجهاؤهم بأن كلماتى كان لها وقع عليهم، إذ تأثر بها كثيرٌ منهم، وأقلعوا بالفعل عن هذا السلوك الآثم، ولاحظتُ بنفسى تراجع عدد الواشين فيما بينهم، ولا أدرى ما إذا كانوا سيعودون إلى سيرتهم الأولى أم لا؟ لكن منذ هذه اللحظة لم يسعنى أن أتحمل البقاء بينهم رغم أنهم كانوا يعظموننى ويتعاملون معى معاملة المتدينين المسيحيين للقساوسة(٢)، وبذلك برز عوبديا حبرًا يهوديًا حتى من قبل انتقاله إلى فلسطين، مما يعكس أنه بدا وكأنه صاحب رسالة، والإشارة الأخيرة تعكس إلى أى حد سيطر رجال الدين المسيحى على عقول معتنقيه فى إيطاليا، وقد تتضمن شيئًا مما شاع آنذاك من أفكار إصلاحية ونقدٍ للكنيسة.

---

(١) عن تعريف هذه الصلاة، انظر: القسم الخاص بالعادات والتقاليد فى هذه الدراسة.

(٢) Obadiah, Op.Cit., pp.212 - 213.

ويضيف عوبديا بشئٍ من النرجسية عن نفسه: "بلغ تقدير الأهالى أنهم أخذوا يرددون أن الله قد بعثنى إليهم، وحرص كثيرٌ منهم على الظفر بشئ منى والاحتفاظ ولو بقطعة قماش على سبيل التذكرة؛ حتى أن المرأة التى تولت مهمة غسيل ملابسى الكتانية كانت تبتهج عندما تقوم بهذا العمل؛ هذا وقد حرص اليهود المتدينون على ارتداء ملابس مصنوعة من الكتان على أنها سُنة تُتبع، انظر: سفر أرميا ١٣: ١، وتؤكد القواعد المنظمة للمجتمعات اليهودية الأوروبية التى وضعت فى القرن الثالث عشر الميلادى على وجود ملابس خاصة باليهود خلال هذه الفترة، انظر: فؤاد حسنين على: المجتمع الإسرائيلى، جـ١، ص٢٨، جـ٢، ص١٧.

أمـــا بالنسبة للحياة الدينية لليهود فى مجتمعهم فى ميسينا ((فقد كان لهم فيها معبد خاص بهم، مفتوحًا من أعلى، كما كانت جهاته الأربعة مغلقة، وتقع فى وسطه عين ماء وساقية[١])). وفى هذا الصـــدد يتســاءل أحد المتخصصين فى دراسة المعابد اليهودية، هل هذا يعنى وجود نسق معمارى يهـــودى وفـــن معمـــارى يهودى خاص بهم فى البناء؟ وكان ما توصل إليه من إجابة، ليس ذلك بالضبط؛ ذلك أن اليهود أنفسهم غير مكترثين بأن يكون لهم خصوصية فى ذلك، وفسر اتخاذ المعبد الـيهودى فى صـقلية الشـكل المربع بأنه يرجع إلى ضيق ذات اليد عند جماعات اليهود وضآلة حجمهم فترة العصور الوسطى، الأمر الذى لم يمكنهم بشكلٍ عام من بناء معابد خاصة بهم تتصف بالكـــبر أو الضخامة، ولذا فقد لجأوا إلى البديل؛ فكان فى شكل حجرة داخل بيت لتؤدى غرض الاجتماع لتأدية الصلوات والشعائر، مكتفين باحتوائها على دولاب لإيداع لفائف الشريعة به[٢]، وأن يكون بها مكان لتوضع به المعاطف والقبعات، فضلاً عن حجرة تعلوها مخصصة للنساء[٣]. وأيا كان الأمر فجميع هذه المعابد لا نجد لها أثرًا حاليًا[٤].

ويـــرى الـــباحث تفسيرًا آخر لاتخاذ المعبد اليهودى هذا الشكل المربع، فقد يرجع إلى أسس دينية؛ إذ نجد حجرة قدس الأقداس فى الهيكل اليهودى – وفقًا لما ورد فى تراثهم عن هيكل سليمان – بـــلا نوافذ، كما أنه اتخذ شكل مربع، وكانت مقامة على مستوى أعلى من بقية الهيكل، وهى تحتوى على تابوت العهد[٥]، ولذا عمد المعمارى اليهودى الإيطالى إلى تصميم معبد ميسينا شبيهًا له. هذا وقد عرف هذا النمط الرباعى الشكل فى بناء المعابد اليهودية فى صقلية منذ القرن الرابع عشـــر المـــيلادى باسم تومار Tomar أى الصندوق، حيث كان المعبد يرتكز على أربعة أعمدة، واقتـــرن بالسفارد، وقد ظل هذا النمط منتشرًا فى معابد اليهود وبصفة خاصة فى رودس وتركيا فضلاً عن صقلية حتى القرن الثامن عشر الميلادى، وهو خير دليل على التأثيرات الأندلسية[٦].

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.214.

(٢) Meek, H. A., The Synagogue, pp.85, 227.

(٣) Krinsky, Carol Herselle, Synagogues of Europe, p.42.

(٤) Meek, H. A., Op.Cit., p.227.

(٥) غازى السعدى: الأعياد والمناسبات، ص٩٩.

(٦) Krinsky, Carol Herselle, Synagogues of Europe, p.47.

يوجد شكلان (رقم ١، ٢) يوضحان طراز معبد التومار أحدهما صورة للمعبد من الداخل، والآخر رسم تخطيطى له، وذلك فى آخر الدراسة.

شملت المادة الدينية فى الخطابات أيضًا جزيرة رودس التى كانت خاضعة – كما سلف ذكره – لطائفة فرسان الإسبتارية، حيث ضمت معبدًا لليهود كتب عنه عوبديا فى معرض الحديث عن مهاجمة الأتراك العثمانيين للمدينة حيث انتهت حملتهم بالفشل قباله، حيث ذكر: ((وبناءً على تلك الكرامة المعجزة التى حدثت قام الحاكم ببناء كنيسة فى موقع المعبد، وأعطى اليهود موقعًا آخر بديلاً عنه، وبينما كنت هناك فى رودس قام ذلك الحاكم بالفعل بمنحهم مائة دوكية من عوائد البلدة مخصصة لبناء معبد جديد لهم[١])). ونظرًا لأن التأثيرات اليهودية الشرقية كانت قد اجتاحت جزيرة رودس منذ القرن الرابع عشر الميلادى؛ فقد اقتضت أن يكون النمط المتبع فى بنائه من نوع المعابد ذات الردهات الثلاث. وذلك فى ضوء الاعتمادات المالية الكبيرة التى ربما تكون قد أتاحت لليهود بناء معبدهم بشكلٍ أكثر تطورًا.

ب- البعد الدينى لجماعات اليهود فى المجتمع المملوكى:

أما داخل المجتمع الإسلامى، فقد احتلت المعابد اليهودية حيزًا لا بأس به من خطابات عوبديا، إذ تناول الخطاب الأول التفصيلى الحديث عن أن بالإسكندرية ((معبدين قديمين، أولهما كبير جدًا لكنه أصابه التخريب إلى حد ما[٢])). وتشير الدراسات الحديثة المتخصصة فى التأريخ للمعبد اليهودى إلى أن هذا المعبد السكندرى كان ضخماً للغاية، حتى أن طوائف الحرفيين اليهودية المختلفة والتجار قامت بتقسيمه وخصصته للسكن، كل فئة على حدة[٣]. وفى وقت يواكب شهادة عوبديا، وربما قبله بسنوات سبع كان الرحالة اليهودى الرابى ميشولام بن مناحم قد سجل وجود معبدين لليهود، أحدهما يكبر الآخر، ويبدو أن كل من عوبديا وميشولام قد تحاورا فيما بينهما حول الإسكندرية ومعبديها، وذلك نظرًا للتشابه فيما تناولاه عنها[٤])).

---

(١) Obadiah., Op.Cit., p.217.

(٢) Obadiah., Op.Cit., p.222.

(٣) Meek, H. A., The Synagogue, p.127.

(٤) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.157.

كان عوبديا قد تعرض إلى مصاحبته للرابى ميشولام فى رحلته، حيث ذكر ((وصلت إلى ميناء باليرمو سفينة شراعية فرنسية متجهة إلى الإسكندرية، وقد كان الرابى ميشولام أف فولتيرا على متنها، وقد اصطحب معه خادمه، ومما أدخل السرور على نفسى أن أسافر فى صحبته)). ثم أشار عوبديا إلى وصولهما سوياً إلى ميسينا ومنها إلى=

وما لبث عوبديا أن انتقل إلى الحديث عن معبد اليهود الثاني بالإسكندرية إذ يذكره ((أما المعبد الثاني فهو أصغر حجمًا، وأن معظم الصلوات تقام في الأصغر منهما، إذ أنه يحمل اسم النبي [إلياس] Elijah(١)، ويقال أنه ظهر مرة لشخص في الجهة الجنوبية الشرقية من المعبد حيث وضع مشعلاً أزلي الإضاءة في المكان ذاته الذي ظهر فيه، وقد قيل لي أنه ظهر مرة أخرى منذ عشرين عامًا لرجل عجوز، والله وحده يعلم الحقيقة(٢))).وهناك من المعاصرين من نسب ذلك المعبد أيضًا للنبي إلياس(٣). والمعروف عن هذا النبي عند اليهود أنه يرمز إلى قدرته على إيقاد النار بشكل معجز(٤)ورغم أن المؤرخ المسلم المقريزي في النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي أبدى اهتمامًا بذكر عدد معابد اليهود في مصر، وقدره بأحد عشر معبدًا، ولم يشر إلى وجود أي منها بالإسكندرية، إلا إنه ذكر معبدًا دعاه جوجر قال عنه: ((أنه من أجَل كنائس اليهود، وأنهم ينسبونها إلى نبي الله إلياس عليه السلام، ويزعمون إنه وُلد بها وكان يتعهدها بالرعاية طول إقامته

=لنجو Longo، وهما في طريقهما إلى رودس،حيث تخلى ميشولام عن نيته الأولى في الذهاب إلى الإسكندرية، ووصفه عوبديا بأنه نبيل وتاجر ثري، ومن ثم يكون ميشولام قد قام برحلتين إلى الشرق، انظر:

Obadiah, Op.Cit., pp.213, 215- 216, cf. also, Marmorstein, Rabbi Avrohom, ed., the travel letters of Rabbi Ovadiah, p.21, No. 8.

(١) إلياس Elias – إيليا: نبي من أنبياء بني إسرائيل في القرن التاسع قبل الميلاد كان يؤكد على وحدانية الله تأكيداً شديدًا بعد أن انتشرت بين اليهود في عصره عبادة الإله الفينيقي ((بعل))، لكن دعوته هذه كانت صرخة في واد. وفي القرآن الكريم إشارة إلى ذلك {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * وَاللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} الصافات ١٢٣: ١٢٧. وقد روى العهد القديم، سفر الملوك الأول الإصحاح السابع عشر جانباً من قصة النبي إيليا. أما قصة صعوده إلى السماء في عربة من نار، فقد جاءت في سفر الملوك الثاني الإصحاح الثاني. انظر:

إمام عبدالفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم، القاهرة ١٩٩٥م.، مادة: إيليا؛ انظر أيضاً:

Eliade, Mircea, (ed.), in the Encyclopedia of Religion, New York – London, 1986, vol. V, art. Elijah.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.222.

وفي تعريف المؤرخ أبي اليمن العليمي للنبي إلياس ما يفسر تصور عوبديا له إذ يذكر المؤرخ عنه ((إلياس: من أنبياء بني إسرائيل رفعه الله من بين ظهرانيهم، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، وكساه الريش فكان إنسياً ملكياً أرضياً سماوياً وقيل أنه موكل بالبنيان)). انظر: الأنس الجليل، جـ٢، ص٢٨.

(٣) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.157.

(٤) جورجي كنعان: تاريخ يهوه، ص٣٩، ١٧٧.

بـــالأرض إلى أن رفعه الله إليه[١])) ومن ثم يشتد الاعتقاد فى أن المقريزى يعنى بمعبد جوجر المعبد الصغير المنسوب إلى النبى إلياس الكائن بالإسكندرية، وقد نصل إلى مرحلة التأكيد على ذلك من خـــلال إشـــارات رحالـــة اليهود مع وجود جماعة يهودية بالمدينة يعنيها ممارسة أنشطتهم الدينية والاجتماعية من خلال معبدهم.

أما عن الحياة الدينية لليهود فى القاهرة التى تتخذ من المعبد اليهودى مركزًا، فيشير عوبديا إلى أربعـــة معابد اثنان منها داخلها والآخران فى ضواحيها، إذ يذكر عن أولها ((ويوجد بالقاهرة معبد جمـــيل مـــبنى على دعائم ضخمة رائعة المنظر تم تكريسه للنبى إلياس الذى قيل إنه ظهر للمتدينين الأتقـــياء فى الجهـــة الجنوبية الشرقية، حيث تبقى فى هذا المكان شعلة أزلية الإضاءة، أما فى الجهة الشـــمالية الشـــرقية فتوجد لفائف عزرا Ezra [٢] التى هى ذاتها لفائف الشريعة على منصة، وفى العادة كانت توضع هناك ......، وقد أراد الملك [السلطان قايتباى] فى العام الماضى [١٤٨٧م./ ٨٩٢هـــــ.] أن يأخذ الدعائم التى يرتكز عليها بناء المعبد لكى يستخدمها فى بناء قصر له نظرًا لأنها كانت ضخمة وجميلة المنظر[٣]، إلا أن اليهود افتدوها مقابل ألف قطعة ذهبية، ووفقًا للتاريخ

---

(١) المقريزى (ت ٨٤٥هــ./ ١٤٤٢م.) تقى الدين أبى العباس أحمد بن على المقريزى: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، ٢جـ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، جــ٢، ص٤٦٣- ٤٦٤، ٤٦٩.

(٢) عزرا: اسم كاهن لُقب بالكاتب، كان موظفًا فى بلاط إمبراطور الفرس، وتدخل عنده لصالح اليهود من أجل السماح لهم بالعودة إلى القدس حوالى عام ٤٥٨ أو ٤٥٧ ق.م بعد سبيهم، بحيث يقيمون مجتمعهم على التقاليد العبرانية، فى حين يظلون فى خضوعهم للفرس، وهناك تم تأسيس الهيكل ثانية، وهذا جعل اليهود وحتى المتأخرين منهم يعتبرونه زعيمًا لهم بعد موسى الذى خرج على رأسهم من مصر، ولقبوه بالكاهن والكاتب لأنه كان دارسا مجتهدا للتوراة، ويعتقد اليهود أنه هو الذى جمع أسفار الكتاب المقدس ونظمها، كما يزعمون أنه هو الذى حمل إلى فلسطين الأحرف الآرامية المربعة الشكل المعروفة بالخط الآشورى، والتى مهدت لنشوء الأبجدية العبرانية الحالية. ولمعرفة المزيد راجع: بطرس عبدالملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، مادة: عزرا. يذهب البعض إلى أن ينسب المعبد إلى عُزرا الكاتب، فى حين يرى آخرون أنه منسوب إلى إبراهيم بن عزرا الأديب والعالم الأندلسى الذى ترجم كتبًا من اللاتينية إلى العربية، وعاش فى القرن الحادى عشر الميلادى، على اعتبار أن عزرا الكاتب لم يزر مصر مطلقا. راجع: محاسن الوقاد: اليهود فى مصر المملوكية فى ضوء وثائق الجنيزة (٦٤٨ – ٩٢٣هــ./ ١٢٥٠ – ١٥١٧م.)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٢٣٧؛ محمد خليفة حسن: معبد بن عذرا بالفسطاط، القاهرة، ١٩٩٤م.، ص٩١.

وإشارة عوبديا هذه تعد مهمة؛ إذ يقدم نموذجاً للمعاصرين الذين اعتقدوا فى أن المعبد حمل اسم القائد عزرا، وليس إبراهيم بن عزرا.

(٣) Obadiah., Op.Cit., p.231.

راجع وصف المعبد فى: محسن ربيع: تقرير هيئة الآثار المصرية بمعبد بن عزرا المسجل فى عداد الآثار بالقرار الوزارى رقم ٢٧٤ لسنة ١٩٨٤م. حيث يتبين أن المبنى يتكون من طابقين، وهو على شكل مستطيل أبعاده =

المدون على الحائط الخاص بالمعبد، فإن بناءه يعود إلى ثمانية وثلاثين عامًا قبل تدمير المعبد الثانى [عام ٧٠م.] وإلى القــرب مــنه يوجد معبد جميل آخر، ولكنه لا يضاهى سابقه؛ وتقام الصلوات هنا بخشوع كل يوم سبت، ويستأجر اليهود شخصاً لمباشرة المعبد ومراقبة أموره[١]))..

وما كتبه صاحب الخطابات عن معبد النبى إلياس بالقاهرة يحتاج إلى مضاهاته بما ذكرته المصادر المعاصــرة عن الموضع ذاته إجلاءً للأمر، ذلك أن المؤرخ المسلم المقريزى يتحدث عن معبدين فى مــنطقة الفسطاط، أشار إلى الأول منهما باسم كنيسة المصاصة، وذكر عنها أنها بنيت قبل الفتح الإســلامى، وأن اليهود يزعمون أنها بنيت قبل الملة الإسلامية بنحو ستمائة وإحدى وعشرين سنة ((... ويزعم اليهود إنها كانت مجلساً لنبى الله إلياس...)). وفى موضع تالٍ تحدث عن المعبد الآخر الذى دعاه ((كنيسة الشاميين))، وحدد موقعه بخط قصر الشمع فى الفسطاط أيضًا على أنه معبد خــاص بجماعة اليهود الفلسطينيين، فقال ((إنها قديمة ... مكتوب على بابها بالخط العبرانى، حفرًا بالخشب ، بنيت قبل خراب بيت المقدس الثانى بنحو خمسٍ وأربعين سنة، وقبل الهجرة بنحو ستمائة ســنة ...)).كذلك أضاف المقريزى أنه كانت بهذا المعبد نسخة من التوراة اجتمعت آراء اليهود علــى أنها كتبت بخط النبى عزرا[٢]. أما الرحالة اليهودى الرابى ميشولام بن مناحم، فقد تضمنت رحلته إشارة للمعبد الأول الرئيسى الذى ربطه بذكرى النبى إلياس مؤكدًا على أنه يقع فى منطقة مصــر القديمــة (حيث الفسطاط) مشبهًا إياه بمعبد النبى إلياس الكائن بالإسكندرية[٣] ومن ثم لم يتعــرض هــذا الرحالة اليهودى إلى أى معبد مجاور للمعبد الرئيسى حسبما ذكر كل من عوبديا والمقريزى.

=حوالى ٢١,٥م × ١٢,٥م تقريبًا، ويقع المدخل فى الركن الجنوبى الغربى، ويؤدى إلى داخل المعبد الذى يتكون من ثلاثة أروقة تكونت بواسطة صفين من الأعمدة والرواق الأوسط هو الأكبر والأعلى، ومفتوح فى جدران المعبد مجموعة من النوافذ توجد فى كل من الجدار الشمالى والجدار الجنوبى للمعبد. والمعبد من الداخل يحتوى على بعض العناصر الأساسية التى يتكون منها المعبد اليهودى ومنها: الهيكل، منصة الصلاة، شرفة النساء، حجرة الجنيزة، البئر والميكفاه، كما شمل الوصف أيضاً زخارف المعبد. انظر أيضاً: أشكال رقم (٤ – ٧) بهذه الدراسة.

(١) Obadiah., Op.Cit., p. 223.

(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٦٩– ٤٧٠.

(٣) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.167.

وبالرجوع إلى تقرير هيئة الآثار المصرية الذى يؤكد على وجود معبد لليهود بالقرب من كنيسة أبى سرجة بحارة القديسة باربرا بمنطقة مصر القديمة والفسطاط[١] وهو المنسوب فى المصادر إلى النبى إلياس حاملاً اسم ((بن عزرا))، فيعد من أقدم المعابد اليهودية الموجودة فى مصر. و من الشائع عنه أن الأقباط حولوه إلى كنيسة لهم فى القرن السادس الميلادى، وأنهم باعوها بالفعل لليهود فى القرن التاسع للميلاد متفقاً مع ما ورد فى المصادر فى هذا الشأن، وقد زادت من أهمية وشهرة المعبد اكتشاف وثائق الجنيزة Geniza اليهودية به فى نهاية القرن التاسع عشر (سنة ١٨٩٦م.). حيث وجدت كميات كبيرة من الكتب والأوراق والوثائق داخل حجرة الجنيزة بالطابق العلوى للمعبد[٢]. وجديرٌ بالذكر أن المعبد ما يزال يحوى نسخة التوراة النفيسة داخله[٣]. والتقرير يكشف كذلك عن وجود أبنية أخرى ملحقة بمعبد بن عزرا استخدمت فى أغراض مختلفة منها؛ أولها فى الناحية الشمالية كان مستخدماً كمقر لإدارة المعبد ولإقامة الحارس، ومبنى آخر بالجهة الجنوبية كان مستخدمًا كمدرسة دينية، وهو حاليًا يستخدم كمكتبة عبرية ملحقة بالمعبد تضم عديدًا من الكتب معظمها كتب دينية باللغة العبرية بالإضافة إلى كتب أخرى فى موضوعات ولغات مختلفة. هذا بالإضافة إلى بقايا مبنى آخر بالجهة الشرقية كانت به قاعة مخصصة للطعام فى المناسبات الدينية المختلفة. وقد كانت توجد مبان أخرى (لا وجود لها الآن) إلى جوار المعبد مخصصة لإقامة الفقراء والمسنين من أبناء الطائفة اليهودية[٤])).

ومن تقرير هيئة الآثار الخاص بالمعبد أيضًا، يمكن تبيان حقيقة المعبد الثانى الذى وصفه عوبديا بأنه معبد جميل، ولكنه لا يضاهى سابقه (معبد النبى إلياس) على أنه جزء لا يتجزأ منه، إذ قدم لنا التقرير مادة تاريخية يمكن أن نكشف منها سبب اللبس الذى قد يكون المؤرخ المقريزى قد وقع فيه حينما قسم خصائص المعبد الرئيسية إلى معبدين مختلفين، وهى المتمثلة فى ارتباطه باسم النبى إلياس،

---

(١) وصاحب التقرير يعرِّف المعبد بأنه يحظى بمكانة روحية كبيرة لدى يهود مصر ويهود العالم أيضًا. ومما يبرز أهميته وقوعه فى المنطقة التى يطلق عليها اسم ((مجمع الأديان)) بمصر القديمة وهى تعرف بهذا الاسم لأنها تضم أول وأقدم مسجد فى مصر وهو مسجد ((عمرو بن العاص)) إلى جانب وجود أقدم وأشهر مجموعة كنائس مسيحية ومنها ((الكنيسة المعلقة)) هذا بالإضافة لوجود معبد ((بن عزرا)).

(٢) انظر تقرير هيئة الآثار الذى يضيف أنه قد تم نقل محتوياتها إلى كمبردج بإنجلترا فى هذا الوقت بواسطة عالم اليهوديات الانجليزى ((شختر Shakhtar)) وتكونت منها هناك أكبر وأهم وأشهر مجموعة جنيزة فى العالم.

(٣) ستيوارت، ديزموند: القاهرة، ترجمة: يحى حقى، مقدمة: جمال حمدان، القاهرة، ١٣٨٨هـ./ ١٩٦٩م.، ص٨٥..

(٤) محسن ربيع: تقرير هيئة الآثار عن معبد بن عزرا.

وضـــمه لنســـخة مـــن التوراة كتبها النبى عزرا حيث أنه رأى المعبد الواحد وكأنه معبدان نظرًا لـــتجاورهما، كذلك ساعد التقرير فى التوصل إلى أن أصحاب المصادر الثلاثة: عوبديا والمقريزى وميشـــولام اتفقوا على نسبة المعبد إلى النبى إلياس، وأنه هو ذاته معبد المصاصة على ما ذهب إليه المقريزى، وعلاوة على ذلك مكننا التقرير من الكشف عن أن كل من عوبديا والمقريزى اتفقا فى تحديد تاريخ بنائه، فى حين اختلفا فى تحديد مكان الهيكل الذى يضم لفائف عزرا، وهو أمر مهم؛ إذ اقترن به مسمى المعبد ذاته، حيث حدد المقريزى وجود الهيكل فى معبد اليهود الشاميين؛ ويستشف مـــن التقريـــر أنه كان مجرد أحد الأبنية الملحقة بالمعبد الرئيسى، ومن ثم امتد المسمى (معبد النبى إلياس) ليشمل مجموعة المبانى اليهودية القائمة فى المكان، وعلى ذلك فالباحث يميل بطبيعة الحال إلى إقـــرار ما ذكره عوبديا، واعتبره أكثر مطابقة للواقع حينما اهتم فقط بالمعبد الرئيسى فى حديثه، وعليه فإنه يتجه إلى أن المقريزى قد وقع فى ما يشبه اللبس بحديثه عن معبدين منفصلين كل منهما عـــن الآخـــر؛ لكونه مسلماً ليس ملماً بدقائق اليهود وعباداتهم مقارنة بعوبديا، ولكن يكفى أن ساعدنا فى التأكيد على وجود معبدين لليهود فى الفسطاط آنذاك، كان الرئيسى منهما هو معبد بن عزرا.

وقـــد اهتم عوبديا بعرض الرواية الخاصة بلفائف الشريعة المحفوظة فى معبد النبى إلياس أو قل معـــبد بن عزرا نظرًا لأنها تمثل عنصرًا أساسيًا فى الفكر الدينى اليهودى حيث تضمنت ما حكى له من أن ((يهوديًا جاء من الغرب منذ سنوات عديدة محضرًا معه تلك اللفائف بعد أن حصل عليها مـــن أحد خدام المعبد، ثم أبحر بها عن طريق الإسكندرية، وقدر لهذه اللفائف أن تفقد معه حينما غـــرقت به السفينة ليس بعيدًا عن الإسكندرية، أما خادم المعبد الذى أقدم على بيع هذه اللفائف لليهودى مقابل مائة قطعة ذهبية فقد غدا مرتدًا عن دينه، ومات على التو، وقد تم وضع الصندوق الـــذى كـــان يحفظ اللفائف على حاله فى المعبد، وأمامه يوقد مصباح أزلى الإضاءة ...... وتقام الصلوات هنا بخشوع فى كل يوم سبت، ويستأجر اليهود شخصًا لمباشرة المعبد[١])) وتتضح الأهمية الـــبالغة للفائف الشريعة عند اليهود فى أنها عبارة عن مخطوط أسفار موسى (عليه السلام الخمسة) الذى يقرأ فى المعبد اليهودى، يخطه أحد المختصين وفقًا لقوانين وقواعد محددة على قطع من الرق تتم خياطتها الواحدة فى الأخرى، وتحفظ لفائف التوراة فى تابوت لفائف الشريعة، ولا تخرج إلا فى الصـــلاة أو فى المناسبات المهمة. وقد أحيطت اللفائف بكثير من التقديس إذ لابد أن تلف برباط

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.230, 231.

خاص ذهبي أو فضى يسمى ((تاج التوراة))[١] هذا، ويشير تقرير هيئة الآثار الخاص بمعبد بن عزرا إلى أن هـــذه اللفائف أودعت داخل الهيكل ((الواقع فى وسط الجدار الشرقى للمعبد، وهو عبارة عن دولاب مخصص لحفظ أسفار التوراة التى تقرأ فى الصلوات الجماعية بالمعبد. والهيكل يعتبر من أقدس العناصر التى توجد بالمعبد اليهودى. وهو يرتفع قليلاً عن مستوى أرض المعبد حيث يصعد إليه بواسطة بعض درجات السلم. والأجزاء المحيطة بدولاب الهيكل مغطاة بالخشب المطعم بالعاج والصـــدف، وعليه بعض العناصر الزخرفية والكتابات العبرية منها ما يشير إلى الوصايا العشر التى ذكـــرت فى التوراة بالإضافة إلى بعض الأدعية والعبارات الدينية))[٢] وباجتماع كل هذه العناصر السابقة فضلاً عن عنصر الشمعدان الأزلى الذى أشار الخطاب إلى وجوده داخل المعبد يتوفر جميع عناصر المعبد الأساسية.

وفضلاً عن معبد بن عزرا الذى زاره عوبديا والمعبد المجاور له، فقد سجل عوبديا خارج القاهرة وجـــود معبدين آخرين لليهود، وأشار إلى أنه لم يكن فى وسعه زيارتهما لوقوعهما فى منطقة دموة Dimo (فى الجيـــزة) حـــيث ((قيل إن موسى [عليه السلام] قد أدى صلاته هناك. وعليه يوجد بالمكان معبدان أحدهما ملك للربانين Rabbinic والآخر ملكٌ للقرائين Karaites. وعادة ما تقام فـــيهما الخـــدمات المقدسة فى أيام السبت وأيام الأعياد[٣])) ووصف المقريزى المعبدين بوصفهما كنيســـة واحـــدة تخص اليهود؛ فذكر أن اليهود يعتقدون أنها الموضع الذى كان يأوى إليه موسى [عليه السلام] حين كان يبلغ رسالات إلى فرعون ((... يزعم اليهود أنهم بنوا هذا البناء الموجود بعد خراب بيت المقدس الثانى على يد طيطش))، أى الإمبراطور الرومانى تيتوس Titus (٧٩ – ٨١م.) ويضـــيف المؤرخ إن فناء المعبد كان به شجرة ضخمة يقدسها اليهود، وقد أراد السلطان الأشرف شعبان (١٣٦٢ – ١٣٧٦م./ ٧٦٤ – ٧٧٨هـــ.) استخدام أخشابها فى بناء مدرسة باسمـــه غـــير أنه ثبت أنها لا تصلح لهذا الغرض[٤] عندما كان يتحدث عن دعائم معبد بن عزرا، وحيـــنما زار ميشولام بن مناحم القاهرة، قال عن معبد دموه أنه: ((يوجد بالقرب من الأهرامات

---

(١) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـــ٥، ص٢١٩.

(٢) محسن ربيع: تقرير هيئة الآثار المصرية عن معبد بن عزرا.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.231.

تعد طائفتا الربانين والقرائين أكبر طوائف اليهود؛ وسوف تتوقف الدراسة عندهما تفصيلياً لاحقاً.

(٤) المقريزى: الخطط، جـــ٢، ص٤٦٣.

الـــثلاثة [بالجيزة] معبد للنبي موسى، حيث كان قد اعتاد المكوث فى هذا المكان للتعبد قبل ذهابه للتحدث إلى فرعون[١]))

وعلـــيه يـــبلغ عـــدد المعابد التى وردت إشارات عنها عند عوبديا أربعة معابد، اثنان منها فى القاهـــرة، حيث الفسطاط اللذان ثبتا أنهما يكملان بعضهما فى معبد واحد، وآخران فى خارجها حـــيث الجيزة. كذلك فعندما سجل عوبديا إقدام السلطان قايتباى على أخذ المعبد فى دموه (ربما تآسياً بالسلطان الأشرف شعبان) فيصبح من المحتمل أنه أمر جدير بأن يوضع فى الاعتبار برغم عدم ثـــبوته للباحث، لكنه يلاحظ حرص السلطان قايتباى على اتباع أسلوب شرعى بدفع تعويضات مالية؛ إلا أن افتداء اليهود للمعبدين كان رادعًا له، وحال دون أخذه، وما من شكٍ أن هذا الموقف قد يحسب له لا عليه حالة حدوثه.

وفى فلسطين حيث الزخم الدينى الواضح لليهود، كانت غزة أولى البلدات الفلسطينية التى مر بهـــا عوبديا، ويتمثل البعد الدينى فى الخطابات عنها فيما ذكر: ((واستنادًا إلى ما أخبرني به اليهود المقـــيمون فى غزة إذا ما صح حديثهم، فقد رأيت بأم عينى هناك أطلال الأبنية التى هدمها شمشون فـــوق رأس الفلسطينيين[٢])) ولقصة شمشون مدلولها الخاص فى التراث الإسرائيلى؛ فهو عبرانىّ كـــرس حـــياته لعـــبادة الرب اشتهر بقدرته الجسدية الخارقة مما ساعده فى مقارعة خصومه من الفلسطينيين الذين انتقموا لأنفسهم من العبرانيين، فطالبوه بتسليم نفسه لكنه تمكن بقوته من فك وثاقه. ولكن خليلته دليلة الفلسطينية أوشت بسر قوته الكامنة فى شعره، فتمكن الفلسطينيون من جز شعره أثناء نومه، وكبلوه وأودعوه السجن. وحينما أخرجوه ليسخروا منه فى معبد غزة، دفع شمشـــون العمـــودين، فسقط المعبد على رأس الجميع فماتوا[٣] ،ولعل الدلالة تكمن فى أن فكرة الـــتفوق للعنصر العبرانى ربما تجسدت فى هذه الصورة التى تداعتها ذاكرة عوبديا بمجرد وصوله غزة.

وعندما بلغ عوبديا بلدة الخليل كان من الطبيعى أن تلفت نظره ابنيه الحرم الإبراهيمى حيث حـــدد موقعه عند سفح الجبل الذى يشكل الشطر الأول من البلدة بينما يطل على الوادى الذى

---

(١) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.167.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.232.

(٣) بطرس عبدالملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، مادة: شمشون؛ راجع أيضاً عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٤، ص١٤٧ – ١٤٨.

يشــكل الشــطر الآخــر منها، وقال: ((وهنا فى الخليل حيث مقبرة الآباء The Patriarchs Tombes، يــوجد مبنى عتيق معظمه من كتل حجرية مهولة، ويعلو هذا البناء العتيق مبنى آخر حــديث خاص بالعرب)) وفى موضع آخر أطلق عوبديا على مغارة الأنبياء مسمى الماكفيلا (أى المــزدوجة) حيث ((أقيم المسجد فوقها)) ... وهو موضع يبجله العرب بشدة، ويأتى إليه جميع حكام وملوك العرب بغرض تأدية الصلوات)) ثم يستأنف المستوطن حديثه عن معالم الموضع فيقول ((وفى هــذا المكان حيث شهد كشف الملائكة عن أنفسهم لإبراهيم [عليه السلام] ما يزال يطلق عليه مسمى ممرى Mamre ، كما توجد أيضًا مغارة صغيرة، تعلوها صخرة يقال أنه قد تم ختان إبــراهيم [علــيه السلام] فوقها[١])). والمعروف أن كلمة الآباء تشير عند اليهود والمسيحيين إلى الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم جميعاً السلام بشكلٍ أساسى[٢] على اعتبار أنهم يأتون هم وســلالتهم على رأس شعب الله (بنى إسرائيل) الذى خَيّرهم عن باقى شعوب الأرض، ووعدهم بأرض يسرائيل ليقودوا البشرية من خلالها[٣].

وفى الواقــع تعــد المادة الواردة عن الحرم الخليلى مقتضبة، ولعلها تتضح من خلال الكتابات المصدرية الأخرى والبحوث، إذ يدعى الرحالة اليهودى الأندلسى بنيامين التطيلى حوالى ١١٧٣ م./ ٥٦٩هــــ. أن المــبنى كان بمثابة معبدٍ لليهود قبل أن يحوله الصليبيون مع أوائل القرن الثانى عشر الميلادى/ أواخر القرن الخامس الهجرى إلى كنيسة، ويبدو ادعاؤه من تناقضه مع ما ذكره هو نفسه من أن المسلمين كانوا قد أضافوا مدخلات معمارية مهمة تتمثل فى المشاهد الستة رمزاً لدفن الأنبــياء الثلاثة مع زوجاتهم أعلى المغارة حفاظاً على قدسية المقابر الحقيقية السفلية[٤] الأمر الذى يؤكد تحول المبنى إلى مسجد فى ذلك الوقت، وفى أواخر فترة استيلاء الصليبيين عليه، وصفه رحالة

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.233.

(٢) يعد الرحالة يوحنا أوف ورزبرج أكثر الزوار الأوروبيين اهتماماً بتسجيل المعلومات الخاصة بالأراضى المقدسة والبحث فيها – فيذكر إن مدينة الخليل تعد مدينة الآباء، وذلك لأنها تضم رفات أربعة من الأنبياء وهم: آدم وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وكذلك زوجاتهم وهم: أمنا وحواء وسارة ورفقة ولية، وقد تم دفنهم جميعاً فى الماكفيلا.

John of Wurzburg, Description of the holy land by John of Wurzburg 1160 – 1170 A; D. A., Trans. by Wilson, C. W., in: P.P.T.S, vol. V, London, 1890, p.58.

(٣) Goodman, Paul, History of the Jews. With prefatory note by the Chief Rabbi, 4th ed., London, 1943, pp.1 - 2.

(٤) بنيامين التطيلى، الرابى بنيامين بن يونة التطيلى الأندلسى: رحلة بنيامين التطيلى، ترجمة : عزرا حداد، بغداد، ١٣٨٤هــ، ص١٠٥، ١٠٦. راجع أيضًا: المقدسى البشارى: أحسن التقاسيم، ص١٧٢، ١٧٣.

يهــودى آخر بأنه قصر عظيم شيد فوق مقابر الأسلاف،وإن النبى إبراهيم عليه السلام قد حرص على بنائه بنفسه، وبالغ الرحالة فى تحديد حجم الأحجار المستخدمة، فعلى سبيل المثال قدر طول الواحد منها بثمانية وعشرين مترًا تقريباً[١]. وما لبث أن شهد المبنى فى مرحلة ما بعد فتح صلاح الــدين له إضافات عديدة[٢] انتهت بإقامة أربع مآذن وبوابتين تصلان إلى داخل المسجد بسلمين صــاعدين بحـيث شكلت مجتمعة نصف مساحة الحرم[٣] وبناءً على ذلك يمكن وصف مبنى الحرم بشــكل إجمالى بأنه بنيان قوى للغاية يقع على منحدر الجبل إلى وادى الخليل، ويتجه من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى، ويتألف من السور الخارجى للحرم والأحجار المكونة له ضخمة جدًا، ويبلغ طول ضلعيه خمسة وستين مترًا، وثمانية وثلاثين مترًا عرضًا تقريبًا، بينما يبلغ الارتفاع حوالى خمسة عشر مترًا، وهو بذلك يرتفع عن قمة الجبل المقام عليه. أما من الداخل فيتألف من طابقين: الســاحة الــتى تضم شواهد الأنبياء، وتعلوها قباب هرمية الشكل، وهى التى تضم المسجد الذى أشــار عوبديا إليه، وتقع أسفلها المغارة التى تضم القبور الحقيقية، وبصفة عامة يترك المبنى انطباعًا عميقًا فى نفس زواره[٤]، ويلاحظ أن كثيراً من ملامح الحرم التى سجلها عوبديا ما تزال ماثلة حتى يومنا هذا.

وقــد شرح عوبديا أمورًا تبرز مكانة هذه البقعة لدى اليهود بل والمسلمين فيقول: ((لا يمكن لأى يهــودى أو عربى الدخول إلى هذه المغارة نظراً لأنها تضم القبور الحقيقية للأنبياء، وقد دأب العــرب على الوقوف وتدلية المشاعل داخلها من خلال فتحة بغرض الحصول على إضاءة دائمة، وقال لى اليهود المقيمون فى الخليل إن جميع الذين يأتون بغرض الصلاة كانوا يلقون بالنقود داخل

---

(١) Petachia of Ratisbon: The Itinerary of Rabbi petachia 1174- 1187 A. D., in: J. T., ed. by Adler, pp.89, 90.

(٢) جدد السلطان المملوكى الظاهر بيبرس (١٢٦٠ – ١٢٧٧م./ ٦٥٨ – ٦٧٦هــ.) القبة الرئيسية للحرم والمشاهد والميضأة، وأقام المقاصير والأبواب (وفى عام ١٢٨٧م./ ٦٨٦هــ.) أصدر السلطان المنصور قلاوون أمراً بتغطية أجزاء واسعة من الحرم بالرخام، ويبدو أن هذه الأعمال كانت من الكبر إلى الحد الذى أعده المؤرخون بمثابة تجديد للمبنى. انظر: ابن عبدالظاهر: (ت ٦٩٢هــ./ ١٢٩٢م.) القاضى معين الدين السعدى المصرى: الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر: عبدالعزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م.، ص٨٧؛ أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جــ٢، ص٥٤.

(٣) Vincent, L. H., Macay, E. J. H., et Abel F. M., Hebron: Le Haram el- Khalil, Sepulture des patriarches, 2 vols. texte et album, Paris, 1923, pp.166, 194 – 196.

(٤) ولمعرفة المزيد عن مكونات الحرم الإبراهيمى ووصفه الداخلى والخارجى انظر: على أحمد السيد: الخليل والحرم الإبراهيمى فى عصر الحروب الصليبية، دار الفكر العربى – القاهرة ١٤١٨هــ./ ١٩٩٨م.، ص٢٨٣ – ٢٨٥.

المغارة من خلال الفتحة، وحينما يبتغى أناس استرداد النقود مرة أخرى كانوا يدلون بشاب صغير السـن غـير متزوج إلى أسفل بعد ربطه بحبل ليأتى بها)). أما بخصوص اليهود وصلواتهم يضيف عوبديا فى موضع آخر: ((ويوجد بالخارج فى أحد حوائط المغارة فتحة صغيرة يقال إنها استحدثت بعد دفن إبراهيم [عليه السلام]، وعندها يسمح لليهود بالصلاة على ألاّ يتخطى أحدهم حوائط تلـك المغارة، وشرعتُ فى أداء صلاتى من خلال تلك الفتحة الصغيرة[١])). وهو بذلك يشير إلى الفـتحة التى كان الصليبيون قد استحدثوها فى الحرم الإبراهيمى. إذ تكشف البحوث الأثرية عن وجـود فتحة مستديرة فى أرضية الساحة، محيطها من أحجار مرمرية كان الزوار يلقون من خلالها قطعـاً صـغيرة من الأوراق والقماش مكتوب عليها دعوات خاصة وابتهالات متشفعين بالأنبياء الراقدين فى المغارة[٢]. كما لاحظ الرحالة المغربى ابن الحاج العبدرى فى أواخر القرن الثالث عشر المـيلادى/ السابع الهجرى وجود هذه الفتحة ناسبًا إياها إلى الصليبيين، وأضاف أن المسلمين بعد الفتح أبقوا عليها[٣] كما سجل أحد شهود العيان حديثاً رؤيته لأرضية المغارة، وقد افترشها أكوام مـن الأوراق التى تحمل تلك الدعوات[٤]. وهذه الظاهرة تجسد عادة زيارة جميع الملل للحرم على مر العصور.

ويتمـثل عنصر التقديس التالى فى الخليل فى موضع ممرى، وهى منطقة تلية شمال الخليل تعلوها شـجرة بلوط ضخمة يُعتقد أن إبراهيم عليه السلام استقبل الملائكة فى خيمته تحت ظلالها حيث كشـفوا عن أنفسهم[٥]، وقد تكررت الإشارة إليها عدة مرات فى التوراة رمزاً للخليل[٦] كذلك

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.233.

(٢) Enlart, C., Les Monuments des croises dans le Royaume de Jérusalem: Architecture Religieuse et Civile, Bidle A. H., 7 - 8, 2vols. et 2 albums, Paris, 1925 – 1928, vol.II, p.128.

(٣) ابن الحاج العبدرى (ت ٧٣٧هـ. – ١٣٣٧م.): المدخل فى تنمية الأعمال بتحسين النيات، الطبعة الأولى ٤٠ أجزاء فى مجلدين، المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م، جـ٤، ص٢.

(٤) Conder, C. R., Cenotaphs of the Hebrew patriarchs at the cave of Machpella, in: P. E. F., Quarterly Statement, October 1882, pp.197 – 206, pp.201 - 202.

(٥) Samuel Ben Samson, Itinerary of Rabbi Samuel Ben Samson, in: 1210 A. D., in: J.T., (ed.) Adler, N. London, 1930, pp.104- 105, cf. also, Vigouraux, F., Mambre, en: Dictionnaire de la Bible, tome IV, Paris, 1903 (pp.625- 636), pp.633 - 634.

التدمرى (ت ٨٣٣هـ./ ١٤٣٠م.) إسحاق بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن مالك: مثير الغرام وخلاصة الكلام فى فضل زيارة سيدنا الخليل عليه السلام، مخطوط: ورقة رقم ٤١ أ – ب، مودع فى:

History of the Prophets, etc. Arabic manuscript, in: S. O. A. S. un. Of London, No. 46353.

(٦) سفر التكوين: ١٤: ١٣ ، ٢٤، ٢٣: ١٩، ٣٥: ٢٧.

هناك الصخرة التى شهدت ختان أبى الأنبياء إبراهيم، وذلك بموجب أمر إلهى ورد فى التوراة ((يختن منكم كل ذكر)) وعليه ختن عليه السلام كل ولدان أهل بيته، وكان قد بلغ من العمر تسعًا وتسعين سنة حين ختن[١] وكان لاجتماع هذه المقدسات فى موضع الحرم قد جعل من الخليل واحدة من المدن الأربع المقدسة لدى اليهود فضلاً عن القدس وصفد وطبرية، ولذا لا ينبغى أن تنقطع فيها صلاتهم[٢] خاصةً وأن البلدة ارتبطت تماماً بشخص النبى إبراهيم، فإذا كان هو مؤسس الأمة العبرانية، فهو أيضًا ذو الحظوة عند ربه فى وضع أسس ديانتهم[٣]، ذلك الأمر الذى جعلها جديرة بتقديس اليهود لها، ولعل حصر أهم المقدسات داخل الخليل على هذا النحو الموجز يجعل من عوبديا واحدًا من أكثر يهود عصره ثقافة وعلماً بعلاقة الديانة اليهودية بالأراضى المقدسة.

ويوجد فى بلاد الخليل أيضًا أماكن أخرى حظيت بالقدسية مست وترًا لدى اليهود وغيرهم، ونلمس عند عوبديا ذلك فيما أورده فى مجمل خطاباته إذ يذكر: ((أما على قمة الجبل المقابل [الذى عليه الحرم] توجد مغارة كبيرة يقال إنها تضم رفات العيص Jesse ، والد داود David [عليه السلام] ثم خرجنا فى اليوم ذاته مرة أخرى للصلاة هناك[٤])) ويوجد فى المصادر الإسلامية تصحيح لموقع ضريح العيص؛ إذ تحدده بداخل مسجد فى قرية "سعير" القريبة حاملاً اسمه،وكان مزارًا للمسلمين[٥] ومن ثم يتبين أن عوبديا لم يكن مدققاً بالقدر الكافى فى تحديد مكان القبر بقدر اهتمامه بتأدية الصلاة هناك.

وفضلاً عن اهتمام المستوطن بالحديث عن الأضرحة بصفتها من المقدسات نجده يتعرض كذلك لعدد من الآبار التى أضفى عليها أيضًا القدسية نظرًا لارتباطها بأسماء الأنبياء أو أزواجهم فيقول عن أولها: ((وعلى مبعدة مسافة من البلدة يوجد بئر واسع؛ وهو الذى يطلق عليه المسلمون بئر إبراهيم، وليس ببعيد عنه يوجد بئر آخر يعرفه المسلمون باسم بئر إسحاق Isaac[٦])) عليهما

---

(١) سفر التكوين: ١٧: ٩، ١٤ ، ٢٣، ٢٥؛ انظر كذلك: زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٢١٤.

(٢) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٤، ص٣٢١.

(٣) Johnson, Poul., A History of the Jews, p.76.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.233.

(٥) التدمرى: مثير الغرام، ٣٩ ب؛ أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـ١، ص٤١.

(٦) Obadiah, Op.Cit., pp.233, 249.

يذكر أن بئر إبراهيم شهدت مدخلات معمارية مهمة إبان العصر المملوكى كما أنها تختلف عن تلك التى تعرف باسم بئر إبراهيم بالقرب من عسقلان. راجع: ابن بطوطة، (ت٧٧٩هـ./ ١٣٧٧م.) محمد بن عبدالله: تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٦٣.

السلام، وكان المستوطن قد حدد موقعه بأنه ((يقع بين قبر العيص ومغارة الأنبياء)) متفقاً فى ذلك مع ما ذكره المؤرخون المسلمون، وفى هذا الصدد يشير عوبديا إلى بئر آخر فيذكر "وبالقرب من الخليل تــوجد عين ماء متدفقة بين الصخور تعرف باسم بئر سارة Sarah" زوج إبراهيم عليه السلام، بينما يحدد أبواليمن العليمي موقعها ((بظاهر البلد بين الكروم، ومنبعها قريب من حوضها[١])) ومن الرحالة المسلمين من أكد استمرار تدفقها بشكل معجز عدة قرون[٢] ويلاحظ أن رحالة اليهود بصفة خاصة كانوا حريصين على زيارة هذه الأماكن سواء أكانت قبورًا أم آبارًا[٣].

ومن البقاع المقدسة الشهيرة فى بلاد الخليل أيضًا، وبالقرب من البلدة يذكر عوبديا ((يوجد على الطريق [شمالاً] جدول مائى ما يزال يحمل اسم أشكول Eshcol[٤] أما كرمات العنب القريبة من الجدول فما زالت إلى يومنا هذا تنمو بشكل أفضل من الكرمات الأخرى الموجودة فى المناطق المحيطة[٥])) بل نجد من يؤكد على استمرار هذه الظاهرة إلى عصرنا الحالى موضحاً أن لفظة أشكول عبرية تعنى عنقودًا من العنب، ويرتبط هذا الوادى الواقع جهة الشمال من الخليل بالتراث الإسرائيلى الذى بالغ، وذكر إن عنقود العنب بلغ من ضخامته أنه احتاج إلى رجلين لكى يحملاه، وعلى ذلك أصبح لذكر كرمات العنب دلالة دينية مقرونة بأرض الخليل فهو محصول مبارك من عند الله. وكان اليهود قديمًا قد دأبوا على استخدام معظم محصول العنب فى صناعة الخمر، كما ذكرت توراقم الخمر باعتبارها عطية عظمى من الله، وكانوا يستخدموها فى الطقوس الدينية، فكانوا يقدمون سكيبًا منها يوميًا داخل الهيكل[٦]. ومن أقام منهم فى هذه الأرض حافظ على

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p. 249;

أبواليمن العليمي: الأنس الجليل، جـ١، ص٨٠.

(٢) عبدالغنى النابلسى، (ت١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م.) عبدالغنى إسماعيل النابلسى: الحضرة الأنيسة فى الرحلة القدسية، القاهرة، ١٩٠٢م.، ص٥٤.

(٣) Jacob Ben R. Nathaniel Ha Cohen, The Itinerary of Rabbi Jacob, Ben R. Nathaniel Ha Cohen, Twelfth Century, in: J. T., p.92; Samuel Ben Samson, Op.Cit., p.105.

(٤) يحمل الجدول أسماء عدة أهمها؛ وادى الخليل والتفاح والأفرنج فضلاً عن أشكول ويُصب ماءه فى نهر صغير والذى بدوره يصب فى البحر المتوسط. انظر: على أحمد السيد: الخليل والحرم الإبراهيمى، ص٦٩.

(٥) Obadiah, Op.Cit., p.249.

(٦) بطرس عبدالملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، مادة: أشكول. أما عن الإشارات التوراتية فى هذا الشأن، انظر: سفر العدد: ١٣: ٢٣و ٢٤ و٣٢، سفر التثنية: ١: ٢٤.

التقليد ذاته. ولم يختلف المعاصرون المسيحيون عن اليهود كثيرًا فى حديثهم عن كروم الخليل وفلسطين[١]،أما المعاصرون المسلمون فيذكرون ((أما الكروم بظاهر المدينة [الخليل] فيتميز بالوفرة؛ فهى محيطة بها من كل جانب، وفيها أنواع الفواكه أعظمها العنب، وهى على صفة كروم بيت المقدس[٢])) ومن ذلك يتبين أنه ترسخ عند معتنقى الأديان السماوية الثلاثة مفهوم أن ازدهار زراعة المحاصيل ومباركة الأرض فى فلسطين تقترن بمدى قدسيتها.

وعلى الطريق إلى القدس يذكر عوبديا: ((بدت لنا مقبرة راشيل Rachel[٣] [راحيل والدة يوسف عليه السلام] حيث يوجد مبنى دائرى تعلوه قبة، وعندئذ نزلنا عن ظهور جحاشنا، وأدينا الصلاة عند هذه المقبرة كل بما تيسر له[٤]))، وهناك من يحدد موقع هذه المقبرة فيما بين بيت لحم وبيت المقدس. حيث تعلوها ((قبة موجهة لجهة [مسجد] الصخرة وهى مشهورة تُزار[٥] ولاسيما من قبل الزوار اليهود)).

أما مدينة القدس، فقد شكلت حجر الزاوية فى البعد الدينى على مدى خطابات عوبديا الذى شد رحاله خصيصًا إليها، بل قرر أن يجعل منها مستقرًا وموطنًا؛ وفى الواقع فللقدس أهميتها الخاصة عند المسلمين والمسيحيين واليهود، فبالإضافة إلى ما تحتويه من المعالم الدينية فهى تمثل واحدةً من أهم المراكز الروحية للجميع. وبالنسبة لليهود تشغل القدس – أورشليم – مكانًا مركزيًا فى الوجدان اليهودى، فبعد استيلاء داود عليه السلام عليها من اليبوسيين، حمل إليها تابوت العهد، ثم بنى سليمان عليه السلام فيها الهيكل، وهى أيضًا تضم جبل صهيون وقبر داود وما يدعى بحائط المبكى، ولهذا اتجه اليهود إليها فى صلواتهم، وفى عيد الفصح Passover اعتادوا ترديد عبارة ((نلتقى فى العام القادم فى أورشليم)) وهى المدينة التى كانوا يحجون إليها ثلاث مرات فى العام. وتوجد فى تشاريعهم ما يؤكد على أنها سرة العالم، ولا يضاهيها فى حسنها مدينة أخرى، كما أنها

---

(١) على أحمد السيد: الخليل والحرم الإبراهيمى، ص٣٢٩ – ٣٣١.

(٢) أبو اليمن العليمى: الأنس الجليل، جـ٢، ص٨١.

(٣) هى راحيل بنت لابان تزوجها يعقوب عليه السلام، وأنجب منها يوسف وبنيامين عليهما السلام، وماتت عند ولادها لبنيامين، ودفنت على بعد ميل على الطريق من بيت لحم إلى القدس، ويعرف ذلك المزار بقبة راحيل. انظر: بطرس عبدالملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، مادة: راحيل.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.234.

(٥) أبواليمن العليمى: الأنس الجليل ، جـ٢، ص٦٦.

ستشهد عودهم، ويومئذ تفيض بالخير العميم، وهى إحدى مدن فلسطين الأربع المقدسة التى يجب ألا تنقطع فيها الصلاة فضلاً عن الخليل وصفد وطبرية. ومع ذلك تحرم اليهودية الحاخامية العودة إلى فلسطين إلا فى آخر الزمان، ومن ثم اتجهت اليهودية الإصلاحية إلى أن فكرة اللقاء فى القدس هـى مجرد فكرة معنوية(١). ولعل الصفحات التالية التى تتضمن الرؤية الدينية لعوبديا نحو القدس تبين اتجاهاته، وما إذا كانت نزعة استيطانه لها قد توقفت عند مجرد كونها فكرة معنوية، أم تخطتها إلى المعتقد الحاخامى؟.

كـان عـوبديا بطبـيعة الحال منذ البداية مدركًا لأهمية القدس الدينية بالنسبة لجميع معتنقى الديانات السماوية، وقد عبر عن ذلك فى خطابه الثانى لأخيه حيث قال: ((وإلى هنا حيث القدس يأتى الناس من مصر ودمشق وحلب، ومن بلاد أخرى ليسجدوا بين يدى الله وفى حضرته))، وهو بـذلك يكـاد يـردد ما يذهب إليه المسلمون من أن القدس الشريف معظم عند جميع المسلمين، والـيهود، والنصارى، ومكان زيارة لهم أجمعين، وإنما اختلافهم فى أماكن الزيارة منه. وفى موضع آخـر ذكر عنها ((إنها القدس، وبالرغم من الدمار الشديد الذى ألم بها، فإنها ما تزال تضم ....)) وأخذ يعدد أهم ما رآه، والذى يمثل أهم معالمها(٢) بالنسبة لليهود فتحدث عن معبدين بها، وكان المعبد الذى اعتبره هيكل سليمان Temple Salomonos أهمهما حيث ذكر عنه ((دأب العرب على أن يأتوا إلى الهيكل ليؤدوا صلواتهم فى خشوع، ذلك أنهم يحيطونه بالتبجيل الشديد(٣))). ثم اسـتأنف حديـثه عنه مبرزًا موقف السلطات المملوكية من زيارة اليهود له على اعتقاد منهم بأنه هـيكلهم فيقول: ((ليس لأى يهودى أن يدخل إلى محيط هذا الهيكل، ومع ذلك فأحيانًا ما يسمح العرب، وهم مرتابون للنجارين وسابكى الذهب اليهود بإنجاز أعمال لهم هناك شريطة عدم النفاذ

---

(١) لوتسك هارلى: عادات وتقاليد اليهود، ترجمة: مصطفى الرز، القاهرة، دار سلمى، ١٩٩٤م.، ص٧١، ١٢٤ – ١٢٥؛ عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٤، ص١٢٤– ١٢٥.

ويلاحظ هذا الباحث أن الصهيونية فسرت الشعار الدينى تفسيراً حرفية وحولته إلى شعار سياسى، وعليه قام الصهاينة بتغيير الصلوات، واستبدلوا بالصيغة التقليدية فى الدعاء صيغة جديدة تقول: "فى العام القادم نعيد بناء أورشليم".

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.246;

العمرى (ت٧٤٩هـ./ ١٣٤٩م.) شهاب الدين أبوالعباس بن فضل الله: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، دولة المماليك الأولى، تحقيق: دوروتيا كرافولسكى، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠٧هـ./ ١٩٨٦م.، ص١٢٤.

(٣) Obadiah, Op.Cit., pp.236, 238.

ى داخله؛ هذا نظراً لأننا نحن اليهود نُجسنا بالاعتداء على أجساد الموتى[١]. وأننى لا أعرف إذا ما كان العرب دخلوا إلى أقدس المقدسات أم لا. ... أما التابوت فيوجد أسفل قبة جميلة[٢] ومرتفعة ـيت بأيـدى العـرب فى ساحة الهيكل، وأن التابوت فى جوف هذا المبنى، إذ لا يسمح لأحد الدخـول إليه. وهناك حيث الأسوار المحيطة بالهيكل توجد الكنوز والثراء العظيم[٣])). وقد ردد طالـب اليهودى بعضاً من كلمات عوبديا هذه عن الحرم ذاكرًا إنه ((مسموح للمسلمين فقط الدخول إليه[٤])).

ولفهـم ما يعنيه صاحب الخطابات فى عباراته تلك لابد من تبيان الخلفية الدينية عن معتقدات ـيهود تجاه ما كان هيكلاً لهم فى المرحلة الأولى ما بين عامى (٩٦٨ – ٥٨٧ق.م) فهو يدعى أن ليكل قابع تحت قبة الصخرة، ((فالصخرة قبلة اليهود الآن وإلى القدس حجهم[٥])). وعليه فإن ـدس الأقداس هو أقدس الأماكن داخل الهيكل، بل هو أقدس مقدسات اليهود، وقد كان عبارة ـن مبنى حجرى بلا نوافذ أقيم على مستوى أعلى من الجزء المسمى الهيكل فى هيكل سليمان. كـان قدس الأقداس يضم تابوت العهد، وهو يرمز عند اليهود إلى كلام الله. ويعتقدون فى أن وح الإلـه تحل فى هذا التابوت، وكان يفصل قدس الأقداس عن بقية الهيكل باروخيت وسلسلة ن الذهب، ولم يكن يدخله سوى كبير الكهنة فى يوم الغفران ليتفوه باسم الإله (يهوه). ولما كان

---

(١) تضمنت معتقدات اليهود الدينية مستندةً إلى التوراة عدة مسببات للنجاسة من أهمها؛ أن يمس الإنسان يهودى جثة أحد الموتى، إصابة أى منهم بمرض البرص، سيلان الدم الطبيعى بسبب المرض أو الطمث. انظر: زكى ـودة، المجتمع اليهودى، ص٢٠٢– ٢٠٣؛ هذا ويحرص اليهود على غسل أيديهم مرتين بعد الجنازة؛ مرة فى قابر ومرة قبل دخول المنـزل تطهرًا مما علق بها من جثة الميت. انظر: لوتسك هارلى: عادات وتقاليد اليهود، ص ٣.

(٢) ما من شك أن القبة المذكورة هى قبة مسجد الصخرة المشرفة، وهى الصخرة المشهورة عند المسلمين، يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب حوالى ثمانية عشر مترًا، وعرضها إلى الغرب ثلاثة عشر مترًا، أما ارتفاعها فيبلغ رًا واحدًا، وقد يصل إلى مترين فى بعض الأجزاء، وتغطيها قبة واسعة تم بناؤها فى عهد الخليفة الأموى عبدالملك ، مروان عام ٦٩١م./ ٧٢هـ. وهى على شكل مثمن حيث يمثل كل ضلع عشرين مترًا وارتفاعه عشرة أمتار. ظر: سيد عبدالمجيد بكر: أشهر المساجد فى الإسلام – البقاع المقدسة، جدة، ١٩٨٠، ص٢٩؛ سليمان فتوح: يهود والقدس، دراسة تاريخية للادعاءات الصهيونية وممارستها فى المدينة، زهراء الشرق ، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١.

(٣) Obadiah, Op.Cit., pp.235, 239, 240.

(٤) A Student's letter, p.92.

(٥) العمرى: دولة المماليك، ص١٢٤.

قـــدس الأقـــداس أكثر الأماكن قداسةً لدى اليهود، ولا يحق لهم أن تطأه أقدامهم، لذا فإنه يحرم علـــيهم أن يذهبوا إلى جبل البيت (موريا) الذى يضم قبة الصخرة، حتى لا يدوسوا على الموضع القـــديم لقدس الأقداس عن طريق الخطأ[١]. ولكن خرج من بينهم مؤخرًا من ادعى تحديد موقعه بدقة، ومن ثم حق لليهود دخول منطقة الحرم[٢].

وعلـــى ذلـــك يمكننا تفسير عدم قدرة عوبديا وغيره من اليهود على الدخول إلى محيط الحرم وتخطى أسواره وفقاً للمحاذير المعاصرة، بيد أنه كان واهمًا فى أن القبة التى بناها المسلمون كانت تعلـــو قـــدس الأقداس وتابوت العهد داخله . كما أرجع حظر دخول منطقة الهيكل إلى توجس السلطات الإسلامية خيفة من دخول اليهود مرتكنةً إلى الاعتقاد فى أن الحرم القدسى الشريف هو الهـــيكل ذاتـــه، فى حين كان فى حقيقة الأمر حظرًا يهوديًا قبل أن يفرض عليهم من قبل المسلمين الذين استندت تحفظاتهم على قدسية الحرم.

ثمـــة مـــا يثـــبت إدراك عوبديا مدى اهتمام الحكام المسلمين بأبنية الحرم القدسى، إذ يذكر: ((كـــذلك فنحن نسمع أن الحكام قاموا بتشييد غرف مطعمة بالذهب هناك، ويقال أن السلطان [قايتـــباى] الذى يمسك بمقاليد الحكم حاليًا قد حرص على تشييد مبنى أكثر بهاءً من أى مبنى تم بـــناؤه من قبل، وتم تزيينه بالذهب والأحجار الكريمة[٣])). هذا وقد قدم الطالب اليهودى وصفاً مشابهاً للحرم أقر بأنه نقلاً عن رواية أحد المسلمين[٤]. وتاريخ القدس يثبت أن الخليفة العباسى أبا جعفـــر المنصـــور (٧٥٤ – ٧٧٥م./ ١٣٦ – ١٥٨هـــــ.) كان قد زار القدس وعنى بإضافة مدخلات على قبة الصخرة والمسجد[٥]، كما يفيدنا أبواليمن العليمى – مؤرخ القدس والخليل – بأبرز هؤلاء الحكام وهم: الناصر صلاح الدين الأيوبى، وابن أخيه المعظم عيسى، والظاهر بيبرس البـــندقدارى، والناصـــر محمـــد بن قلاوون، فضلاً عن الأشرف قايتباى، وكانت أهم المدخلات

---

(١) غازى السعدى: المناسبات والأعياد، ص٧٩– ٨١؛ زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص١٧٢ – ١٨٢.

(٢) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـــ٤، ص١٦٥– ١٦٦.

ولمعرفة المزيد عن فلسفة تحريم اقتراب اليهود من تابوت العهد، راجع: جورجى كنعان: تاريخ يهوه، ص١٥٦ – ١٥٨.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.240.

(٤) A student's letter, p.92.

(٥) سليمان محى الدين فتوح: اليهود والقدس، ص١٧، ٤٧.

المعمارية على الحرم القدسى فى عهد السلطان الأخير تتمثل فى أنه أتى بصناع من الأتراك فى عام ١٤٧٩م. – ٨٨٤هـ. بغرض تجديد طبقة الرصاص على ظاهر الجامع الأقصى، وتم فك الرصاص القديم، واستبدلوه بالجديد. وحينما زار ميشولام بن مناحم القدس بعد ذلك بعامين سجل قيام المسلمين بتغطية القبة الذهبية بالرصاص، ثم أضاف أبواليمن العليمى أنه فى عام ١٤٨٠م. – ٨٨٥هـ. والعام الذى تلاه تم تشييد المدرسة (الأشرفية) ملاصقة للمسجد حتى قيل عنها: ((مسجد بيت المقدس به جوهرتان هما قبة الجامع الأقصى وقبة الصخرة الشريفة؛ وقلتُ: وهذه المدرسة صارت جوهرة ثالثة، فإنها من العجائب فى حسن المنظر ولطف الهيئة))، وهناك المزيد من المدخلات المعمارية على المسجد شملت السبيل حيث فرشت أرضه بالرخام، وكذلك الفسقية بالقرب منه لينتفع الناس منها بالوضوء[1]. وأياً كان الأمر يتضح أن المستوطن اليهودى قد بُهر بالرقائق الذهبية التى غطت قبة الصخرة فبدت أمامه كثير من أجزاء الحرم القدسى وكأنها من ذهب وأحجار كريمة. ولم يكن ذلك على سبيل المبالغة، وإنما مشاهدته لها قد سيطرت عليها مشاعره.

ثم انتقل الخطاب إلى الحديث عن عنصر بوابات الحرم القدسى الشريف فيذكر : ((إن بأسوار هذا الهيكل اثنى عشرة بوابة ، أما التى تحمل اسم الرحمة[2] فقد صنعت من الحديد، وهما بوابتان تطلان على الجهة الشرقية من الهيكل ،وعادة ما تكونان مغلقتين، ونصفاهما يعلوان فوق الأرض، أما النصف الآخر فهو مغروس فيها. وقد قيل إن العرب حاولوا جادين عدة مرات رفعهما إلى

---

(١) أبواليمن العليمى : الأنس الجليل، جـ٢، ص١٠٠، ٣٢١، ٣٢٩؛ انظر أيضاً:

Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.190.

ولمعرفة المزيد عن إنجازات الحكام المسلمين فى الحرم القدسى: راجع : عبدالفتاح أبوعليه، وعبدالحليم عويس: بيت المقدس فى ضوء الحق والتاريخ، دار المريخ للنشر، ١٩٨١م.، ص٥٠ – ٥٦؛ إبراهيم الفنى وطاهر النمرى: المسجد الأقصى والصخرة المشرفة: التاريخ ، العمارة، الأنفاق، الحفريات، الخطط الصهيونية، الطبعة الأولى، دار الشروق، عمان ، ٢٠٠١م.، ص١٠٠ وما بعدها؛ راجع أيضاً: الجدول المتضمن مدخلات السلاطين والمماليك على الحرم القدسى فى: على السيد على: القدس فى العصر المملوكى، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٦م.، ص٢٧–٣١.

(٢) اعتاد اليهود من سكان القدس وزوارها التوقف عند بوابة الرحمة لتأدية الصلاة وذلك حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى/ التاسع الهجرى. انظر:

Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.191.

راجع أيضاً: إبراهيم الفنى، طاهر النمرى: المسجد الأقصى والصخرة المشرفة، ص٢٣.

أعلـــى، ولكنهم لم يستطعوا إتمام هذا العمل[١])). وهكذا نجد صاحب الخطابات يشير إلى بوابات مدينة القدس دون الحرم، ولم يهتم إلا بالإشارة إلى بوابة الرحمة منها. ومن المعتقد أن مرد ذلك أنها لم تكن بوابة للمدينة، وإنما بوابة للمعبد القديم فى نظره، فى حين كان الرحالة اليهود السابقون عليه أكثـــر موضوعية، حيث تحدث إسحاق شيلو Isaac Chelo حوالى عام ١٣٣٤م./ ٧٣٤ هـــ.، عن أربع بوابات للمدينة أفضت إلى بقية المدن الفلسطينية، أما ميشولام بن مناحم فقد أقر بوجود اثـــنى عشـــرة بوابة بمنطقة الحرم؛ منها خمس مغلقة وثلاث منها مشيدة فى الجدار، ويطغى عليها الطابـــع الإســـلامى فى البـــناء[٢]، وتقـــع بـــوابة الـــرحمة المـــزدوجة فى الجـــدار مشرفة على وادى يهوشـــفاط Josophat [٣] ومنها يبدأ الطريق المؤدى إلى قرية بيثانى (العيزرية) فأريحا فنهر الأردن[٤]، وتعرف البوابة أيضًا باسم البوابة الذهبية وبوابة التوبة[٥].

ومـــن أشـــهر البوابات الاثنى عشرة – التى لم يذكر عوبديا عنها أية تفاصيل، وتحدث عنها الرحالة الأوروبيون المسيحيون بإسهاب؛ بوابة الخليل – البوابة القديمة – بوابة العمود (الساهرة) – بـــوابة الأرمن – بوابة الأسباط – بوابة النبى داود[٦] (المغاربة)، فضلاً عن بوابة الرحمة التى ينبهنا

---

(١) Obadiach, Op.Cit., p.240.

(٢) Isaac Chelo, Roads from Jerusalem, 1334 A. D., (ed.): Adler, N. E., in: J.T., London, 1930, pp.134- 149; Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.191.

(٣) يعرف وادى يهوشفاط بعدة أسماء: وادى قدرون، وادى جهنم، وادى الدموع، وادى النار، وادى سلوان، وادى مريم. وهو يمتد من جبل الزيتون شرقاً إلى جبل موريا غرباً، ويعد أحد أودية بيت المقدس العميقة. انظر: بورشارد من جبل صهيون: المصدر السابق، ص١٢٦؛ واسم يهوشفاط يشير إلى رابع ملوك المملكة الجنوبية (يهودا) الذى عقد تحالفا مع أخاب ملك المملكة الشمالية (السامرة) لمحاربة الآراميين، لكنه هُزم فى الحرب كما قُتل حليفه، وفى مرحلة تالية تمكن من أن يمد حدود مملكته شرقًا، ونجح فى بناء أسطول له فى البحر الأحمر، ولكن عاصفة دمرته. انظر:/عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـــ٤، ص١٨٥.

(٤) بورشارد من جبل صهيون: وصف الأرض المقدسة، ١٢٣٢م.، ترجمة وتعليق: سعيد البشاوى، ط١، دار الشروق، عمان، ١٩٩٥م.، ص١٢٦. انظر أيضًا:

Meshullam of voltera, Op.Cit., p.189.

(٥) إبراهيم الجندى: فلسطين فى عيون الرحالة الأوروبيين، بحث منشور فى: المجلة الفلسطينية للدراسات التاريخية تصدر عن الجمعية الفلسطينية للدراسات التاريخية، رام الله، المجلد الأول، العدد الثالث ١٤٢٣هـــ./ ٢٠٠٣م.، ص١٢٤ – ١٦١، ص١٣٤.

(٦) بورشارد من جبل صهيون: المصدر السابق، ص١٢٦ وما بعدها؛ راجع أيضاً عارف باشا العارف: تاريخ القدس ، دار المعارف، ط٢، القاهرة، ١٩٥١م.، ص١٧٣ – ١٧٤.

عـــوبديا إلى أنها تتألف من بوابتين، وهو الأمر الذى أكده مؤرخ القدس والخليل، حيث ذكر أنها تتألف من بابين متحدين فى السور الشرقى، وهما من داخل الحائط مما يلى المسجد، أحدهما يسمى بـــاب الرحمة، والثانى يسمى باب التوبة، والمكان مقصود للزيارة. وبرر المؤرخ عدم فتحهما حماية للمســـجد والمديـــنة من الأعداء، كما أنهما يطلان على الوادى وينتهيان إلى البرية، ولذا ليس فى فـــتحهما كـــبير فائدة[١]. والجدير بالذكر أن كل من بوابات القدس حملت أكثر من مسمى وفقًا لتسيد المسمى أو اختفائه فى كل مرحلة تاريخية.

وما زال عوبديا يعمد إلى أن يتحدث عن الحرم القدسى على أنه الهيكل فيقول: ((وفيما يختص بالحائط الغربى، فإن جزءاً منه مازال قائمًا، وهو يتألف من حجارة ضخمة، صلبة، ولم أرَ أبدًا من قـــبل مثيلاً له من حيث قدم بنائه، سواء أكان فى روما أم فى أى بلد آخر[٢]))، لعله ذلك السور الذى يقال أن هيرودوس الوالى الرومانى فى فلسطين (٣٧ – ٤ ق.م) هو الذى بناه ليحيط بالهيكل والمـــبانى الملحقة به، ولقد سمى اليهود السور حائط المبكى لأن الصلوات حوله تأخذ شكل عويل ونواح، فى حين يسميه المسلمون العرب حائط البراق لأن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ربط دابته ليلة الإسراء عنده[٣] ويبلغ طوله ثلاثة وخمسين مترًا، أما ارتفاعه فهو تسعة عشر مترًا، كما يعـــرف أيضًا بالحائط الغربى. والثابت أن هذا الحائط بمسماه ((المبكى)) لا توجد له أية إشارة فى المصادر اليهودية التى تتضمن وصفاً للقدس حتى عام ١٥٢٠م.، ولكن ما لبث أن أصبح له قداسة خاصـــة فى أعقـــاب الفتح العثمانى وبداية من هـــذا التاريخ[٤]، وبالفعل نجـــد ميشولام فى عام ١٤٨١م./ ٨٨٦هـــ. يذكر: ((الآن، لم يعد هناك جدران للقدس بخلاف جدار صغير على جانب واحد مررنا من خلاله، وبسبب خطايانا تحولت إلى حطام[٥]))، إلا أن عوبديا قد أشار هو أيضًا إليه

---

(١) أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـــ٢، ص٢٧، ويلاحظ أن أبا اليمن العليمى كان متواجداً بالقدس عام ٨٨٦هـــ./ ١٤٨١م.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.240.

(٣) رشاد الأمام: مدينة القدس فى العصر الوسيط، الدار التونسية للنشر، ١٣٩٦هـــ./ ١٩٧٦م.، ص ١٨٧.

(٤) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـــ٤، ص١٦٩– ١٧٠؛ سليمان فتوح: اليهود والقدس، ص ٢٠. وتوجد دراسة أثرية عن حائط البراق يمكن الوقوف عليها فى : إبراهيم الفنى، طاهر النمرى: المسجد الأقصى والصخرة المشرفة، ص٧٢ وما بعدها.

(٥) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.189.

مجازًا كما أوضحنا مع ملاحظة أنه شأنه شأن باقى يهود عصره لم يطلق عليه حائط المبكى. ومن ثم فلعلــه كان يقصد الحائط الغربى لقدس الأقداس الخاص بالهيكل على اعتبار أنه باقٍ مجرد ذكرى للمبنى فى نفوس اليهود، نظراً لعدم تبلور المعتقد والمسمى المذكور بعد لدى اليهود.

ومــن معالم القدس الرئيسية أيضًا مالم يقتصر على الناحية الدينية إنما قد يكون حربيًا أيضاً، ألا وهــو برج داود David's Tower. وعنه يذكر عوبديا: ((ويوجد برج من كتل حجرية شديدة الضــخامة فى الــركن الشمالى الشرقى. لقد دخلتهُ ووجدتهُ عبارة عن صرح شامخ يرتكز على أعمــدة ضخمة وسامقة؛ كما يوجد به كثير من الأعمدة التى أصابتنى بالسأم قبل أن أبلغ منتهى المبنى. فكل شئ مليئ بالثرى الذى أُلقى هناك من بقايا الهيكل. وتوجد فتحة فى جميع الأعمدة التى يقوم عليها مبنى الهيكل يمكن من خلالها جذب حبل. وقد قيل أن الثيران والكباش المقدمة كأضاحٍ كانت توثق هنا[١])). والصورة الخيالية التى رسمتها ريشة عوبديا فى الخطاب الأول عن برج داود رسمها أيضًا أبو اليمن العليمى بموضوعية حيث قال عنه: ((حصن عظيم البناء بظاهر بيت المقدس مــن جهــة الغرب، وكان قديمًا يعرف بمحراب داود عليه السلام، وكان سكنه به .... وفى هذا الحصــن برج عظيم البناء يسمى برج داود، وهو من البناء السليمانى القديم))، ثم تعرض المؤرخ لحــرص كــلٍ مــن الروم والصليبيين على عمارة القلعة وإضافة مزيدٍ من المدخلات عليها، حتى أصــبحت فى ظــل الحكــم المملوكى مقراً لنائب السلطنة، فلا تخصُ سوى النائب على القدس، وأضــاف: ((وقد تلاشت أحوالها فى عصرنا[٢])) أى فى عام ٨٨٦هــ./ ١٤٨١م. وقت تواجد المؤرخ فى القدس. وبمضاهاة الصورتين اليهودية والإسلامية نجد بهما بعض الاتفاق الذى يشهد على صــدق الراسمين، فكلاهما يصوران مدى الخراب الذى ألم بالمبنى إلا أن هناك ما يلفتِ النظر فيما صوره عوبديا فيما يتعلق بانتشار الثرى فى بقايا الهيكل والفتحات التى يمكن من خلالها جذب حبل كانــت الأضاحى توثق به، إذ كان ذلك من قبيل أحلام اليقظة عنده، وكأنه يتمنى أن يرى ذلك حقيقةً، علامةً لإحياء مجد بنى إسرائيل.

أما فيما يتعلق بمعبد اليهود الحقيقى بالقدس الذى يمكن تمييزه فى كتابات عوبديا خلال إشارته إليه بأنه Synagogue فيذكر أنه: ((معبد مؤسس على أعمدة مرتفعة متقاربة ومظلمة، ولا يدخله الضــوء إلا عــن طــريق الــباب، وفى وسطه عين ماء، ويوجد فى ساحة المعبد وقريبًا جدًا منه

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.240.

(٢) أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جــ٢، ص٥٥.

المسـجد[١])). وفى الواقع لم نعثر عند المعاصرين على شئ يلقى الضوء على هذا المعبد إذ اكتفى مشولام بن مناحم بالإشارة إلى معبدين زارهما؛ أحدهما فوق تل رامة الخليل خارج القدس بما يزيد عـن ستة أميال، ومعبد النبى صموئيل Samuel الذى يؤمه اليهود للزيارة[٢]. وبمراجعة الكتب المتخصصـة فى أبنـية اليهود نجد فيها ما يُبصرنا بهذا المعبد؛ إذ ورد فى أحدها أنه فى فترة العصور الوسطى ومنذ القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى كان بالقدس مجمع لمعابد اليهود يضم فى حقـيقة الأمـر أربعـة مـنها وهى: معبد الياهو هاناف Eliahu Hanavi ومعبد إسطنبولى Istembuli ، ومعبد إمشتاى Emtsai وأخيرًا معبد يوحانان بن ذاكى Yahanon ben Zakai، ويُعـد الأخير أهمهم وأكبرهم حجمًا (تسعة فى عشرين مترًا) متخذًا شكل المستطيل غير المنتظم، وترتفع من فوقه قبة تميزه، ويضم المعبد فى جهته الشرقية تابوت عهد مزودج ربما إشارة إلى أنه جاء مكملاً لمعبد مدنشاه رامبان Midnasha Ramban [٣] الأقدم منه قبل التاريخ المذكور. أما ساحة الصـلاة فبداخلها مشكاه تحتوى على قرن كبش وقارورة زيت رمزًا للفكر الدينى اليهودى الذى يـتجه إلى مسح النبى إلياس المشياح بهذا الزيت، وكان التأثير الأندلسى واضحاً فى المعمار، وهذا ماثـل فى الـنقوش أعلى المعبد وفى شكل النوافذ. ويضم القاعة الغربية المخصصة للصلاة غرفة للنســاء. والقاعة تفضى إلى بابين يؤديان إلى ممرين الأول يتجه إلى معبد الياهو هاناف فى الجنوب، والآخر يؤدى إلى المعبدين الآخرين بحيث يمكن الوصول إلى معبد إسطنبولى مرورًا بمعبد إمشتاى[٤]. ولعل هذا الوصف يمثل وصف عوبديا المختصر للمعبد بأنه مظلم، ولا يصله الضوء إلا عن طريق الباب مما يوحى باستمرار بقائه حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى.

بـذلك تتبين اتجاهات عوبديا العقائدية؛ فهذا الخلط المتعمد بين الحرم القدسى وهيكل سليمان الذى لا وجود له يعكس بدوره فكره الذى سيطر عليه علما بأنه أدرك هو ذاته تهدم المعبد وسجله

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.239, 240.

(٢) Meshullam of Voltera, Op.Cit., pp.192, 193.

(٣) وهذا هو الاسم الحالى للمعبد، وعن هذا المسمى راجع:

Gottheil, G., Richard Deutsch Gotthard and Others, Jerusalem, an essay in Jewish Encyclopedia, Vol. V, New York, 1901 – 1906, p.109;

وعن منظر معبد يوحانان بن ذاكى من الداخل انظر: رقم (٨) فى نهاية الدراسة.

(٤) Sed- Rojna, Gohielle, L'art Juif, c, L'art et les grandes civilisations, Paris, 1995, p.603.

فى خطابـــه هذا[١] بيد أن هناك اتفاق فيما بين مؤرخى ورحالة العصور الوسطى الأوروبيين أيضًا علـــى اعتبار الحرم القدسى المشتمل على قبة الصخرة والمسجد الأقصى هيكل سليمان[٢] ترسيخًا لأفكارهم الدينية رغم المخالفة التاريخية الواضحة التى يدركون حقيقتها وصحتها تمامًا. ويجب هنا أن نبرز إلى أى حد كانت الدوافع الدينية تجعل صاحبها يرى الأمور على غير واقعها حتى الثوابت منها، فكثير من مشتملات الحرم تمنى عوبديا أن تكون من مشتملات الهيكل، ووصلت به أمانيه إلى حد الادعاء برؤيته ومشاهدته. ثم الإقدام على تدوين ذلك ونشره بين ذويه.

ولكـــن يـــبدو بعد أن أقام عوبديا ما يناهز العامين فى القدس، وبعد أن أخذ يعقل الأمور غير منســـاق إلى عواطفه الدينية أرسل خطابه الثانى الذى كان قد وجهه إلى أخيه يقول فيه: ((فأنت تسألنى عن المعجزات التى تردد حدوثها فى جبل الهيكل وفى مقابر الأتقياء الأبرار، ولكن ماحسبى أن أخبرك به يا أخى عنها؛ فى الواقع فإننى لم أرَ تلك المعجزات، وبالنسبة لما يقال عن الأنوار التى تلقى على أحد جوانب الهيكل، وهى التى سمعت أنت بها بأنها فى العادة لا تتوقف عن الإضاءة فى يـــوم التاسع من آب، وهو أمر قيل لى أنه يحدث بالفعل إلا أنه لا يمكننى أن أتحدث بشكل مؤكد عنه؛ حيث إننى لا أرى بداً من أن أجزم بعدم صدق القصة المنسوبة إلى اليهود السفارد، وما يملؤها من خداع وأكاذيب؛ إلا أن رجال أذكياء مثلك يا أخى عليهم أن يتحققوا من مثل هذه الأساطير، وألا يثقوا فى ما يصلهم من تقارير كاذبة[٣])). وتاريخ التاسع من آب يَذكر اليهود باليوم الذى قام فـــيه الإمبراطور الرومانى تيطس بهدم الهيكل عام ٧٠م.، ولذا فهم يحتفلون بالذكرى عند حائط الـــبراق (المبكى)[٤] وفى هذا الشأن يذكر الرابى ميشولام بن مناحم أنه ((حينما يذهب اليهود إلى المعـــبد كـــل عام فى ليلة التاسع من آب يخرجون جميع مصابيح ساحة المعبد بموافقة المسلمين، ولا يمكـــن إشعالها مرة أخرى. والمسلمون على علم بما يحدث فى هذه الليلة، وهى الليلة التى يترقبونها

---

(١) انظر العبارة التى أرخ فيها لمعبد بن عزرا بالقاهرة ونص فيها على ((أن بناءه يعود إلى ثمانية وثلاثين عاماً قبل تدمير المعبد الثانى راجع:

Obadiah, Op.Cit., p.231.

(٢) William of Tyre, A History of Deeds done beyond the sea, trans. by Emily Atwatter Babcock, and A. C. Krey, 2 vols, New York, 1943, vol. I, p.61; Theoderich, Description of the Holy places, 1172 A.D., Trans. by Aubrey Stewart, in: P.P.T.S, vol. V, London, 1894, p.47; Meshullam of Voltera, Op.Cit., pp.189 - 190.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.245.

(٤) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٤، ص١٦٩؛ رشاد الإمام: مدينة القدس فى العصر الوسيط، ص١٨٧.

مثلهم مثل اليهود لهذا السبب. وهو أمرٌ مؤكد ومعروف لكل الناس بدون شك[١])). وهكذا يُعد ميشـــولام مـــن الأناس المخدوعين بحدوث هذه الظاهرة. فى حين تشهد عبارات عوبديا بالعقلانية وتحرى الموضوعية، حيث أجزم بأن الخوارق التى يعتقد فيها بعض اليهود فى الغرب الأوروبى ما هى إلا مجــرد أكاذيـــب، ومن ثم يبدو أن الرحالة ميشولام قد جانبه الصواب حين اعتقد فى مشاركة المسلمين لليهود هذا الاحتفال.

وإذ نحـــن بصدد مواصلة الحديث عن مقدسات اليهود فى خطابات عوبديا داخل القدس، فقد شـــكلت والأضرحة القبور جانبًا مهمًا منها ليس فى المدينة المقدسة فحسب، إنما فى فلسطين بعامة حيث أشار إلى عدد منها، فأورد عنها ((وخلال كل مكان فى منطقة القدس، حيث الحقول توجد مغـــارات متصلة حيث تجاور المغارة منها الأخرى شأنها فى ذلك شأن بساتين الكروم. ففوق جبل الـــزيتون Mount of Olives يقع قبر النبى هاجيا Haggia وقبر الكاهنة هيلدا Huldah [٢]. علاوةً على ما يزيد عن عشر مغارات كل منها تنفذ إلى الأخرى)). ومن قبل كان الرابى ميشولام قد أبدى اهتمامه بزيارة القبرين المذكورين، ولفهم ما صوره عوبديا عن القبور والمغارات فى شكلها العجيب هذا، فإن أبا اليمن العليمى يتحدث عن موضع يدعى ((الساهرة)) ذلك البقيع الذى يقع فى ظاهر مدينة القدس الشريف من جهة الشمال التى تضم قبوراً لجماعة من الصالحين، ويتفق معه الرابى ميشولام فى تحديد موقع هذه القبور العجيبة جهة الشمال بمسافة ميل واحد خارج القدس، ومن ثم لا نجد مصداقية لما ذكره عوبديا من أنها تضم قبرى النبى هاجيا والكاهنة هيلدا الذى حدد موقعهما فوق جبل الزيتون مع المغارات العشر. ويأتى سبب غرابة بناء القبور فى أن الكهف الذى ضمهما نُحت فى الصخر وله باب يحتوى على عديد من الكهوف الواحدة فوق الأخرى فى تناسق

---

(١) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.190.

(٢) هاجيا لفظة عبرية تعنى عيد ويرسم أيضًا حَجىّ ، وهو أحد الأنبياء الصغار أصبح نبيًا بعد السبى البابلى، دعا إلى إعادة بناء الهيكل، فبُنى فى عهده، ويذكر له إنه تحدث عن قوانين النجاسة لدى اليهود، وللمزيد، انظر:

Ben- Sasson H. H., A History of Jewish people, p.218.

انظر أيضاً: عبدالجليل شلبى: اليهود واليهودية، الطبعة الثانية، أخبار اليوم، القاهرة ١٩٩٧، ص٧٧.

أما السيدة هيلدا فلعلها السيدة خلدة امرأة شلوم بن تقوة بن حرحس يشار إلى أنها انفردت بالنبوة بين النساء، حيث استلمت لفائف الشريعة أثناء سكنها القدس انظر: سفر الملوك الثانى: ٢٢: ١٤راجع أيضاً:

electronic ed. www.dhushara.com

جمالى رائع(١). ثم يواصل أبواليمن العليمى شرحه للمقابر فيذكر إنها تقع فوق جبلٍ عال وعند أسفله وتحته كهف من العجائب، وهذا يرجع إلى ((أنه داخل تحت هذا الجبل فى صخرة عظيمة، وتسمى مغارة الكتان والمقبرة التى هى الساهرة علو سقف هذه المغارة، بحيث أنه لو أمكن حفر القبور من أسفلها لنفذ إلى الكهف ... لكن المسافة بعيدة فإن الصخرة سميكة ضخمة جدًا، وفى هذا الشأن يقال: أحياء تحت أموات، وهذا الأمر مشاهد عيانًا(٢))) ولعل بذلك اتضح ما كان يقصده عوبديا من نفاذ المغارات كلٌ منها إلى الأخرى.

ذهب عوبديا مرة أخرى إلى الحديث عن أضرحة أنبياء اليهود وحكمائهم، فيذكر: ((أما المقبرة التى تضم رفات السبعين من الزعماء، وهى التى تقع على مبعدة حوالى ألفى ذراع(٣) من القدس، فهى مبهرة وفخمة خاصةً قبر شمعون Simon العادل(٤). وفى كل مكان ، فى الخارج والداخل وسواء فى الحقول أو المنازل فإن المغارات لا حصر لها(٥))) وكان الرابى ميشولام قد زار مقبرة

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.240 - 241; Meshullam of Voltera, Op.Cit., pp.191- 192; cf; also, Gotheil, G., and others, Jerusalem, p.10.

أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـ٢، ص٦٢– ٦٣.

(٢) أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـ٢، ص ٦٣.

وتكشف الحفائر التى أجريت منذ عام ١٩٦٧م. فى القدس عن وجود عدد من الممرات تحت الأرض وكهوف لعل أهمها ذلك الكهف الذى يمتد من شمال غرب المسجد الأقصى حتى أسوار القدس الشمالية، وهو مسقوف بالصخور بارتفاعِ ثلاثين قدماً مستنداً على أعمدة صخرية كبيرة غير منتظمة يضم الكهف عددًا من الحجرات الصغيرة. وفضلاً عن ذلك تم الكشف عن بعض القبور التى حُفرت عمودياً فى الصخر. راجع:

Marmorstein, Rabbi Avrohom, (ed.) Pathway to Jerusalem, The Travel Letters of Rabbie Ovadiah, nos. 64- 65.

(٣) ما يعادل ٤٥سم تقريباً.

(٤) لعله شمعون المكابى، القائد الإسرائيلى الذى جسد طموحات اليهود فى السيادة على أرض يهوذا بفلسطين، وكان مؤشر ذلك ضربه مع الزعيم الآخر اليعازر فيما بين ١٣٢ – ١٣٥م. أثناء الحكم الرومانى نقود فضية حاملةً شعار "لجلت يسرائيل" أى تحرير إسرائيل، وبرز فيها اسم "شمعون نسى يسرائيل" بمعنى شمعون أمير إسرائيل. كما ضُربت مجموعة نقود فضية ونحاسية أخرى فى تاريخ غير معلوم، على وجهها اسم شمعون وعلى الخلف "لحيروت يسرائيل" أى لتحرير إسرائيل.

انظر: فؤاد حسنين على: المجتمع الإسرائيلى، جـ١، ص١١٥.

(٥) Obadiah, Op.Cit., p.240.

شمعـــون والســـبعين زعيمًا أيضًا محددًا موقعها على بعد حوالى ميل خارج القدس جهة الشمال. وبالنظـــر إلى عدم إقدام عوبديا على توضيح موقع المقابر تحديداً، فإن هذا الأمر أوضحه أبواليمن العليمى بأنه بقيع الساهرة إلى الشمال من القدس. وبذلك فهو يؤكد على الجهة ذاها التى حددها ميشولام فى الشمال كما سلف ذكره[١].

ثم يستأنف الخطاب وصف مقابر اليهود فيذكر: ((وتوجد مقابر لليهود عند أسفل سفح جبل الهيكل. أما المستحدث منها، فتوجد عند أسفل جبل الزيتون فى حين يخترق وادى يهوشفاط أفنية القبور[٢])). ولعلها تتفق مع موقع مقبرة باب الرحمة بجوار سور الحرم القدسى الشرقى فوق وادى جهنم الذى يذكره رحالة اليهود[٣] باسم يهوشفاط، وتعد أقرب المقابر إلى المدينة. أما بقية القبور الـــتى تخـــص اليهود فقد تتواجد فى الخارج حيث أحد أركان مقبرة ماملا الواقعة فى الظهير جهة الغرب، وتعد أكبر مقابر البلد: ((وتسميتها بماملا... مما مَن الله ... واسمها عند اليهود بيت ملواء، وعند النصارى بابيلا)). ورغم أنها تضم بشكل غالب مقابر ((خلق من الأعيان والعلماء والصالحين والشهداء المسلمين))[٤]، إلا أن حمل المقابر مسمى يهودى وآخر نصرانى يشير إلى أنها استوعبت فى أركانها المختلفة موتى من معتنقى الأديان الثلاثة. وقد يبدو فى ذلك شئ من التعارض، بيد أن الرابى ميشـــولام يضع له تفسيراً؛ أن المسلمين المحليين قدسوا الأماكن ذاتها التى يقدسها اليهود جيلاً بعد جـــيل، وعندهم العادات نفسها التى عند اليهود فى الزيارة حتى بلغ بهم الاهتمام القدر الذى به يسألون اليهود ((لماذا لا تذهبون إلى قبر هذا القديس أو هذا النبى؟.[٥])).

---

(١) Meshullam of Voltera, Op.Cit., pp.192 - 193;

أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـــ٢، ص٦٣، ٦٤.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.240.

(٣) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.194; Obadiah, Loc.Cit;

أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـــ٢، ص٦٣.

(٤) أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـــ٢، ص٦٤.

(٥) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.194.

ومما يضيفه عوبديا عن معالم القدس الدينية ((ليس بعيدًا عن وادى يهوشفاط تقبع معالم تحمل ذكرى قبرى أبشالوم Absalom [1] والنبى زكريا Eachariah [2]. وجدير بالذكر أن القبر الأخير يخص زكريا بن يهويا داع أحد أبطال اليهود، ويقع القبران فى وادى يهوشفاط عند سفح جبل الزيتون من جهة الجنوب[3]، وكان ميشولام قد زار القبرين، ووصفهما بأنهما عبارة عن كتل حجرية ضخمة يعلو كلاً منهما برج، كما حرص الطالب اليهودى على زيارة مجموعة القبور المذكورة وتسجيل ذلك فى خطابه واصفًا إياها بالجمال[4] وهكذا تتكون لدينا قناعة بوجود اهتمام خاص اتفق عليه يهود تلك الفترة بزيارة قبور بعينها فى القدس أو بالقرب منها.

وفى الواقع نجد لأصحاب القبور التى حرص عوبديا على زيارتها وقعًا خاصًا، ولم تكن زيارته لهم جزافية، إذ كان لها مدلولها العميق، ففيما يخص قبر النبى هاجيا، فيذكر له التراث الإسرائيلى أنه دعا إلى إعادة بناء الهيكل، فبُنى فى عهده. أما النبى زكريا فكانت نبوّته قد ارتبطت بالتحرر من سطوة الملك، واللجوء إلى رب يهوذا فى القدس. أما شمعون المكابى، وعرّفه عوبديا على أنه شمعون العادل، فقد كان زعيمًا لليهود فى فلسطين جسد طموحاتهم فى السيادة حتى ضُربت باسمه العملات فى ظل السيادة الرومانية ... إلخ. وعلى ذلك لنا أن ننظر إلى هذا الطرح من قبل عوبديا

---

(١) أبشالوم: هو ثالث أبناء داود. ولد فى الخليل، وعندما نقل داود عاصمة ملكه إلى القدس، انتقل معه أبشالوم، وهو لا يزال بعد صبياً صغيراً. وقد هرب من أبيه لاتهامه بقتل أحد أشقائه، واتجه إلى الخليل، وجمع حوله حشداً أرهب والده به مما اضطره لترك القدس، ووقعت معركة بين الطرفين قتل فيها ما يقرب من عشرين ألف جندى من جيش أبشالوم وقد هلك أبشالوم نفسه. انظر:

Ben Sasson, H. H., Histroy of Jewish people, p.8.

وكان أبشالوم قد أقام نصباً لتخليد ذكراه، ولا يعرف موضعه الآن على وجه التحقيق ومع ذلك يوجد فى وادى يهوشفاط قبر يعرف بقبر أبشالوم، ولكن يظهر من هندسة البناء أنه أقيم فى عصور متاخرة ربما ترجع إلى العصر الرومانى أو الإغريقى الرومانى. انظر: بطرس عبدالملك وأخرون: قاوس الكتاب المقدس. مادة: أبشالوم، انظر أيضاً:

Loc.cit.;

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.241.

(٣) عارف باشا العارف: تاريخ القدس، ص٢٣٧– ٢٣٨، وكان زكريا بن يهويا داع وربما حفيده قد شغل منصب كاهن الرب، ناشد بنى إسرائيل بالتمرد على الملك الخارج عن الدين وحاشيته، مما أثار غضب الملك، فأمر برجمه بالحجارة فاستغاث برب يهوذا للانتقام ...، انظر:

بطرس عبدالملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، مادة زكريا.

(٤) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.191; A Student's letter, p.92.

فى ضـــوء حـــركة التصوف اليهودية فيما يخص العقيدة الشعبية فى الارتباط بالأولياء والصديقين كوسيلة لربط الأمة اليهودية بطقوسها و تقاليدها فى فترات الشتات اليهودى من أجل إقامة مجتمع يهودى متماسك، ومن أجل الاتصال اليهودى فى شتى البلاد[١]. ومن ثم فالإشارات التى اجتمعت لـــدى هـــذا المستوطن اليهودى تؤكد على نزعته الدينية الغالب عليها حلم اليهود العام بتأسيس مملكة إسرائيل من جديد. الأمر الذى يعكسه حرصه على القدوم للقدس واتخاذها مهجرًا له يقضى به بقية حياته.

ومن البقاع المقدسة فى القدس وحولها فهناك ((مياه سلوان – سلوام – Siloam التى تنسل من تحـــت الأرض إلى وادى يهوشفاط، وسلوام لا تعد جدولاً مائيًا بالتحديد، إنما هو نبع يرتفع ماؤه كل صباح حتى قرابة الظهر، وما يلبث أن ينخفض ويجرى تحت الجبل نحو مكان قريب حيث تزخر به الآن أطلال ممتدة. وقد قيل إن هذه الأبنية كان سليمان [عليه السلام] قد شيدها لتكون داراً للسكة[٢]، ... ويشغل وادى يهوشفاط حيزاً ضيقاً يمتد طولياً من جبل الهيكل وجبل الزيتون[٣])).

بذلك اجتمعت معالم مدينة القدس الدينية عند عوبديا لتؤجج مشاعره تجاهها حيث قال: ((إن كل أنواع الرياح التى لها أن تهب تنشط فى القدس، ويقال إن أية رياح قبل أن تتجه إلى أى مكان تصل أولاً إلى القدس مسخرة نفسها لقدرة الرب فى حضرته ليباركها طالما هو سبحانه الذى يعلم الحق[٤])). وفى الواقع فإن هذه العقيدة تتفق مع الفكر الدينى لبنى إسرائيل الذى يتجه إلى الاعتقاد فى أن الهيكل فى بيت المقدس هو بيت يهوه بمعنى مسكن الإله، وعليه صارت القدس مركزاً دينياً لجمـــيع القبائل العبرانية، وعبادة يسرائيل القربانية[٥]. ومن ثم غدت جديرة بأن توصف من قبل عوبديا بأنها المركز الإلهى الذى يسيرّ الرياح فى أرجاء الأرض أو بالأحرى سرة الأرض، ولم تتوقف أهمـــية القدس بالنسبة لليهود زمن هذا المستوطن على البعد الدينى إنما كانت المدينة بمثابة الركيزة الحضارية الوحيدة التى تجمع يهود العالم؛ ففى الوقت الذى التف فيه الكاثوليك فى الغرب الأوروبى

---

(١) سوزان السعيد يوسف: المعتقدات الشعبية حول الأضرحة اليهودية، دراسة عن مولد يعقوب أبى حصيرة بمحافظة البحيرة، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٧، ص١١١.

(٢) دار السكة فى عهد سليمان.

(٣) Obadiah, Op.Cit., pp.240 - 241.

(٤) Ibid, p.241.

(٥) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـــ٤، ص١٥٩.

حول باباوية روما، والتف فيه المسلمون حول القرآن دستورًا، والكعبة مكانًا، والخلافة رمزًا لم يجد اليهود على تشتتهم سوى ذكرى الهيكل لتوحد هدفهم وفكرهم كأساس ترتكز عليه حضارتهم حلقة وصل بين ماضيهم الغابر وحاضرهم الواقع.

وعلى مقربة من المدينة المقدسة ((وفى مجال الرؤية منها يقع جبل إفرايم Mount Ephraim الذى دفن فيه موسى عليه السلام)) وهى منطقة واسعة نسبياً تنتسب لأحد أسباط اليهود إفرايم بن يوسف تقع فى الجزء الأوسط من فلسطين الغربية[١]. ويبدو أن هذه القبيلة كانت تتنازع القيادة مع قبيلة يهودا. ولذا فقد تزعمت حركة الانشقاق بعد موت سليمان عليه السلام ويشار إلى المملكة الشمالية باعتبارها مملكة إفرايم[٢].

وخارج القدس حرص عوبديا أيضًا على ذكر مزيد من الأماكن المقدسة، ومن ذلك حديثه عن منطقة البحر الميت بصفتها تحمل كثيراً من ذكريات اليهود الدينية ، حيث قال: ((قد يكون من الممكن من فوق قمة جبل الزيتون رؤية سادوم Sadom وعمورة Gomorrah من بُعد، وهما تشكلان بحراً مالحاً حالياً. وقد سمعتُ من الأهالى المقيمين هناك أن الملح كان يفترش جميع أنحاء الأرض. أما عن امراة لوط Lot [عليه السلام] فإنه لم يكن فى وسع أحد أن يخبرنى بشيءٍ عنها؛ إذ كانت أعداد أعمدة الملح لا حصر لها، وعليه فقد كان من المستحيل تمييز أى من تلك الأعمدة يمثل امرأة لوط ....؟[٣])). والحديث هنا منصب عن ديار قوم لوط التى تضم سادوم وعمورة وبقية المدن الخمس فى المنطقة التى لم تدمرها نيران الصاعقة فقط، بل غطى الماء أرضها أيضًا، حيث تكون البحر الميت الذى كان من أهم البقاع التى يرغب الزائر اليهودى فى زيارتها. وقد ملأ البحر أجواف زائريه رعبًا، فهو يذكرهم بالمدن الغارقة والذنب الذى أدى بسكانها إلى هذا المصير التعس. كما أنه يقدم العبرة على مر الزمان للناس حيث يزعم الرابى اليهودى يعقوب هاكوهين من رحالة القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى إنه إلى الجنوب من البحر يوجد تمثال من الملح لامرأة النبى لوط عليه السلام ما يزال شاخصًا للأعين[٤]. فى حين نفى الرحالة

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.241.

بطرس عبدالملك وآخرون : قاموس الكتاب المقدس، مادة : إفرايم.

(٢) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٤، ص١٤٤.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.241.

(٤) Jacob Ben R. Nathanial Hacohen, Op.Cit., p.120.

فتاحية الراتسبونى المعاصر له بقاء هذا التمثال الملحى[١]. وهو الأمر الذى تحفظ عليه عوبديا أيضًا بالإشارة إلى أنه لم يكن فى وسع أحد أن يستدل على مكانه.

أمـــا فيما يلى البحر الميت ونهر الأردن فقد نظر عوبديا إليها على أنها أرض مفعمة بذكريات تــرجع إلى أجـــداد اليهود وعن ذلك يذكر ((أما المناطق الواقعة فيما وراء نهر الأردن وهى التى تــتألف مـــن: أرض رؤبين Reuben وجيد Gad وماناسى Manasseh [٢] وأرض أبناء عامون Ammon وجبل مؤاب Mount of Moab [٣] وجبل سعير Mount Seir فجميعها حاليًا مناطق مدمـــرة، ولا يمكن أن تجد مدينة مأهولة بالسكان هناك[٤])). ولعله واضحٌ أن هذه المناطق تشكل إقلـــيمًا جغرافيًا محدد المعالم عُرف بمسمى إقليم ما وراء الأردن Autar-Jordan، بيد أنه يلاحظ حـــرص الخطابـــات على استخدام المسميات القديمة للمناطق مما يذكر بحركة اليهود التوارتية من خلال تنقل قبائلهم من مكانٍ إلى آخر.

بذلك قدم مستوطن فلسطين اليهودى هذا الزخم من المادة عن بقاع الأرض المقدسة ونجد فى آخـــر خطاباته تحديداً لأبعادها التقريبية حيث يذكر: ((أن جميع أهل الجليل Galilly يقولون بان حدود الأرض المقدسة شديدة القرب من دمشق، ويحتمل أن تكون صفد[٥] وبانورسا Banorsa، وربمـــا تكون تافاس Tafas وميذريب Mzreib كبرى مدن الجليل، قريبة من دمشق، وحدودهما

---

(١) Petachia of Ratisbon, Op.Cit., p.88.

(٢) من أسماء أسباط اليهود الاثنى عشر.

(٣) الاسمان عمان ومؤاب لاثنين من أبناء لوط (عليه السلام) الأربعة الذكور وأرضهما ضمن منطقة البلقاء المنتسبة إلى أبلق بن عمان. ولمعرفة المزيد راجع العمرى: دولة المماليك، ص١٧٤، ١٨٩.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.241.

يتحدث أبواليمن العليمى عن بعض المواقع المذكورة لعل أهمها قبر رؤبين بن يعقوب. انظر: الأنس الجليل، جـــ٢، ص٦٢.

(٥) مدينة فى الجليل فوق جبل على ارتفاع ألفين وسبعمائة وثمانين قدماً من سطح البحر، وكانت قديمًا تمثل مجرد قرية صغيرة، وعندما زارها بنيامين التطيلى فى القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى، لم يجد فيها يهوداً. لكن بعض اليهود المهاجرين من أسبانيا استوطنوها فى القرن الخامس عشر، وما لبث فى القرن التالى أن غدت مركزًا دينيًا لليهود، انظر:

A student's letter, p.84;

بنيامين التطيلى: الرحلة، ص١٠٥؛ عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـــ٤، ص١٢١– ١٢٢.

تمـــتد لتلامس حدود دمشق[١])). وجدير بالذكر أن صفد هى المركز الرئيسى والعاصمة القديمة لشمال إسرائيل، كما أنها إحدى المدن المقدسة الأربع فى تراثهم الدينى[٢]، لما لها من باعٍ فى تأسيس شرائعهم، وبما تضمه من ذكريات وأضرحة وبقاع مقدسة كان الطالب اليهودى قد شملها بزيارته والكـــتابة عنها فى خطابه[٣] وقد يرجع عدم اهتمام عوبديا بالتوقف عندها بالكتابة إلى أنها لم تكن على طريق رحلة القدوم على العكس من ذلك بالنسبة لتلميذه الذى أبدى اهتماماً أكبر بها.

وقد شغل عوبديا نفسه بالتساؤل حول دخول دمشق ضمن حدود الأرض المقدسة من عدمه ! ويـــبدو أنـــه قنع بالرأى القائل: ((دمشق جزء من سوريا ... وأن حدود الأرض المقدسة شديدة القـــرب منها[٤])). وبذلك أقر بعدم دخول حاضرة الشام ضمن حدود هذه الأرض، وهناك من الجغرافيين والرحالة المسلمين من اتفق معه إذ يحدد مساحة الأرض المباركة تلك بمربع طول ضلعه أربعـــون مـــيلاً مركزه بيت المقدس[٥]. أما أبو اليمن العليمى فهو يفرق بين حدود بيت المقدس الإداريـــة وحـــدود الأرض المقدسة التى يدفع بها بشكلٍ أوسع فى كل اتجاه، بحيث تصل إلى بادية الشام والفرات شرقًا بشمال، وجبل الشورى وأيلة وسيناء جنوبًا، والبحر المتوسط غربًا[٦].ومن ثم اتفق الجميع على اعتبار بيت المقدس وما جاورها من بلاد لا تخرج عن نطاق فلسطين الحالية. فهى من صميم الأرض المباركة المقدسة فى حين أن هناك اختلافاً فى إدخال دمشق ضمن هذه الحدود.

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.249 - 250.

(٢) سوزان السعيد يوسف: المعتقدات الشعبية حول الأضرحة اليهودية، ص١٠٥.

(٣) A student's letter, pp.82- 84.

وكان من أبرز معالم صفد الدينية وما حولها التى وردت فى خطاب الطالب اليهودى؛ النبى يوشع بن بارى Hoshea Ben Bari فضلاً عن ضريحى الحاخام تارفون Tarfon والحبر يوسف بن كيزما Yosef Ben kisma وآخرين عديدين من علماء التوارة والتلمود.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.250.

(٥) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص١٧٣؛ العمرى: دولة المماليك، ص١٢٣.

(٦) أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـ٢، ص٨٣ –٨٥.

المبحث الثالث

البعد الاجتماعى

يعــد البعد الاجتماعى فى خطابات عوبديا أكثر الموضوعات أهمية نظرًا لشدة اهتمامه به؛ ربما كــان ذلك استجابة لطلب والده المباشر والواضح فى رسائله التى بعث بها إلى ابنه فى نابولى قبل مغادرته إياها إلى مصر، حيث شمل طلبه أن يقدم له وصفًا لواقع حياة اليهود وطبيعة علاقتهم مع الأهالى الآخرين من كل البلاد التى سيرتحل إليها، ولم تكن نزعة الوالد بمنأى عن الدين، وذلك فى ضــوء إحــدى الدراسات التى خلصت إلى أن الديانة اليهودية تتألف أساسًا من مجموعة روابط اجتماعية تجمع قلوب أعضائها وتنظم سلوكهم بغرض توثيق العرى وشد الأواصر وأولها الارتباط بالأرض[1]، وعليه فمن المهم أن نتعرف فى نبذة على حالة المجتمع الإيطالى وجماعة اليهود فيه زمن خــروج عــوبديا مــنه برغم عدم تطرقه إلى ذلك نظراً لأنه سيساعدنا فى الوقوف على النواحى الاجتماعــية فى مجتمعات اليهود الواردة فى الخطابات؛ إذ أنه كان يسجل ما رآه مختلفًا من ظواهر فيها، ومن ثم فهو يختلف عما هو كائن فى مجتمعه الأصلى؛ فقد اندمج أعضاء الجماعة اليهودية فى محيطهم الحضارى الكاثوليكى، وأصبحت لغة العبادة فى المعبد هى الإيطالية المطعمة بكلمات عبرية مــنذ عــام ١٢٠٠م./ ٥٩٧هـــ. ومن ثم يعتبر أعضاء الجماعة اليهودية فى إيطاليا جماعة مستقلة بذاها، ولا تضاف ضمن الكتل اليهودية الثلاث الأساسية: الأشكيناز الألمان الذين وصلت حركة هجــرتهم إلى إيطالــيا ذروتها عام ١٤٠٠م./ ٧٩٨هـــ.، والسفارد الذين هاجروا إليها بعد عام ١٣٩١م./ ٧٨٩هـــ.، ووصلت حركة هجرتهم ذروتها عام ١٤٩٢م./ ٨٩٧هـــ.، ويهود العالم الإســلامى متضمنين اليهود المستعربين الذين استقروا فى صقلية، وظل اليهود الأصليون يحتفظون بمجتمعهم المستقل[2].

أولاً: جماعات اليهود الأوروبية فى الخطابات:

جماعة اليهود فى باليرمو

وفــيما يخــتص بمجتمعات اليهود داخل المجتمع الأوروبى فى شرق البحر المتوسط، فقد شملت خطابــات عوبديا مادة على جانب كبير من الأهمية توضيحًا لها حيث يقول: ((خرجت من نابلى

---

(1) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـــ٤، ص٣٣٤، ٣٣٥.

(2) جورجى كنعانى: تاريخ يهوة، ص١٦٢.

على متن سفينة ضخمة وسريعة الحركة، وفى رفقتى تسعة من اليهود، وعلى أية حال، فقد أمضينا خمسة أيام حتى وصلنا إلى باليرمو، وذلك بسبب سكون الريح، وباليرمو هى مدينة ذات شأن كبير فى جزيرة صقلية[١]))). وتبين وثائق الجنيزة أن ما تبوأته باليرمو من شأن كان بفضل دورها التجارى المهم، حيث كانت تستقبل السفن القادمة من الغرب خاصةً من بلاد المغرب والأندلس[٢]، ولاشك أن هــذه الأنشــطة انعكست بشكل أو بآخر على جماعة اليهود فيه، وفى ذلك يذكر عوبديا إن: ((عــدد يهود باليرمو يبلغ حوالى ثمانمائة وخمسين أسرة يعيشون جميعًا فى شارع واحد يقع فى أرقى أحياء هذه المدينة، وهؤلاء من الحرفيين: حدادين ونحاسين وصانعى فخار وفلاحين، وهم مكروهون مــن المســيحيين [الأهالى] نظرًا لأنهم كانوا يرتدون ملابس رثة، وكعلامة لتمييزهم أجبروا على وضع قطعة من القماش الأحمر فى حجم العملة الذهبية تثبت على الصدر[٣])).

وهــذا الواقع الاجتماعى السيئ الذى يخبر به عوبديا الخاص بجماعة اليهود فى أحد المجتمعات الأوروبــية حيث باليرمو فى صقلية له أصوله التاريخية؛ فبعد الاعتراف بالمسيحية دينًا شرعيًا عام ٣١٣م. أصــدر الإمــبراطور قسطنطين الكبير Constantin The Great (٣٠٦ – ٣٣٧م.) مجمــوعة قوانين تنص على اعتبار اليهودية العدو الأول للمسيحية عقائديًا وسياسياً، واعتبرها دينًا دنيــئًا[٤]. وقــد انعكســت هذه الروح على أهالى باليرمو المسيحيين فيما بعد حيث اضطر البابا جــريجورى الأول Greogry I (٥٩٠ – ٦٠٤م.) إلى معاتبة حاكم المدينة لاستيلائه على معبد الــيهود بها فى عام ٥٩٨م.، كما عمد الإمبراطور شارلمان Charlemagne (٨٠٠ – ٨١٤م./ ١٨٤ – ١٩٨هــــ.) إلى أن يعلن ويبرز أهمية اليهود فى مجال التجارة والمال داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وفضلا عن هذا وذاك، فهناك العديد من الشواهد التى تؤكد على تعرض يهود صــقلية للاضــطهاد فى معظم فترات تواجدهم فى الجزيرة[٥]. ومن ذلك أنه رغم احتراف يهود

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.210.

(٢) Goitein, S. D., Mediterranean society, A., The Jewish communities of Arab world as portroyed in the documents of the Cairo Geniza, 4 vols, university of California press, 1967- 1978, vol.1, p.73.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.210.

(٤) فؤاد حسين على: المجتمع الإسرائيلى، جــ٢، ص١٠، وعن مجموعة القوانين الرومانية عن اليهود فى هذه المرحلة. راجع:

Theodo-siani libr. XVI, ed. Mommsen- Mayer 1905, Bd. I, Teil. II. S.887.

(٥) Meek, H.A., The Synagogue, p.85.

باليرمـــو للعمل كنجارين وبنائين حتى القرن الخامس عشر الميلادى/ التاسع الهجرى، إلا أنه حُظِرَ علـــيهم الاشـــتراك فى بناء أبنية المسيحيين وخاصة الكنائس[١]. وهذا الحظر يفسر سقوط هاتين الحرفتين من مجموعة المهن التى ذكر عوبديا احترافهم لهما.

وفى الواقع كانت صقلية تعد أحد المراكز التى يجتمع فيها اليهود خلال قرون العصور الوسطى الأولى، حـــتى أن جانـــباً مـــنهم تحول إلى المسيحية خاصة فى القرن الثالث عشر الميلادى/ الثامن الهجـــرى مع تزايد الاضطهاد[٢]. وإذا ما استمرت أوضاعهم فى إيطاليا توصف بالاتجاه نحو السوء خلال القرن التالى، إلا أن المؤرخ إسرائيل شاحاك يذهب إلى القول بأن يهود صقلية ونابولى كانوا على عكس ذلك، حيث انتعشوا اقتصاديًا شأنهم فى ذلك شأن المقاطعات البابوية[٣]. ويبدو أن هذا التقييم صحيح بدليل تفوق يهود تلك المناطق فى مجال المعاملات المصرفية والتسليف بالربا[٤]. وهذا الأمر جعل الأهالى المسيحيين ينظرون إلى اليهودى على أنه خطر اجتماعى واقتصادى يسرى وسط المجـــتمع الصـــقلى، إذ لم يكن هناك من خطر يتعرض له المسيحى أكثر من أن يرى ببصره بيوت المسيحيين تنهار دعائمها من أثر الربا الفاحش الذى ارتبط باسم اليهودى. ومن ناحية أخرى كانت صـــورة اليهودى فى ذاكرة المسيحى أشنع وأبشع التصورات العدائية لما أحيطت به من سوء ضد الـــدين المســـيحى ومعتنقـــيه. ويكفـــى فى هـــذا الاتجاه أنهم كانوا وراء قتل السيد المسيح وفقاً لمـــزاعمهم[٥]. ومـــن ناحية ثالثة أحاطت جماعات اليهود نفسها بالغموض والسرية التى أحاطت تحركاتهم وسلوكياتهم الخاصة، واجتمعت هذه العوامل وغيرها لتفسر سر بُغض المجتمعات الأوروبية المسيحية للجماعات اليهودية التى تعيش فيما بين ظهرانيهم[٦].

---

(١) Krinsky, Carol Herselle, Synagogues of Europe, p.42.

(٢) Lerman, Antony, and others, (eds.). the Jewish communities of the world, A contemporary Guide, 4th ed. New York, 1989, p.93.

(٣) شاحاك إسرائيل: التاريخ اليهودى، الديانة اليهودية وطأة ثلاثة آلاف سنة، ترجمة صالح على سوداح، الطبعة الأولى، بيسان – بيروت ١٩٩٥، ص٩١.

(٤) Meek, H. A., The Synagogue, p.85.

(٥) كامل سعفان: اليهود تاريخ وعقيدة، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٨، ص٤٧.

(٦) صابر طعيمة: التاريخ اليهودى العام، ٢جـ، الطبعة الثالثة، دار الجيل، بيروت ١٤١١هـ. – ١٩٩١م، جـ٢، ص٤٨– ٤٩؛ عبدالجليل شلبى: اليهود واليهودية، ص١١٣– ١١٤.

ثمة شهادة على كراهية المسيحيين الأوربيين لليهود لدى أحد الرحالة الكاثوليك الرهبان فيليكس فابرى الذى زار الأراضى المقدسة عام ١٤٨٣م./ ٨٨٨هـ. ويقول فيها ((إن الكهنة اليونانيين [فى كنيسة غزة] دائمًا ما يكنون الكراهية لرجال الدين اللاتين، ورفضوا إدخالهم الكنيسة كما وكأنهم يهود[١])) بذلك يتضح أن كراهية المسيحيين لليهود صارت بمثابة معيار تُقرن بـه العلاقة بين اليونانيين واللاتين المختلفين فى المذهب بين أرثوذكس وكاثوليك مع فرضية جنوح الرحالة إلى المبالغة فى تصور حجم هذا البغض. وبذلك يتأكد أنه بالرغم من إثبات اليهود قدرتهم علـى تحقـيق مكاسب مالية فى هذا العصر، إلا أن أعضاء جماعتهم لا حول لهم ولا قوة، فبرغم حـرص السلطة الحاكمة على تقريبهم إليهم إلا أنهم كانوا يعيشون بين قوى شعبية لا تضمر لهم حـبًا، ولا تشعر نحوهم بأى عطف، ويحيون فى عزلة عنهم، مما جعلهم يعتمدون بشكلٍ أكبر على الحـاكم والنخـبة من حوله[٢]. ومن ثم تحول المجتمع اليهودى فى باليرمو وربما غيره من مجتمعات أوروبية إلى جماعة نفعية تستخدم كأداة.

تتمثل مظاهر المعاملة السيئة لجماعة اليهود فى صورٍ عدة شملت أساسيات الحياة اليومية بالنسبة لهم إذ أن ((للضريبة الملكية وقعًا ثقيلاً على كاهلهم. ذلك أنهم مجبرون على العمل من أجل الملك [الصقلى] فى أى عمل يطلب منهم، وكان عليهم سحب السفن إلى الشاطئ بشكل مهين، وأيضًا للعمـل بكذا وكذا... كما كان يتم وضعهم فى وظائف إدارية فى رتب صغيرة من مهامها: تنفيذ العقـوبات وحمل أجساد الموتى المحكوم عليهم بالإعدام[٣])). والمعروف عند اليهود بصفة عامة أن جـثث الموتـى هى إحدى مصادر النجاسة[٤]. وبطبيعة الحال لم تكن سكنى اليهود فى أرقى أحياء باليرمو وداخل شارعهم من قبيل الارتقاء بهم أو وضعهم فى مكانة لائقة، إنما كان ذلك بدافع من ضرورة وجودهم بصفتهم حرفيين على مقربة من المراكز الصناعية والتجارية التى يعملون بها؛ الأمر الذى جعل من الحى الذى يسكنونه حيًا راقيًا لكونه صناعيًا أو تجاريًا. والملاحظ أن أعمال اليهود سواء الحرفية منها أو الوظيفية كانت بدافع السخرة من قبل السلطة الحاكمة المحددة هنا بأنها سلطة

---

(١) Felix Fabri, Le Voyage en Egypte, Tome I, p.12.

وهناك مواقف عديدة عدائية ذكرها هذا الرحالة ضد اليهود. انظر:

Loc.Cit., Tome I, pp.34- 35, 185, 194.

(٢) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٤، ص٢٧٨.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.210.

(٤) غازى السعدى: الأعياد والمناسبات، ص٤٧.

الملك، وهذا واضح فى عبارات عوبديا. ومن ثم اتصفت المهن والوظائف التى أنيطت بهم بالمُهينة أو برتب حقيرة. وقد انعكس ذلك على مظهرهم العام حيث اتصفت ملابسهم بالرثة البالية، فحرصت السلطات على تمييزهم بوضع قطعة من القماش الأحمر فى حجم العملة الذهبية على صدورهم.

ووفقاً لما ورد فى خطاب أرسل به أحد يهود مدينة باليرمو إلى ابن شبروط (٩١٥ – ٩٩٠) أحد زعماء اليهود فى أسبانيا أثناء حكم الأغالبة فى صقلية يوضح فيه أن جماعات أهل الذمة فى صقلية بما فيها جماعة اليهود كانت تضع إشارات خاصة لتمييزهم عن بقية السكان، ربما بدافع تسهيل عملية الإدارة وجمع الضرائب. ومن ثم فلم يكن هذا عارًا، وإنما امتيازًا يُحصل عليه من يضع مثل هذه العلامة، حتى أن اليهود يحرصون على وضعها للتمتع بالحماية التى تمنحهم إياها السلطة الحاكمة، ولم ينظروا إليها على أنها مظهر من مظاهر إذلالهم. والثابت أن علامة اليهود كانت عبارة عن رسم لإصبع قرد داخل دائرة بيضاء، وفرض عليهم وضع العلامة ذاتها على أبواب منازلهم، حتى أن العقوبات التى تعرضوا لها كانت من قبيل التنظيم الاجتماعى المقنن والمعروف، الأمر الذى جعل اليهود يشعرون بأنهم كانوا أحسن حالاً فى ظل الحكم الإسلامى عن فترة خضوعهم للحكم البيزنطى السابق، وتقبلوا جميع القواعد التى فرض عليهم اتباعها[١] حتى فى فترة الاضطرابات التى وقعت بين المسلمين فى الجزيرة. بيد أن وظيفة الإشارة المميزة لليهود تغيرت تدريجيًا فى عصر الحروب الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين/ السادس والسابع الهجريين، حيث ساءت سمعة اليهود، وتحولوا فى نظر الأوروبيين إلى مرابين وتجار جشعين، وغدت العلامة المميزة رمزًا لإذلالهم[٢]. والثابت أن هذا الواقع ظل ماثلاً فى صقلية وجزر البحر المتوسط الأخرى إبان فترة أواخر العصور الوسطى التى كان عوبديا معاصرًا لها، وذلك بشهادة الطالب اليهودى التى أدلى بها فى خطابه مبررًا ذلك بأن اليهود اعتادوا التعامل بالربا على اعتبار أنه أمر مألوفٌ، أو عادة عند الأهالى لا خطأ فيها[٣].

وبالرغم من الوضع السيئ لحياة اليهود فى باليرمو على هذا النحو، إلا أن عوبديا يطلعنا بأن البلدة وحدها كانت تضم ثمانمائة وخمسين أسرة يهودية، علمًا بأن متوسط الأسرة اليهودية فى هذا

---

(١) Scheiber Alexander, Geniza Studies, XVII, New York, 1981, pp.422, 423.

(٢) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٤، ص٢٩٥– ٢٩٦.

(٣) A Student's letter, p.77.

العصر وفقًا لتقدير أحد الباحثين الحديثين يبلغ خمسة أفراد على أكثر تقدير، على اعتبار أنها كانت تتألف من الوالدين واثنين أو ثلاثة أبناء[1]. وجدير بالذكر أن صاحب الخطابات اعتاد أن يقدر أعداد اليهود فى المجتمعات التى تناولها بعدد أسرهم، وعليه فلنا أن نأخذ فى الاعتبار هذا المتوسط باستمرار.

لقد ألقى خطاب عوبديا الأول مزيدًا من الضوء أيضًا على ملامح مجتمع اليهود فى جزيرة صقلية من خلال ما يميز واقعهم فى مدينة باليرمو حيث يذكر: ((كان المعبد محاطاً بعديد من الأبنية مثل مبنى المستشفى الذى كان يضم أسرّة معدة لاستقبال المرضى، ونزلاً يستقبل الغرباء الذين يفدون إلى المكان دون أن يجدوا مضجعًا يقضون فيه الليل، كما يوجد قصر فخم وضخم؛ هو مقر إقامة الرجال الذين يعملون بسلك القضاء وإدارة شئون المجتمع[2])). وفى الواقع كان المجتمع المدنى اليهودى قديمًا يجعل من الأسواق والساحات المجاورة لها مأوى للمرضى أيضًا. بيد أن المدن اشتملت على قصور وكذلك على فنادق ليقيم بها الغرباء ويُعمد إقامتها على جوانب الطرق التى يسلكها المسافرون ليبيتوا فيها أو يستريحوا من عناء السفر، ورغم أن اليهود حاولوا الالتزام بما ورد فى تراثهم الدينى وبالعناصر المكونة له، إلا أنهم كثيرًا ما تأثروا بالمجتمعات المحيطة بهم[3]، ونظرًا للتأسى بالدين هو ضابطهم، فلا نكاد نجد اختلافات واضحة فيما بين مجتمعات اليهود منذ العصر القديم وصولاً إلى زمن كتابة عوبديا لخطاباته.

إن هذه المعلومات التى قدمها خطاب عوبديا الأول عن مجتمع باليرمو اليهودى تعطينا نمطاً لمجتمع تضامنى يقوم على الهيمنة المطلقة anarchism وهو جزءٌ منه، فبدا تضامنه غير طبيعى حيث كان توافقه مدفوعًا بالرغبة فى الحفاظ على الحماية والمساندة لأعضاء المجتمع المتباينين عن بقية المجتمع الكبير[4]، وكانت الخصوصية التى ميزت جماعة اليهود داخل المجتمع البالرمى بغرض الحفاظ على ثقافتهم ورؤيتهم الدينية وعدم اندثار تراثهم الحضارى، ولما كانت باليرمو مجرد إحدى المحطات التى مر بها عوبديا، وتسنى له الوقوف على جانب من خصائص جماعة اليهود بها، فمن

---

(١) قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص٢٥، ٣١.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.211.

(٣) زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٤٩٤، ٤٩٥

(٤) Eisenstad, S. N., Jewish civilisation, the Jewish Historical experience in a comparative perspective, New York, 1992, p.81.

المتوقع أنه كان نموذجاً متكررًا لمجتمعات يهودية أوروبية أخرى خاصة فى جنوب القارة وشرقى المتوسط.

جماعة اليهود فى ميسينا

وفى صحبة الرحالة ميشولام بن مناحم أف فولتيرا وبعض اليهود الآخرين أصبح عوبديا باستخدام سفينة شراعية فرنسية على مقربة من مضيق ميسينا حيث يقول: ((وأتممنا عبور هذا المكان بأمان، وبالفعل وصلنا إلى ميسينا، وهى بلدة التجارة حيث تجتمع فيها كل الأجناس، وتردها السفن من كل صوب نظرًا لأن البلدة تحتل موقعًا محوريًا على الطريق الواصل بين الشرق والغرب، الأمر الذى جعل السفن القادمة من جهة الغرب والشرق تعتبر ميناءها هو الميناء المتفرد فى العالم؛ بقدرته على استقبال السفن ذات الحجم الكبير حتى أقرب نقطة إلى الشاطئ[١])) إذ أن ((الماء عند ميناء ميسينا شديد العمق مما يُمكّن السفن الكبيرة أن تسير فيه ... والبحر هنا أعمق منه فى أى مكان آخر[٢])) ثم يوضح عوبديا قائلاً ((وميسينا ليست مدينة كبرى مثل باليرمو، كما لم يكن بها ينابيع ماء جيدة كتلك التى رأيناها فى باليرمو، ومع ذلك فقد كانت ميسينا آية من الجمال وبها قلعة شديدة المناعة ...... ويهود هذه البلدة كانوا أكثر ثراءً من أولئك اليهود المقيمين فى باليرمو، فقد كانوا جميعًا تقريبًا حرفيين، إلا أنه من بينهم عدد من التجار[٣])) والوصف العام لميناء ميسينا يضعها بين المدن التجارية البارزة فى صقلية بل فى حوض البحر المتوسط، ويجعلها مؤهلة لأن تقوم بدور متميز فى مجال التجارة العالمية . ومن الطبيعى أن ينعكس ذلك على المجتمع الكائن فيها بما فيهم اليهود – إذ شهدت موانئ شرقى المتوسط منذ القرن الثالث عشر الميلادى نشاطًا غير مسبوق فى حركة اليهود التجارية[٤]، ونظرًا لأن الشواهد تشير إلى أن جماعات اليهود فى صقلية

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.214.

(٢) طافور، بيرو: رحلة طافور، ص٢٥٢.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.214.

ويوضح عوبديا أن ثلاثة من اليهود الحرفيين فى مجال الجلود كانوا قد رافقوه فى رحلة الخروج من ميسينا، وكانوا قد جاءوا من مدينة سيراكوز.

(٤) Goitein, S. D., A Mediterranean Society, vol. I, pp.46, 214.

من السفارد المهاجرين من الأندلس الأكثر تطورًا ونهضة، ثم أقاموا فى بلاد أقل نموًا، فإنهم سرعان ما أصبحوا الأكثر ثراءً والأرفع ثقافةً والأوسع اتصالاً من الناحية السياسية بدول البحر المتوسط[١].

ويفسر عوبديا ثراء يهود ميسينا بأنهم كانوا إما حرفيين وإما تجارًا، وكان الانخراط فى هذين المجالين له أسانيده، إذ حرمت الشريعة اليهودية عليهم استجار أرقاء يهود أو أرقاء مسيحيين، الأمر الذى جعل الملكية الزراعية أمرًا غير مثمر بالنسبة لليهودى. كما أدى انقسام العالم فى العصور الوسطى إلى قسمين؛ واحد مسيحى والآخر مسلم، بحيث أصبح القيام بالعمليات التجارية بينهما أمرًا صعبًا للغاية بسبب اختلاف الشرائع الدينية، وبالتالى القوانين التجارية والمدنية، وبذا أصبح اليهودى هو حلقة الوصل بينهما. كذلك كان اليهود يجيدون عدة لغات، مما منحهم القدرة على اختراق الحاجز اللغوى، وهذا دفع أحد المحدثين إلى القول مبالغاً بأنهم أصبحوا متخصصين للعمل فى التجارة الدولية، وكادوا يحتكرونه منذ القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى، ومن شدة ارتباطهم بالتجارة فى جميع الأنواع، أصبحت كلمة تاجر مرادفة لكلمة يهودى. وفضلاً عن ذلك عُرف السفارد بأنهم أكثر ثراءً من غيرهم من اليهود[٢]، فكان من الطبيعى أن يستغلوا بيئة ميسينا المشجعة على تفعيل دورة رأس المال بحكم موقع مينائها العالمى ووقوعها بين الشرق والغرب، ويلاحظ أنه بتألف يهود ميسينا من حرفيين أو تجار، فقد كونوا مجتمعًا مهنيًا يقوم على أساس المهنة.

ومن ناحية أخرى ورد فى الأسطر التى كتبت عن مجتمع اليهود فى ميسينا مزيد من المعلومات التى تبصرنا بأوضاعهم حيث تذكر: ((ويعيش بالبلدة أربعمائة أسرة يهودية، يقيمون جميعاً فى شارع واحد. ولذا فقد أصبح يخصهم، ويقترن بهم))، كما تناولت جانبًا اجتماعيًا آخر يخص معاملة الأهالى لهم أثناء حضور حفل زفاف يهودى فى ميسينا فورد بها: ((كان الأهالى من المسيحيين يسعدون ويبتهجون بمثل هذه العادات، ولذا لم يتعرض أحد منهم لهذا الاحتفال بسوء[٣])). إلا أن الوثائق تؤكد أن يهود صقلية بصفة عامة لم يعيشوا حياةً كريمة على مر تاريخ

---

(١) شاحاك، إسرائيل ومتسفينسكى، نورتون: الأصولية اليهودية فى إسرائيل، ترجمة: ناصر عفيفى، روزاليوسف، القاهرة ٢٠٠١م.، ص٨٠، ١٨٢.

(٢) عبدالوهاب المسيرى: الأقليات اليهودية، ص١٢ وما بعدها.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.214.

إقامـــتهم بالجزيــرة[١]. ومع ذلك فالملاحظ أن عوبديا لم يشر إلى ما يسيئ إلى يهود ميسينا أو إلى اشتغالهم بحرف مُهينة كما هو الحال بالنسبة ليهود باليرمو داخل الجزيرة ذاتها، وقد نخلص من هذا وذاك إلى أن معاملـــة أهل صقلية لليهود فى ميسينا كانت أفضل نسبيًا من معاملتهم لهم فى باليرمو بســبب أن تأثيرهم فى المجتمع الأول كان أقل من تأثيرهم فى المجتمع الآخر، نظرًا لأنهم كانوا أقل عددًا منهم بحوالى النصف. ولم يكن هذا التفاوت يعنى تمتع اليهود بحياة طبيعية فى المجتمع الصقلى الذى يعد فى حد ذاته مؤشرًا لبقية المجتمعات فى الجانب الأوروبى من حوض البحر المتوسط.

جماعة اليهود فى رودس:

أما عن جماعة اليهود فى رودس، فيــروى عوبديا أنه حينما وصل ورفقاؤه إلى الجزيرة، أتاحت السلطات هناك أمام اليهود الروديسيين فرصة استقبال الوافدين، وكان على رأس المستقبلين حين وصولهم ناثان Nathan اليهودى؛ وهو أشهر أطباء رودس وشقيق الرحالة ميشولام. كما يضيف عوبديا: ((لقد تم تخصيص غرفة رائعة للغاية لى مزودة بجميع ما أحتاج إليه، فى حين تم تكريم بقية الـــيهود الآخرين الذين كانوا فى رفقتى بما يتناسب معهم على سبيل الضيافة" فكان العدد الإجمالى لهم أربعة عشر يهوديًا. كذلك فحينما: ((قام الحاكم ببناء كنيسة فى موقع المعبد اليهودى، أعطى اليهود موقعًا آخر بديلاً عنه)). وأكد عوبديا أثناء تواجده فى رودس أن: ((ذلك الحاكم قام بالفعل بمنحهم مائة دوكية من عوائد البلدة مخصصة لبناء معبد جديد لهم[٢]))، وهذه هى الرؤية الإجمالية للمستوطن تجاه مجتمع اليهود فى الجزيرة.

ومـــن التفاصيل الخاصة بمجتمع اليهود فى رودس، فقد سجل عوبديا فى خطابه الأول أنه: ((لم يــبقَ فى رودس من اليهود عدد كبير، إذ يبلغ عددهم أولاً عن آخر اثنتين وعشرين أسرة جميعهم فقــراء ...... [٣])). وإذا مــا كان ذلك هو رؤية عوبديا للمستوى المعيشى لجماعة اليهود فى رودس، فهناك الطالب اليهودى المعاصر الذى يرى أن المجتمع الرودسى "يعيش فيه تجار مشهورون من كل الجنسيات وبخاصة الفرنسيون، ثم أوضح أن اليهود على وجه الخصوص كانوا عرضةً أكثر من غيرهم لهجوم القراصنة الذين اتخذوا من الجزيرة مركزًا لهم[٤]، وعليه يتبين أن عوبديا تمكن من

---

(١) Scheiber Alexander, Geniza Studies, p.423.

(٢) Obadiah, Op.Cit., pp.216- 217.

(٣) Ibid, p.217.

(٤) A Student's letter, p.76.

أن يســبر غور جماعة اليهود، ويقف على أحوالهم المعيشية ويصف جميعهم بالفقر، إلا أن ملاحظة الطالــب اليهودى عن وجود فئة منهم عملوا بالتجارة وكانوا مطمعًا للقراصنة تمثل رؤية صادقةً لكــنها رؤيــة خارجية، بيد أنها مهمة كى تعدل من الصورة القاتمة التى قدمها عوبديا عن جماعة اليهود فى رودس، ومن ثم فهو مجتمع طبيعى يضم غالبية من الفقراء وبعضًا من التجار الأثرياء.

ثم تطرق عوبديا إلى جانب من دقائق جماعة اليهود الصغيرة فى رودس، حيث ذكر عنهم: ((وفى الواقــع، فإن اليهود فى رودس شديدو الذكاء، كما أنهم متعلمون تعليمًا جيدًا، ويتحدثون بلسان فصــيح، ويتصفون بالأدب ومكارم الأخلاق؛ حتى أن الدباغين كانوا حسنى الهندام، ويتحدثون بطــريقة مهذبــة ملائمة، وجميعهم يطلقون السراح لشعرهم لينمو ويطول، وفى مجملهم يتصفون بالحســن)). وقد عكس الخطاب جانبًا من مظاهر تدنى المستوى المعيشى بين يهود رودس، فيذكر إنهــم بالكاد يعيشون على الخضراوات، لا يأكلون الخبز أو اللحم، فهم لا يذبحون، كما أنهم لا يبــتاعون الخمر خشية الدخول فى مهاترات أو جدل مع اليونانيين الذين يعيشون هناك. وعندما يقومــون بشراء شئ من السوق، فإنهم يحرصون على عدم المساس بأى شئ خاص بهم، كما أنهم يمتــثلون للقانون الذى يحرم الخمر وأكل لحم الخنــزير[1] والثابت تاريخياً أن السفارد Safardin القادمين من شبه جزيرة أيبيريا قد انتقلوا على مراحل، وحتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى/ أواخر التاسع الهجرى إلى البلاد المطلة على البحر المتوسط والبلقان وتركيا وكذلك رودس، وأقام بعضٌ منهم فى مدينة رودس الواقعة إلى الشمال الشرقى من الجزيرة، بدليل أن اللغة الأسبانية ظلت تــتداول فــيما بين أفراد هذا المجتمع حتى وقتنا الحاضر[2]. ومن ثم كانت لرودس هويتها الخاصة حيث يتألف معظم سكانها – وفقا لإشارة عوبديا – من فئتين؛ أغلبية يونانية وأقلية سفاردية بكل ما يميز الطائفة اليهودية هذه من خصائص اجتماعية ودينية.

وفى إطــار الحديث عن الوضع الاجتماعى ليهود رودس، وبصفة خاصة دور المرأة اليهودية فى المجتمع يضيف عوبديا: ((ولا يوجد بين اليهوديات من هن أجمل من اللاتى تقمن فى رودس، وهن يشغلن أنفسهن بصنع جميع الأعمال اليدوية خدمة للنبلاء المتسيدين لهذه الأرض، وبهذا الأسلوب تــتمكن النساء من مساعدة أزواجهن، أما هؤلاء النبلاء، فيضعونهم فى مكانة ملؤها التقدير، حتى

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.217- 218.

(٢) حبيب غزالة: جزيرة رودس، ص١٠، ٣٩. انظر أيضاً: كيستلر، أرثر: القبيلة الثانية عشرة ويهود اليوم، ترجمة: أحمد نجيب هاشم، الهيئة المصــرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثانى، عدد ١٠١، القاهرة، ١٩٩١م.، ص١٧٩.

أنهـــم كانوا يأتون إلى بيوت اليهود من أجل الاستئناس بالحديث إلى النسوة اللاتى تعملن داخلها لبعض الوقت[١])).

ومن هذا وذاك، يتضح أن معاملة اليهود فى مجتمع رودس قامت على احترام النخبة منهم من قـــبل السلطة الحاكمة، حيث حكومة طائفة الفرسان الإسبتارية؛ إذ أن ربان السفينة الذى عاقب الـــبحار لإهانـــته الرابى ميشولام كان قريبا وصديقاً لحاكم الجزيرة[٢]. وعلاوة على ذلك نلمس حرص حاكم الجزيرة على تعويضهم عن معبدهم الذى أقام بدلا منه كنيسة وربما أيضًا لما لحق بهم مـــن كربٍ وهدم للمنازل أثناء حملة السلطان محمد الفاتح وتضررهم المباشر بها على الجزيرة كما أسلفنا الذكر. والحق أنه برغم المدة القصيرة التى أمضاها عوبديا بين يهود رودس، إلا أنه تمكن من أن يسجل عنهم هذه العبارات الواضحة والمهمة، إذ استرعى انتباهه أن أعدادهم تناقصت هناك، وربمـــا يـــرجع ذلك إلى انخفاض مستواهم المعيشى وفقاً لما أشار هو إليه حيث وصفهم بالفقراء. كـــذلك أثنى على يهود هذا المجتمع شكلا وموضوعًا، ولفت نظره دور النسوة البارز نحو مؤازرة رجالهم بالأعمال اليدوية داخل بيوتهن. كذلك أثنى على اليهود هناك لامتثالهم للقوانين المحلية، لكنه تـــرك تســـاؤلا عما أورده من أنهم لا يذبحون، ولا يبتاعون الخمر خشية الدخول فى مشاكل مع الأهـــالى، فهـــل كـــان الإقدام على كليهما محظورًا عليهم؟ فإذا كان كذلك يصبح من الصعب الاعـــتقاد فى أن جماعة اليهود قد تمتعت بالحرية فى ظل مجتمع اعتاد على شرب الخمر، ويحظر على اليهود عدم تنفيذ ما ورد فى الذبح بشرائعهم؛ وعليه فلنا أن نتوقع أن المعاملة الحسنة قد اقتصرت على أعيان اليهود والصفوة منهم، فى حين أخذت الطبقة الدنيا منهم ترزح تحت نير الفقر من ناحية والاستبداد والمعاملة السيئة من ناحية أخرى.

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.217.

(٢) يروى عوبديا تفاصيل هذه الحادثة فيقول: "وأثناء إقامتنا هناك، قام أحد البحارة بالتحدث بطريقة غير لائقة ومهينة إلى الرابى ميشولام إلى الحد الذى اضطره إلى رفع شكوى بذلك إلى الربان، وعندئذٍ خرج الربان بنفسه ليبحث عن هذا البحار، غير أن زملاءه سعوا إلى التستر عليه، إلا أن مسعاهم باء بالفشل، إذ أمر الربان بتوثيقه ثم جلده، وعندما أخذت قوة الجلاد تخور أخذ الربان الحبل من يده ليكمل عقابه للبحار بنفسه لما أبداه من إهانة لميشولام، ولم يكتفِ بهذا، بل أصر أن يقدم البحار اعتذارًا لميشولام على رؤوس الأشهاد، واستشاط جميع طاقم بحارة السفينة غيظًا لشعورهم بأن واحدًا منهم أجبر على أن يقدم اعتذارًا ليهودى بسبب أنه تكلم فى حقه" انظر:

Obadiah, Op.Cit., pp.215- 216.

يـــبدو أن الانهـــيار الاقتصادى للمجتمع اليهودى الأوروبي قد أدى إلى تردى أخلاقى اكتفى عوبديا بالتلميح إليه؛ حينما تعرض إلى حرص بعض النبلاء فى مجتمع رودس على التردد على بيوت الـــيهود، وتجاذب أطراف الحديث مع نسائهم، وقد أبدوا تقديرهم لهن واصفًا الحديث الذى كان يـــدور بيـــنهم بالحار، وذلك فى أثناء انشغالهن ببعض الأعمال اليدوية الخاصة بالنبلاء معقبًا ذلك بالإشـــارة فى الوقت ذاته إلى أنهن أكثر اليهوديات جمالاً فى العالم[١]. والواضح أن هذه الإشارات ذات صـــلة بالأخلاقـــيات المتدنـــية عند اليهود منذ القدم، إذ عرضت الشريعة الموسوية أقصى العقـــوبات على جرائم الزنا بأشكالها المختلفة نظرًا لتفشيها بين مجتمعاتهم، ووضعت قائمة مفصلة بـــتلك الجرائم حتى تقف فى وجه تيارها الجارف، وتحد من انتشارها الشديد[٢]، لكن اليهود دأبوا علـــى الفصل بين الأخلاقيات والالتزامات الشرعية خلال معاملتهم مع المجتمعات المغايرة لهم[٣]. ومـــن هذا المنطلق فقد ثبت تاريخيًا احتراف كثير من نساء اليهود الدعارة، وكانت العاهرات فى عديـــد مـــن مجتمعات اليهود الأوروبية يتم تمييزهن بوضع شارة صفراء،ولكن يمارس هذا العمل باعتبارهن أقلية اقتصادية متميزة، واعتبار الدعارة نوع من أنواع التجارة[٤]. والثابت أيضًا أن هذه الظاهـــرة شملـــت جـــنوب أوروبا بالذات، إذ كانت جماعات اليهود فى المدن الإيطالية فى الفترة المعاصرة لشهادات عوبديا تلك قد انتشرت بينهم الإباحية، وأصبح كثير من نسائهم إما عاهرات أو عشـــيقات لأعضاء النخبة الحاكمة المسيحية[٥] وكما رأينا، فقد كان هذا هو حالهن فى رودس. ونظرًا لتشابه المجتمعين المسيحيين فى كل من إيطاليا ورودس فضلاً عن تجاورهما الجغرافى، فما يقال عـــن الأوضاع الاجتماعية السائدة بين جماعة اليهود متقاربة، كما كانت تلميحات عوبديا تكفى للاعتقاد فى ذلك.

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.217.

(٢) سفر اللاويين: ١٨: ٧، ٢٩، ٢٠: ١٠، ٢١؛ سفرا أشعيا: ٣: ١٦، ٢٥، سفر أرميا: ٥:٧، ٩؛ سفر حزقيال: ١٦: ١، ٤١؛ سفر هوشع: ٤: ١، ١٨، فضلاً عن إشارات عديدة أخرى. انظر أيضًا: زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٢٩٩.

(٣) Newman, E., Louis, Past imperatives, Studies in the history, and theory of Jewish Ethics, p.17.

(٤) عبدالوهاب المسيرى: الأقليات اليهودية، ص٤٦؛ أحمد عبدالغفور عطار: اليهودية والصهيونية، الطبعة الأولى، دار الأندلس، بيروت – لبنان ١٣٩١هـــ/ ١٩٧٢م.، ص١٦٦؛ كامل سعفان: اليهود تاريخ وعقيدة، ص٤٨.

(٥) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـــ٤، ص٣٣٥.

هكـــذا نلمس بوضوح أن معاملة اليهود داخل المجتمعات الأوروبية التى أقاموا بها فى شرقى البحـــر المتوسط لم تكن على وتيرة واحدة، إذ تدرجت من المعاملة السيئة إلى المعاملة الطبيعية فى باليرمـــو وميسينا ورودس. وإن كانت تقوم فى كل الأحوال على أساس النفعية منهم، ومدى ما يمكن أن يقدموه لكلٍ من هذه المجتمعات.

ثانياً: جماعات اليهود فى المجتمع الإسلامى:

جماعة اليهود فى الإسكندرية:

وفى الصـــفحات الآتية نعرض لأوضاع جماعات اليهود وتركيبهم الاجتماعى فى مجتمع مخالف آخـــر حيث المجتمع الإسلامى كما رآها عوبديا سواء فى مصر أم فى الشام، وما تعرض له منها فى بـــلاد أخـــرى، وبدايـــةً فإذا ما كانت المادة التاريخية المتعلقة بأوضاع جماعات اليهود فى المحطات الأوروبـــية فى البلاد التى مر بها ليست مستفيضة كما رأينا، نجده وقد اهتم بذكرها داخل المجتمع الإســـلامى، وكانت الإسكندرية بطبيعة الحال هى المحطة الأولى فى هذا الجانب حيث ذكر عنها: ((أن ثلثـــى أبنيـــتها مدمـــرة حالـــيًا، وكثير من منازلها مهجور، أما قصورها المأهولة فهى مبلطة بالفسيفساء، ويتوسطها أشجار الخوخ والبلح، وجميع المنازل برحة وبديعة)). ومن ثم لم يتطرق هذا المستوطن إلى أى من أبنية اليهود المدنية مكتفيًا بالإشارة إلى وجود معبدين أحدهما كبير جدًا، إلا أنـــه أصـــابه التخريب إلى حد ما، ولذا لا يستخدم إلا فى المناسبات لإقامة الصلوات[١]. ويتفق ميشـــولام بـــن مناحم مع قرينه اليهودى فى وصف المدينة مقدمًا لمزيد من المعلومات عنها. وفيما يتعلق باليهود فقد أكد على احتواء المدينة على المعبدين، إلا أنه يوضح أن جانبًا كبيرًا منها تعرض للتخريب الذى نسبه المؤرخون إلى حملة ملك قبرص ((بطرس لوزجنان peter of Lousignan)) الصليبية عام ١٣٦٥م./ ٧٦٧هـــ. المباغتة على المدينة، ومنذئذ أخذت الأحوال العامة داخلها فى الـــتدهور[٢]. كذلك فهناك سبب آخر يضيفه عوبديا؛ حيث يُرجع سبب قلة سكان المدينة ((إلى

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.222.

(٢) Meshullam of Voltera, pp.159, 161.

وكان ملك قبرص قد تآمر مع بعض القوى الأوروبية والمحلية داخل مصر بغرض غزو الإسكندرية، وقام صليبيو الحملة بتدمير شامل للمدينة ومبانيها، ونهبوا كل ما وقعت عليه عيونهم، وقضوا ثلاثة أيام فى المدينة كانت شديدة الوطأة عليها، انظر: المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤جـــ، الجزء الأول والثانى، نشر وتحقيق: د.محمد مصطفى زيادة، ١٩٣٦م.، الجزء الثالث والرابع تحقيق: د.سعيد عاشور، القاهرة ١٩٧٠- ١٩٧٤م.، جـــ٣، ق١، ص١٠٥- ١٠٦.

الطقس غير الصحى السائد فيها منذ بضع سنين، ويقال إن أولئك الذين اعتادوا الإقامة فيها فترة طويلة يتعرضون للموت أو على الأقل يقعون فريسة للمرض. أما معظم الأهالى فهم معرضون باستمرار للإصابة بأمراض الرمد[١])). وهكذا أقدم عوبديا على تعميم ما هو خاص به، فيبدو أن جو الإسكندرية لم يلائمه هو شخصيًا والمحيطين به وقت وصوله إليها لمصادفته فترة بداية رياح الخماسين.

على ذلك اقتصر عدد جماعة اليهود بمدينة الإسكندرية وفقًا لتقدير عوبديا على خمس وعشرين أسرة فقط، بينما قُدروا قبل ذلك بسبع سنوات بستين أسرة من اليهود الربانين، فى حين كانت أعدادهم داخل المدينة سالفًا يقدر بأربعة آلاف يهودى[٢]، كما قدرت فى القرن الثانى عشر الميلادى بثلاثة آلاف يهودى[٣]. وعليه فهناك تراجعٌ ملموس قد حدث بين عدد جماعة اليهود داخل هذا الثغر مقارنةً بأعدادهم المذكورة فى عصور سابقة، وهذا يكشف عن ظاهرة تناقص أعداد اليهود بالإسكندرية خلال القرون الثلاثة الفاصلة بين تسجيل الرحالة لكتاباتهم، والواضح أن تناقص أعداد اليهود على هذا النحو جاء ليحاكى انخفاض عدد السكان الذى شهدته المدينة بصفة عامة جراء الظروف السياسية وربما الطبيعية المشار إليها.

وحينما انتقل عوبديا فى خطابه إلى الحديث عن المهن التى انخرط اليهود فيها داخل مجتمع الإسكندرية، فقد أشار إلى الرابى موسى جراسو Mosses grasso الذى احترف مهنة الترجمة للجالية البندقية فى الإسكندرية، حتى اكتسب ثقتهم وثقة العرب الذين أعطوه قدره. ولعل إتقانه للغات الأجنبية أهلته للعمل فى الجمارك المصرية، وهذا يتأكد من عبارة عوبديا ((ودفعت مبلغًا كعمولة للرابى موسى جراسو مفوضًا إياه بأن ينقل متاعى من السفينة الكبيرة الراسية فى مياه أبى قير إلى القاهرة[٤])). وهذا يعنى أن جراسو عمل موظفًا فى الإدارة المملوكية، وكان مستأمنًا فى التعامل مع الأجانب بما لديه من مهارة فى اللغات. وكان عمل اليهود بالترجمة أمرًا مألوفًا فى عصر الدولة المملوكية؛ إذ يشير طافور فى رحلته التى زار فيها مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى/ التاسع الهجرى إلى أن مترجم السلطان ((الأشرف برسباى)) كان يهوديًا، ثم أسلم، وغير اسمه من

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.222.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.222; Meshullam of Voltera, p. 161.

(٣) بنيامين التطيلى: الرحلة، ص١٧٠– ١٧١.

(٤) Obadiah, Op.Cit., pp.220, 223.

((حـــايم)) إلى ((صايم)) [١] كما تحدث الرحالة ميشولام بن مناحم عن مترجم يهودى آخر على درايـــة كاملـــة بسبع لغات، ويحمل نفس الاسم حايم، وهى العربية والإيطالية والتركية واليونانية والألمانية والفرنسية إلى جانب اللغة العبرية، وهو يهودى هاجر من أسبانيا [٢] ومن ثم يكون موسى جراســـو قد سار على هدى سابقيه من اليهود الذين احترفوا مهنة الترجمة، خاصة، وأنها تتفق مع طبيعة الإسكندرية بصفتها ميناء يجمع بين شتى الأجناس والمسافرين.

جماعة اليهود بالقاهرة:

وفى الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة مرورًا برشيد لم يسجل عوبديا وجود أى من جماعات للـــيهود، ولم يكن ثمة ما يلفت نظره فيما يخص المجتمع المصرى فى هذه الجهات سوى كثرة عدد القـــرى فى الريف المصرى وأنها ((واسعة شديدة الجمال ومأهولة بالسكان)) كما أن أسعار السلع هـــناك زهيدة للغاية. كذلك لفت نظره أن منطقة الأهرامات لم تكن مأهولة بالسكان، فى حين أنه انـــدهش لاكـــتظاظ القاهرة بهم ((وكذلك عدد الأجناس الذين يمكن رؤيتهم فيها، فهناك أناس كـــثيرون وصـــفوا ذلك، وإن كل ما قالوه عن هذه المدينة صحيح ... والمدينة فى حركة ونشاط دائـــبين ... وتســـتطيع أن تذهب إلى الخارج أثناء الليل كما وأنك بالنهار، إذ أن جميع الشوارع مضاءة بالمشاعل؛ فالناس تنام على الأرض قبالة المحال [٣]))، وهذا الوصف الذى يغلب عليه التدقيق نجـــد له شبيهًا عند عديد من رحالة العصر المملوكى حيث بدت القاهرة مدينة كبرى عاصمة عالمية منذ أواسط القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى بعد أن استكملت جميع المقومات المؤهلة لتبوأ هذه المكانة [٤].

وكـــان عوبديا قد وصل القاهرة ((قبل اثنى عشر يومًا من عيد البوريم Purim [عيد الحصاد عند اليهود] وهذا العيد يمثل موسم الحصاد، وبحلوله أخذت المجاعة الشديدة التى اجتاحت القاهرة

---

(١) طافور، بيرو: رحلة طافور، ص٦٥.

(٢) Meshullam of Voltera, Op.Cit., pp.166- 167.

(٣) Obadiah, Op.Cit., pp.223, 224, 228.

(٤) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك (التاريخ السياسى والاجتماعى) الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ١٩٩٨، ص١٩١، ٢٠٠.

ويعد وصف الرحالة الهولندى جوس ڤان جستال من أدق ما كتب فى وصف القاهرة فى ذلك العصر. راجع:

Joos Van Ghistele, Le Voyage en Egypte, pp.137- 139.

فى الانحســار. إن الشعير هنا ينضج بسرعة أكثر من أى مكان آخر بفضل تأثير مياه النيل، وبدا الحصــاد جيدًا جدًا. وفى الشهر التالى تعددت المحاصيل الزراعية حتى أنه لم يعد هناك أى ذكر عن المجاعــة فى البلاد، إن الأهالى والأرض تابعان للملك ويؤولان إليه، وهو يأخذ خمس حجم الإنتاج وأحــيانًا أكثــر من ذلك، ومصر هى المكان الوحيد فى العالم الذى نجد فيه الأرض الزراعية (منذ القدم) تتبع الملك وصولاً إلى يومنا هذا[١])). وبذلك أدرك عوبديا وبسرعة بعض الحقائق الدقيقة عن مصر، ومنها سياسة احتكار السلع التى عرفتها الدولة منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادى/ التاســع الهجرى خاصة فى وقت الأزمات[٢] والثابت تاريخياً أن مصر شهدت موجات متتالية من الجفــاف طيلة القرن الخامس عشر الميلادى/ التاسع الهجرى، وكثيرًا ما واكبها مجاعات وطواعين أدت إلى تعطــيل الفعاليات البشرية والاقتصادية[٣] مما جعلها جديرة بملاحظة عوبديا فحرص على تدوينها خطابه.

وقــبل الخوض فى دراسة الجوانب الاجتماعية الخاصة بجماعات اليهود فى القاهرة، فقد كانت لعوبديا انطباعاته العامة عن عمران ومجتمع المدينة آثر أن يرسل بها إلى ذويه فى خطاباته حيث قال عنها: ((ليس فى وسعى أن أتحدث عن كم هو حجم المدينة الضخم، وكذلك عدد الأجناس الذين يمكن رؤيتهم فيها ... وهى ليست محاطة بالأسوار بشكل كامل، وعليه، فهناك عديد من الأماكن هنا وهناك تم توفير الحماية لها بوقوعها خلف الأسوار ... والشخص هنا يسمع عديدًا من اللغات التى يتحدث بها الأجانب الذين يقيمون فيها)). وفى موضع تالٍ أثناء التأهب للخروج منها يضيف موضحًا ما ذكره فيقول: ((بعد خروجى من القاهرة الجديدة، ذهبت إلى القاهرة القديمة التى كانت تدعى مصر العتيقة Mizroim Atika[٤]، وكانت هى أيضًا مأهولة بالسكان، وإن كانت ليست

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.224.

(٢) أصل كلمة احتكار هى (حكر) ومعناها جمع السلع لينفرد بالتصرف فيها، ويعد نوعاً من أخذ أموال الناس بالباطل، ولمعرفة المزيد عن سياسة السلاطين الجراكسة فى الاحتكار. انظر: عثمان على عطا: الأزمات الاقتصادية، ص١٣٧ – ١٤٦.

(٣) راجع الجداول المتضمنة بيان بالأزمات الاقتصادية نتيجة الجفاف والأوبئة فى المرجع نفسه، ص٢٨١ – ٢٩٢؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص٣٥٠ وما بعدها؛ عبدالكريم رافق: العرب والعثمانيون، ص ٨– ٩.

(٤) دأبت الوثائق اليهودية على ذكر مسمى ميزريوم Mizroim تعبيراً عن القاهرة، والإشارة أعلاه إلى الفسطاط التى تمثل الجزء الأقدم من المدينة، انظر:

Goitein, S. D., A Mediterranean society, vol. IV, p.6.

مـــثل القاهـــرة الجديدة فى هذا الشأن، بيد أن الاثنتين شديدتا القرب من بعضهما، وعلى الطريق هناك رأينا المنطقة التى كان السلطان يرسل إليها الناس بغرض إقامة سد على النيل كل عام لمواجهة الفيضـــان الـــذي يحدث عادة فى شهر آب Ap[١])) يوليو – أغسطس. ومن المعاصرين من يقدر مســـاحة القاهـــرة بشقيها القديمة والجديدة بثمانين ميلا لكليهما معًا، وأن القاهرة الجديدة أكثر ازدحامًا، ومبانيها ليست قديمة كما هو الحال فى القاهرة القديمة[٢] فى حين نجد تفاصيل أكثر عند معاصر سابق يضيف الفسطاط قسمًا ثالثًا لا تكتمل القاهرة إلا به، ويشرح مقياس النيل والهدف من إقامته وكيفية أدائه[٣] وبذلك أكد عوبديا على نهجه الخاص فى كتابة خطاباته الذى يستهدف فيه جماعات اليهود بالدرجة الأولى فيما يسجل دون الإفاضة عما سواها.

أمـــا عن جماعة اليهود فى العاصمة المملوكية فقد اتخذ صاحب الخطابات منها محورًا للحديث عنهم، حيث قال: ((يوجـــد بالقاهرة حالياً سبعمائة أسرة يهودية، من بينهم خمســـون أســـرة من الســـامرين Samaritans[٤] ...... ومائـــة وخمســـون أسرة من القرائين[٥] وبقية الأســـر من

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.224, 230.

(٢) Mushellam of Volera, Op.Cit., pp.166 – 168.

(٣) يتلخص شرح مقياس النيل عند الرحالة طافور فى أنه عبارة عن ثلاثة أعمدة ذات خطوط معينة وكتابات قديمة مقامة على النيل، فإذا كان زمن الفيضان يتم رصد درجة ارتفاع الماء، ويعلن على الناس، فإذا بلغت الزيادة أقصاها عرف الناس إلى اى حد يستطيعون بذر الحب، وعما إذا كانت السنة خصبة أم مجدبة. انظر: طافور، بيرو: رحلة طافور، ص٧٣، ٧٤، ويمدنا المؤرخ المسلم ابن إياس بتفاصيل أدق راجعه فى : بدائع الزهور، جـــ١، ص ١٥٤.

(٤) وهم أتباع السامرى الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم: سورة طه: آية ٨٥ التى تفسر بأن المقصود بالسامرى هو الرجل الذى صنع العجل الذى عبده بنو إسرائيل حين ذهب موسى عليه السلام لموعد ربه، وقد ترجع نشأة طائفتهم إلى ما بعد تدمير مملكة إسرائيل على يد ملك آشور (تجلت بلاصر) ٧٣٨ ق.م الذى أخلاهم من بلدهم السامرة (نابلس)، وحل محلهم قوم مفسدون. وربما يرجع أصلها إلى أيام السبى البابلى ٥٨٦ ق.م. حين بنى السامريون هيكلهم فوق جبل جريزيم فى فلسطين. انظر: سيد فرج راشد: السامريون واليهود، دار المريخ، الرياض ١٤٠٧هـــ – ١٩٨٧م.، ص ١٥ – ١٧، ٢١ – ٢٥.

(٥) الكلمة مشتقة من المصدر "قرأ" نظراً لأنهم لم يامنوا بغير (المقرأ أو المقروء) وهى التوراة وشروحها التى لم يعترفوا بغيرها من كتب اليهود، ومن ثم فهم لم يتقيدوا بما جاء فى التلمود، انظر: القلقشندى: صبح الأعشى، جـــ ١٣، ص٢٥٨. وكانت طائفتهم قد انشقت عن الربانين منذ القرن الأول الميلادى،وتأكد هذا الانشقاق على يد عنان بن داود هاناس فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى، وكانت لهم عناية فائقة بعلوم اللغة والفلسفة والفقة. انظر: عبدالوهاب المسيرى: الأقليات اليهودية، ص٩٨؛ انظر أيضاً: عرفة عبده على: ملف اليهود، ص ٢٣٧.

الربانين[١])). كما يذكر ميشولام بن مناحم أنه كان بالقاهرة حوالى ثمانمائة أسرة لكل من الربانين والقـــرائين وخمسون أسرة من السامرة[٢] مفرقًا فيما بينهم. ومن هذا يتبين أن طائفة الربانين هى الأكثـــر عدداً فى القاهرة، ويتأكد ذلك مما ورد فى المصادر الإسلامية التى نصت على أن: ((جماعة الربانين هم الشعب الأكبر والحزب الأكثر[٣]))، كما يتبين أن طائفة القرائين تأتى فى المقام الثانى، أمـــا طائفـــة الســـامريين فتأتى بعدها من حيث العدد، اما الرحالة جوزيفان غستال، فيقدر يهود القاهرة بجميع طوائفهم فى عام ١٤٨٢م./ ٨٨٧هـــ. بخمسة عشر ألف يهودى[٤].

وقـــد اهـــتم عوبديا بمدى التفاوت العقائدى فيما بين طوائف اليهود الثلاث حين حديثه عن الطوائف المسيحية بالقدس حيث قال ((كل طائفة منهم تكفر بعقيدة الطائفة الأخرى بالضبط مثل ما فعله السامريون والقراؤون حينما حرّموا عقيدة الربانين[٥]ومن ثم يلاحظ بدايةً الاتجاه نحو تمييز طائفـــة الـــربانين عن الطائفتين الأخريين، وسوف نتناول بالدراسة كل طائفة على حدة كما رآها عـــوبديا، وقـــد روعى تقويم ترتيبها وفقًا لأعداد كل منها، وأحياناً ما يتطلب دراسة كل طائفة التطرق إلى مثيلتها فى مجتمعات أخرى لليهود خارج القاهرة، كما يلاحظ أن تصنيف اليهود على هذا النحو يبدو وكأنه يرتكن إلى العقيدة، إلا أنه برغم ذلك يُعد تصنيفًا أثنوغرافيًا اجتماعيًا على اعتبار أن الدين اليهودى يتحكم فى كل مقدراتهم، ويشكلها بما فى ذلك الجانب الاجتماعى.

وفـــيما يتعلق بطائفة الربانين أو التلموديين[٦]، فلم يتناولهم المستوطن اليهودى بطول حديث، وســـبب ذلـــك يتضح فيما وجهه فى خطابه إلى والده حيث يقول: ((وكما تعرف يا والدى فإن

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.225.

يطلق عليهم أيضاً (الربيون) والاسم مشتق من كلمة (ربى) أو (ربان) المأخوذة عن كلمة (ربانيم) العبرية، ومعناها الأمام ،الحبر ، الفقيه، وقد وردت هذه الكلمة فى القرآن الكريم: سورة المائدة: آية ٤٤. والربانيون أشهر الطوائف اليهودية وأكثرها عدداً فى التاريخ القديم والحديث على السواء. انظر: قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص٤٤.

(٢) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.171.

(٣) القلشندى: صبح الأعشى، جـــ١١، ص٣٨٨

(٤) Joos Van Ghistele, Op.Cit., p.20.

(٥) Obadiah, Op.Cit., p.242.

(٦) نسبةً إلى التلمود وهى كلمة مشتقة من "لُمد" ومنها (تلميد) العبرية (بمعنى تلميذ)، لأنه يعلم الفقه والدين وتفسير التوراة. والتلمود جزءان "المشناة" و "الجمارا". وظل اليهود الربانيون يتناقلوها شفاهةً حتى=

القـــرائين لا يعـــتقدون فيما يقوله حكماؤنا)). ومن ثم فهو يعمد إلى إلقاء الضوء على ما هو غير معلـــوم لدى ذويه. ولما كانت عقيدة العائلة كما هو واضح تجعلهم من الربانين؛ فلم يحرص على تبيان عقيدقم إلا من خلال مقارنتها بالمذاهب الأخرى وشعائرهم، ومع حرصه على عدم الإطالة فى الحديث عنهم، فهناك معلومات مهمة عن طائفتهم بالقاهرة، إذ يشير إلى أن أغلبهم فقراء، إلا أنـــه يذكر ((أحيانًا ما نجد أغنياء حتى فيما بين هؤلاء التلموديين)). كذلك تحدث – كما أسلفنا الذكر – عن وجود معبد كبير لهم بالمدينة الذى أقرنه باسم النبى إلياس، وميزه بكبر حجمه، واهتم بذكـــر كثير من تفاصيله الدينية والتاريخية والمعمارية التى تجتمع لتشير إلى أنه كان يخص الربانين، كمـــا أن هـــناك إشـــارة منه إلى أنهم امتلكوا معبدًا آخر فى منطقة دموة التى حدَّد موقعها بخارج القاهرة[١] بالجيزة.

أمـــا عندما تحدث عوبديا عن طائفة القرائين أشار إلى أن لهم معبدًا خاصًا بهم فى مدينة القاهرة يمارسون فيه طقوسهم الخاصة عدا ذلك المعبد الخاص بهم الواقع إلى جوار معبد الربانين فى دموة[٢] الـــذى كـــان يشهد طقوسهم الخاصة والصلوات فى أيام السبت والأعياد. وكان كلٌّ من المؤرخ المقريزى والرحالة ميشولام قد أشارا إلى امتلاك طائفة القرائين لمعابدين فى القاهرة[٣] ثم قارن عوبديا مـــن منظور اجتماعى هذه الطائفة بالربانين؛ والقراؤون أكثر ثراءً من التلموديين ... والقراؤون كـــذلك يمـــزجون أنفسهم خلال التلموديين، ويحاولون التودد إليهم)) ثم حرص على إبراز أهم ملامـــح عقيدقم من خلال تبيان الاختلافات مع طائفة الربانين العقائدية فى هذا الصدد مستخدماً المقارنـــة فـــيما بيـــنهما حيث يقول: ((والقراؤون لا يعتقدون فيما يقوله له حكماؤنا [الربانون]

=عهد يهود الناسى" الذى جمع المشناه وكتبها خوفاً من النسيان والتحريف فى ستة أسفار تتناول عديدًا من أوجه الحياة الاجتماعية. وهناك نوعان من التلمود: أورشليمى نسبةً إلى يهود فلسطين وهو الأقدم، وبابلى نسبةً إلى يهود العراق ويوجد بينهما بعض الاختلافات. ولمعرفة المزيد راجع: حسن ظاظا: الفكر الدينى الإسرائيلى، ص٧٨ – ١٠٥.

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.227, 231.

(٢) Ibid, p.226.

برهن عوبديا على وجود أناس من اللاويين من نسل داود عليه السلام من خلال مقابلته أحد شرفاء القرائين زادكه Zadakah الذى كان يحتفظ بقائمة تحتوى على عديد من الأسماء التى تؤكد على انتسابه لهذا الفرع.

(٣) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٧١.

Meshullam of Voltera, Op.Cit., p. 171.

ولكنهم يؤمنون بكل ما جاء به الكتاب المقدس)). وفى موضع آخر يضيف عنهم ((وهم يقدمون على تأليف شروح جديدة للتوراة كما يحلو لهم، كما أنهم ملتزمون بفكرة جواز إدخال تعديلات على أصل الشريعة التى وضعها الأوائل طالما تبدو غامضة أمام الحكماء فى الوقت الحالى بما يتفق مع نصـــوص الكـــتاب المقدس. ومن ثم فهم يقرون بحرفية كل ما جاء فى التوراة، وعلى هذه الأسس فـــإنهم لا يضـــعون فى اعتبارهم أن يكون سواء العلماء القدامى أم الحاليين منهم قد وقعوا فى أى خطـــأ... ومعظـــم القائمين على الصلاة يشملون فيها المزامير، وكذلك أجزاء أخرى من أسفار الكتاب المقدس. وفى أيامنا هذه فإنهم استحدثوا قواعد للتلاوة فى التوارة فى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع، وهى شعيرة لم يعمل بها من قبل، ومن بينهم كهنة ولاويون Levites [١])).

ثم تـــناول عوبديا قضية خلافية إضافية بين الربانين والقرائين تتعلق بالتقويم القمرى وحساب الشـــهور ربما ساعدت على تميز كل من الطائفتين اجتماعيًا، فيقول عن الأخيرين ((إنهم يحددون يـــوم ظهور الشهر الجديد بناء على ظهور القمر، وبناء على ذلك فإن هؤلاء القرائين فى القاهرة يخـــتلفون فى تحديـــد كل من يوم الاحتفال برأس السنة Rash Hashanah[٢] الجديدة ويوم عيد الغفـــران Day of Atonement عن أولئك اليهود ساكنى القدس. فالمتقدمون يتمسكون بوجهة نظرهم التى لا تشوبها أخطاء، ويقومون كل عام بإرسال من يستطلع بداية فصل الربيع فى القدس، وعـــند رؤيتهم للقمر فمن الضرورى عندهم اعتماد هذه السنة سنة كبيسة Ibbur وإضافة شهر

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.227- 228.

ينسب اللاويون إلى لاوى Levi ثالث أبناء يعقوب عليه السلام من زوجته ليئة، ويطلق اسمه على إحدى القبائل العبرانية الاُثنى عشرة. واللاويون يحتلون مكانة رفيعة فهم يتوسطون بين الشعب اليهودى والكهنة فى المعبد، وحينما يحل وقت قراءة التوراة فى الصلوات اليهودية، ينادى على من يُتصور أنه من نسل الكهنة أولاً، ثم يُنادى بعد ذلك على اللاويين. وبعد عودة اللاويين من بابل أصبحوا هم الكهنة يعودون بأصلهم إلى مصدر واحد، وإن ظل الكهنة يشغلون أهم الوظائف الكهنوتية. انظر: عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٤، ص١٤٤، ١٤٥.

(٢) اللفظة هى المسمى العبرى لرأس السنة الذى يجتمع اليهود على الاحتفال بها فى شهر تشرين فحسب، ومع ذلك فحساب السنة تبدأ عند اليهودى بشهر نيسان أول التقويم المدنى، وبذلك فإن رأس السنة تبدأ فى سابع شهورها. انظر: عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٥، ص٢٥٦- ٢٥٩؛ يوسف عيد: موسوعة الأديان السماوية والوضعية، جـ٥، الديانة اليهودية ، الطبعة الأولى، دار الفكر اللبنانى، بيروت ١٩٩٥م.، ص٨١.

كبيس. وهم لا يرون غضاضة فى إضافتهم هذا الشهر، وكذلك عدم أخذ أولئك القرائين المقيمين بالقسطنطينية [الآستانة] [١] بهذا الأمر؛ إذ أن كل مكان يحدد تقويمه السنوى وفقا لأعرافه[٢])).

هذه العبارات مهمة، ففضلا عن أنها تجسد مزيدًا من الاختلافات بين الطائفتين، ففيها ما يمثل إجابة على ما ورد فى إحدى الدراسات المتخصصة من تساؤل عما إذا كان يهود مصر قد خضعوا لرئاسة اليهود فى فلسطين أم لا؟ فهى تبين أن طائفة القرائين فى مصر ظلت حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى تتبع القدس، فى حين كون القراؤون لأنفسهم مجتمعًا مستقلا فى الآستانة كل وفقًا لظروفه وأعرافه[٣] هذا وقد نبهنا عوبديا إلى أن اعتماد القرائين على الأهلة فى تحديد مواسمهم وأعيادهم جعلهم يختلفون فيما بين طوائفهم من بلد إلى آخر عدا – مصر وفلسطين، كما تباينوا عن الربانين فى تحديد مواعيد مواسمهم وأعيادهم مما زاد من تباعد الفريقين، بحيث امتنع الزواج بين أبناء الطائفتين ذلك أنهم أنكروا التقويم بالأهلة، واعتمدوا على الحساب، واعتقدوا فى أن تحديد بداية الشهر برؤية الهلال قد يخلق مشكلة كهذه، وباللجوء إلى الحساب يتم توحيد الأعياد والطقوس الدينية فى مواعيد محددة[٤] وكان ربط التقويم بظهور الهلال قد تسبب فى مشاكل إضافية حيث تعرض الحاخامات الموكل لهم هذا الأمر للمحاكمة أحيانًا نظرًا لما وقعوا فيه من خطأ فى التقويم[٥].

ومن أشكال هذه الاختلافات ما يتعلق بشعيرة الصوم؛ وفى الواقع لم ترد لفظة الصوم كفريضة فى الشريعة اليهودية، وإن كان مذكورا ضمن ما ينبغى على اليهود تأديته من الفروض فى يوم

---

(١) كان فى القسطنطينية فى ذلك الوقت ثلاثون جماعة يهودية، لكلٍ معبدها وحاخامها ومحاكمها الخاصة التى لم تكن لها سلطة تنفيذية، إلا أن جماعة القرائين الترك قد تركزوا فى شبه جزيرة القرم. انظر: عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٤، ص٢٥١- ٢٥٢.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.226.

(٣) قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص٥٩؛ عبدالوهاب المسيرى: الأقليات اليهودية، ص٩٣.

(٤) ابن الوردى (ت ٧٥٠هـ/ ١٣٥٠م.) زين الدين عمر: تتمة المختصر فى أخبار البشر، القاهرة، ١٢٨٥هـ، ص١٠٢؛ ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥١م.) محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الزرعى الدمشقى، أبوعبدالله شمس الدين: هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى، تقديم وتحقيق وتعليق: أحمد حجازى السقا، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.، ص٢٥٧ – ٢٦٨.

(٥) Eisenstadt, S. N., Jewish civilization, p.79.

الكفـــارة مشـــارًا إليه بعبارة ((تذليل النفس[١])) وفى ذلك يقول عوبديا: ((والقراؤون بالقاهرة يصومون فى يومى السابع والعاشر من شهر آب[٢])) الموافق طبقاً للتقويم اليهودى بعض من شهرى يوليو وأغسطس، ويرى عوبديا فى ذلك اختلافاً عما يتبعه الربانون، وتفسير ذلك اتباع هؤلاء نظام الحســـاب فى تحديد رؤوس الشهور سواء اتفق ذلك مع رؤية الهلال أم لم يتفق بإضافة يوم إلى أيام كـــل عيد ورد فى التوراة فيما عدا صيام الغفران، فى حين التزم القراؤون بعدد أيام كل عيد وفقًا للتوراة الأمر الذى أدى إلى أن أصبحت مواسم الطائفتين وأعيادهم وبعض أيام صومهم لا تتطابق زمنـــيًا[٣] والصوم عند اليهود الامتناع عن الشراب والأكل وارتداء الأحذية لمدة خمس وعشرين ســـاعة مـــن الغـــروب إلى ما بعد غروب يوم الغفران، فى حين تستغرق أيام الصوم الأخرى من الشروق إلى الغروب، ولا تتضمن كل التحريمات المشار إليها، كما يصوم اليهود أيام إضافية (أيام الاثـــنين والخميس) لأنها الأيام التى تقرأ فيها التوراة فى المعبد فضلاً عن بعض الأيام التى تذكرهم بأحزانهم[٤].

وبخصـــوص يـــوم السبت ومدى قدسيته عند اليهود فيلاحظ وجود عدة اختلافات أيضًا بين القـــرائين والـــربانين، إذ تشدد القراؤون فى تطبيق بعض الطقوس[٥] الخاصة بهذا اليوم، وفى هذا الصدد يذكر عوبديا عن القرائين: ((إنهم لا يوقدون أية نار فى بيوتهم يوم السبت سواء فى النهار أم باللـــيل[٦])). إذ جاء فى التوراة ما نصه ((لا تشعلوا نارًا فى جميع مساكنكم يوم السبت[٧])) ولذا يعـــد يـــوم العـــيد الأســـبوعى أو يوم الراحة عند اليهود، ويحرم فيه العمل، وبحسب ما يقوله الحاخامات؛ فإن الإله خلق السماوات والأرض فى ستة أيام، ثم استراح فى اليوم السابع. ولذلك، فإنـــه بـــارك فى هـــذا اليوم وقدّسه، وحرم فيه القيام بأى نشاط، وكانت عقوبة خرق شعائر يوم

---

(١) سفر اللاويين: ٢٣: ٢٧. راجع أيضاً: زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٢١٢.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.226.

(٣) محمد الهوارى: الاختلافات بين القرائين والربانين فى ضوء الجنيزة، القاهرة ١٩٩٤م.، ص٣٧ – ٤٤؛ محاسن الوقاد: اليهود فىمصر المملوكية، ص٢٢٤– ٢٢٥.

(٤) غازى السعدى: الأعياد والمناسبات، ص٦٣– ٦٤؛ زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٢١٣.

(٥) محمد الهوارى: الاختلافات بين القرائين الربانين، ص٥٠.

(٦) Obadiah, Op.Cit., p.226.

(٧) سفر الخروج: ٣٥: ٣.

السبت الإعدام رجماً، ومن ثم فعلى اليهودى ألا يشغل نفسه بأشياء عن ذكر الإله من قبيل العمل وإيقاد النار وضمن ذلك النار التى توقد للطهى أو التدفئة. وتوجد محظورات عديدة أخرى عن أفعال يجب على اليهودى المتمسك بدينه اجتنابها فى هذا اليوم، وقد تفاوت اليهود فى الالتزام بهذه الشعائر، وتحايلوا على تطبيقها، وقد كبلت شعائر السبت اليهود أيما تكبيل، حتى تأثرت مجتمعاتهم بذلك، ومن مظاهره الانعزال عن الآخرين والتكتل فى جماعات طائفية منغلقة[١] بيد أنه علينا أن نضع فى الاعتبار أن طائفة القرائين كانت وفقًا لما لاحظه عوبديا هى الأكثر حرصًا على التمسك بالاحتفال بيوم السبت عن باقى اليهود.

ومازال عوبديا يستخدم عنصر المقارنة فى تبيان عقائد طائفة القرائين، وذلك فيما يخص قواعد ذبح الحيوانات فيقول: ((وشأهم فى احترام هذا الطقس شأننا نحن [أى الربانين] برغم أن ذلك لم يرد بوضوح فى النصوص التوراتية[٢])) وهكذا اتفقت الطائفتان من حيث المبدأ على قواعد الذبح التى من شأنها تحريم اشتراك الأغيار مع اليهود فى الطعام الذى يحوى لحوماً، الأمر الذى يجسد استقلالية مجتمعهم وعدم الاندماج مع الأمم الأخرى المحيطة بهم، وبغرض تجنب العزلة كان على فقهائهم تجاهل كثير من التعليمات الشرعية[٣]. ثم يبرز عوبديا أفكار القرائين بخصوص الذبح فيقول: ((وهم يراعون القواعد فى ذبح ذبائحهم، وذلك باستخدام سكين حاد للغاية خال من أى نتوءات)) فضلاً عن بقية القواعد الخمس الخاصة بذلك، أما عن موقفهم من أكل اللحوم، فيظهر عوبديا الاختلافات بينه وبينهم فى هذه القضية بصفته من الربانين فيضيف : ((واللحم رائع جدًا، وأخص بالذكر منها إلية الخروف، والقراؤون لا يأكلون هذا، وذلك يرجع إلى أن التوراة حرمت هذا النوع من الدهون[٤])) والذبح الشرعى عند اليهود (شحيطاه) يشترط القواعد التى ذكر عوبديا جانباً منها على أن يتم فحص الحيوان أو الطير فحصًا دقيقًا للتأكد من طهارته، ويقوم بهذه

---

(١) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٥، ص٢١٢– ٢١٣؛ راجع أيضاً: غازى السعدى: الأعياد والمناسبات، ص٥٢، ٥٦، ويؤكد هذا الباحث على أن أصحاب السبت غير متفقين على معنى محدد ومعايير موحدة لشعائر السبت.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.226.

راجع الإشارة التوارتية فى : سفر اللاويين: ٣: ٩.

(٣) زبيدة محمد عطا: يهود العالم العربى، دعاوى الاضطهاد، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ٢٠٠٤، ص٢٦– ٢٧.

(٤) Obadiah, Op.Cit., pp.226, 227.

العملــية شخص مؤهل يدعى الذابح الشرعى[١]، وهكذا نجح عوبديا جزئياً فى حصر الاختلافات بين الطائفتين اليهوديتين إزاء ذبح الحيوانات، ومنها أيضًا أن حرم القراؤون ذبح أنثى الحيوان وهى حامــل، علــى حين يجيز الربانون ذلك، كما يحرم القراؤون أكل أجزاء معينة من الحيوان يجيزها الــربانون[٢]، وكــان عــوبديا قد ذكر منها إلية الخروف. وهذه المقارنات تكشف عن مزيد من الخلافــات المذهبــية التى لا شك فى أنها تبرز عدم وحدة المجتمع اليهودى سواء فى القاهرة أو فى أماكن تواجد الطائفتين معًا فيها.

ثم وقــف محرر الخطابات على قضية يبدو أنها شغلت ذهنه، وربما لأنها كانت موضوعاً للنقاش الحار من حوله خاصة القراؤون منهم حيث يقول: ((إن شرائعهم تحرم الخمور، وهم فى ذلك أكثر حرصــاً مــن الربانين)) والواضح أن هذا الحرص هو الذى أثار هذا الجدل. إلا أن عوبديا يرصد ظاهرة اجتماعية فضيلة فى هذا الشأن تتمثل فيما قال: ((إن فى كل البلاد التى مررت بها لاحظت أن التشــريع الــذى يحرم الخمر هو موضع احترام من قِبل الجميع، حتى أن هناك شبهة فى مدى إمكانية استخدام العسل الذى يقوم العرب بإعداده من العنب، وهو يعد فى منتهى الجودة. وكان عــند إعداده لا يتم عصر العنب كما هو الحال عند إعداد الخمر منه. وقد طلب منى أن أرخص لليهود باستخدامه؛ إذ كان هناك كثير من الجدل حول إمكانية تناوله، إلا أن أسلاف لم يقدموا على ذلك، وقد أردت ألا أحدث بدعًا. ولا يوجد أى من اليهود من يقدم على شرب خمر صنعه رجل عــربى، خاصــة إذا ما كان رجلاً غير يهودى[٣])) وبالنظر إلى القواعد الفقهية الخاصة بالطعام فى اليهودية، نلحظ أنها تحرم على اليهودى تناول خمر أعدها وثنى أو حتى لمسها إذ كانت الحكمة من هذا التحريم أنه ربما يكون قد كرسها لآلهته، وفى مرحلة تالية، وبعد ظهور الأديان تطور الأمر بأن شمل التحريم ما أعده كل من هو غير يهودى من طعام. كما لم تعد المسألة إعداد الخمر وإنما مجرد فتح الزجاجة، فإذا ما أقدم على ذلك مسيحى تسكب، وإذا كان مسلم يحرم شربها ويجوز بيعها، ولما كانت قوانين الطعام قد تغلغلت، وتشعبت، فإن اليهودى العادى كان يواجه مشاكل رئيسية

---

(١) يمكن مراجعة التفاصيل الخاصة بقواعد اليهود فى الذبح عند: غازى السعدى: الأعياد والمناسبات، ص ٦٦ – ٦٨؛ عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جــ٥، ص٢١١.

(٢) محمد الهوارى: الاختلافات بين القرائين والربانين، ص٦٢، ٩٥؛ انظر أيضاً: على عبدالواحد وافى: اليهودية، القاهرة، ١٩٧٠م.، ص٩٠ – ١٠٠.

(٣) Obadiah, Op.Cit., pp.226- 227.

تضطره إلى اللجوء للحاخام قبل تناوله للطعام طلبًا للفتوى، الأمر الذى سيزيد من قدر رجل الدين فيما بين أفراد الجماعة اليهودية[١] وهذا هو ما لقيه عوبديا فى هذا الصدد.

ومـــا لبث عوبديا أن قدم مزيدًا من الأدلة التى بها نقف على تقييم أوضاع الطوائف اليهودية تقييماً اجتماعياً من خلال ما قدمه من مقارنات، إذ يميز القرائين بأنهم ((يتبعون كل طقوس غسل الميت بدقة، ويبدو أن هذا الالتزام كان له صداه الاجتماعى حيث يوضح أنه حينما يتوفى أحد من القرائين ((يغادر جميعهم البيت، ويستأجرون بعضًا من التلموديين الفقراء لحمل جثمانه بعيدًا نظرًا لأنهـــم لن يقدموا على لمس الجثمان بأنفسهم[٢])). هذا ولم تتعرض الخطابات بالإشارة صراحةً إلى أمـــاكن سكنى القرائين خارج القاهرة إلا فى الخليل وعدن[٣]. ونظراً لاتصال هذا الموضع بعادات اليهود وتقاليدهم، فستتولى الدراسة تناوله فى موضعه.

أما عن الطائفة اليهودية الثالثة فى القاهرة، وهم السامرة فعلى الرغم من أنهم كانوا أقل طوائف الـــيهود عددًا (خمسون أسرة فقط) وفقًا للإحصاء الذى قدمه عوبديا وميشولام، إلا أن صاحب الخطابات أولاهم اهتمامًا واضحًا فيما كتب ربما بدافع الرغبة فى تسليط بعض الضوء عليهم لوالده وذويـــه فى الغرب نظرًا لجهلهم بثقافتهم؛ لعدم وجود عناصر منهم داخل المجتمعات الغربية، فمن حـــيث المســـمى وفضلاً عما عُرِفوا به (سامريين) – اشتقاقاً من اسم بلدة السامرة عاصمة مملكة إســـرائيل القديمة حيث شمال نابلس[٤]، فإن صاحب الخطابات يعرفهم أيضًا بمسمى آخر كان قد أُطلـــق علـــيهم، وهو الكوثانية Catheans [٥] الذى يرجع إلى أن طائفة السامريين انقسمت إلى شعبتين هما: الدوثانية Dotheans والكوثانية، فى حين أن هناك من يذكر أنهم انقسموا إلى شُعب ثـــلاث هـــى: الدوسيثيان والجروسينية والماسبوتانية. وفى كل الأحوال فقد انقسموا بدورهم إلى

---

(١) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـــ٥، ص٢١٠.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.227.

(٣) Ibid, p.246.

(٤) عرفة على عبده: ملف اليهود، ص٢٣٢– ٢٣٣.

(٥) Obadiah, Op.Cit., p.255.

يرجع مسمى (الكوثانية) الذى أطلقه عوبديا على السامريين إلى اسم الفصل الذى ألحق بالتلمود بعنوان "الكوتيين" الخاص بتنظيم العلاقة بين السامريين واليهود. والكلمة تعنى "الخارجين عن الدين" حيث يذكر الربانون أن البابليين أتوا هم من مدينة كوت البابلية. انظر: القلقشندى: صبح الأعشى، جـــ١٣، ص٢١٨؛ حسن ظاظا: الفكر الدينى الإسرائيلى، ص٢٤٨؛ سيد فرج راشد: السامريون واليهود، ص١٩، ٦٠.

شُـــعب أخرى اختلفت فى ممارسة الطقوس والعبادات[١]. ويعتبر السامريون أنفسهم حماة للشريعة ((شـــومريم)) (ومن هنا جاء المسمى) وأيضًا بنى إسرائيل الحقيقيين على اعتبار أنهم من نسل إفرايم ومنسى ابنى يوسف عليه السلام[٢].

ويستمر عوبديا فى التعريف بالسامريين من خلال معتقداتهم فيقول: ((ولدى السامريين الكتب الخمسة الخاصة بموسى [عليه السلام] فقط[٣])). وبالفعل، فمن المعروف أن هذه الطائفة لا يؤمنون ســـوى بالأســـفار الخمسة التى تمثل القسم الأول من العهد القديم[٤] إلى جانب سفر يوشع وسفر القضـــاة، بـــيد أنهم ينكرون بقية أسفار العهد القديم وأسفار التلمود. ونصوص الأسفار المعتمدة لـــديهم تخـــتلف عن النصوص المشهورة لهذه الأسفار[٥]. كذلك أنكر السامريون نبؤات الأنبياء باســـتثناء إبراهيم وكلٍ من النبين هارون ويوشع عليهم السلام[٦] ولذلك أنكر اليهود الاختلاط بالسامريين والزواج بهم[٧].

وبالفعل أكد صاحب الخطابات على الفارق العقائدى، ومن ثم الاجتماعى البين بين السامريين وســـواهم من اليهود فيقول: ((والسامريون موضع بغض واستنكار من اليهود نظرًا لأنهم يقدمون

---

(١) قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص٣٩؛ سيد فرج راشد: السامريون واليهود، ص١٤٧– ١٤٨، ١٦١ – ١٧٣.

(٢) محمد خليفة حسن أحمد: تاريخ الديانة اليهودية، الطبعة الأولى، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨م.، ص٢١٩.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.225.

(٤) وهى: التكوين – الخروج – اللاويين – تثنية الاشتراع – العدد، وهى مجتمعة تعرف بالتوراة، انظر: أحمد راتب عرموش وآخرون: موسوعة الأديان (الميسرة) الطبعة الأولى ١٤٢٢هـــ. – ٢٠٠١م. مادة: السامريون.

(٥) سيد فرج راشد: السامريون واليهود، ص١٢٨ – ١٣٠، وكان اختلاف السامريين عن باقى اليهود المذكور سبباً فى أنهم يعدون طائفة خارجة عنهم وليسوا من اليهود. راجع أيضاً: غازى السعدى: الأعياد والمناسبات، ص٥١– ٥٢.

(٦) القلقشندى: صبح الأعشى، جـــ١٣، ص٢٦٨– ٢٦٩.

ويوشع اسم عبرى معناه "الخلاص" وهو أحد أنبياء بنى إسرائيل الصغار، ظهر فى القرن الثامن ق.م.، وعاصر سقوط السامرة سنة ٧٢٢ ق.م. انظر: بطرس عبدالملك وآخرون : مادة هوشع.

(٧) عرفة عبده على: ملف اليهود، ص٢٣٢، ٢٣٣.

الأضاحى، ويحرقون البخور على جبل جريزيم Gerizim [١] وكثيرٌ منهم غادروا القاهرة معنا إلى جبل جريزيم لتقديم أضاحى عيدالفصح كذبائح قربانًا هناك، كذلك فهم لديهم معبد فوق هذا الجبل، ويحتفلون بيوم السبت من منتصف نهار الجمعة حتى منتصف نهار يوم السبت[٢]»). وعليه فهم يتخذون من الجبل قبلةً لهم مخالفين بذلك باقى اليهود، ولذا فهم يحجون إليه بدلاً من بيت المقدس زاعمين أن الله تعالى كلم النبى موسى عليه. كما يقدمون عنده الأضاحى، ومع ذلك فهم يصومون، ويصلون، ويقرأون التوارة، شأنهم فى ذلك شأن باقى اليهود[٣]. وقد احتفظوا بخصائصهم العقائدية فى أداء كل شعيرة منها، ومما يُضاف عنهم أنهم يحجون ثلاث مرات فى كل عام إلى جبل جريزيم، ومعهم عمامة من ذهب لوضعها فوق إحدى القمم، كما يقدسون يوم السبت، إلا أنهم يدنسوه فى منتصف اليوم[٤])). وهذا يتضح من خلال أنهم أكثر حفاظًا فى أداء شعائر هذا اليوم، حيث يحرصون على البقاء فى منازلهم لا يخرجون منها إلا إلى المعبد، ويفضلون البقاء فى الظلام خشية إيقاد الشموع، وحرموا على أنفسهم شرب الخمر فى السبت والأعياد الأخرى، وهى أمور أباحها اليهود الآخرون لأنفسهم[٥]. وبذلك تضافرت كثير من المسائل الخلافية فى العقيدة بين السامريين واليهود أوجدت هوة عميقة تفصل فيما بينهم، ليس بالنواحى ذات الصلة بالدين فحسب، إنما فى النواحى الاجتماعية أيضًا.

خضع السامريون لتقييم عوبديا لهم من نواحى اجتماعية أخرى حيث قال: ((إن السامريين هم أغنى اليهود فى القاهرة، ويشغلون أعلى الوظائف فى الدولة، حيث يعملون صرافين وفى وظائف إدارية، فهناك واحدٌ منهم يمتلك مائتى ألف قطعة من الذهب[٦])). وتؤكد الدراسات المتخصصة على الحقيقة التى أدركها عوبديا؛ وهى أن السامريين كانوا أغنى اليهود فى المجتمع الذى عاشوا فيه؛

---

(١) يذكر الرحالة اليهودى الرابى بنيامين التطيلى أن الجبل يقع بالقرب من نابلس، ويحج إليه السامريون، ويقدمون أضاحيهم على صخرته. انظر: بنامين التطيلى، ص١٨٥، ١٩٠، كذلك فالسامريون "يستقبلون طور نابلس، ويوجهون إليه موتاهم زاعمين أنه الذى كلم الله تعالى موسى عليه، ولمعرفة المزيد عن فضل هذا الجبل لدى السامريين انظر: سيد فرج راشد: السامريون واليهود، ص١٣١، ١٣٣.

(٢) Obadiah, Op.Cit., pp.225, 226.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١٣، ص٢٦٥، ٢٦٩.

(٤) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.171.

(٥) سيد فرج راشد: السامريون واليهود، ص١٨٣ – ١٨٥.

(٦) Obadiah, Op.Cit., p.227.

وأنهم عاشوا حياة مرفهة، واندمجوا بسرعة فى البيئة الإسلامية المحيطة[1] فى إطار كونهم من الكتابيين الــذين حرص السلاطين على تقديمهم على غيرهم فى احتلال وظائف ذات مقام رفيع فى الإدارة المدنــية[2] ويبدى أحد المؤرخين (المسلمين) إنكاره لهذا الوضع قائلاً: ((العجيب أنه لا يعرف فى إقليم من الأقاليم من الشرق إلى الغرب توليتهم إلا فى إقليم مصر خاصةً فيالله العجب ما بال هذا الإقلــيم دون ســائر الأقاليم مع أنه أعظم أقاليم الإسلام وأوسعها عالمًا وأكثرها علمًا .. كذلك جذع المؤرخ ذاته من عظم نفوذ اليهود والنصارى فى الجهاز المالى والإدارى للدولة، فاتهموهم بأنهم تحكموا فى رقاب المسلمين،واستخدموا نفوذهم فى دفع من يتعرض لهم[3] ورغم هذا النموذج من المعارضـــة الـــتى تعد فى حد ذاتها دليلاً واضحًا على أن اليهود والمسيحيين تولوا وظائف هامة فى الدولـة. فـــإن أفراد هاتين الطائفتين ظلوا دائمًا يعملون فى الجهاز الإدارى والمالى للدولة[4] حتى أواخـــر العصـــر المملوكـــى وفقـــاً لإشارة المؤرخ المقريزى الذى أكد على أنهم احترفوا العمل بالصـــيرفة[5]. وإذا مـــا كانت هذه الإشارات تنصب على اليهود والنصارى بشكل عام، إلا أنها تنطبق بشكل أوضح على فئة السامريين فى ضوء ما ذكره عوبديا.

ويـــبدو أن فئة السامريين قد أوجدت لنفسها كيانًا اجتماعيًا له ملامحه الخاصة التى ميزتهم عن باقى اليهود، وهذا يظهر من حديث عوبديا عن مجتمعهم الصغير حيث يقول: ((ومازال نفر قليل منهم باقين إلى يومنا هذا ... ويقال إن من بقى منهم يبلغ بالكاد خمسمائة أسرة فى العالم كله[6]))

---

(١) قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر ، ص٥٨.

(٢) بروكلمان، كارل: المرجع السابق، ص٣٦٩.

(٣) الأسنوى (ت ٧٧٢هـــ./ ١٣٦٩م.) جمال الدين أبو محمد عبدالرحيم: الكلمات المهمة فى مباشرة أهل الذمة. نشره موشى برلمان، بروكلين، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٦٩م.، ص٧ – ٩، ٢٠ – ٢٢.

(٤) قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص١٦٠.

(٥) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـــ٤، ص٤٤٣. وقد استندت بعض الدراسات على مثل إشارات المقريزى تلك للقول بإن نشاط اليهود المصريين تركز بصفة أساسية فى النشاط المصرفى والأعمال المالية فى تلك الفترة، وعقبت دراسة أخرى على ذلك بالقول إنه رغم اشتغال اليهود فى عدد كبير من الحرف والصناعات إلا أنهم لم يحتكروا العمل فى أى حرفة من هذه الحرف بأى حال من الأحوال. راجع: سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عهد سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٦٢م.، ص٤٠ – ٤١؛ قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص٩٧.

(٦) Obadiah, Op.Cit., p.226.

والـثابت أنـه كان للسامريين معبدٌ واحدٌ يقوم بتنظيم مجتمعهم داخل حيهم الصغير الخاص بهم بالقاهرة[١].

وفيما يخص تصنيف الطوائف اليهودية التى يتألف منها مجتمعهم فى القاهرة يعرفنا عوبديا بطائفة أخـرى مـنهم فيقول: ((ويوجد بالقاهرة حوالى خمسين عائلة من المارانو Maranos جاءوا من أسـبانيا كانوا قد أُجبروا على الارتداد عن يهوديتهم، وقام جميعهم بتقديم كفارة عن ذلك، وهم الـذين كان عليهم أن يخلفوا وراءهم جميع مالديهم؛ ومن ثم فمعظمهم معوزون، فقد أُجبروا على تـرك ممـتلكاتهم وآبـائهم وأقاربهم،وقدموا إلى هنا ليلتمسوا أمنًا لهم تحت أجنحة رب إسرائيل العظـيم[٢])) ونجد لهذا التعريف تأكيدات فى المصادر المعاصرة والدراسات الحديثة المتخصصة التى تؤكد أن هذه الطائفة تعرضت بالفعل لعديد من صور الاضطهاد ومنها: القتل، الترحيل، الاعتداء على الملكيات الخاصة بهم، والسجن والإجبار على الارتداد عن اليهودية إلى النصرانية[٣] ونظراً لحرصهم على الإبقاء على دينهم اليهودى فقد سماهم بعض الباحثين ((اليهود المتخفين))[٤]. ومن ناحية أخرى نلمس الاتجاهات الفكرية لهذه الطائفة متوافقةً مع عبارات صاحب الخطابات؛ إذ تشير موسـوعة اليهود واليهودية إلى أن انتشار المارانو المتخفين بدينهم فى أوروبا وبعض أجزاء الدولة العثمانية وخاصةً البلقان قد أوجد موجة من التطلعات المشيحانية – أى التطلع إلى عودة واحدٍ من نسل داود عليه السلام إلى عرش أورشليم متحديةً محاولات حاخامات اليهود فى التهدئة. ومن ثم بـدت النـزعة المشيحانية عندهم عميقة ذات جذور[٥] لتعكس واقعهم الاجتماعى السياسى المشتت بعد أن فقدوا وطنهم الأندلس الذى نشأوا فيه، وكان كثيرٌ من طائفة المارانو قد بقيت فى المجـتمع الأسبانى حتى بعد مرحلة الاسترداد Reconquesta فى عام ١٤٩٢م./ ٨٩٧هـ. وقد عـرفوا حينـئذٍ باسم المرتدين Conversos أو المسيحيين الجدد New Christians إضافةً إلى مسيحيى المارانو، وإذا ما تم اكتشاف تمسكهم بيهوديتهم يُدانون بذلك، ويتعرضون للقتل ذبحًا أو

---

(١) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.171;

المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٤٧١.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.228.

(٣) Meshullam of Voltera, Op.Cit., pp.166- 167; c.f Also, Cohen Mark, R., Under cresent and cross; the jews in the middle Ages, New York, U. S. A., 1943, p.169..

(٤) عبدالوهاب المسيرى: الأقليات اليهودية، ص٩٥.

(٥) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود. جـ٥، ص٢٩٥- ٢٩٦.

حـــرقًا[١] أما من تمكن منهم الهرب أو نُفى إلى المجتمعات الإسلامية سواء فى المغرب أو فى المشرق، فما يلبثون أن ينصهروا فى المجتمعات اليهودية خاصةً فيما بين أبناء طائفة الربانين، وهذا يجعل من طائفةً المارانو طائفةً منقرضةً لا وجود لها داخل المجتمعات الإسلامية.

وأخيرًا تضمنت مادة الخطابات معلومات عن مجتمع يهود الفلاشا Flashas، وإن لم يذكرهم عوبديا صراحةً بهذا المسمى، وكان قد سمع عنهم أثناء وجوده بالقاهرة من خلال رواية رجل ((قدم من مملكة الكاهن يوحنا [حيث أثيوبيا]، وتضمنت أن حينما أوقعوا بأعدائهم، واتخذوا كثيرًا منهم أسرى، وفى المقابل أخذ الأعداء بعضًا منهم أسرى، وقاموا ببيعهم كعبيد؛ ولذا فبعض من أولئك تم إحضارهم إلى القاهرة، وهناك استرد اليهود ملكيتهم لهم. ولقد رأيتُ اثنين منهم فى القاهرة، وكانا ذوى بشرة سوداء، إلا أنهما لم يكنا داكنى السواد مثل الزنوج[٢])) وهناك كثير من الباحثين يرى أن الفلاشـــا ليسوا يهودًا أصليين،وإنما هم أثيوبيون من قبيلة أجاو، تهودوا فى زمن غير معروف، ويؤكد ذلك التشابه الكبير فى ملامح الوجه بين الفلاشا وجيرانهم. ولم يقتصر ذلك التقارب فيما بينهما على الجانب العرقى، إنما هناك اقتباسات فى عقيدة الفلاشا من الأرثوذكسية الأثيوبية. وقد ســاعدت الأســاطير على وجود مثل هذا التقارب، فهى تشير إلى انتقال تابوت العهد على عهد سليمان عليه السلام من القدس إلى الحبشة مع ابنه ابن الحكيم الذى تولى الملك فيها، وقد تمخض ذلك الانصهار عن تكوين طائفة الفلاشا من تطور مجموعة عناصر مثل الهجرة، والزواج المختلط، والتشابه الحضارى، والتعديلات الدينية[٣].

كانت هذه أبرز الملامح الاجتماعية التى ميزت جماعة اليهود فى أثيوبيا؛ بيد أن عوبديا تطرق إلى جـــوانب اجتماعية إضافية ترتبت على الواقع السياسى والحروب التى جرت فى تلك الديار حيث أحزنه بيع أسرى الفلاشا كعبيد، وشاهد بنفسه اثنين منهم فى القاهرة، وبعد أن تعرض لأهم سماتهم الســـلالية كاتصافهم بالبشرة السمراء وليست السوداء كالزنوج، حرص على إبراز تقليد استراد الـــيهود ملكيتهم لهم تمشيًا مع الشريعة التى تنكر ملكية غير اليهود لأسيرٍ يهودى. ولما كان يهود الفلاشا من سبط دان، ولما كان عدم إيمانهم بالتلمود ناتجاً عن انعزالهم والجهل به، فلا يصح قياسهم بالقرائين، وعليه فإنه يجوز فداؤهم من الأسر. كما أن هناك خوف من التزاوج منهم، وإن لم يصل

---

(١) Gilbert Martin, Jewish History Atlas, 4th ed., London, 1992, p.50.

(٢) Obadiah, Op.Cit., pp.238- 239.

(٣) محمد جلاء إدريس: يهود الفلاشا، ص٣٣، ٦٥، ٧٤.

ذلــك إلى حــد التحريم والحظر. وأيا كان الأمر، فقد شكل الفلاشا عنصرًا اجتماعيًا إضافيًا بين جماعــات اليهود فى القاهرة بعد نزوحهم إليها سواء مهاجرين أم أسرى تم بيعهم لليهود، فعاشوا بينهم[١].

وعن المعتقدات الدينية الخاصة باليهود الفلاشا يذكر عوبديا بعد لقائه باثنين من أسراهم المباعين بالقاهــرة. ((كــان من المستحيل أن تعرف منهما إذا ما كانا من القرائين أم الربانين؛ ففى بعض الأحوال يبدو هؤلاء وكأنهم يعتنقون المذهب القرائى، إذ أنهم يقرون بأنه لا توقد النار داخل بيوتهم فى يوم السبت، وفى أحوال أخرى يبدون وكأنهم ربانون[٢])). وهذا يتفق مع واقعهم المعروف، فهم لا يعرفون شيئاً عن كتب اليهود الدينية الأخرى مثل التلمود. وعلى الرغم من أن الفلاشا يوقرون الســبت، ويحــتفلون بأكثــر الأعياد، ويحافظون على الشرائع الخاصة بالختان والزواج، إلا أن يهوديتهم تختلف بشكل جوهرى عن اليهودية الحاخامية المعروفة لدى الأشكيناز والسفارد[٣].

ومـــا ســبق عرضـــه من مادة قدمتها لنا خطابات عوبديا فى المجال الاجتماعى الخاص بيهود القاهرة، يتبين أن جماعاتهم وطوائفهم المعاصرة كانت جميعًا ممثلةً داخل هذه المدينة مشكلة نموذجًا متكررًا فى أقاليم أخرى على امتداد الدولة المملوكية، إما بشكل كلى أو جزئى، بمعنى أن تشكيل مجــتمعهم فى القاهــرة قد نجد له شبيهًا بشكل أو بآخر فى القدس أو الخليل أو فى أماكن أخرى، وذلــك فى حالة وجود جماعة لهم فيها، ومن ثم فتقييمهم اجتماعيًا بالقاهرة قد يكفى للوقوف على مجتمعاتهم الأخرى داخل الدولة. هذا والمادة ذاتها بصفة عامة تمكن من تصنيف جماعة اليهود داخل المجــتمع المملوكى فى صورتين مختلفتين؛ الأولى تعتمد بشكل أساسى على العقيدة، أما الثانية فتقوم علــى أساس التصنيف العرقى الإثنوغرافى بين أشكينازى وسفاردى بما فيهم المارانو ثم الفلاشاه، وفــيما يخــتص بالتصنيف الأول، فقد زعمت كل طائفة منهم أن المذهب الذى تعتنقه هو الأمثل والأكثر اقترابًا من أصول الديانة اليهودية. ويخلص أحد الدارسين إلى إنه بالرغم من أوجه الخلاف بين الربانين والقرائين، إلا أنهم اتفقوا على استخراج ستمائة وثلاث عشرة فريضة من التوراة، كما اتفقــوا على نبوة موسى وهارون ويوشع وإسحاق ويعقوب وبنيه الاثنى عشر (الأسباط). ولكن

---

(١) محمد جلاء إدريس: يهود الفلاشا، ص٢٢، ٢٣؛ صلاح عبداللطيف: الفلاشا، الخيانة والمحاكمة، ص٢٢

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.239.

(٣) عبدالوهاب المسيرى: الأقليات اليهودية، ص٩٥.

القـــرائين لم يعترفوا بنبوة أحد سوى هؤلاء، وثمة خلافات بين الطائفتين حول بعض الأمور الفقهية مثل القصاص، وحرمة السبت[١]، وحرمانية الخمر، والتقويم السنوى، وبعض الأمور الفقهية التى تمـــس الشعائر، وأسلوب دفن الموتى. ورغم هذه الاختلافات المذهبية إلا أن الدولة تعاملت معهم جميعاً باعتبارهم يهودًا.

وفى الواقـــع فالتقســـيم الـــذى استخدمه عوبديا له حدود دلالية واضحة نظرًا للتداخل بين عناصـــره، الأمـــر الـــذى يجعل من استخدامه بشكل مدقق أمرًا صعبًا، فليس كل ما هو شرقى سفاردى، وليس كل أشكينازى بالغربى. وقد اقتصر حديث صاحب الخطابات بشكلٍ صريح على هذين الصنفين من اليهود. أما الصنف الثالث وهم المارانو الذى أشار إليه أيضًا، فما هم إلا سفارد تحولوا عن يهوديتهم إلى المسيحية، ومن ثم فهم لا يخرجون عن إطار التقسيم الثنائى ذاته. أما حينما تطرق إلى يهود الحبشة واليمن ويهود الهند، فقد أقرهم بمواطنهم فى هذه البلاد. وعليه فإن صاحب الخطابـــات لم يلتـــزم بنهجٍ واحد فى الإشارة إلى يهود العالم فى عصره، فتارةً يشير إليهم بعنصرهم العرقى أشكيناز وسفارد، وتارةً بموطنهم يهود القاهرة ويهود القدس ويهود الحبشة واليمن والهند، فى حـــين لم يستخدم تصنيفًا حضاريًا لهم مثل يهود أوروبا أو البلاد الإسلامية. وهذا يُبرز اتجاهاته التى تنـــزع إلى أمرين: الاتجاه الدينى فى التقسيم، والاتجاه العنصرى فى التصنيف دون اللجوء إلى العناصر الثقافية الأخرى مثل اللاتينية والعربية والمسيحية والإسلام برغم أن هذا بطبيعة الحال يتفق مع العصر؛ أى فترة أواخر العصور الوسطى.

وفـــيما يختص بالتقسيم الثانى الخاص بجماعة اليهود فى الدولة المملوكية الذى يمكن استخلاصه من خطابات عوبديا القائم على التصنيف العرقى الإثنوغرافى بين أشكيناز وسفارد بشكلٍ أساسى، فيلاحظ فى الدراسات العربية استخدام مصطلحى أشكيناز وسفارد باعتبارهما مرادفين لمصطلحى يهود غربيين ويهود شرقيين[٢] وإن كان هناك علاقة وثيقة بين الأصول الدينية لكليهما؛ فالأشكيناز تعود عبادتهم لأصول يهودية فلسطينية، بينما تعد عقائد السفارد (الأسبان والبرتغاليين) استمرارًا

---

(١)- قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص٥١.

(٢) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٢، ص١٢١- ١٢٢. ويوضح هذا الأستاذ أنه يمكن استخدام مصطلحى سفارد وأشكيناز حين يكون موضوع النقاش هو يهود الغرب حتى منتصف القرن التاسع عشر، أو حينما نود الإشارة إليهما بالمعنى المحدد. وفيما عدا ذلك فإننا نستخدم مصطلحى شرقى و غربى على أنهما مصطلحان عامان يغطيان كل التنويعات والهويات اليهودية المختلفة.

للتقاليد الدينية اليهودية التى نشأت وتطورت فى بابل[١]. وبداية من أواسط القرن الحادى عشر الميلادى / أواسط القرن الخامس الهجرى أصبحت الفروق بين المجتمعات اليهودية أكثر عمقاً. فعلى الرغم من مواظبتها على تأدية الصلوات القديمة الشائعة لدى اليهود (على سبيل المثال) تم ابتداع صلوات جديدة تميز طائفة دون الأخرى، فضلاً عن التغيرات التى طرأت على الصلوات الأساسية. كذلك اختلفت السلوكيات الدينية فى مجالات الحياة؛ إذ أصبح المجتمع الأشكينازى الذى نشأ فى شمال فرنسا وغرب ألمانيا فيمابين القرنين العاشر والثانى عشر الميلاديين / الرابع والسادس الهجريين أكثر حداثة، وبدأ فى الانحراف عن الأنماط الراسخة السابقة أكثر من أى مجتمع آخر مع بعض الاستثناءات، واتجه معظم اليهود الأشكيناز الأتقياء إلى رفض تناول اللحم أو أى طعام يحتوى على اللحم إذا كان معداً تحت إشراف حاخامات غير أشكيناز. وعلى ذلك فإن اليهودى السفاردى التقى الذى يزور يهوديًا أشكينازيًا تقيًا يأكل اللحم الذى يعده هذا الأخير، ولكن اليهودى الأشكينازى التقى الذى يزور يهوديًا سفارديًا يرفض تناول أى طعام يحتوى على أى لحم أو غالباً أى طعام آخر مما أدى إلى انغلاقهم على أنفسهم. كما قام اليهود السفارد فى القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى بتكوين مجتمعهم المغلق الخاص بهم مرتكزاً على الاعتقاد فى أنهم متفوقون على اليهود الآخرين من جوانب عديدة بصفتهم من سلالة نقية. ولم يرفض معظمهم فقط الزواج من اليهود الأشكيناز، ولكنهم كانوا يشمئزون من التواجد معهم فى مكان واحد[٢]. وتستند الاختلافات فيما بينهما على أسسٍ تارخية قديمة؛ فأسلوب العبادات السفاردية تعد استمرارًا للتقاليد الدينية اليهودية التى نشأت وتطورت فى بابل، أما الأشكيناز فتعود عبادتهم أساسًا لأصول يهودية فلسطينية. لكل هذا اكتسب مصطلحا أشكيناز وسفارد دلالة دينية إلى جانب الدلالة العرقية، وترتب عليه أن أصبحت صيغ الدين اليهودى التى يعرفها الأشكيناز تختلف عن الصيغ المألوفة بين السفارد نظرًا لاختلاف المؤثرات الحضارية والاجتماعية التى أثرت على الفريقين[٣]. وفى النهاية نجد الدين يفرض نفسه فى كل الأحوال حيث يتغلب على شتى المظاهر المصنفة لليهود. ومع ذلك فالحديث عن انتماء يهودى موحد ومحدد يعتمد فقط على الدين هو حديث قاصر أبعد ما يكون عن الطوائف والأقليات اليهودية.

---

(١) غازى السعدى: الأعياد والمناسبات، ص٥٦؛ عبدالجليل شلبى: اليهود واليهودية، ص١٦٠.

(٢) شاحاك، إسرائيل ومتسفينسكى، نورتون: الأصولية اليهودية، ص٩٥- ٩٦.

(٣) عبدالوهاب المسيرى: الأقليات اليهودية، ص٩٢- ٩٣.

وبعد الوقوف مليًا على تركيب طوائف اليهود فى القاهرة نخرج من خطابات عوبديا أيضًا بما يفيد التعرف على مزيد من الجوانب الاجتماعية المحددة هناك، فثمة مهن اعتاد اليهود على الانخراط فيها حيث يذكر: ((ومن يهود القاهرة يوجد التجار والذين يعملون بمهنة الصيرفة، ذلك لأن البلد ضخم، كما أن بعض أفرع الصناعات مفتوحة أمام أى فرد، وللاتجار فليس هناك مكان أفضل له من القاهرة. فمن السهل أن تزداد ثراءً، وهاهنا يمكن للفرد أن يلتقى بأجانب لا حصر لهم من شتى الأمم واللغات))[١]، هذا وقد تضمنت وثائق الجنيزة إشارات عديدة إلى حرفٍ ومهن إضافية لعل أهمها صياغة الذهب والفضة[٢]، كما تسبق شهادات عوبديا بست سنوات شهادة الرحالة جوزڤان غستال التى يذكر فيها إن يهود القاهرة يمارسون جميع الأنشطة الحرفية[٣]، كذلك فمن الثابت تاريخيًا أن مدينة القاهرة فى العصر المملوكى تعد من أفضل البلاد تجاريًا على مستوى العالم، إذ كانت ثروة مصر واتساع تجارتها فى هذا العصر قد اجتذبت كثيرًا من يهود القسطنطينية وبغداد ودمشق وعكا وصور وحلب والأندلس، فضلاً عن البلاد الأوروبية مثل فرنسا وإيطاليا وغيرها[٤]، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تمكن اليهود المستقرون فى القاهرة – وكما أوضح لنا عوبديا سلفًا – من التغلغل فى الجهاز الإدارى والمالى فى الدولة مما جعل دورهم بارزًا فى مجال التجارة وسوق المال.

ومن الشواهد ما يؤكد على أن جماعة اليهود فى القاهرة وجدت الفرصة مفتوحة أمامهم للعمل فى أفرع الصناعات المختلفة حرفيين وفنيين فضلاً عن عملهم بالتجارة. وهناك العديد من الدراسات أفاضت فى ذكر ذلك، وانتهت إلى أنهم عملوا فى مهن كثيرة ومنها: العطارة وبيع الأدوية والعطور وصناعة الخمور وبيعها وبيع الزيوت والحبوب، وبيع المنسوجات والأقمشة الفاخرة، بل وتصديرها إلى الخارج، وفى صناعة وبيع البز والحرير ، وصناعة الصابون، وبيع التوابل، وكان أهمها الفلفل والمواد الغذائية الأخرى، ألخ ... ومما يذكر أن عدد الحرف التى امتهنها اليهود فى مصر قد ناهزت المائتين وخمسين حرفة يدوية، فضلاً عن مائة وسبعين نشاطًا

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.228.

(٢) Goitein, S. D., A Mediterranean society, vol. I, p.108.

(٣) Joos Van Ghistele, Op.Cit., p.20.

(٤) سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص٤٢.

مهنيًا[١]، ومع ذلك نجد هناك من يتهم السلطة المملوكية باضطهاد اليهود ذاكرًا أنها وضعت محاذير علـيهم كان أحدها منعهم من العمل فى الجهاز الإدارى الخاص بالسلطان والأمراء[٢]. وهو الأمر الذى لم نجد له صدىً فى خطابات عوبديا بل على العكس من ذلك.

أما إذا انتقلنا إلى ما سجله عوبديا عن معاملة اليهود من قبل المجتمع الإسلامى المحيط وحياتهم اليومية بالقاهرة فهو يشير إلى: ((وفى إمكان اليهودى ابتياع أى شئ ضرورى، مثل: اللحم والجبن والسمك والخضراوات، وكذلك جميع الأشياء التى يُحتاج إليها، لقد كان كل شئ يُباع فى شارع اليهود ... وفى هذه المدينة فاليهود يطبخون داخل منازلهم فى يوم السبت فقط، نظرًا لأن كلاً من الـرجال والنسـاء علـى حـد سـواء مشغولون الأسبوع كله، ومن ثم يشترون كل شئ من السـوق[٣])). وجديـر بالملاحظـة أن الأسطر السابقة قد كتبت عن طائفة الربانين فقط من بين الـيهود؛ وذلك يستشف من أنه أجيز لهم إعداد القدر ووضعه على النار قبل دخول السبت، ثم يقدمون على إتمام إعداده أثناء السبت، على العكس من القرائين الذين حرموا أكل الأطعمة التى طُهـيت على هذا النحو بغرض أكلها ساخنة فى يوم السبت، ولما كان اليهود يفضلون قضاء هذا الـيوم بين أفراد الأسرة والراحة فى المنـزل فضلاً عن الذهاب إلى المعبد للصلاة[٤]، فقد كانت الفرصة متاحة أمامهم أيضًا لإعداد الطعام بأيديهم لأنفسهم دون ابتياعه من السوق لانشغالهم فى الأيام الأخرى بأعمالهم، ولنا هنا أن ندرك القيمة الاجتماعية الواضحة من خلال سماح السلطات والمجـتمع المملوكى لليهود باعتبار يوم السبت عُطلة لهم لا يذهبون فيه للعمل حتى لو كان عملاً خاصًا بهم، واحترموا قدسية هذا اليوم بالنسبة لهم على الرغم من كونهم أقلية.

وفيما يتعلق بوضع يهود القاهرة حيال دفع الضرائب الاستثنائية فإن عوبديا يتحدث عن قيام السلطان المملوكى استعدادًا منه لقتال العثمانيين بفرض ضريبة قدرها ((خمسة وسبعون ألف قطعة

---

(١) Goitein, S. D., A Mediterranean society, vol.I, pp.74, 146.

قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص٥٩، ٦٠.

(٢) Fargeon, Maurice, Les juifs en Egypte depuis les origines jusqu' à ce jour, le Caire, 1938, p.135.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.228.

(٤) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٤٨٠؛ حسن ظاظا: الفكر الدينى، ص٢١٠.

من الذهب على يهود القاهرة، أى: السامريين والقرائين، والربانين، وكذلك كان هو الحال بالنسبة للنصارى والعرب، ولذا فقد عنّى السلطان بتحصيل هذا القدر الضخم من المبالغ[١])) وتفيد المصادر الإسلامية بما يؤكد ذلك؛ إذ تذكر إن السلطان قايتباى أحضر رئيس اليهود وبطريرك النصارى، وألزمهما بمبالغ من المال لتجهيز الجيش لقتال العثمانيين، وكان هذا أول فتح باب مصادرة الناس ((فقد صادر تجار الفرنج والمغاربة، وغيرهم من أعيان الناس، فضلاً عما أخذه من أجرة الأملاك والأوقاف والمدارس والبيمارستان[٢])).

وقد فسر بعض الباحثين إقدام السلطان على جمع الأموال بهذا الإسلوب على أنه أوجد خصوصية ميزّت دولة الجراكسة عن غيرها من دول الإسلام حيث مارسوا على أهل الذمة ضغوطاً شتى بالاستيلاء على ثرواتهم خاصة وقت الشدة[٣]. مع التأكيد على أن ذلك لم يكن بدافع دينى[٤] لكن لابد وأن نضع فى الاعتبار أمرين مهمين؛ أن فرض الغرامات ومصادرة بعض الممتلكات يعد أمرًا شمل جميع طوائف المجتمع المملوكى بما فيهم المسلمين خاصةً الأثرياء منهم[٥]، كذلك أن دولة الجراكسة شهدت سلسلة من الكوارث الطبيعية والمجاعات إضافة إلى مجموعة من الأخطار على حدودها مع الدولة العثمانية وسواحلها على البحر المتوسط كان يستوجب معها الاستعداد الحربى للتصدى لها مما يتطلب تدبير الأموال اللازمة لمكافحة ذلك.

وبصدد معاملة السلطات المملوكية لليهود أيضًا يضيف عوبديا: ((أخبرتُ بأن مماليك السلطان يقومون بتقديم العلف لخيولهم فى الطريق ذاته المؤدى إلى المعبد اليهودى (خارج القاهرة)، وهذا يشكل خطرًا دائمًا عليهم حيث اعتاد المماليك فى هذه الآونة على ضرب وأذى اليهود شأنهم شأن العرب الذين كانوا يتعرضون أيضًا لهذا الأذى))[٦]. وفى هذا الشأن تخلص إحدى الدراسات المتخصصة عن معاملة اليهود فترة العصور الوسطى أن اليهود فى الدولة المملوكية لم يتعرضوا

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.230.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢٤٩، ٣٠٢.

(٣) Fargeon, Maurice, Les juifs en Egypte, p.135.

انظر-أيضاً: قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص٢٦٤.

(٤) نفسه.

(٥) A Student's letter, p.90.

(٦) Obadiah, Op.Cit., p.231.

لأعمال عدائية أو عنف إلا قليلاً[١]. وكان على تلك الدراسة توضيح أن العنف القليل الذى لقيه اليهود كان أمرًا يعانى منه عموم الشعب المملوكى بشكل فردى فى حالة حدوثه، وهكذا فمعاملة المماليك على عهد سلطانهم قايتباى لليهود بشقيها المادى والاجتماعى لم تكن مرضية لعوبديا، إلا أنـه أكد أن ذلك جاء من خلال معاملة هذه السلطة للشعب بصفة عامة، وهذا ما خلص إليه فى آخـر خطاباتـه حيث قال: ((وخلال تلك الفترة لم يكن هناك عداء تجاه اليهود، إلا أنه قد أُثقِل كاهلـهم بالضرائب الباهظة، بيد أن السلطان أقدم على فعل الشئ ذاته مع العرب وأولئك غير المختونين (النصارى) الذين يقطنون أراضيه[٢]))، أى جميع فئات وطوائف المجتمع المملوكى.

أمـا عـن أحوال جماعات اليهود خارج القاهرة حيث الجهات الشرقية من مصر حيث منطقة الخانكة، فقد سكنها عشرون أسرة يهودية[٣]، وحينما طال الحديث بلبيس ذكر الرحالة ميشولام أن بهـا جماعة يهودية تتألف من خمسين أسرة، واكتفى عوبديا بالإشارة إلى إقامتهم فيها قديمًا فقط مـؤكدًا على أنه لا يوجد أى يهودى يقطن تلك المنطقة الممتدة من الصالحية حتى غزة[٤] وكذلك حينما تحدث عن جهات البحر الأحمر وجانب من ذكريات اليهود هناك ذكر عن مجتمعهم ((لم ينمُ إلى مسامعى أن يهوديًا وصل إلى هناك[٥])).

جماعات اليهود فى فلسطين:

وتنـتقل الدراسـة لتناول البعد الاجتماعى فى مجتمعات اليهود من خلال الخطابات بالجناح الشرقى من الدولة المملوكية، ولعل فيها الجديد الذى سيشكل إضافةً للتاريخ الحضارى لفلسطين، خاصـة وأن عـوبديا جعل منها مهجره و مستقره، فأولاها جل اهتمامه فى التدوين، وعن أولى جماعات اليهود هناك حيث مجتمع غزة، فتذكر المصادر المعاصرة أن بها مسيحيين ويهود أكثر ممن فى القدس[٦]، وهو ما أكد عليه عوبديا، وأضاف أن عدد سكانها من اليهود مابين الخمسين والستين

---

(١) Cohen, Mark, R.Under cresent and cross " The Jews in the Middle Ages", p.169. .

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.250.

(٣) Ibid., p.231.

(٤) Meshullam of Voltera, Op.Cit., pp.175- 176; Obadiah, Op.Cit., pp.232- 233.

(٥) Ibid, p.233.

(٦) Felix Fabri, Op.Cit., tome III, p.801; Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.180.

أســرة، وهم يمتلكون معبدًا صغيرًا ولكنه جميل حيث تحيطه المنازل والحقول الخاصة به[١]، وهكذا سكنت غزة جماعة من اليهود فترة أواخر العصور الوسطى مما يؤكد على تغير الخريطة الديموجرافية لفلســطين عمــا كانــت عليه وقت السيطرة الصليبية[٢]، الأمر الذى يظهر قدر سماحة المجتمع الإسلامى والحرية التى منحها لطائفة اليهود مقارنةً بالصليبيين.

ومــا لبث أن حط عوبديا رحاله مع رفاق الرحلة فى بلدة الخليل ممتطين الجحاش، وذكر شيئاً عــن عمــرانها حيث وصفها بأنها: ((بلدة صغيرة تقع عند منحدر الجبل ... والبلدة مقسمة إلى شطرين، هذا وتضم الخليل عديدًا من بساتين الكروم وأشجار الزيتون[٣])) وينسب أحد المؤرخين أساس عمران البلدة إلى النبى سليمان عليه السلام بتشييده سورًا حول مغارة الأنبياء، بيد أن معالم الــبلدة وتخطــيطها لم تتضح إلا فى عهد السيد المسيح على يد يوسف الرامى المنسوب إلى بلدة الرامة، وما لبثت أن توسعت، وغدت توصف وقت إقامة عوبديا فيها بأنها مدينة ((فبعضها مرتفع علــى رأس جــبل، وهــى شرقى المسجد تسمى يسلون، وبعضها منخفض فى وادى، وهى غربى المســجد، والأماكن التى فى العلو غالبها مشرف على الأماكن المنخفضة، وشوارع المدينة بعضها سهل وبعضها وعر[٤])) وبذلك يمكن القول بان عوبديا نجح فى وقت قصير أن يحدد الملامح العامة لــبلدة الخلــيل نظرًا لاتفاق وصفه لها بما ورد فى المصادر الإسلامية مع ما ورد عند مواطنى هذه الديار المقدسة.

أما عن جماعة اليهود فى الخليل فقد ورد فى الخطابات عن البلدة أنها تشتمل على عشرين أسرة. كلهم من الربانين، كان نصفهم من سلالة أولئك الذين أجبروا على الارتداد عن دينهم، إلا أنهم عــادوا إلــيه مــرة أخرى[٥])) والمقصود هنا طائفة المارانو الذين كانوا قد ارتدوا عن اليهودية. ويلاحظ أنه رغم وجود قاعدة شرعية تمنع اليهودى الذى يعتنق المسيحية من الردة مرة أخرى[٦]

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.232.

(٢) لم يرد ذكر عن وجود يهود فى غزة ضمن الإحصائيات التى قدمها الرحالة بنيامين التطيلى عن أعدادهم فى البلاد التى تناولها فى رحلته حوالى ١١٧٣م./ ٥٦٩هـــ.

(٣) Obadiah, Op.Cit., pp.233- 234.

(٤) أبو اليمن العليمى، الأنس الجليل، جـــ٢، ص٧٧.

(٥) Obadiah, Op.Cit., p.234.

(٦) فؤاد حسنين على: المجتمع الإسرائيلى، جـــ٢، ص١٩.

إلا أنها لم تُطبق على تلك الطائفة لأنهم أجبروا على ترك دينهم، وهذا التقرير العددى ليهود الخليل متفق عليه حيث تم تقديرهم بعشرين أسرة أو يزيد[1] منذ بضعة أعوام. وحينما ذهب عوبديا إلى الخليل مرة أخرى فى عام ١٤٩٠م./ ٨٩٥هـ. دون فى خطابه الأخير سطورًا عن مجتمعها اليهودى فقال: ((إن إقامتى فى هذه البلدة محببة إلى قلبى أكثر من إقامتى فى القدس، إذ أن أعداد اليهود فى الخليل قليلة كما أنهم طيبون، وهم ليسوا سيئين مثل أولئك الذين بالقدس. ويوجد هناك حوالى عشرين أسرة يهودية يقيمون جميعاً فى فناء مقصور عليهم، ولا يندس فيما بينهم مسلم أو أى من حثالة الناس[2])) وبذلك فهناك تأكيد منه على أن أعدادهم ظلت ثابتة فى هذا المجتمع على مدى العقد التاسع من القرن الخامس عشر الميلادى دون تغيير، وجدير بالملاحظة أن عوبديا لم يكرر فى إشارته الثانية ليهود الخليل أن نصفهم كانوا من المارانو، وهذا يعنى أنه بزوال سبب ارتدادهم بدخولهم الكاثوليكية مجبرين على يد الأسبان، فقد عادوا إلى دينهم اليهودى بعد لجوئهم إلى مجتمعات إسلامية حيث مجتمع الخليل الفلسطينى لينعموا فيه بالحرية الدينية والاجتماعية. وبتألف كل جماعة اليهود من طائفة الربانين داخل الخليل جعل منها مجتمعًا متجانسًا جديرًا بمحبة عوبديا له بعد أن فضلها عن جماعة اليهود بالقدس.

وثمة ظاهرة اجتماعية كانت من أشهر ما لفت نظر عوبديا فى الخليل، إذ كان أهلها يستقبلون زوارها العرب والأجانب بحفاوة، وعنها يذكر: ((إن الخليل وما تضمه من حقول وأراضٍ مجاورة موقوفة على مغارة الأنبياء [أى الحرم الخليلى] إذ يتم توزيع الخبز والعدس وربما بقوليات أخرى على الفقراء كل يوم دون تمييز بين عقيدة كل منهم، وهذا تكريمًا لإبراهيم[3])) عليه السلام، وقد رود فى التراث الإسرائيلى أن اليهود قديمًا حينما استقروا فى أرض الخليل (حبرون) كانوا يأكلون من نتاج حقولها وحدائقها وكرومها. وكان من ذلك النتاج أيضًا العدس والحنطة والشعير والفول

---

(١) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.185.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.249.

(٣) Ibid, p.233.

التبس الأمر على ما يبدو عند أحد الباحثين بأن ذكر ((كانت معظم الحقول والبساتين فى الخليل وقفاً على اليهود، وكان يتم تقديم الخبز وكافة المأكولات يوميًا للمسلمين واليهود والنصارى من ريع هذه الحقول والبساتين)) فى حين ماقصده عوبديا هو أن الأوقاف كانت محبوسة على الحرم الإبراهيمى، بيد أن الباحث نفسه يشير إلى استناده إلى مصدرين إضافيين. انظر: محاسن الوقاد: اليهود فى مصر المملوكية، ص٣٩٤، ح١٠٧.

والـــزيتون والتين والرمان والعنب والجميز والزيت والخمر والخل[١] ومن الواضح هنا أن عوبديا يشير إلى ضيافة الخليل أو سماط الخليل التى ترجع بأصلها إلى إبراهيم عليه السلام عندما كان يكرم ضيفه بإطعامه حيث صارت سنة بعده فى كل يوم[٢] وتعد إشارة المقدسى فى القرن العاشر الميلادى/ الـــرابع الهجـــرى من أولى الإشارات إلى هذه الضيافة إذ يذكر: ((وفى هذه القرية [يقصد بلدة الخلـــيل] ضيافة دائمة وطباخ وخباز وخدام مرتبون، يقدمون العدس بالزيت لكل من حضر من الفقراء، ويُدفع إلى الأغنياء إذا أخذوا، ويظن أكثر الناس أنه من قرى [كرم] إبراهيم ووقف تميم الـــدارى وغـــيره[٣])) وعلـــيه فقد ظلت الضيافة تقوم بدورها طيلة الخمسة قرون متضمنة فترة السيطرة الصليبية[٤] وحتى شهدها كل من الرابى ميشولام بن مناحم الذى ذكر إنه كان يتم توزيع ثلاثـــة عشر ألف رغيف إضافة إلى كميات من اللحوم والخضراوات يوميًا وبشكل منتظم مقدرًا ثمـــنها بخمسة آلاف دينار ذهبى يأتيها من تبرعات المسلمين[٥]. وكذلك الرابى عوبديا الذى قصر نشـــاط الضيافة على توزيع الخبز والبقوليات دون اللحم والخضراوات، بيد أنه أوضح أن توزيع الوجـــبات شمـــل الجميع سواء أهالى أم أجانب، وأيًا كان الأمر فإن ضيافة الخليل تشكل ظاهرة اجتماعية فريدة تتصف بالعالمية نظرًا لمشاركة وانتفاع معتنقى الأديان الثلاثة بها.

ومـــا بين الخليل والقدس لم يتطرق المستوطن اليهودى صاحب الخطابات إلى أى من جماعات الـــيهود، فى حـــين سجل المعاصرون وجود سبعة بيوتات يهودية متفرقات بطول المسافة ذاتها[٦]، ويســـتأنف عوبديا كتابته فيذكر: ((غادرنا الخليل التى تبعد عن القدس برحلة يوم واحد، وعلى الطريق بدا لنا من بعد مقبرة راشيل ... وعلى اليد اليمنى للمسافر إلى القدس يوجد تل تقع عليه بـــيت لحـــم Bethlehem، وهى مجرد بلدة صغيرة ... وبها كنيسة للكهنة الكاثوليك" ولم يهتم

---

(١) زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٤٩١.

(٢) التدمرى: مثير الغرام، مخطوط، ورقة رقم ٤٠ أ – ب.

(٣) المقدسى البشارى: أحسن التقاسيم، ص١٧٣.

وكان الرسول محمد قد أقطع هذا الصحابى عدة قرى من أرض الخليل، واعتادت ذريته الصرف من ريعها على استقبال زوار الحرم الإبراهيمى انظر: المقريزى: ضوء السارى فى معرفة خبر تميم الدارى، تحقيق وتعليق: سيد أحمد عاشور، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٩٦هـــ/ ١٩٧٦م.، ص٣٨.

(٤) العمرى: دولة المماليك الأولى، ص١٧٦.

(٥) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.186.

(٦) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.189.

عوبديا حتى وصوله القدس سوى بذكر رؤيته بساتين الكروم كبير الحجم والإشادة بالتربة الزراعية لــتى أنتجته[١]، ومن المعروف منذ القدم أن اليهود عُرفوا باشتغالهم فقط بأنواع معينة من الزراعة لــتى تتطلب فى العادة مهارات خاصة مثل زراعة الكروم المرتبطة بصناعة الخمور وتجارتها[٢]، وف لواقــع ليس فى الإمكان الوقوف على مدى مصداقية المستوطن فى وصفه لكروم الأرض المقدسة أنها أكبر حجمًا، فقد يرجع ذلك إلى رغبته فى تجسيد فكرة مباركة الله لهذه الأرض. كما لا يمكن ن نستشف وجود دور ما لليهود المعاصرين فى الاضطلاع بزراعة هذه البساتين آنذاك.

وها هى الفرصة قد سنحت للحديث عن جماعة اليهود فى القدس التى وصلها عوبديا فى محطته لأخيرة، وعنها يذكر ((وما لبثنا أن وصلنا إلى بوابات القدس ... حيث التقينا بأحد الأشكيناز، هــــو رجــل كــان قــد تلقى تعليمه فى إيطاليا اسمــه الرابى يعقوب كولومبانو R. Jacob Colomban[٣] ، فأخذنى معه إلى منــزله، وبقيت ضيفًا عنده طوال فترة عيد الفصح، والقدس ـن أكثر المناطق المهجورة التى يعمها الخراب، ولست محتاجًا إلى أن أكرر الإشارة إلى أنها لم تكن ناطــة بأيــة أسوار ... ومنازل القدس مبنية من الحجر وليس من خشب أو ملاط[٤])). وبذلك لإحســاس ذاتــه رأت عينا ميشولام بن مناحم القدس حين زارها منذ سبع سنوات حيث قال: (وصــلنا إلى المدينة المقدسة القدس، وعندما رأيتُ الخراب هناك اعتصر قلبى حزنًا ... والقدس ناليًا ليس بها أية أسوار سوى سور واحد صغير بأحد جوانبها، وكذلك هناك عديد من المناطق ـدمرة ومحطمة)). ويتفق ميشولام مع عوبديا فى أن مبانيها من الحجارة حيث وصفها بشدة الإتقان الجــودة، أما الطالب اليهودى فلم يكن أقل من سابقيه إحساسًا بالمرارة حينما رأى المدينة التى ـدت أمامه مجرد أطلال بينما كان البيت المقدس مهجورًا مؤكدًا على أن أبنيتها أقيمت بلا دعامات يث أنها من حجارة، ولم يستخدم الخشب فى إقامتها لغلو ثمنه، ولذا فالأبنية غير مرتفعة ((وبدلاً ن ذلك تقام المبانى حول فناء واحد محاط بخمس أو ست غرف[٥])) فى حين رآها المعاصر أبواليمن عليمى ((مدينة عظيمة محكمة البناء بين جبال وأودية وبعض بناء المدينة مرتفع على علو، وبعضه

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.234.

(٢) عبدالوهاب المسيرى: الأقليات اليهودية، ص١٢.

(٣) ويكتب برسمٍ آخر: الرابى كابومانو Rabbi Capomano ، انظر:

Marmorstien, Rabbi Avrohom, (ed.), the travel letters of Rabbi Ovadiah, p.49.

(٤) Oabadiah, Op.Cit., pp.234, 236.

(٥) Meshullam of Voltera, Op.Cit., pp.189, 194; A Student's Letter, pp.86, 91.

منخفض فى واد، وغالب الأبنية التى فى الأماكن العالية مشرفة على ما دونها من الأماكن المنخفضة، وشوارع المدينة بعضها سهل و بعضها وعر، وفى غالب الأماكن يوجد أسفله أبنية قديمة، وقد بنى فوقها بناء مستجد ... وهى كثيرة الآبار المعدة لخزن الماء لأن ماءها يجمع من الأمطار[١])) ومن ثم نلحـــظ تـــأثير العامـــل النفسى فى إيجاد رؤية متناقضة لشئ بعينه رغم أنها كانت مشاهدة عيان لأصحابها؛ إذ حرص الرحالة اليهود على إظهار المدينة شاحبةً خربة مخالفين الواقع الذى كانت عليه المدينة فى معظم عصورها، وهذا يبرز دور الدين فى التأثير النفسى للحد الذى جعل كلاً من عوبديا وميشولام يأملان أن يأتى اليوم الذى تتم فيه عمارة المدينة على أيدى بنى إسرائيل.

أمـــا أسواق القدس فلم تخضع لرؤية عوبديا الشاحبة ذاتها التى شملت المدينة حيث قال عنها: ((بالـــرغم من الدمار الشديد الذى ألم بالمدينة، فإنها ما تزال تضم عند سفح جبل صهيون [جبل المكـــبر] [٢] أربعة أسواق طولية، من أجمل ما رأيتُ، وكأنى لم أرَ أبدًا بهاء يماثل بهاءها من قبل ... وتضم بضائع من شتى الأنواع، وهى مقسمة إلى محلات بيع مختلفة حيث الدكاكين الخاصة بالتجار ودكاكين التوابل وأسواق بيع الخضار، وفى إحدى هذه الأسواق كان الطعام مطهيًا وكذلك يباع الخبز)). وكان الرابى ميشولام قد أشار إلى أن المسلمين بنوُها على أحد جانبى الطرق المؤدية للحرم حـــيث ((أقامـــوا بها محلات لجميع أنواع التجارة[٣]))، بينما نجد لهذه الأسواق وصفًا أوضح عند المؤرخين المسلمين المعاصرين الذين أكدوا على حسنها وإحكام بنائها، فكان منها سوق ((القطانين المجاور لباب المسجد من جهة الغرب، وهو سوق فى غاية الارتفاع والإتقان لم يوجد مثله فى كثير من البلاد)) كما تم التعرض إلى الأسواق الثلاثة الأخرى؛ وهى سوق العطارين جهة الغرب، ويليه ســـوق الخضراوات فى الوسط، ثم سوق القماش جهة الشرق. ((وقد ذكر المسافرون أنهم لم يروا مـــثل الأســـواق الـــثلاثة فى الترتيب والبناء فى بلدة من البلدان وأن ذلك من المحاسن التى لبيت المقـــدس[٤]))، وهكـــذا لم يتمكن عوبديا من أن يجد لنفسه مبررًا يفسر التناقض الذى وقع فيه فى وصـــفه المدينة بالخراب وأسواقها بالبهاء والعمران ا وهو فى هذا الوصف الأخير لأسواق القدس يتفق مع مؤرخى المسلمين، ويؤكد صدق حديثهم عن المدينة.

---

(١) أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـ٢، ص٥٠.

(٢) عرف باسم جبل المكبر لأن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال الله أكبر من أعلى الجبل عند استلام القدس؛ سليمان فتوح: اليهود والقدس، ص٢٤.

(٣) Obadiah, Op.Cit., pp.236, 237; Meshullam of Voltrea, Op.Cit., 191.

(٤) أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـ٢، ص٥٠؛ راجع أيضاً: سليمان فتوح: اليهود والقدس، ص٢٤.

ومــن المعــتقد أن عــوبديا قد دخل المدينة المقدسة عبر مدخل ملحق بإحدى بوابات القدس الرئيســية تم تخصيصه لليهود حيث يؤدى إلى حى خاص بهم، وكان سكانه ((يحملون مفتاح هذه الــبوابة" إذ كان الطالب اليهودى قد سلك هذا المدخل حين وصوله القدس[١] . أما عن أحوال الــيهود الاجتماعــية فى المدينة فى ثنايا خطابات عوبديا، فقد شرع فى الحديث عنها حتى من قبل بلــوغه إياها فى ٢٥ مارس عام ١٤٨٨م/ ٣ جمادى الآخر ٨٩٣هــ حيث قدر أعدادهم – قبل هــذا الــتاريخ – بــثلاثمائة أسرة الذين ما لبثوا أن أخذوا فى التراجع تدريجياً[٢]، وكان الرحالة ميشــولام قد قدر أعدادهم بمائتى وخمسين نسمة فى حين قدر عدد الأهالى المسلمين بعشرة آلاف نســمة[٣] وهــذا يعنى أن أعداد اليهود كانت قد تدنت حتى من قبل السبع سنوات الفاصلة بين رحلــة ميشــولام إلى القدس ووصول عوبديا إليها فى ضوء العلم بأن متوسط الأسرة اليهودية فى الشرق من السبعين أسرة مقدسية مكون من أربعة أو خمسة أفراد – كما سلف ذكره – مما يوحى بثبات تدنى أعدادهم خلال هذه الفترة، وهذا يعنى أن هناك ظروفاً غير عادية قد أدت إلى ظاهرة نقصــان أعداد يهود القدس ترجع إلى ما قبل عام ١٤٨١م./ ٨٨٦هــ. تاريخ رحلة ميشولام، كذلك يلاحظ أن عوبديا لم يتعرض لطائفتهم فى المدينة إلا أنه من خلال إشارته إلى وجود أشكيناز بيــنهم وهم اليهود القادمون من الغرب، فيعتقد أنها ضمت ربانين فضلاً عن طائفة القرائين الذين تحدث عنهم أثناء تواجده بالقاهرة.

وبالفعل، ففى خلال العقدين السابقين على وصول عوبديا القدس عانت المدينة كثيرًا ممن تولوا إدارتهــا من قبل السلطان الأشرف قايتباى، ويشرح لنا أبواليمن العليمى تفاصيل مؤسفة فى هذا الصــدد؛ إذ يذكر فى عام ١٤٦٨ – ١٤٦٩م./ ٨٧٣هــ. وهو العام التالى لاعتلائه السلطنة كثرت الفتن بين ناظر الحرمين والمقصود هما القدس والخليل ((برد بك التاجى)) ونائب السلطنة علــى المدينة ((دمرداش العثمانى)) وانقسم الأهالى إلى فريقين متخاصمين حتى ((تلاشت الأحوال وفحشــت وكثرت المناحس من السراق وقطاع الطريق)) ورغم التغيرات التى طرأت على الناظر والــنائب، إلا أن الفتن فى المدينة لا تفتأ أن تستمر إذ تولى النيابة الأمير جقمق فى عام ١٤٧٣م./ ٨٧٧هــ. المنعوت فى المصادر التاريخية بــ "الظالم الفاجر" فتسبب فى مزيد من المشاكل. وفى عام ١٤٨٠م./ ٨٨٥هـــــ. وقعت الفتن من جديد فى القدس، ولم تلبث أن زادت وطأة الحاكم على

---

(١) A student's letter, p.90.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.229.

(٣) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.189.

المدينة بتولى السيفى خضر بك النيابة فى عام ١٤٨٦م./ ٨٩١هـ. الذى تمادى فى ظلمه ((وأكثر الناس من الشكوى عليه ... وكانت أياماً مهولة مزعجة)) واتهم بالرشوة والتواطؤ مع قاضى القدس المالكى فى ذلك، كما اتهم ناظر الحرمين بأخذ الرشوة عن الأوقاف، وعندما تحرى السلطان الأمر قدم الناظر استقالته بينما تم عزل النائب خضر بك والقاضى، وفى أواخر يناير ١٤٨٨م./ صفر ٨٩٣هـ. استقر الأمير دقماق دوادار إينال الأشقر فى نظارة الحرمين الشريفين ونيابة السلطنة بالقدس والخليل بعد بذل عشرة آلاف دينار لخزائن السلطان فضلاً عما دفعه لكبار الموظفين، وكان ذلك من أقبح الأمور وأبشعها حيث وصف هو أيضًا ((بظالم فاجر))، وفى تلك الآونة انهمكت القدس شأنها شأن باقى بلاد السلطان بتجهيز الرجال استعدادًا لمحاربة السلطان بايزيد العثمانى[1]، وكان ذلك يمثل الظروف السياسية التى عانت منها القدس فضلاً عن حالتها البائسة تحت نير حكامها الظالمين، وإضافةً إلى فساد حكام القدس على هذا النحو معظم فترة سلطنة الأشرف قايتباى، فقد زاد الطين بلة احتباس المطر عن البلاد فى عامى ١٤٦٩م./ ٨٧٣هـ.، ١٤٨٦م./ ٨٩١هـ. مما أدى إلى غلاء فاحش فى الأسعار، وساعد على ذلك تفشى وباء الطاعون عدة مرات ولفترات طويلة بداية من عام ١٤٦٩م./ ٨٧٣هـ.، وقيل إن عدد الذين كانوا يلقون حتفهم من جراء الطاعون فى اليوم الواحد زاد على المائة. ومن ناحية ثالثة وردت أسراب كثيفة من الجراد إلى المدينة فى عام ١٤٨٤م./ ٨٨٩هـ. فى موجات متتالية حيث أكل ثمرة الكروم والزرع والخضراوات.

وبلغ سوء الحال أشده حتى قيل فى عام ١٤٨٩م./ ٨٩٤هـ. ((وفيها اشتد الأمر بالقدس و الخليل وغيرهما وغلت الأسعار، فوصل سعر القمح بالقدس كل مد[2] ثلاثين درهماً، والشعير كل مد باثنى عشر درهمًا ، والخبز كل رطل بأربعة دراهم[3]. وكان الغلاء عامًا فى جميع المملكة[4]))

([1]) أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـ٢، ص٢٨٥، ٢٩٨، ٣١٨، ٣٢٤، ٣٣٩ – ٣٤٣.

([2]) منذ القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى كان المد يساوى حوالى ٨١٢ جرامًا، وللمزيد انظر: فالترهنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها فى النظام المترى، ترجمة د. كامل العسلى، عمان ، ١٩٧٠م.، ص٦٣، ٧٤– ٧٥.

([3]) الرطل أساساً اثنتا عشرة أوقية بما يعادل ١/ ١٠٠ من القنطار، وفى أواخر العصور الوسطى كان الرطل يساوى حوالى أربعمائة وثمانية جرامات، أما الدرهم فكان يساوى مائة وثلاثين جرامًا، انظر: فالترهنتس: المرجع السابق، ص٣٠ – ٣١.

([4]) أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـ٢، ص٨٥، ٢٩٢ – ٢٣٢، ٣٣٩.

وبــذلك اجــتمعت الأحوال السياسية وفساد الحكام وقسوة الطبيعة وانتشار الأوبئة عشية قدوم عوبديا القدس.

بمجــرد مكــوث عوبديا بين جماعة اليهود بالقدس وضع يده على كثير من مشاكلهم فى ظل المعاناة التى عاشوها فى السنوات المنصرمة، ومما لاحظه تناقص أعدادهم حيث بلغوا ((سبعين أسرة من بين أربعة آلاف أسرة، وكانوا من أشد الطبقات التى تعيش فى القدس فقرًا، وذلك تحت وطأة تضخم الضرائب وتفاقم الأعباء على كاهلهم بفعل هؤلاء الشيوخThe Elders[١]، ونتيجة لذلك لم يتــبقَ بهــا سوى البؤساء والنساء وأيضًا ذلكم الذى هو مجرد بشر ليس له كنة إلا اسمه[٢])) ثم تطرق المستوطن إلى الحديث عن صور من التدنى المعيشى بين اليهود فيقول: ((نادراً ما توجد أسرة لا تعوزها الاحتياجات الأساسية. حيث أن الأسرة التى يمكنها أن توفر الخبز طوال عام كامل يطلق علـيها أسرة غنية)). ((ومن بين الشعب اليهودى بالقدس يوجد عدد كبير من المسنين والأرامل اللاتى لاتجدن من يعولهن، وهن من ألمانيا وأسبانيا والبرتغال وبلاد أخرى إلى الحد الذى يبلغ إلى أن تكــون عدد النساء بالنسبة للرجال سبعة إلى واحد[٣])) وبذلك تبين مدى عمق نظرة عوبديا فى الأمور وتحليله لها بشكلٍ يضعه فى مرتبةٍ متقدمة بين معاصريه من رحالة اليهود.

---

(١) لقب شيخ له أصوله الدينية عند اليهود؛ فنظرًا لتضخم عدد كل من قبائلهم الاثنى عشرة انقسمت الواحدة منها إلى عشائر يترأس كل منها شيخ، وتكون منهم مجلس الشيوخ ذقنى يسرائيل ((الذين لعبوا دور الوسيط بين عشائرهم من ناحية وبين الحكومة الخاضعين لها من ناحية أخرى)). انظر: زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٤١٧؛ فؤاد حسنين على: المجتمع الإسرائيلى، جـ١، ص١١٧.

ويلاحظ أن لفظة Presbytoroi (اليونانية) تعنى شيوخ أو أحبار بنى إسرائيل فى أماكن تواجدهم عادة ما تترجم إلى لفظة Elders، فيصبح من المناسب أن يُعرفوا على أنهم شيوخ اليهود أو أحبارهم، وبالرجوع إلى المهتمين بدراسة الألقاب فى الدولة الإسلامية نجدهم يفسرون لفظة الشيخ بأنه ذلك الرجل الطاعن فى السن، وربما قصد به من يجب توقيره كما يوقر الشيخ. وفى عصر المماليك لم يكن هذا اللقب مقتصراً على المسلمين بل كان يطلق أيضًا على أهل الذمة من الكتاب والصيارفة يهوداً ونصارى، انظر حسن الباشا: الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة ١٤٠٩هـ./ ١٩٨٩م.، ص٣٦٤- ٣٦٥. هذا وستكرر وثائق الجنيزة لقب الشيخ لقبًا مستخدمًا فى الإشارة إلى رجالات اليهود. وعن ذلك انظر: محاسن الوقاد: اليهود فى مصر المملوكية، ملحق رقم ٥، ص٤٢١، ٤٢٤، وتضم الوثيقة قائمة طويلة بأسماء يهود حمل كثير منهم لقب الشيخ.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.229.

(٣) Ibid, pp.234- 235.

يفهم مما كتبه عوبديا أن شيوخ اليهود فى القدس أحدثوا فواجع من شأنها أن تسببوا فى تغييرات داخل الجماعة اليهودية هناك، خاصةً فيما تمخض عن الإجراء الخاص بفرض المزيد من الضرائب إذ أحـــدثت واقعًا مريرًا أدرك عوبديا منه أن قل عدد يهود المدينة عن ذى قبل نتيجة للهجرة بصفة عامـــة، بحيث لم يمكث بها سوى ربع أعدادهم تقريبًا، كما أدرك أن المشاكل أثرت بشكل أساسى على عنصر الرجال الأمر الذى أدى فى المقابل إلى ارتفاع عدد ذوى الحاجة من النساء والشيوخ الضعاف بعد أن ارتفعت نسبتهم إلى أن أصبحوا سبعة أمثالهم، كما بين لنا أن العناصر التى سكنت القـــدس من اليهود جاءت من ألمانيا وأسبانيا والبرتغال بشكل أساسى، ويأتى خطاب طالب بعد خمس سنوات ليؤكد على قدوم هجرات من يهود أسبانيا بالذات إلى فلسطين بعد طردهم منها إثر ســـقوط غرناطة عام ١٤٩٢م./ ٨٩٧هـــ.[١]، وكان قرار اختيار الهجرة إلى فلسطين يعد طبيعيًا نظـــرًا لمـــا تمتعت به فلسطين من منـــزلة روحانية اجتماعية مميزة ومكانة بارزة فى الوعى اليهود تجسدت فى هجرتهم إليها من الأندلس[٢].

لم تتوقف حالة اليهود فى القدس عند هذا الحد من السوء الذى صوره عوبديا، حيث أمعن فى الحديث عنها فيذكر ((إن عديدًا من اليهود ماتوا جوعًا إذ شوهدوا آخر مرة قبل يوم أو يومين من حتفهم يلتمسون الخبز الذى لم يكن فى وسع أحد أن يمنحهم إياه، وفى اليوم التالى تم العثور عليهم موتـــى داخل بيوتهم. وعاش كثير منهم على أكل العشب، وكانوا يخرجون كالبهائم الهائمة على وجـــوهها إلى مسافات بعيدة[٣]))، وتلك كانت حصيلة ما جنته طائفة اليهود مما ساد من مجاعات وأوبـــئة وظلم الحكام شأنهم شأن باقى المجتمع القدسى، بيد أن أبا اليمن العليمى يقدم صورًا قاتمة أخـــرى لمجـــتمع القدس مكملة لما رسمه عوبديا لنا عن القسم اليهودى منه؛ فالعليمى يتحدث عن بطـــش وتنكيل النائب على المدينة دقماق بالأهالى بغرض جمع الأموال التى كان أنفقها بغية حشد الرجال من أجل الانخراط فى الجيش المتجه لمحاربة الأتراك العثمانيين، وكان المبلغ الذى أنفقه يقدر بخمسة آلاف دينار، مستخدمًا فى ذلك الضرب والحبس ((وأفحش فى الأمور ... وشرع بضرب الـــناس بالمقارع ووضعهم فى الحبس، وفعل بهم فعلاً لم يسمع بمثله فى الجاهلية حتى أن بعض الناس

---

(١) A student's letter, p.84.

(٢) أفيطبول، ميخال وآخرون: اليهود فى البلدان الإسلامية (١٨٥٠ – ١٩٥٠م.)، ترجمة: جمال أحمد الرفاعى، مراجعة: رشاد عبدالله الشامى، عالم المعرفة، العدد ١٩٧، الكويت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.، ص١٢٩.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.237.

بـــاع ابنـــته كما يباع الرقيق وتفاحش الأمر، وبقى الناس فى شدة شديدة ومحنة لم تعهد بالأرض المقدسة من قبل[١])).

هكـــذا عاشت القدس محنة طالت جميع أهلها بما فيهم جماعة اليهود، بيد أن صاحب الخطابات ألقـــى بتـــبعة هذه الكوارث على شيوخهم بشكل أساسى، وتطرق إلى ما ترتب على ما اقترفت أيديهم الأمر الذى جعل النجيد Nagid [٢] (رئيس اليهود) بالقدس ((يفارقها تحت وطأة شيوخها المفتـــرين الواشين [حتى أنه] حاول أن يثنيني تمامًا عن الذهاب إلى القدس خشية ما ذكرته سلفًا؛ الأمر الذى جعل كل العلماء والربيين يبرحون هذه المدينة كليةً بسرعة، وذلك كى ينجوا بحياتهم من قمع هؤلاء الشيوخ، وكما ذكر عوبديا سلفًا أن اليهود ((ما لبثوا أن اختفوا تدريجياً تحت وطأة تضـــخم الضرائب وتفاقم الأعباء على كاهلهم بفعل هؤلاء الشيوخ ... ولقد أخبرنى النجيد أنه ليس فى وسعه أن يضع حدًا لهذه الأفعال؛ ذلك لأنه خشى من أن شيوخ اليهود يتحدثون بشكل شـــرير تجـــاه جميع اليهود إلى السلطان[٣]. وفى هذا الصدد يذكر إسرائيل شاحاك: ((واليهود إن تمكنوا من سلطة مارسوا التعذيب والعنصرية حتى على أبناء جنسهم))[٤] وبذلك تتفق رؤية عوبديا مع الإصلاحيين اليهود فى الفكر الإسرائيلى الحديث، وتبرزه رجلاً عقلانيًا غير متعصب.

لـــيس لنا فى هذا المقام استبعاد دور السلطة المملوكية فى المآسى التى ألمت بسكان القدس على شتى عقائدهم، وفيما يخص طائفة اليهود، وما لاقوه، فهو يرجع كما هو واضح إلى عدم الإحساس بانـــتمائهم إلى المماليـــك، فهـــناك من الباحثين الحديثين من يرى أن جماعة اليهود داخل المجتمع المملوكـــى كـــان يُنظر إليها نظرة شك وريبة من قِبل السلطان المملوكى على أنهم متواطئون مع خصومهم الأتراك العثمانيين[٥] وفى الواقع نجد فى هذا الرأى ما يدعمه من خلال الشطط الواضح فى الضـــغوط الـــتى مورست عليهم من قبل النائب على القدس دقماق الظالم، ولكننا لا يمكن أن

---

(١) أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـ٢، ص٣٣٢.

(٢) ترسم أيضاً الناجيد، الناجد وهى كلمة مذكورة فى التوراة، وسوف يتناول الباحث هذا المنصب بالدراسة فيما يخص الإدارة.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.229.

(٤) شاحاك إسرائيل: التاريخ اليهودى، الديانة اليهودية وطأة ثلاثة آلاف سنة، ترجمة: صالح على سوداح، الطبعة الأولى، بيسان – بيروت، ١٩٩٥، ص٩٣؛ زبيدة عطا: يهود العالم العربى، ص٥٥.

(٥) Fargeon, Maurice, Op.Cit., p.135.

نُقصر الحكم على الأوضاع داخل القدس على طائفة اليهود بمعزل عن باقى مجتمع المدينة المقدسة، إنما عانى الأهالى بشتى طوائفهم الأمرين؛ تارة من قسوة الطبيعة وعسف حكامهم، وتارةً أخرى من الظروف السياسية الناتجة عن الحروب مع الدولة العثمانية، ولكن من الطبيعى أن يشارك اليهود أهل المدينة معاناهم، وعليه تبين أن ما أقدم عليه شيوخهم من إجحاف ضدهم ما هو إلا امتداد لجور دقماق نائب السلطان لمجتمع القدس بعامة.

إن جانبًا من هذه الصورة القاتمة لمجتمع اليهود فى القدس ظل أمرًا ماثلاً أمام عينىّ عوبديا حين وصوله إليها ووقوفه على أحوالها حيث قال: ((حينما وصلت القدس كان فى البلاد مجاعة شديدة، وكان فى وسع الرجل متوسط الدخل أن يأكل خبزًا فى كل وجبة بمقدار درهمة واحدة Drachma، وهى ما تعادل بالنسبة لعملتنا واحد بولونيو Bolognio [1] من الفضة العتيقة علمًا بأن هذا القدر من الخبز لا يسمن ولا يغنى من جوع. وقد أخبرتُ بأن المجاعة غذت أقل أثرًا مما كانت عليه فى بداية العام بكثير ... وفى هذه الأيام فقد أتى محصول القمح لهذا العام أكله، وبلغت المجاعة منتهاها، ونظرًا لأن المحصول جاء أكثر ازدهارًا فقد كان مدعاة لحمد الرب[2])) وتحسن الأوضاع على هذا النحو نجد له صدىً أيضًا عند غيره من المعاصرين حيث يذكر أبواليمن العليمى ((منَ الله تعالى على عباده بحصول الرخاء وتيسير الأقوات وانحطاط الأسعار وحصل الرفق للعباد مع وجود الشدة بسبب التجاريد وذهاب الناس إلى بلاد الروم)) والمقصود بها الدولة العثمانية فى حين استمر النائب دقماق فى ظلمه وبطشه بالناس، ولم يُقَل من منصبه إلا فى عام ١٤٩١م./ ٨٩٦هـ[3].

ومما يسترعى الانتباه هنا أن هناك جانبًا من الباحثين اليهود يحلو لهم تدارس ما حدث من مآسى ليهود القدس فى تلك الآونة على أنه إجحاف من السلطات الإسلامية لجماعة اليهود التى تعيش فى أقلية داخل المجتمع الإسلامى الكبير، وفى الوقت نفسه نجدهم قد تأثروا على ما يبدو بعبارات عوبديا؛ فاتهموا الشيوخ والموظفين الرسميين الذين تولوا إدارة مجتمع اليهود بالقدس بالطغاة والتحكم فى كل كبيرة وصغيرة، فالفقير كان يتعرض لضريبة المسلمين التى لا ترحم، أما القادر

---

(١) لعله من الواضح أن عملة البولونيو عملة إيطالية حيث يبدو أنها عملة دوقية بولونيا Bologne الإيطالية.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.237.

(٣) ابواليمن العليمى: القدس والخليل، جـ٢، ص٣٥٦، ٣٥٨.

منهم فكان يعامل بالطريقة ذاتها، ويضطر إلى ترك المدينة تحت وطأة الأعباء الثقيلة التى تلقى على كاهلم[١]، وقد تغافل هؤلاء الباحثون ما أخبرنا به المؤرخون عن فساد الإدارة واستشراء الرشاوى وقلـــة المطـــر ومـــوجات الجراد وانتشار الطاعون والأوبئة، الأمر الذى أدى إلى انتشار المجاعات المتكـــررة، وهو ما وضع عوبديا يده عليه وأدركه، وبالفعل فقد تعرضت مصر منذ مطلع القرن الخـــامس عشر الميلادى لموجات متلاحقة من الأوبئة والمجاعات بلغت ست عشرة موجة[٢]، بحيث تأثرت بها فلسطين. وكانت من أشدها موجة عام ١٤٨٧م./ ٨٩٢هـــ. التى شهد عوبديا مخلفاتها المدمـــرة فى القـــدس حين وصوله إليها. وعليه فكان من الضرورى على الباحثين المنوه إليهم أن يضـــعوا فى الاعتـــبار المصادر التاريخية المختلفة التى تلقى الضوء على الأحداث فى الشرق، والتى عاشها عوبديا دون أن يتنبه هو للربط فيما بينها. وثمة ملاحظة إضافية فى هذا الشأن أن الموظفين الرسميين المشار إليهم ما كانوا إلا يهودًا من قادة المجتمع ذاته، فإذا ما كان هناك ظلم، فما هو إلا بمشاركة من صنع أيديهم.

وفضـــلاً عما رصدته خطابات عوبديا من واقع اقتصادى اجتماعى عصيب عانت منه القدس نجده لاحظ كذلك تأثير ظروفها الطبيعية على زوارها فيذكر: ((إن أغلبية أولئك الذين وفدوا إلى القدس من بلاد أجنبية وقعوا فريسة المرض وفقاً للتغييرات المناخية، وكذلك التقلبات الفجائية فى الريح، فأحياناً باردة وأحياناً دفيئة[٣])) وبالفعل كان ميشولام بن مناحم قد مرض حين زار القدس وله فى ذلك مقولة ((ليس من العجيب أن يمرض الأجانب، العجيب حقًا أنهم لا يموتون))، وكان قد حدد الأسباب فى طول الرحلة وشدة الحرارة على الطريق[٤] وفضلاً عن ذلك أكدت المصادر الإسلامية انتشار مرض الطاعون فى المدينة فى الفترة السابقة[٥] مباشرة لوصول عوبديا إليها، وهذه

---

(١) Ginzberg Louise, Bertinoro, Obadiah (Yareh) B. AbraHam, pp.108- 109.

(٢) انظر: قاسم عبده قاسم: دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، الملحق ص١٥٢، ١٦١ المتضمن جدولاً بسنوات المجاعات والأوبئة التى شهدها مصر فى هذه الفترة.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.243.

(٤) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.195.

(٥) أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـــ٢، ص٢٨٦.

أمور لها أن تؤثر على الوافدين إلى بلاد السلطنة المملوكية من الخارج إلى حد أنها ساهمت فى إنقاص عدد السكان[١] مما أدى فى نهاية الأمر إلى إضافة عنصر من عناصر عدم الاستقرار فيها.

وهكـــذا، لم تكـــن رؤية المستوطن اليهودى بالعمق الكافى لقصورها عن كشف أهم الأسباب الحقيقـــية التى أدت إلى: أولاً: جمع السلطان قايتباى للضرائب من جميع فئات المجتمع بهذا الشكل المبالغ فيه، ثانيًا: نزوع شيوخ اليهود، وهم فى النهاية من موظفى الدولة إلى ممارسة أشكال مختلفة من البطش والظلم وجمع الضرائب، الأمر الذى أدى إلى حالة من البؤس الشديد بين اليهود، ثالثًا: هجرة أعداد من رجال اليهود بالقدس مما أدى إلى ارتفاع نسبة النساء داخل جماعتهم، حيث كان ذلك كله بمثابة أعراض وجود نكبة يعانى منها المجتمع بأسره.

ثم عـــاود عوبديا الحديث عن شيوخ اليهود بالقدس الذين أبدى تجاههم استياء واضحاً فقال: ((إن الأرض أصـــبحت أكثر هدوءًا و سعادة عما كانت عليه من قبل؛ وذلك بسبب توبة شيوخ اليهود وإقلاعهم عن الشر والفساد اللذين أقدموا على فعلهما حتى أن الطبقة التى بقيت فى القدس غدت هى الطبقة الفقيرة. فقد أصبح الشيوخ شديدى الود والترحاب بأى وافد عليهم، كما كانوا يلتمسون الأعذار لأنفسهم عما اقترفوه سلفاً، وأكدوا أنهم لم يبدأوا أحداً بأذى طالما لم يبادر بإبداء النـــية فى انتزاع الزعامة من أيديهم[٢])) وعليه فلنا أن نفترض أنهم استأنفوا مهامهم عقب تحسن الأوضاع بالقدس بإيجابية، وإن ظلت جماعة اليهود تصنف لسنوات تلت أنهم فقراء[٣]. ويمكن أن نســـتقى من كتابات عوبديا دليلاً على تحسن الأوضاع إذ يقول :.((وفى القدس يمكنك أن يكون لـــديك جميع ضروريات الحياة مثل: اللحم، النبـذ، الزيتون وزيت السمسم بأسعار زهيدة ... إلا أنـــه ليس من الممكن أن تجد هنا لا الكريز ولا البندق ولا خشب الكستناء[٤]. وكانت الأوضاع قـــبل سبع سنوات بالقدس توصف بأن كل شئ فيها رخيص، وأن أسواقها كانت تعج بعديد من صنوف الفواكه الجيدة والعسل والقمح والشعير وزيت الزيتون والسمسم وغيره[٥]. وبذلك تكون الأســـعار قـــد اســـتقرت، وعادت الأوضاع إلى نصابها، وكدليل على ذلك أن أعدادًا من الأسر

---

(١) عبدالكريم رافق: العرب والعثمانيون، ص٧.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.235.

(٣) A Student's Letter, p.89.

(٤) Obadiah, Op.Cit., pp.237- 238.

(٥) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.194

اليهودية التى هاجرت منها عادت مرةً أخرى؛ إذ قُدرت جماعة اليهود فى المدينة ١٤٩٥م./ ٩٠٠هـ. بمائتى أسرة[١].

واكب تحسن الأحوال فى القدس وما ترتب عليه من نزوع شيوخ اليهود إلى الإقلاع عن بطشهم بأبناء ملتهم وصول عوبديا إليها، وقد انعكس ذلك على ما يبدو إيجابًا عليه إذ يذكر ((وبالنسبة لى فحقيقة ليس بداخلى أى ضغينة حيال هؤلاء الشيوخ على النقيض مما شاع عنهم، فقد أبدوا لى مزيدًا من اللطف والترحاب، وتعاملوا معى بكل حفاوة، وهذا ما أحمد الله عليه[٢])) وما لبث صاحب الخطاب أن رتب حاله فى العامين التاليين بين هؤلاء الشيوخ من ناحية والسلطات المملوكية من ناحية أخرى إلى أن تم تعيينه حاكمًا على اليهود من قبل النجيد[٣] وهذا الإجراء كانت له دلالته إذ كان يعنى وجود منصب آخر لم يكن معروفًا منذ البداية، ألا وهو نائب الناجيد Vice – Nagid، ومقره القدس[٤]، وعليه فإن عوبديا قد تولى هذا المنصب.

وهكذا بدا واقع مدينة القدس الاجتماعى قد حاكى ما كان عوبديا قد سمعه عنها، وذلك بعد أن عايش هذه الأوضاع بنفسه بعد وصوله إليها حيث يقول فى موضع تالٍ ((إن ساحة المعبد بالقدس كبيرة جدًا حيث ضمت عديدًا من المنازل التى قُدمت هبة من الأشكيناز للعمل الخيرى كى تسكنها أرامل هذه الفئة. فكان هناك فيما سبق عدة ساحات فى شوارع اليهود تتبع هذه الأبنية. ولكن شيوخ اليهود كانوا قد باعوها حتى لم يُبقَ على أى منها. وعلى كلٍ فليس فى وسعهم بيع أبنية الأشكيناز، نظرًا لأنها تخصهم وحدهم، ومن ثم ليس لأى يهودى فقير أى حق فيها إن لم يكن أشكينازيًا[٥])) وهكذا غدا من الثابت أنه بالرغم من تحسن الأحوال نسبيًا، إلا أن الفقر أصبح سمة لكثير من يهود المدينة المقدسة حيث ((أصبح معظم يهود أورشليم يعتمدون على

---

(١) A Student's Letter, p.88

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.235.

(٣) Ibid, p.247.

(٤) Gotheil, Richard, Deutsch Gothard and others, Jerusalem, p.12.

(٥) Obadiah, Op.Cit., pp.235- 236.

الإحسان[١])). ولا شك أن يهود القدس أفادوا من التسامح الإسلامى فى الأوقاف المقدمة لهم سواء كانت من يهود أو مسلمين[٢].

ويفهم من كلام عوبديا أن الأشكيناز الراغبين فى العمل الخيرى التزموا بنظام الوقف الإسلامى الذى يعرفوه باسم ((هقديش)) شاملاً البيوت والعقارات، والذى كان يمثل مصدرا هامًا لإيرادات الطائفة حيث يتم توجيهها إلى الفئة الفقيرة منهم، وكانت المحكمة الشرعية تتولى إدارته بصفة رسمية ملتزمة بالقواعد الإسلامية المتبعة مع الأوقاف أو الأحباس[٣]، وقد توافقت الأوقاف اليهودية مع الحالة الاجتماعية العامة من حيث إدراك وظيفة الأوقاف وأهميتها فى تمويل الخدمات الخيرية والدينية والتعليمية[٤]، ولكن يبقى الإشارة إلى تأثر عوبديا ربما بما قرأه فى التراث الإسرائيلى عن أفنية هيكل سليمان حيث وصفت بالاتساع، ومن ثم خال له أن الساحات التى أقام بها اليهود على مقربة من المعبد ظلت تماثل القديمة منها[٥] وتظل الحقيقة التى ساعدنا عوبديا على التوصل إليها واضحةً؛ وهى أن طائفة الأشكيناز نجحت فى منح منازل وأراضٍ وقفًا على الفقراء من بنى جلدتهم الأمر الذى أدى إلى حمايتها من عبث وسطو شيوخ اليهود الذين نجحوا فقط فى المساس بممتلكات اليهود الممنوحة لهم دون حبسها وفقاً للقواعد المعروفة فى المجتمع الإسلامى فى حماية الأوقاف، والواضح أن أوقاف اليهود كانت مرصدة لخدمة الأغراض الخيرية والدينية ومصالح الجماعة اليهودية وفقًا لتعاليم التلمود بالنسبة للربانين، ووفقًا لآراء الفقهاء عند القرائين والسامريين، وذلك انطلاقًا من المعبد متأثرين فى ذلك بدور المسجد فى المجتمع الإسلامى، إذ أن المعبد هو مصدر الشرعية السياسية ومصدر الدخل الأساسى للجماعة اليهودية، وهو فى نهاية الأمر يشكل محور الهوية الاجتماعية اليهودية.

وبعد أن قضى مستوطن القدس اليهودى عامين بها تمكن خلالهما من أن يضع يده على مزيد من المعلومات عن الدور الاجتماعى للمعبد اليهودى هناك فيقول فى خطابه الثانى: ((ولقد اتخذتُ

---

(١) A Student's letter, p.89.

(٢) زبيدة عطا: يهود العالم العربى، ص٤٥.

(٣) عرفة عبده على: ملف اليهود، ص٢٤١.

(٤) قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص٨٠، ٨١؛ عبدالوهاب المسيرى: من هو اليهودى؟، الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.، ص٢٠، ٢١.

(٥) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٤، ص١٦٠.

منـــــزلاً لى بالقرب من المعبد؛ فالغرفة العليا بالبيت تلاصق جدار المعبد، وفى الساحة التى يقع بها منــــزلى [أى ســاحة المعبد] يوجد خمسة من السكان كلهم نساء، كما يعيش رجل أعمى هناك وتقوم زوجته على خدمتى[١])). ومن ثم نلمس فى القدس المملوكية تلك الظاهرة الاجتماعية المائلة فى مصر من أن اليهود كانوا يحرصون على سكنى المنطقة المجاورة للمعبد، ولم تكن المعابد اليهودية تســتخدم للصلاة فقط، وإنما استخدمت فى أحيان كثيرة لإيواء المسافرين والغرباء، بل والمعوذين أصــحاب الظروف الخاصة، وكانت تلك الخدمات تؤدى عن طريق عدد من الموظفين، مما يعكس الطبـيعة الــتأزرية للأقلــية اليهودية، بغرض الرعاية الاجتماعية، والقيام بأعمال الخير، وافتداء الأســرى، وجمــع التــبرعات[٢]. وهذا كله يؤكد على أن المعبد لعب دورًا اجتماعيًا رئيسيًا فى حياتـــهم اليومية فضلاً عن دوره الدينى.

والثابت من خلال الخطابات أن عوبديا كان طرفًا مهمًا فى تأدية العمل الخيرى فيما بين جماعة الــيهود فى القـــدس، ففى حديثه لأخيه يذكر: ((وأحيطك علمًا أنه بناءً على طلب منى أرسل لى عمانــويل شاى أف كاميرينو [أحد أثرياء نابولى] المحترم مبلغًا وقدره مائة دوكية بندقية، وتركت معه ربع رأس المال، ووعدنى بأنه سوف يقوم بهذا العمل على التوالى كل عام. ولسوف أدفع عشرة بالمائـــة لربان السفينة الذى سيأتينى بهذا المال. ولقد أضاف هذا الشريف عمانويل خمسًا وعشرين دوكـــية شطرًا للصرف منه على مصابيح المعبد اليهودى، وشطراً آخر يُمنح للفقراء. وبالنسبة لى فإنى أعيش قانعًا بالقدس لا أريد جزاءً ولا شكورًا من أى كان[٣])). ومن ثم يتكشف لنا جانب من دور عوبديا الاجتماعى من خلال موقعه كرجل دين بين جماعة اليهود فى القدس. وفى واقع الأمر فقـــد نشط فى اتجاهين؛ العمل فى تشغيل رؤوس الأموال المتدفقة من يهود إيطاليا بغرض النهوض بمجتمع اليهود بالقدس اقتصاديًا، والانشغال بالإشراف على توزيع التبرعات المقدمة من أصدقائه أثرياء إيطاليا لتوفير الخدمات الأساسية ودعمهم اجتماعيًا.

وفـــيما يخــتص بالعمل فى استثمار رؤوس الأموال، فلنا أن نعتقد فى أنه أفاد من النظام المالى المعاصـــر فى هذا المجال، فقد غلب على تشغيل رؤوس الأموال فى ذلك الوقت الأسلوب المألوف

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.248.

(٢) Gotein, S. D., Jewish society, vol. II, pp.173 – 175;

راجع أيضاً: قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر ، ص٨٠، ٨١.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.248.

لـــدى الـــيهود الـــذى يعتمد على الربا، فمنذ القرن الرابع عشر الميلادى/ الثامن الهجرى بدأت بيوتات المال الإيطالية فى الانحلال، ولذا دعت الجمهوريات الإيطالية بعض اليهود للاستيطان فيها للقـــيام بأعمـــال الربا ولإقراض الفئات المحتاجة، وقدمت لهم الضمانات الكافية مما ساعدهم على التغلغل فى النظام المصرفى فى البلاد، وفى القرن التالى ومع إرهاصات التعرف على الأساليب الحديثة فى المعـــاملات البنكـــية أخذ دور اليهود فى التقلص، ولذا فكان عليهم إما الاندماج فى الاقتصاد الـــتجارى الجيد أو هجرته[١]، الأمر الذى يفسر هجرة رؤوس أموال اليهود إلى الشام، وهى التى تحدث عنها الطالب اليهودى فى خطاباته غير مرة[٢]، ولنا فى هذا المقام مراعاة الاهتمامات الخاصة التى تحدث عنها عوبديا، فهو معنى باستثمار أموال تاجر يهودى، وفى هذه الحالة فالوضع يختلف؛ إذ أن الـــيهودى الذى يتعامل بالربا مع يهودى مثله يتعرض للخلع والطرد، أما إذا أقرض بقصد الاســـتثمار والتوسع فى التجارة والمشروعات التى تدر ربحًا تدريجيًا فيصبح مشروعًا، ولكن له أن يقـــرض الأغـــيار بالربا[٣]، ويبدو أن عوبديا كان من رواد هذا الفكر، فبالرغم من أن أصحاب رؤوس الأموال اليهود قد اعتادوا إقراض أموالهم لاستثمارها بفوائد أدناها ثمانية عشر فى المائة عن كـــل عام، وربما تصل إلى ضعف المبلغ[٤]، إلا أن المستوطن حرص على استجلاب قروض بفائدة تقدر بعشرة فى المائة فقط من عمانويل أحد أصدقائه اليهود الأثرياء، ونجد صدىً لهذا فيما ورد عبر قيام تجارة للأحذية اضطلع بها اليهود بين القدس والبندقية فى العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى/ التاسع الهجرى[٥]، وما من شك فى أن جهود عوبديا قد أثرت إيجابًا على أفراد جماعته، مما أضفى عليه شخصياً مزيداً فى النفوذ مكنه من التأثير على مجتمعه اليهودى[٦]، وهذا أمر طبيعى؛ فمـــن ناحية ساعد فى تشغيل الأيدى العاملة اليهودية فى القدس، ومن ناحية أخرى أصبح ممسكًا

---

(١) عبدالوهاب المسيرى: الأقليات اليهودية، ص٢٧- ٢٨.

(٢) A Student's letter, p.81.

(٣) شاحاك إسرائيل: التاريخ اليهودى، ص١٣٧- ١٣٨؛ راجع أيضاً: زبيدة عطا: يهود العالم العربى، ص ٣٠.

(٤) A Student's letter, Loc, Cit

(٥) Ashtor, History of the Jews, II, p.151;

محاسن الوقاد: اليهود فى مصر المملوكية، ص٢٠١.

(٦) Genzberg, Louis, Bertinoro, Obadiah, (Yareh), B. Abraham, p.109.

بالدفاتــر الخاصة بتقديم الإعانات لهم، وعليه يبرز الدور الاجتماعى الذى قام به عوبديا بين جماعة اليهود فى المدينة المقدسة.

هكذا تبدو الرؤية للواقع الاجتماعى لليهود بالقدس واضحة تعكس قدرًا كبيرًا من البؤس فى حياتهم اليومية. ومع ذلك فهناك إشارات مضيئة تظهر انخراطهم فى العمل كحرفيين فى القدس. إذ يذكــر عــوبديا ((أنه ليس لأى فرد [يهودى] أن يكسب قوت يومه من العمل فى أى صنف من صنوف الصناعة، إلا إذا كان من صانعى الأحذية، أو إذا كان يعمل فى سباكة الذهب، أو الحياكة، وحتى مثل أصحاب هذه الحرف فإنهم يكسبون رزقهم بصعوبة بالغة[١])). وهناك من اتفق معه فى تقيــيم أوضاع حرفيى القدس على هذا النحو، لكنه يأتى بسابكى المعادن على أنهم أفضلهم حالاً، ويضــيف مهنة مصففى الشعر[٢] إلى التخصصات التى ذكرها عوبديا، إلا أن التراث الإسرائيلى يشــهد على أن حرفة سباكة الذهب من الحرف التى حظيت بإقبال اليهود عليها قديمًا[٣]. وفضلاً عــن هــذا استأنف عوبديا أيضا تعرضه إلى ما اعتاده اليهود من حرف بالقدس فى عصره حيث الأطلال داخلها، فذكر عنها: ((أنها تستغل حاليًا كساحة لدبغ الجلود[٤])). وهذه الإشارة لا تخلو مــن تأثر بما ورد فى التوراة بأن اليهود عمدوا إلى إبعاد مواضع حرفة الصباغة عن المناطق المأهولة بسبب الروائح الكريهة التى تنبعث منها. وكان اليهود قد تعلموا دباغة الجلود؛ بأن يزيلوا الشعر مــن جلــود الحيوانات باستخدام محلول الجير وغيره، ثم يشبعونه بمحلول قشور بعض الأشجار، ولاسيما البلوط، فتصبح متينة طرية، ويصنعون منها كثيراً من الملابس والنعال والأدوات[٥] وفضلا عن هذه الحرف، نجد ذكراً فى خطاب الطالب اليهودى إلى المزيد منها، فكان أشهر مراقبى الطرق مرشــدى الأجانــب فى زياراتهم للأرض المقدسة من يهود صقلية المهاجرين، وكان الحاخام رباح Rabah أحدهم، وهو الذى رافقه وأخاه فى رحلتهما إلى القدس. وكذلك أشار الطالب إلى حرف

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.238.

(٢) A student's letter, p.89.

(٣) فؤاد حسنين على: المجتمع الإسرائيلى، ج١، ص٨٠ – ٨٢.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.241.

(٥) سفر العدد: ٣١: ٢٠، سفر حزقيال: ١٦: ١٠؛ سفر الملوك الثانى: ١: ٨، ١٨: ١٧. انظر أيضاً: زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٥٦– ٥٧.

مصففى الشعر والحدادين والخياطين الذين كان عليهم الاقتصاد حتى يمكنهم العيش فى المدينة على العكس من حال زملائهم فى دمشق والقاهرة والإسكندرية وحلب[١].

إلا أن الفئات الحرفية اليهودية فى القدس لم تكن فئات خاصة أو منعزلة، ولم يكن لهم نظامهم الخاص أو المستقل، إنما اندمجوا مع باقى أفراد الطوائف والمهن المختلفة نتيجة أن الدولة تعاملت مع رعاياهم مثلما تعاملت مع رعاياها من المسلمين والمسيحيين؛ إذ تم تنظيم المجتمع المملوكى من الداخل فى طوائف حرفية ومهنية تولاها النقباء، كانت مهمتهم تنظيم العلاقة بين الدولة وأبناء طوائفهم من ناحية إلى جانب تنظيم العلاقات الداخلية بين أبناء الطائفة من ناحية ثانية[٢]، على اعتبار أن صاحب الحرفة لابد له وأن يجد من يتعامل معه، وقد يكون من بنى ملته أو غير ذلك. أما إذا كان هناك تنظيم يقوم على الدين، فقد كان ذلك من قبيل إيجاده وحدة دينية مميزة شأنهم فى ذلك شأن الطائفة المسيحية الأرثوذكسية.

وما يزال عوبديا يسرد العبارات ذات الصلة بالناحية الاجتماعية بيهود القدس، وفى هذه المرة نجد منها ما يلقى ضوءًا على الظروف المحيطة بمنازلهم فيقول: ((إن شوارع اليهود ومنازلهم واسعة جدًا، كما أن بعضهم يقيم فوق جبل صهيون[٣]. ويومًا ما كان لليهود فى القدس عدد من البيوت أكبر مما هو حاليًا إلا أنها الآن ماهى إلا أكداس من المخلفات ولا يمكن إعادة بنائها مرة أخرى، إذ أن قانون الأراضى لا يعطى الحق لليهودى فى إعادة بناء بيته الخرب دون ترخيص، وكان الحصول على تصريح بناء يكلفه فى الغالب أكثر من ثمن البيت نفسه". ومهما كان أمرها ((فإنها

---

(١) A student's letter, pp.86- 89.

(٢) قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص١٦١.

(٣) وفى الواقع فإن منطقة صهيون عبارة عن هضبة نصف دائرية تقع خارج أسوار القدس جهة الجنوب، وفى كل مكان يقع فى حيز هذا النطاق توجد صخور حادة وأكداس من الحصى، وتضم الهضبة كنيسةً وديرًا للكاثوليك، وبها مقبرة داود عليه السلام، فضلا عن أهم جبانة لهم فى الأرض المقدسة ومدافن قديمة ملكًا لليهود، انظر:

Burchard of Mount Sion, Op.Cit., p.67.

وقد اكتسب اسم صهيون على مر العصور معنىً رمزيًا يجسد تطلعات اليهود إلى إعادة ملكهم، انظر: بطرس عبدالملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، مادة صهيون؛ الدليل الكتابى والسياحى للأرض المقدسة، ترجمة عن الإيطالية جوزيف حزبون، القدس، ١٩٩٨م.، ص٩٧، ٩٨.

القـــدس[1])) ومن الطبيعى أن تتناقص أعداد بيوت اليهود كما لاحظ عوبديا، وذلك بناءً على ما ذكــره سلفًا من أن أعداد اليهود تراجعت كثيرًا فى المدينة حيث هجرها كثير منهم. وكذلك فإن أمر وصفها بأنها تحولت إلى أكداس من المخلفات لا يخلو من مبالغة، وإن حملت بعض الصدق، إذ أنــه يتماشى مع الظروف السيئة التى عاشتها القدس. أما عن الإشارة الواردة عن قانون الأراضى فلعلــه يقصد ماورد فى القسم الثانى من الشروط العُمرية (نسبة إلى عمر بن الخطاب أو عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنهما) المعروفة بالشروط المستحبة، وتتضمن شرطًا خاصًا بألا يعلو بنائهم عن أبنـية المسلمين، وهو بند تنظيمى لعملية البناء بالنسبة لأهل الذمة، حيث وضعت محظورات تمنع إعــادة بناء دور العبادة إذا ما تهالكت بدون موافقة السلطات، وكذلك منع أهل الذمة من بناء مــنازل تعلــو على منازل جيرانهم المسلمين[2]، وفى أواخر العصور الوسطى تم التشديد على هذا الشــرط، إذ وصــل الحال فى بعض الأحيان إلى منع اليهود من ترميم منازلهم الآيلة للسقوط[3]، واشتكى الطالب اليهودى من صعوبة الحصول على منــزل فى المدينة عام ١٤٩٥م/ ٩٠٠هــ على سبيل الإيجار لا سيما وأنها محط زيارة كثير من الناس[4]، ولعل قراءة متفحصة للأسطر السابقة الــتى كتــبها عوبديا، ومنها أن تكلفة استخراج ترخيص البناء أكثر من ثمن المنــزل تؤكد على وجود مشكلة فى إقامة منازل اليهود مما فتح الباب أمام المرتشين من شيوخهم فى القدس.

وفى إطــار الحديث عن وضع اليهود الاجتماعى داخل المجتمع الإسلامى بالقدس تناول عوبديا إشكالية أطرافها اليهود والمسلمين والمسيحيين[5] كانت قد اتخذت من مقبرة الملوك (اللاتين) The

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.232, 234, 236.

(٢) الماوردى (ت٤٥٠هــ/ ١٠٥٨م.) : الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مكتبة مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٧٣م.، ص٤٥؛ انظر أيضاً: قاسم عبده قاسم: أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى – دراسة وثائقية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧، ص٢٦- ٢٧.

(٣) محاسن الوقاد: اليهود فى مصر المملوكية، ص١٤٢.

(٤) A student's letter, p.87.

(٥) وبشأن مجتمع الطائفة المسيحية فى فلسطين يشير عوبديا إلى وجود جانب منهم هناك. حيث بلدة بيت لحم وذلك لأنها ((تضم كنيسة للكهنة الكاثوليك))، ومن ثم فهم يختلفون فى مذهبهم الدينى عن أقباط مصر الأرثوذكس. إلا أن القدس تختلف لتعدد مذاهبهم فيها وفى ذلك يقول: ((وعادة ما تصادف بالقدس أناسًا من أجناس شتى من البلاد المسيحية ... وهم ينقسمون إلى خمس طوائف: كاثوليك ، أرثوذكس، يعاقبة، أرمن ، وأحباش، وكل طائفة منهم تكفر بعقيدة الطائفة الأخرى ... وكل طائفة من هذه الطوائف لديها قسم منفصل=

Sepulchre of the kings التى وردت فى أحيان أخرى باسم مقبرة النار Sepulchre of The Fire [١] محـورًا للنزاع . وفى الرواية الخاصة بذلك يقول : ((قريباً من مقبرة الملوك توجد لطائفة الفرنسيسكان Franciscan كنيسة كبيرة؛ وتنتمى مقبرة الملوك إليهم منذ عهد بعيد، بيد أن ثمة يهـوديًا مـن الأشكيناز قدم إلى القدس قد تمنى شراء المقابر من السلطان. وبذلك أوقع نفسه فى منازعة مـع رجـال الدين المسيحى، وما لبث أن استولى العرب على تلك المقابر التى ظلت فى حوزتهم. ولما أصبح من المعلوم لدى أهل البندقية أن القبور انتقلت من أيدى الكاثوليك من خلال اليهود الذين وفدوا من الأراضى المسيحية تم إصدار مرسوم بأنه ليس لأى يهوى أن يسافر إلى القدس عن طريق البندقية[٢]، وكان ذلك بمثابة إجراء عقابى فرضته حكومة البندقية على المسافرين اليهود عبر أراضيها جراء إقدام أحد أثريائهم على شراء أراضٍ للكاثوليك مباشرة من السلطان المملوكى، والواضح أن إقدام حاكم البندقية على إصدار هذا المرسوم جاء محاكاةً لحق كان يعطى فى العصـور الوسطى لبعض المدن الأوروبية يقضى باستبعاد التجار اليهود الحاصلين على المواثيق والمزايا والحماية من بعض المدن مضطرين أمام الثورات الشعبية والقومية كما حدث فى مدينة برنو Burno عاصـمة إقلـيم مورافيا فى بلاد التشيك عام ١٤٥٤م./ ٨٥٨هـ. حيث مُنعت جماعة اليهود من دخولها لعدة قرون[٣].

ولحسـن الحظ سجلت المصادر الإسلامية وقائع هذه المشكلة التى مالبثت أن تحولت إلى قضية نتـيجة لـتعدد أطرافها، ولكن وقبل ذلك ماذا عن مقبرة الملوك التى ترعاها طائفة الفرنسيسكان الكاثوليكـية؟ وفى الواقع يكشف ثيودريتش Theoderich أحد الرحالة الألمان الذى زار القدس فى حوالى عام ١١٧١م./ ٥٦٧هـ. عنها، ويذكر أنها تضم رفات خمسة ملوك حكموا مملكة بيت المقدس اللاتينية ، وقد رتب مواقـع القبور على النحـو الآتى: بلـدوين الثالث Baldwin III

=داخل كنيسة الضريح المقدس التى تعد ضخمة للغاية، ولها برج تعلوه قبة، ولكنها بغير جرس. ويوجد بداخل هذه الكنيسة شخصان بشكل مستمر ينتميان إلى كل طائفة ليس لهما أن يغادراها أبدا)) انظر:

Obadiah, Op.Cit., pp.234, 242- 243.

(١) Felix Fabri, Op.Cit., Tome,III, p.745.

وتقع مقبرة الملوك على مبعدة نصف ميل تقريبًا من بوابة دمشق شمالى القدس: انظر:

Marmorstein, Rabbi Avrohom, (ed.), The Travel Letters of Rabbi Ovadiah, no. 69.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.243.

(٣) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٣، ص٢٨٥.

(١١٣٧ – ١١٦٢م./ ٥٣٢ – ٥٥٨هـ.)، بلدوين الأول Baldwin I (١١٠٠ – ١١١٨ م./ ٤٧٣ – ٥١٢هـ.)، جودفرى أف بوايون GodeFrey of Bouillon (١٠٩٩ – ١١٠٠ م./ ٤٩٢ – ٤٩٣هـ.)، وفولك أف أنجو Foulk of Anjou (١١٣١ – ١١٣٧م./ ٥٢٥ – ٥٣٢هـ.) وبلدوين الثانى Baldwin II (١١١٨ – ١١٣١م./ ٥١٢ – ٥٢٥هـ.) وكان ضريح جودفرى هو الأوسط بين هذه الأضرحة[١]. أما المؤرخ وليم الصورى William of Tyre الذى توقف عن الكتابة حوالى عام ١١٨٥م./ ٥٨١هـ. فيضيف إن الملك عمورى الأول Amarlic 1 (١١٦٢ – ١١٧٣م./ ٥٥٨ – ٥٦٩هـ.) قد دفن إلى جوار أخيه (بلدوين الثالث) وبين أسلافه الملوك[٢]. ويقدم أبواليمن العليمى تفاصيل هذه المقبرة التى حدد موقعها فوق جبل صهيون مطابقة بذلك لموقع مقبرة الملوك، بيد أنه أوضح أن المسلمين كان لهم اعتقادٌ فى أنها تضم قبر داود عليه السلام شأنهم فى ذلك شأن اليهود[٣]، وشرح أن رهبان دير صهيون انتهوا إلى أن من حقوق ديرهم جميع القبور المجاورة له، وكان مدفناً لموتاهم إلا أنها كانت قد آلت للمسلمين منذ مائة عام تقريبًا[٤]، فتارةً لهم وتارةً للرهبان، وكدليل على تغير الإشراف على المقبرة بين السلطات الإسلامية وطائفة الفرنسيسكان المسيطرة على الدير أن رهبان هذه الطائفة كانوا هم المشرفون على المقبرة وقت زيارة بيرو طافور فيما بين (١٤٣٥ – ١٤٣٩م./ ٨٣٨ – ٨٤٢ هـ.) لها[٥]، ولم يستقر إشراف المسلمين عليها إلا عندما استصدر السلطان الظاهر جقمق(١٤٣٨ – ١٤٥٣م./ ٨٤١ – ٨٥٧هـ.) مرسومًا فى عام ١٤٥٢م./ ٨٥٦هـ. للتأكيد على ملكية

---

(١) ثيودريتش: وصف الأماكن المقدسة فى فلسطين (القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى)، ترجمة وتحقيق ودراسة: سعيد البيشاوى ورياض شاهين، الطبعة الأولى، دار الشروق، رام الله، ٢٠٠٣م.، ص٧٢، ٧٣، انظر أيضًا : ملحق هذا الكتاب من وضع المترجم الخاص بمقابر الملوك ص١٤٩ – ١٥٦، هذا وتفيد الكشوف الأثرية أن مقابر الملوك هى الوحيدة بين المقابر التى ما تزال باقية راجع: إبراهيم الفنى وطاهر النمرى: المسجد الأقصى وقبة الصخرة، من ٢١ ومابعدها.

(٢) William of Tyre, A History of deeds done beyond the sea, trans by Bobcock and Krey, 2vols, New York, 1943, vol. I, p.399; vol, II, p.46.

(٣) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.192.

(٤) يشير ناشر خطابات عوبديا الرابى مارمورستين إلى قصة مشابهة حدثت فى عام ١٤٢٨م./ ٨٣١هـ. حيث حاول يهودى ألمانى الاستحواذ على غرفة فوق مقبرة النبى داود، فاصطدم بالرهبان الذين صعدوا الإشكال إلى بابا روما، بيد أن هذا الناشر لم يذكر مصدره. انظر:

Marmorstein, Rabbi Avrohom, (ed.), The Travel Letters of Rabbi Ovadiah, no. 69.

(٥) طافور، بيرو: رحلة طافور، ص٤٩.

المسلمين للمقابر، ولكن بناءً على ملكية الرهبان السابقة للمدافن قاموا بتشييد كنيسة تحمل اسم السيدة مريم فى المكان بعد رشوة نائب السلطنة دقماق إلا أنها غدت واجبة الهدم فى عام ١٤٨٩ م./ ٨٩٤هـ. بحكم أنها كنيسة مستحدثة بدار الإسلام، وانتهى الأمر بهدمها[١] ولم يمدنا هذا المؤرخ المعاصر بشئ عن دور اليهودى الأشكينازى الذى لعب دور الوسيط فى نقل ملكية المقابر، فى حين اكتفى الرحالة فيليكس بالإشارة إليه، كما أورد قصة بناء الرهبان كنيسة السيدة مريم أمام بوابة كنيسة القيامة باقتضاب[٢]. كذلك لم يشرح المؤرخ المسلم ما انتهت إليه الأحداث بقيام البندقية بحظر سفر اليهود عن طريق موانيها إلى القدس، وهو الأمر الذى كلف عوبديا معاناةً أكبر فى السفر.

تسبب هدم كنيسة جبل صهيون فى شرخ فى العلاقات بين طائفة الفرنسيسكان ومن ورائها بعض القوى المسيحية والسلطنة المملوكية، والمتهم فى زرع جذورها يهودى. وهكذا لم تكن روح الوئام سائدة بين كل من المسلمين والمسيحيين واليهود طوال السنين، فأحياناً ما كانت تحدث مثل تلك المشاحنات لتعكر صفو العلاقات الطبيعية فيما بينهم، بيد أن السلطات المملوكية عادة ما تذعن للتشريع الإسلامي بأن أحالت الإشكالية إلى القضاء ليقول كلمته. والواضح أن القضية لم تنته إلى إقرار هدم الكنيسة المسيحية فحسب، إنما أعطت اليهود حقهم فى جانب من أرض المقابر المتنازع عليها، الأمر الذى جعل المسلمين يرفعون شكوى إلى السلطان قايتباى بمصر الذى نقض حكم القضاء، ثم عاد فانصاع إلى إلحاح اليهود، وأصدر أمره فى صالحهم[٣].

ثم يُنهى عوبديا روايته عن تلك القضية برد فعل السلطات المسيحية فى إيطاليا حيال المرسوم العقابى الصادر عن الحكومة البندقية الذى يحذر سفر اليهود إلى القدس عن طريق البندقية فيقول: ((لقد تم إبطاله حاليًا، وهاهم [اليهود] يأتون كل عام فى السفن البندقية، بل وكذلك السفن الخاصة بالحجيج، إذ لا يوجد طريق آمن ولا أقصر من الطريق الذى تسلكه تلك السفن[٤])) ولعل تسهيل الاتصالات بين يهود إيطاليا وذويهم بالقدس عادت بالخير على هذه الطائفة، ونلمس ذلك فى عوبديا نفسه، إذ كان قد اعتاد تسلم خطابات من إيطاليا عن طريق السفير الفلورنسى الذى

---

(١) أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـ٢، ص٣٤٥، ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥١.

(٢) Felix Fabri, Op.Cit., vol. II, p.676; vol. III, p.745.

(٣) أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـ٢، ص٣٠٠ وما بعدها.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.243.

نشطٌ فى مجال نقل الرسائل وإجراء الاتصالات بين بلاده والجماعات الأوروبية فى المدينة المقدسة[١] بما فيهم اليهود.

لكن ماذا عن أحوال اليهود الاجتماعية فى مناطق إقامتهم فى بقية فلسطين؟ تناول عوبديا ذلك أيضًا رغم عدم مغادرته القدس فيقول: ((ومنذ أن حضرتُ إلى هنا، فلم امتلك بعد وقتًا كى أذهب فيه إلى أى مكان، ولذلك فإن بمقدورى فقط أن أروى ما ترامى إلى مسامعى فى أرجاء المدينة المقدسة، وفى المناطق الأخرى التابعة لها، فإنه يقال إن اليهود فى صفد يعيشون فى وئام وسلام مع العرب، وكذلك الأمر فى قرية قانا Cana، وفى جميع أراضى الجليل، وحتى حينه فإن معظم اليهود الذين قابلتهم فقراء، وهم يعيلون أنفسهم بالعمل فى أعمال وضيعة[٢])). وفى الواقع تعد صفد المدينة الرئيسية فى الجليل الأدنى، وكانت تضم جماعة من اليهود وصولا إليها عن طريق القسطنطينية[٣] بعد أن نزحوا من أسبانيا، ويبدو أن هجرتهم قد شهدت طفرة بعد الطرد عام ١٤٩٢م./ ٨٩٧هـ. حتى أن يهود صفد أعدوا ذلك يوم عيد بالنسبة لهم وبلغ بهم الأمر أن كونوا حيًا خاصاً بهم تألف من ثلاثمائة أسرة يهودية وذلك قبل عام ١٤٩٥م./ ٩٠٠هـ. ومن اللافت للنظر أن متوسط أعمارهم كان كبيرًا حتى بلغ عُمر أحدهم مائة وثلاثين عامًا إذ أن التربة جيدة والمناخ بصفة عامة صحى ورائع، والثابت أنهم من السفارد، وكان قد أسس جماعاتهم هناك أسبانى يدعى الحبر يوسف Yosef كان قد جاء من سرقوسطة، وعمل كدليل للغرباء فى إحدى الشركات، هذا وقد اجتمعت الشواهد الدالة على أن اليهود جعلوا من هذه المدينة مركزًا دراسيًا يضم أبناء الطائفة وبرعاية من السلطات المملوكية[٤]. وبذلك تكون أعداد جماعة اليهود فى صفد أكبر من أعدادهم فى القدس، بل وفى أى مكان آخر فى فلسطين.

ويمكن الوقوف على معلومات تخص يهود صفد فى الخطابات؛ إذ يشير عوبديا ((إلى أنهم انخرطوا فى أعمال التجارة المتنقلة حيث كانوا يتنقلون بين القرى لتدبير الحد الأدنى لقوت

---

(١) Ibid, p.249;

انظر: ما كتبه عوبديا عن دور سفير فلورنسا فى الاتصالات ونقل الرسائل فى خطابه الثالث.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.245.

(٣) صابر طعيمة: التاريخ اليهودى العام، جـ٢، ص١٩١.

(٤) A student's letter, pp.78, 82- 83- 84.

عيشـــهم[١]))، ويفهم من هذا أنهم عملوا دلالين، إذ كان الواحد منهم يلجأ فى بعض الأحيان إلى تــرك الأبواب ليقنع النساء بقيمة ما يقدمه لهن من سلع مثلما هو الحال بالنسبة لصغار التجار من يهود مصر[٢]، وكان ذلك يعنى أن يهود صفد لم يمتلكوا حوانيت لممارسة مهنتهم من خلالها، وهذا ثابــت فى خطاب الطالب اليهودى الذى أكد على أن ((معظمهم يعملون [مجرد] حراس حوانيت حــيث يبيعون التوابل والجبن، والزيت والفواكه))، ويقدر دخل الواحد من هؤلاء الحراس بحوالى ((خمس وعشرين دوكية فى العام، وهو مبلغ يمكنه من إعالة خمسة أفراد. وعلى العموم فالطعام يعد رخيصًا[٣]))، ومن ثم كان معظم تجار اليهود فى صفد، وربما القرى المجاورة من صغار التجار، ومن متوسطى الحال، وليسوا بالفقراء، كما وصفهم عوبديا، وعليه لم يكن لهذا المجتمع أن يبرز، ويعلو شـــأنه بـــين يهود العالم، إلا كما ذكره هو أيضًا فى ظل الوئام والسلام اللذين نعموا بهما من قبل المسلمين.

وفى أنحـــاء أخرى من فلسطين التى كان لليهود قديمًا جماعات فيها، وذكرها عوبديا على سبيل الحصر بلدة أريحا Jericho [٤]، وبرغم عدم رؤيته لها إلا أنه ذكر عنها: ((هى بلدة النخيل City of The Palms تقع على مبعدة رحلة نصف يوم فقط من القدس، وفى وقتنا الحاضر فهناك بالكاد ثـــلاث من أشجار النخيل فى البلدة))، وتتألف من عشرين أو ثلاثين بيتًا. أما بيثان Bethan [٥]، فكانت فى الماضى مدينة كبيرة، إلا أنها أصبحت حاليًا مرعى للماشية، وتشتمل على حوالى عشرين بيتًا، ويضيف عن هذه البلدة أنها كانت ترسم فى الأصل ((بيت شان)) مثل جميع البلدات التى تبدأ بمقطع ((بيت)) ((وتقريبًا فإن جميع البيوت التى كانت ذات شأن كبير فى الماضى غدت الآن أماكن

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.245.

(٢) محاسن الوقاد: اليهود فى مصر المملوكية، ص١٨٨- ١٨٩.

(٣) A student's letter, p.83.

(٤) تقع بلدة أريحا شمالى البحر الميت بالقرب من نهر الأردن شرقى القدس، وهى تعد إحدى القرى التابعة لنائب السلطان فى القدس، اشتهرت قديمًا زمن بنى إسرائيل بأنها سكن الجبارين. انظر: أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـــ٢، ص٧٤- ٧٥.

(٥) وردت فى النص برسم بيشار Bethar وصححت برسم بيشان، وهى بلدة تضرب بجذورها فى الطريق بعمق، ولذا فللكنعانيين واليهود ذكريات فيها، وهى تقع إلى الجنوب من بحيرة طبرية فى سهلٍ عميق يطل على نهر الأردن، انظر: على أحمد السيد: إمارة الجليل تحت حكم اللاتين ودورها السياسى فى الصراع الصليـــبى الإسلامى فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى، ١٠٩٩ – ١١٥٤م./ ٤٩٢ – ٥٤٩هــ.، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، كلية الآداب – جامعة الإسكندرية ، ١٩٨٨، ص٤٣ – ٤٦.

مقفـــرة، وبـــرغم أن هذه البقاع ما تزال تحتفظ بمسمياها القديمة نفسها، إلا أنها فى حقيقة الأمر مهجورة حاليا[١]». ونجد تفسيرًا لذلك عند أبى اليمن العليمى حيث يذكر «إن تسمية كل مكان أوله بيت ...... لأنه كان مسكنًا لنبى من أنبياء بنى إسرائيل فيقال: بيت فلان، نسبة لساكنه[٢]»، ومن الواضح أنه لم توجد جماعات لليهود فى الريف الفلسطينى فى تلك الجهات بدليل عدم إشارة أىٍ من المعاصرين اليهود إلى أى تجمعات لهم هناك.

وفى خـــارج فلســـطين التى عانى يهودها من الفقر وفقًا لما رآه عوبديا مقارنًا إياهم باليهود فى مناطق أخرى من الشام قائلاً : «وفى المقابل، سمعت أن اليهود فى دمشق تجار أغنياء[٣]»، بيد أن المعاصرين اليهود الآخرين أعطونا مزيدًا من المعلومات التى تفيد فى التعرف على الجانب الاجتماعى ليهود المدينة؛ إذ ذكر ميشولام بن مناحم أن جماعة اليهود فى دمشق بلغوا أربعمائة وخمسين أسرة وهم أثرياء، فكلهم إما تجارٌ مرموقو الجانب، وإما حكماء، وإما أطباء، وضرب مثلا عليهم بالرابى جوزيف R. Joseph، كما لم يختلف الطالب اليهودى فى تقييم أوضاع اليهود فى المدينة، إذ سجل فى خطابه «هناك ثلاث جماعات يهودية متفرقة، لأنها أكبر وأغنى بلد، وهم فى مجموعهم خمسمائة أسرة يهودية؛ فبعضهم يتاجر فى الملابس وبضائع أخرى، وبعضهم الآخر حرفيون، وبالرغم من أن عددًا من اليهود هناك يقرضون المال للتجار البنادقة بنسبة أربعة وعشرين فى المائة، وبعضهم يثبتون أموالهم فى تعاقدات معهم بربحية ثمانية عشر فى المائة فقط، إلا أن المرء يستطيع أن يعيش فى سعادة فى هـــذه المدينة[٤]». وبذلك يتضح أن يهود دمشق كانوا أثرياء ليس لعملهم بالتجارة فقط على حد علم عوبديا، إنما لعملهم باستثمار رؤوس الأموال فى معاملات ربوية أنف المسلمون التعامل بها مـــع التجار البنادقة، وعليه تتجسد وظيفة جماعة اليهود فى أنها كانت تقوم بالأعمال التى يحرمها الإسلام، ويتمسك الأهالى بعدم ممارستها مثل الربا وصناعة الخمر .... الخ.

وفى موضـــع آخر من بلاد الشام تعرض عوبديا لجماعة اليهود فى أبرز مدن الساحل إذ ذكر: «أما طرابلس سوريا فهى ميناء للسفن وسوق لشتى الأمم؛ فهى تقع عند حد فلسطين، والحديث عـــنها ذو شجون، ذلك أن الله حباها بالفاكهة وجميع المنتجات التى ترد من مدن الأرض المقدسة،

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.237, 241- 242.

(٢) أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـــ٢، ص٦٦.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.245.

(٤) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.199; A student's letter, p.80.

ويفـــد إليها الرحالة من أقصى الأرض، وبها حاليًا حوالى مائة أسرة يهودية، حيث يقيمون فى وئام وسلام، ويقول كثير من الناس إنه إذا جاء رجل حكيم من إيطاليا إلى طرابلس فإنه حتمًا سيصبح ثريًا للغاية فى فترة وجيزة، وذلك عن طريق التجارة مع تجار إيطاليا الذين يترددون عليها[١])). وفى الـــوقت الذى تحدث فيه عوبديا عن يهود دمشق وطرابلس نجده لم يعر اهتمامًا بجماعتهم فى مدن أخـــرى كـــان لهم وجود ونشاط فيها مثل بيروت[٢] وربما غيرها من المدن إما بسبب عدم وجود فرصة للتعامل معهم، وإما لأن جماعاتهم لم تكن ذات بال فى نظره أو حتى لا وجود لهم فيها.

وفى المناطق التى لم تصل إلى مسامع عوبديا عنها أنها تضم يهودًا بالشام راق له أن يزعم وجودًا لهـــم فيها. فحينما تعرض لنشاط العربان على درب الحج الإسلامي قائلاً: ((المعروف على نطاق واســـع هـــنا أن العرب يقومون بتجهيز رحلة الحج من مصر إلى مكة مخترقين فيها صحارٍ شاسعة وموحشة، حتى أن قوافلهم تتألف من عشرة آلاف جمل على الأقل. وأحيانًا ما كانت تتعرض هذه القـــوافل للسطو عليها فى البرية من أناس عمالقة كان فى وسع أحدهم أن يتعقب ألفًا من العرب. وقد أطلق عليهم العرب مسمى العربان El-Arabes الذين هم أبناء الله القدير Children of Almighty[٣] ذلـــك انهم يستشهدون دائماً باسم الله القدير. والعرب يؤكدون على أن واحدًا من هؤلاء العربان قادر على أن يحمل جملاً بإحدى يديه، بينما يقبض على السيف الذى يحارب به بـــيده الأخرى[٤])). والمبالغة فى وصف عربان الشام لا تخلو من واقع تاريخى معروف؛ فالثابت أن

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.250.

(٢) أشار خطاب الطالب اليهودى فى عام (١٤٩٥م./ ٩٠٠هـــ.) إلى وجود جماعة لليهود فى بيروت لكنه وصفهم بأنهم يهود غير حقيقيين ربما لذوبانهم فى المجتمع الإسلامى، انظر:

A student's letter, p.78.

(٣) ورد فى إنجيل يوحنا حجة السيد المسيح لليهود على حد زعم النصارى بأنه ابن الله وفيها يقول لهم: ((لماذا تنكرون عليَّ قولى إنى ابن الله مع أنكم تعتقدون أنكم جميعًا أبناء الله وأنكم آلهة)) والواضح هنا أن يوحنا يشير إلى العبارة السادسة من المزمور الثانى والثمانين حيث سجل مدونو الأسفار على لسان الرب: ((أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلى كلكم)). انظر: يوحنا ١٠: ٣٠ ومابعدها، وبذلك يتبين ما قصده عوبديا أعلاه.

c.f. Also. Chyne. T. K., Sutherland. & (ed.) Encyclopedia Biblica, London, 1899, Art. Son of god.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p239.

الزعم بأن أحد العربان العمالقة يمكنه قتل ألف عربى، وأن يحمل جملاً بإحدى يديه يعد دربًا من الخيال لعل عوبديا كان فيه متأثرًا بروايات الرحالة ميشولام بن مناحم فى هذا الصدد، إذ نقرأ فى رحلة الأخير أن زعيم=

قبـــيلة العمالـــيق العربية قوية البنيان سكنت الجهات الممتدة من سيناء إلى مؤاب والبلقاء شرقى الأدرن لعدة قرون حتى أُرسل موسى نبيًا، واصطدموا باليهود، ودارت الحروب بينهما حتى عصر شاؤول (١٠٢٠ – ١٠٠٠ق.م.[١]). وقد تعرض عوبديا إلى العلاقة بين هؤلاء العماليق واليهود فذكر: ((من المعروف أنهم ملتزمون بالأعراف الدينية الخاصة باليهود، فمن الثابت أنهم ينحدرون من نسل ركاب Rechab [٢]).

وجديـــر بالذكر أن لفظة ركاب تعنى بالعبرية ((فارس))، ولذا فلها مدلولها عند عوبديا حين أقـــرن الـــبدو بها . أما المدلول التاريخى عند اليهود فبنو ركاب قوم من بنى مدين تربطهم بالنبى إبـــراهيم علـــيه السلام صلة قرابة، يقيمون فى منطقة صحراء النقب الواقعة بين مصر وفلسطين والحجـــاز، وكانـــوا قد عاشوا بين بنى إسرائيل. كانت لهم شريعتهم المستقلة وضعها لهم والدهم لإبعـــادهم عن عبادة الأصنام، وتقوم على أسس معينة مثل: تحريم الخمر، عدم سكنى البيوت، ألا يزرعوا زرعًا ولا يغرسوا كرمًا ، وأن تكون سكناهم فى خيام. وكان القصد من ذلك أن يحتفظوا ببســـاطة عـــاداتهم البدائية. وقد أطاع الركابيون هذه الوصية، وظلوا شعبًا مستقلاً محبًا للسلام، وكانوا يتنقلون من مكان لآخر حسب مقتضيات الحياة. وقد احترم اليهود فيهم ولاءهم لوصايا أبيهم، وحفاظهم على قدسية يوم السبت[٣].

هذا الشرح من قبل عوبديا ينطوى على ثقافة دينية واضحة؛ ففضلاً عما علمه عن رحلة الحج الإســـلامي، وما قد تتعرض له من أخطار بسبب إغارات البدو فى الصحراء، نجده يشير إلى جنس

=العربان ومعه مائة رجل قتلوا اثنين وعشرين ألفاً من جند أمير غزة وأمير رملة ونائب السلطان فى القدس. وللوقوف على التفاصيل، راجع:

Meshullam of Voltera, Op.Cit., pp.184- 185.

(١) البكرى، (ت٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) أبي عبيد الله عبدالله بن عبدالعزيز البكرى الأندلسى: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ٤جـ، تحقيق: مصطفى السقا، الطبعة الأولى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م.، جـ١، ص١٧، ٢٣، ٤٣؛ راجع أيضاً: محمود نعناعة: تاريخ اليهود، ص١٣٥ - ١٣٧.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.239.

الركابيون هم: الريشابيت الذين ينحدرون من نسل Gethro حمى موسى عليه السلام. انظر:

Ben-Sasson, H. H., A History of Jewish people, p.457

(٣) بطرس عبدالملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس. مادة ركاب؛ انظر أيضًا: عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٤، ص١٠٧.

ساد فلسطين قديمًا، ألا وهم العمالقة الذين أظهرهم ذوى قدرات خارقة. بيد أنه أرجع نسبهم إلى الركابيين الذين اعتقد فى أنهم ملتزمون بأعراف اليهود الدينية الخاصة، مدركًا حرصهم على احتراف الرعى، ومن ثم فإنهم لا يزرعون الأرض إلا قليلاً تأسيًا بملكهم النبى داود الذى كان راعيًا للغنم فى صباه، بل كذلك كان جدهم الأول إبراهيم عليه السلام.

وانطلاقا من تلك البواعث، أبدى عوبديا مزيدًا من الاهتمام بهؤلاء العزبان فيضيف عنهم ((أما المناطق الواقعة فيما وراء نهر الأردن ... فجميعها حاليًا مناطق مدمرة. ولا يمكن أن تجد مدينة مأهولة بالسكان هناك؛ ذلك أن البدو يأتون على الأخضر واليابس. إنهم يصلون حتى بوابات القدس، وهم يسلبون وينهبون فى الطرق المسلوكة، ولا يمكن لأحد أن يتصدى لهم، إذ أن أعدادهم كبيرة[١])). والثابت أن هذه الظاهرة قد شملت الطرق المؤدية إلى القدس القادمة من شتى أنحاء فلسطين[٢]، وهذا بلا شك يعكس ضعف السلطة المملوكية التى غدت غير قادرة على وقف نشاط البدو التخريبى، خاصةً وأنهم وجهوا اعتداءاتهم على الفلاحين بغرض فرض الحماية عليهم، وابتزاز أموالهم مما ترتب عليه أن بارحوا أراضيهم، وهاجروا من الريف إلى الحضر[٣]. غير أن هذا الدور المشين للبدو كان يرضى عوبديا على اعتبار أنهم بأعمالهم التخريبية هذه يمهدون السبيل أمام المشياح اليهودى كى يعمر الأرض، ويعيد بناء مملكة اليهود القديمة.

طالت الخطابات كما سلف الذكر جماعة اليهود فى بلاد نائية أخرى مثل يهود الفلاشا فى الحبشة الذين قابل بعضهم فى القاهرة، كما تناولت الخطابات جماعة اليهود فى اليمن؛ إذ تطرق عوبديا إلى ذكر جانب من النواحى الاجتماعية عندهم فيقول: ((إن يهود القدس جاءوا من عدن ...))، ويقول عن هؤلاء ((إنه يوجد فى بلادهم مجتمعات يهودية عريضة ...)) وبعد أن وصف عوبديا معاملة حكام اليمن من بنى طاهر لليهود هناك باللطف، تطرق فيها إلى ثراء البلاد، ووجود محاصيل زراعية تختلف عما هو مألوف فى بلاده نظرًا لأنها محاصيل مدارية، أما عن أهلها فإلى حد ما يميلون إلى السمرة[٤]. وهذه الإشارة تثير قضية هجرة اليهود من اليمن إلى القدس؛ ولنا أن نضع فى

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.241.

(٢) A student's letter, p.84.

(٣) عبدالكريم رافق: العرب والعثمانيون، ص٩.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.246.

الاعتبار فراغ القدس من اليهود إبان الغزو الصليبى لها (١٠٩٩م./ ٤٩٢هـ.)، ثم أخذهم فى التسلل إليها بعد حوالى نصف قرن من الغزو تحت وطأة حاجة ملوك بيت المقدس الصليبيين الاقتصادية لأيديهم العاملة وظهورهم فى الأرض المقدسة مرةً أخرى فى شكل جماعات قليلة العدد[١]. وما ترتب على ذلك من نشأة علاقات فى مناخ أفضل قدم الحرية المدنية لليهود فى فلسطين[٢]. وفى هذا المناخ وأثناء حكم الزيديين لليمن، قام التجار اليهود بإقامة صلات مع يهود فلسطين ومصر بهدف تعزيز تجارتهم. وما لبث أن انتشرت بين اليهود فى ذلك الوقت فى اليمن فوضى دينية واجتماعية[٣] أوقعتهم فى مشاكل عبر عنها موسى بن ميمون فى رسالة أرسل بها إليهم يعضدهم، ويواسيهم فيها، وأفتى لهم بأنه فى حالة الاختيار بين الدخول فى الإسلام أو الهجرة من بلادهم تاركين بيوتهم وممتلكاتهم فى اليمن، فعليهم الهجرة فارين بدينهم، وفى موضع آخر ذكر لهم أن فلسطين هى جوهرة الأرض[٤]. وعليه فقد تصدق إشارة عوبديا من أن يهود القدس جاءوا من هناك، ومن ناحية أخرى تفيد الدراسات المتخصصة فى التجارة الإسلامية فترة العصور الوسطى أن يهود اليمن ظلوا يترددون على مصر فى أواخر هذا العصر، وربما يستقرون فيها بصفتهم تجارًا وحرفيين وعلماء. إذ كانت عدن تشكل القاعدة التى تجتمع فيها السلع مثل التوابل والحاصلات

---

(١) بنامين التطيلى: الرحلة، ص٩٩.

Prawer, J., The Latin kingdom of Jerusalem, London, 1970, p.236.

انظر أيضا: على السيد على: القدس فى العصر المملوكى، ص١٠٠؛ عبدالجليل شلبى: اليهود واليهودية، ص ١١٣.

(٢) عطية القوصى: صلاح الدين واليهود، بحث منشور فى المجلة التاريخية المصرية، مجلد٢٤، القاهرة، ١٩٧٧ م.، ص٣٩ – ٥٤.

(٣) كاميليا أبوجبل: يهود اليمن، ص١٩.

(٤) Heschel, J., Abraham, Maimonides, the life & times of the great Medieval Jewish thinker, New York, 1935, pp.46, 51, 54, 106.

وكان موسى بن ميمون قد أرسل إلى يعقوب بن نالثان الفيومى رئيس المجتمع اليهودى فى اليمن بهذه الرسالة باللغة العربية ليسهل تداولها وفهمها بين يهود اليمن. ويعلن مؤازرته لهم فيما يتعرضون له من مشاكل، ويطعن فيها فى النبيين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، ويحضهم على التعاون، ويبشرهم بقرب ظهور المشياح الذى سيعيد مجدهم ساردًا تاريخ النضال اليهودى ضد أعدائهم من الأمم المغايرة. راجع نصها الكامل فى:

Stillman, Norman (ed.): Jews of Arabs lands, A History and source book, the Jewish publication society of the American, 1988, pp.233 – 274.

الزراعية والحرير الخام والخشب من الهند وغيرها من البلاد لتشق طريقها عبر البحر الأحمر وتصل إلى عيذاب[١]. ومع ذلك نجد من يذهب إلى القول يان يهود اليمن كانوا يشكلون فى ذلك الوقت جماعةً يهودية بعيدة ومعزولة، ومنقطعة عن معظم المراكز اليهودية الأخرى[٢].

تقييم اجتماعى لليهود فى ظل السيادة الإسلامية:

وبصفة عامة كان لعوبديا تعقيبه البليغ عن أوضاع اليهود الاجتماعية فى ظل الحكم المملوكى فى نظـرة شمولية حيث يقول: ((وكثيرًا ما نجد أن اليهود اعتادوا أن يقدموا أنفسهم على أنهم من الفقـراء فى البلاد العربية، ويبدون أنفسهم صعاليك ومتسولين، وهم ينتقلون بين العرب فى حين أنهـم لا يبدون الشفقة والإحسان كلّ حيال الآخر[٣])). ويفيد أحد المراجع المتخصصة فى دراسة المجـتمع اليهودى أنهم بالفعل يتصفون على مر تاريخهم بالجشع وعبادتهم للمال، فهم يسعون إليه بكـل حيلة. كما يتصفون بقدرتهم على الرياء والنفاق والحرص على التقرب إلى ذوى السلطان لنـيل أغراضـهم ثم التآمر عليهم، ويتزلفون بالشكوى والبكاء، ويتظاهرون بالضعف والمسكنة ليستدروا عطف الآخرين، ويخفوا شرورهم. ولم يتوقف الأمر عند اتباع ذلك مع غير اليهود، إنما اعـتادوا أيضًا أن يحيكوا المكائد بعضهم ضد البعض الآخر، ويثيرون الفتن[٤] فى حين تفسر دراسة أخرى ظهور اليهود بمظهر الضعيف بما وقع من حوادث عنيفة لهم بشكل فردى فى أواخر العصر المملوكى[٥] وقت تسجيل عوبديا لخطاباته. وعليه يفترض أن تكون رؤيته مدققة وصحيحة لحيدته المبنـية علـى كونه غريبًا عن مجتماعتهم الشرقية كما أنه فى النهاية واحد منهم ، وليس هناك ما يدعوه إلى تقديم شهادة مغلوطة أو مغالية عن مكرهم وتحايلهم.

---

(١) عطية القوصى: تجارة مصر فى البحر الأحمر، ص١٠٣. راجع أيضًا قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص ٣٠، ح٥١.

(٢) لويس برنارد: اليهود فى ظل الإسلام، ترجمة: حسن أحمد بسام، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، ١٩٩٥م.، ص١٣١.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.228.

(٤) وقد قدمت الدراسة المذكورة فصولاً تشرح فيها صفات اليهود وأخلاقهم على مر العصور مبرهنةً على ذلك من خلال عشرات الإشارات إلى ما ورد عنها فى أسفار التوراة ذاتها مجسدة ومؤكدة لما وصلت إليه من نتائج، راجع ذلك فى: زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٣٢٣، ٤١١.

(٥) قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص١١٧.

والملاحـــظ فى هذا الصـدد أيضًا أن المصادر المعاصرة أشارت إلى أن السلطات المملوكية كانت تميز اليهود بملابس معينة؛ حيث فرضت عليهم اللون الأصفر لتمييز عمائمهم[١]، كما تحدد اللون الأحمر للسامريين منهم. وتعين على نساء اليهود عمومًا الالتزام بالألوان نفسها، وأن تنتعل الواحدة منهن خفـين من لونين متباينين، وكان ذلك لتمييزهن عن نساء المسلمين[٢]. وبمراجعة الوثائق اليهودية يُتأكد أن القواعد المتبعة فى تحديد مظهرهم يرجع إلى عصور سابقة، إذ فرض أبو شجاع وزير الخليفة المقتدى بأمر الله (١١٣٥ - ١١٦٠م./ ٥٣٠ - ٥٥٥هـ.) وضع علامات صفراء على الرأس وحول الرقبة على رجال اليهود، ولبس خفين أحدهما أحمر والآخر أسود على نسائهم، فضــلاً عن خلخال فى الأرجل لإحداث صوت معين، وعقد قصير فى الرقبة من أجل تمييزهن عن النساء المسلمات[٣]. ومع ذلك فهذه المظاهر التى خصت اليهود فى المجتمع الإسلامى لم تلفت نظر عـوبديا، ولم يذكرها فى حين لفت نظره الأمر ذاته - وهو تمييز اليهودى بعلامة فى ملابسه - فى باليرمو. ومن ثم كان تخصيصهم بعلامات وملابس ليس إلا تنظيمًا للمعاملات مع المسلمين، وليس مـن قبـيل التمييـز العنصـرى، فإذا ما اتخذ هذا الشكل الأخير لكان مدعاةً لملاحظة الوافدين الأجانب، ولسجلوه على أنه لونٌ من سوء المعاملة لهم.

وعـندما تطرقت الخطابات إلى معاملة اليهود فى المجتمع الإسلامى المملوكى كانت واضحة فى إجــلاء ذلــك؛ حــيث أدلى عوبديا بشهادته فى هذا الصـدد قائلاً: ((فى الواقع إن اليهود ليسوا مضـطهدين من العرب فى هذه المناطق، فقد ارتحلتُ داخل هذا البلد طولاً وعرضاً، ولم توضع فى طريقى عقبة من أحد منهم، وإذا ما وجدوا عصبةً من اليهود مجتمعة لا يزعجهم هذا فى شئ، ومن السهل على أى رجل يهودى ذكى متمكن من العلوم السياسية أن يرتقى إلى أن يصبح رئيسًا سواءً للـيهود أم للعــرب على حد سواء[٤])). وإذا كان ذلك هو رأى صاحب الخطابات، فماذا عن شهادة تلميذه فى الأمر ذاته؟ ففى الواقع تعرض خطاب الطالب اليهودى لقضية معاملة اليهود غير مــرة، وأكـــد على ((إن المسلمين فى بيروت أفضل من المسلمين فى أى مكان آخر، وهم يعاملون الـــيهود معاملة حسنة)) ثم عاد وأضاف: ((لقد عاملنا المسلمون [فى بيروت أيضًا] معاملة حسنة،

---

(١) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.163;

القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١٣، ص٣٦٢.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١٣، ص٣٦٢ - ٣٦٥.

(٣) Scheiber, Alexander, Geniza studies, George Olms verlage, Collection XVII, New York, 1981, Folio2, p.55.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.235.

ووزعـــوا علينا المال والقمح والخبز والفاكهة. ولعدة مرات سب المسلمون المسيحين، لكنهم لم يـــتلفظوا بكلمـــة عن اليهود، لذلك لا أعرف لماذا لا يعيش اليهود هنا))، كذلك امتدح الطالب الدليل المسلم الذى رافقه فى الطريق إلى دمشق دوناً عن الأدلاء المسيحيين واليهود الآخرين. ومن ناحـــية أخرى، وعندما تطرق إلى ما كانت السلطات تفرضه من عقوبات على المتخلفين فى دفع الأمـــوال المقررة كضريبة ((وفى هذا المقام فإن السلطة التركية تتعامل على حد سواء مع اليهود والمســـيحين والمسلمين[١])) ويلاحظ أن هذه الشهادات مجتمعة كانت فى عصر السلطان الأشرف قايتباى المعروف بشدة بأسه وإمساكه بيد من حديد على الحكم فى البلاد.

واستأنف عوبديا شهادته حيث حرص على إيضاح أنه عندما يتعرض اليهود لضرر ما أو دفع غـــرامات زائدة، فكان ذلك من قبيل سياسة عامة تتبعها السلطات المملوكية ضد مجمل الشعب، كما أنه حرص على التأكيد بأن فرص العمل كانت متاحة أمام اليهود، ولا قيود ولا تفرقة فى هذا الشأن. ومن السهل على اليهودى أن يزداد ثراءً، كما أن حرية الحركة والشراء والتعبد مكفولة له كـــيفما شاء، كما دلل على أن رجال اليهود ونسائهم كانوا منشغلين بأعمالهم إلى الحد الذى معه يضـــطرون إلى شراء الطعام جاهز دون طهيه[٢]. وفى هذا الشأن تتجه بعض الآراء إلى أن معاملة السلاطين المماليك الحسنة لليهود اقتصرت على العصر المملوكي الأول، إلا أن الأمر اختلف على عهـــد معظم سلاطين المماليك الجراكسة؛ إذ تحولت معاملة اليهود يومًا بعد يوم إلى السوء، حتى اتهموا باضطهادهم واستغلال نسائهم وأطفالهم فى أعمال مهينة، كما اتهموا بسلب أماكن العبادة الخاصـــة بهم، وانتهاءً بوضع ثلاثة محاذير عليهم هى: أولاً، تمييزهم بملابسهم ، وثانيًا، منعهم من العمل فى الدواوين الحكومية لدى السلطان والأمراء، وثالثًا، فرض غرامات نقدية زائدة من حين إلى آخـــر علـــيهم[٣] وبناءً على شهادة اليهوديين المعاصرين الواقعية والمنصفة على معاملة المجتمع المملوكـــى لليهود يصعب قبول الآراء المذكورة التى تتجه إلى اقتصار حسن معاملتهم على العصر المملوكـــى الأول، خاصةً وأن عوبديا يعد خير من يشهد على عصره بحكم إقامته بين اليهود وهو منهم، مما يشعرنا بموضوعيته فى الكتابة، إذ يبدو أنه أحس بوجود جانب من الاختناقات الاقتصادية والكـــوارث الطبيعـــية و الظروف السياسية الصعبة التى تواجه الدولة كانت سببًا فيما تعرض له الـــيهود من مضايقات لا ترقى أبدًا إلى الاضطهادات فى إطار سياسة عامة أصابت الشعب بشتى فئاته كما أصابتهم.

---

(١) A student's letter, pp.78, 80, 90.

(٢) Obadiah, Op.Cit., pp.223, 228.

(٣) Fargeon, Mourice, Les Juifs en Egypte, p.135.

المبحث الرابع

إدارة مجتمعات اليهود فى شرق المتوسط

مـــن واقـــع خـــطابات عـــوبـــديا

أ- الجيتو:-

هكذا، شملت خطابات عوبديا الثلاثة العديد من النواحى الاجتماعية الخاصة بمجتمعات اليهود فى مـــناطق كان قد جاب معظمها، فتناول مجتمعات ثلاثة فى شرقى المتوسط، إلا أننا نجد من المهم التوقف عند مفهوم الشارع أو الحى اليهودى عنده، إذ كانت أبرز معالم المجتمع اليهودى التى تميزه فى جمـــيع مـــناطق تواجدهم التى زارها عوبديا سواء فى باليرمو، وميسينا - داخل صقلية - أم فى رودس، حـــيث أنهـــم كانـــوا يتمركزون فى شارع واحد، ومن ثم يكون عوبديا قد رصد مظهرًا اجتماعيًا له مدلوله وأسسه، ألا وهو الجيتو Ghetto اليهودى فى شكله فترة العصور الوسطى على اعتـــبار أن الجيتو هو الحى المقصور على إحدى الأقليات الدينية أو القومية[1]، ذلك أنه أشار إلى الشـــارع اليهودى على أنه وحدة اجتماعية بل وإدارية كل سكانها من اليهود ذوى طباع خاصة، وهـــم يعيشون داخل مساكنهم، تحيط بهم الأسوار التى تحميهم داخل شارعهم، كما تغلق عليهم بوابة لا تفتح إلا فى الصباح[2].

ويتـــبين ممـــا أورده عوبديا عن مجتمع اليهود فى باليرمو أن الجيتو كان يتمتع بقسط وفير من الإدارة الذاتية، إذ كان المجتمع هناك يدار بواسطة هيئة إدارية مكونة من اثنى عشر شخصًا يعينهم

---

(1) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٤، ص٢٨٨؛ إن أكثر الاقتراحات قربًا من الواقع التى تفسر كلمة ((جيتو)) هو ذلك الذى يعود بالكلمة إلى كلمة بورجيتو الإيطالية التى تعنى قسمًا صغيرًا من المدينة. ويعود تاريخ الجيتوات إلى الإمبراطوريتين الإغريقية والرومانية. وفى عام ١٠٨٤م. كانت تشير إلى حى اليهود الذى تحيطه الأسوار العالية، ولم يتبلور هذا المصطلح تماماً إلا فى عام ١٥١٦م. حينما أطلقت كلمة جيتو على حى اليهود فى البندقية. انظر: عبدالوهاب المسيرى: الأقليات اليهودية، ص٤٠. وهناك من يذهب إلى أن يرجع نظام الجيتو إلى عهد يوسف عليه السلام حينما اتفق أخوته على سكنى أرض جوشن (بلبيس) شرقى النيل مؤثرين العزلة هناك عن التعايش مع أهل مصر. راجع: محمود نعناعة: تاريخ اليهود، ص١١٨.

(2) Obadiah, Op.Cit., p.221.

قدم عوبديا هذا الوصف الذى هو أقرب ما يكون لوصف الجيتو لحى طائفة المسيحيين بمدينة الإسكندرية، ومن ثم فوصفه يندرج على جيتو اليهود.

الحاكم، وكان لهذه الهيئة قوة تنفيذية ضخمة، فبالإضافة إلى الدور الاجتماعى كان عليهم تنفيذ العقوبات مثل الجلد والسجن. كما كان من حق هذه الهيئة النظر فى المنازعات والحكم فى القضايا حسب الشريعة اليهودية[1]، ويشبه أحد الباحثين الحديثين مجلسهم هذا بمجلس الأمة، ويشير إلى أنه كان معروفًا أصلاً فى بلاد بولندا الكبرى والصغرى وليتوانيا والإقليم الروسى من بولندا، وفيه كانوا يفضون خصوماتهم، وينظمون أمورهم[2]. وعليه فقد كان أعضاء الهيئة يعرفون كل صغيرة وكبيرة عن سكان الجيتو بسبب صغر حجمه وقلة عددهم، ولذا كان من السهل التحكم فيهم، ومن ثم فإن المادة التى قدمها عوبديا عن الجيتو اليهودى، والذى عبر عنه بشارع اليهود تتمشى وتتفق مع المعنى العام لكلمة جيتو.

وتفيد المعلومات التى أمدنا بها صاحب الخطابات فى هذا الشأن مجتمعة أن الجيتو اليهودى بنيان اقتصادى اجتماعى، حيث يضم حرفيين وصغار موظفين ومعدمين يمثلون الطبقة الوسطى والدنيا فى باليرمو، وكذلك حرفيين وتجار يمثلون الطبقة الوسطى والأثرياء فى ميسينا، فضلاً عن أغلبية من الفقراء فى رودس. وهذا التركيب الاجتماعى يتواءم مع المجتمع الإقطاعى فى أوروبا المبنى على الفصل بين الطبقات، والاحتفاظ بمسافة اجتماعية واضحة بينها. وفيه برز اليهود جماعةً وظيفيةً وسيطةً تضطلع بمهنة التجارة والربا، ذلك أنهم أجادوا فنون التجارة بحكم ما اتصفوا به من طباع وقدرة على المساومة والخداع. كذلك يذكر لهم التاريخ مهارتهم فى مجال استثمار الأموال وأعمال الصيرفة والاشتغال بعمليات الرهون والقروض بالربا الفاحش، إذ كانت الشريعة اليهودية تمنع اليهود من أخذ الربا من أبناء ملتهم بينما تبيح لهم ذلك مع الغرباء[3]، وقد واصلوا ذلك فى العصر الوسيط مكونين اتحادات تجارية أو حرفية تابعة للملك أو النبيل الإقطاعى الذى كان يمنحهم المواثيق التى تمدهم بالحماية والمزايا نظير ما يرتجيه من ورائهم من نفع. بل كان ينظر إليهم أساسًا باعتبارهم مصدرًا للربح أو أداة إنتاج وإدارة، ويتم التعامل معهم على أنهم غرباء[4]، ومما دعم حاجة اليهود إلى الجيتو مجموعة العادات والتقاليد المرتبطة بالدين، ومن ناحية أخرى كان الجيتو يشكل مسألة حيوية بالنسبة لليهود أنفسهم لا يضمن بقاءهم وحسب، إنما كفل الحفاظ على

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.211.

(٢) فؤاد حسنين على: المجتمع الإسرائيلى، جـ٢، ص٣٩.

(٣) زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٥٠٢ - ٥٠٣.

(٤) شاحاك إسرائيل: التاريخ اليهودى، ص١٠٠.

هويتهم، ومن ثم فإقامة الجيتو كان بمثابة حق يسعون إليه ويشترونه بالأموال. واعتاد يهود فيرونا الإيطالية على الاحتفال كل عام بإقامة الجيتو الخاص بهم، ومع أواخر العصور الوسطى ظهر عدد من الجيتوات لهم، وخاصةً فى إيطاليا[١]. وأدت مجموعة الظروف التى عاشها اليهود فى تلك الكيانات إلى أنهم عاشوا فى شبه عزلة كاملة؛ فاليهودى لا يأكل مع الأغيار، ولا يصلى معهم، ولا يتزوج منهم، ولا يدفن معهم؛ أى أنها عزلة كاملة فى الميلاد والحياة والموت داخل الجيتوات، ومن هنا صار الجيتو سجنًا بعد أن كان حصنًا[٢]. وفى واقع الأمر لا يوجد رابط سوى المصلحة والفائدة والعمل المشترك.

وجدير بالذكر أن واقع اليهود الأوروبيين السياسي فترة العصور الوسطى ساعد إلى حد بعيد فى تكوين الجيتوات الخاصة بهم، إذ أدى تشتتهم إلى الحفاظ على التماسك الداخلى لجماعاتهم والالتفاف حول أصحاب السلطة لحمايتهم[٣]. وبرغم محاولات التغلغل فى المجتمع الأوروبى إلا أن أفكار موسى بن ميمون التصادمية فى القرن الثانى عشر الميلادى وانتشارها أدت إلى تفشى روح العداء ضدهم[٤]؛ ذلك أنهم تعرضوا للطرد والتعذيب بشكلٍ مكثف فى أرجاء عديدة من أوروبا، حيث حرص البابا أنوسنت الثالث Anocent III (١١٩٨ – ١٢١٦م./ ٥٩٥ – ٦١٤هـ.) فى عام ١٢١٠م./ ٦٠٧هـ. على تمييز اليهود بملابسهم، كما تم طردهم من إنجلترا فى عام ١٢٩٠م/ ٦٨٩هـ ومن فرنسا بعد ذلك[٥]. بل إنهم تعرضوا فى عامى ١٣٤٨ – ١٣٤٩م./ ٧٤٧ – ٧٤٩هـ. لموجة عارمة من الاضطهاد كان فيها المسيحيون يتخذون من قتل اليهود وسيلة للتقرب إلى الله. وانضم الحكام أحيانًا إلى شعوبهم فى محاولة التخلص من اليهود لظنهم فيهم كأصحاب مؤمرات ودسائس، وحدث فى عام (١٤٠١م./ ٨٠٣هـ.) أن قام الملك الألمانى

---

(١) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٤، ص٢٨٨– ٢٨٩؛ الأقليات اليهودية، ص٤٠ – ٤٢.

(٢) كامل سعفان: اليهود تاريخ وعقيدة، ص٤٨.

(٣) Eisenstadt, S. N., Jewish civilization, p.82.

(٤) Johnson, Poul, A History of the Jews, p.219.

ومما يضيفه هذا الباحث أن ابن ميمون قد طعن فى السيد المسيح زعيمًا لليهود، ومن ثم تنتفى صفة أنه المخلص للبشر مما أدى إلى الصدام مع رجال الكنيسة.

(٥) Johnson, Poul, Op.Cit., p.276.

صابر طعيمة: التاريخ اليهودى العام، جـ٢، ص٤٨؛ راجع أيضًا: شاحاك إسرائيل: التاريخ اليهودى، ص٩٠ – ٩١.

روبرشـــت Ruprecht (١٤٠٠ - ١٤١٠م./ ٨٠٢ - ٨١٢هـــ.) بإصدار قرار بطرد جميع اليهود من إقليمي الراين وبافاريا، وأبقى على إلزامهم ارتداء ملابسهم الخاصة، وظل اليهود عرضةً للقتل والحرق والتشريد حتى جاء القيصر الألماني فريدريك الثالث (١٤٤٠ - ١٤٩٣م./ ٨٤٣ - ٨٩٨هـــ.) الذى خفف كثيرًا من الأعباء الاقتصادية التى ألقيت على كاهل الشعب مسيحيين ويهـــود. إلا أهم ما لبثوا أن تعرضوا فى مكانٍ آخر لمزيد من الاضطهاد؛ إذ اهم المسيحيون يهود إيطاليا بقتل طفل لا يتجاوز الثانية من عمره فى مدينة ترنت Trente عام ١٤٤٥م./ ٨٤٨ هـــ. حـــيث انتشرت المذابح فيما بينهم، وانتقلت منها إلى ألمانيا حيث تعرض يهودها لكثير من أعمال الوحشية حتى عام (١٤٧٦م./ ٨٨١هـــ.) وتدخل القيصر لإنقاذهم، وأفرج عن المعتقلين بينهم، وأهمل المطالب بطردهم من البلاد[١].

ولقد ترتب على حياة العزلة الطويلة التى عاشها يهود أوروبا بسبب الاضطهاد طيلة العصور الوسطى أن تكونت لهم شخصية مستقلة داخل مجتمعات الشعوب التى يعايشوها، وظهر ذلك فى سُكناهم فى أحياء معينة خاصة بهم داخل المدن التى هى الجيتوات، والتزيى بزى معين، والتعامل مع غـــير الـــيهود بطريقة معينة، بل إن اللغة الوطنية (لغة البلد التى يعيشون فيها) التى يتحدثون بها أخذت طابعًا معينًا نتيجة لإحلال بعض مفردات عبرية أو آرامية محل مفردات اللغة الوطنية. وقد حـــرص الـــيهود رغم حياة العزلة تلك على استمرار الاتصال ببعضهم فى سائر الدول، وهكذا ظهـــرت لغـــة ((اليديش)) فى شرق أوروبا، وهى لغة الأشكيناز؛ وهى عبارة عن لغة ألمانية قديمة مختلطة بكلمات عبرية، وتكتب بالحروف العبرية، وقد استكملت هذه اللغة مقوماها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين/ السابع والثامن الهجريين[٢].

وإذا مـــا كانت هذه الخلفية التاريخية لواقع اليهود فى غرب أوروبا، فإن أحوالهم قد تختلف فى الجانـــب الآخـــر من حوض البحر المتوسط؛ فقد شهدت كل من مصر وشمال إفريقيا والشام منذ القـــرن الثالث عشر انخفاضًا عامًا فى عدد السكان؛ فقد خلف الفاطميين فى حكم مصر المماليك، وأرهقوا السكان بكثرة مطالبهم لتمويل مشروعاهم العسكرية، فهبط عدد السكان إلى نصف ما كـــان عليه أيام سابقيهم. وأخذ اليهود يفدون أفواجًا على شمال أفريقيا حيث أصبحت لهم مراكز

---

(١) مارجوليز، م. ل.، ماركس، أ.: تاريخ الشعب اليهودى، جـــ١، الطبعة الخامسة، نيويورك، ١٩٦٤م.، ص١٣٤- ١٣٥؛ راجع أيضًا: فؤاد حسنين على: المجتمع الإسرائيلى، جـــ٢، ص٢٠- ٢١؛ كامل سعفان: اليهود تاريخ وعقيدة، ص٥٠.

(٢) عائشة راتب: الصهيونية العالمية وإسرائيل، القاهرة، ١٩٧١م.، ص٨١.

هامة، كما وفدوا أثناء القرن الخامس عشر الميلادى/ التاسع الهجرى على تركيا حيث تولوا أمور التجارة، فما لبثوا فى بضع سنين من وصولهم أن حاولوا السيطرة على التجارة الدولية مع الشرق، وأصبحت القسطنطينية مقرًا هامًا لهم[١].

وقد ظل الجيتو قائمًا كمؤسسة تقوم بدور حيوى من حيث هو بنيان اقتصادى اجتماعى إدارى يوفـر لأعضـاء الجماعـات اليهودية الاستقلال كجماعة وظيفية وسيطة لها مصالحها ومشاكلها الاقتصـادية، ولهـا هويـتها الدينية والأثنوجرافية المستقلة، وبالتالى غلبت على طبيعة الجماعات الـيهودية الأوروبية تنظيماتها الاجتماعية المبنية على الدين أكثر من كونها جماعات سياسية مستقلة حيث افتقدوا العمل فى إطار سياسى مع من حولهم، إذ لم يكن عليهم أن يواجهوا المشاكل المرتبطة بـإدارة الدولـة، كما لم يتحملوا المسئولية بشكلٍ كافٍ عن تدعيم القانون العام فيها، فضلاً عن انفصـالهم أصـلاً من الناحية الاجتماعية عن باقى المجتمع الكبير خاصة فى مجالات ينظمها الدين اليهودى مـثل الزواج والعلاقات التجارية[٢]، ومع أواخر العصور الوسطى انهار مركز اليهود الاقتصـادى بعـد تحكمهم السابق فى رؤوس الأموال الأوروبية، حيث تدنوا من تجار دوليين إلى مـرابين ثم إلى مـرابين صغار، وحينما كان المدين يعجز عن الدفع، تصبح السلعة المرهونة ملكًا للمـرابى الذى كان يسلمها للشخصية الأساسية الثانية فى الجيتو وهو التاجر المتجول[٣]. ويمكن إجمال العوامل التى أدت إلى تكوين جماعات اليهود فى أوروبا فى: تماسكهم الداخلى نتيجة الحرص على التضامن، وبغرض الحفاظ على التقاليد الثقافية الأساسية، وكانت نواة هذا التضامن واضحة فى الأسرة، وامتد ليشمل العناصر البارزة فى مجتمعهم بشكل أكثر قوة مما جعل من الجميع نسيجًا مـتكاملاً واحدًا. كذلك كان كل من يخرج عن التقاليد والنظم المألوفة عند الجماعة يعد خارجًا ومـرتدًا[٤]، وقد أدى ذلك كله فى النهاية إلى إبراز جماعات اليهود على أنها تكتلات منفصلة غير منسجمة مع المجتمع الأوروبى المحيط بها.

---

(١) حسين شريف: المفهوم السياسى والاجتماعى لليهود عبر التاريخ من العهد القديم إلى مفاوضات السلام الشرق أوسطية (١٩٠٠ق.م. – ١٩٩٥م.)، الجزء الأول، من العهد القديم إلى قيام دولة إسرائيل (١٩٠٠ق.م – ١٩٤٨م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م.، ص١٤٩ – ١٥٠.

(٢) Eisenstadt, S. N., Jewish civilization, p.80.

(٣) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٤، ص٢٩٠ – ٢٩٣.

(٤) Eisenstadt, S. N., Jewish Civilization , p.82.

هكذا أكد عوبديا فى خطاباته على ظاهرة الجيتو اليهودى الأوروبى فى مدن تقع داخل مجتمعات شرقى البحر المتوسط. أما بالنسبة للجيتو فى المجتمعات الإسلامية فالوضع لا يختلف كثيرًا فى نظره، إذ يشير هذا المستوطن اليهودى إلى وجود شوارع بعينها تخصهم، وهذه الشوارع التى ينفردون بسكناها هى التى ترمز إلى مجتمع الجيتو اليهودى كما هو الحال فى شارع اليهود بالقاهرة، كذلك سجل ((أنه يوجد فى الخليل حوالى عشرين أسرة يهودية يقيمون جميعًا فى فناء مقصور عليهم، ولا يندس فيما بينهم مسلم[١]))، ويتعرض خطاب الطالب اليهودى إلى وجود حى خاص لليهود فى القدس، وهم يمتلكون مفتاح البوابة المؤدية إليه[٢]، فخريطة توزيع اليهود فى كلٍ من مصر والشام لم تكن واضحة؛ حيث اكتفى عوبديا بالتعرض لهم فى المناطق التى صادفهم فيها وهو فى طريق رحلته داخل دولة المماليك؛ ومن ثم كانت الإسكندرية والقاهرة والقدس والخليل بمثابة المدن التى احتوت على مواطنين يهود بشكل واضح عنده[٣]. وإذا ما كان يهود المجتمع الإسلامى قد اعتادوا سكنى حارات تخصهم، ومثلنا فى ذلك شارعهم بالقاهرة، فشأنهم فى ذلك هو شأن حارة النصارى وحارة الروم ودرب البرابرة، تصنيفًا قائمًا على الدين أو العرق، وكذلك حارة النحاسين والمغربلين والعطارين والفحامين انطلاقاً من أن أصحاب الحرفة الواحدة فى مصر آنذاك كانوا يرتبطون ببعضهم البعض بعدة أواصر حتى وإن اختلفت دياناتهم؛ إذ كان أرباب الحرفة الواحدة يتمركزون جغرافيًا فى مكان واحد يعرف باسم الحرفة، وإن كانت الطبيعة التآزرية للأقليات قد حكمت اليهود بحيث كانوا يشكلون جماعات صغيرة داخل المدن التى سكنوها؛ فإنهم لم يكونوا نسيجًا اجتماعيًا خاصًا يختلف عن النسيج الاجتماعى العام، وإنما كانوا جزءًا عضويًا داخل هذا النسيج الكلى[٤].

وعلى ذلك يمكن القول بانه لم يكن هناك جيتو مهنى خاص باليهود فى المجتمع الإسلامى بمعنى أن المجتمع لم يعزلهم ويحدد نشاطهم وعملهم فى مهن أو حرف حقيرة باعتبارهم أقلية منبوذة كما

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.249.

(٢) A student's letter, p.89.

(٣) Obadiah, Op.Cit., passem;

بنيامين التطيلى: الرحلة، ص١٧٠ - ١٧١.

(٤) قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص٢٤، ٢٧، ١٠٠؛ وقد حرصت هذه الدراسة (ص٦٣ - ٦٥) على التدليل على عدم وجود ((جيتو حرفى)) لليهود فى مصر، وهذا يتبين من خلال انفتاحهم على المجتمع نتيجة تغلغلهم فى حرف مختلفة جنبًا إلى جنب مع المسلمين والمسيحين.

هو الحال فى باليرمو، والدراسات تفيد أن هناك نماذج وافية تدل على أن اليهود قد عملوا فى كافة المهـــن والحرف التى عرفها المجتمع المملوكى عكس أوروبا العصور الوسطى؛ حيث كانت التفرقة العرقية تفرض على اليهود ممارسة بعض المهن والحرف المهينة غير المنتجة، وتحصرهم فى نطاق ضيق طوال تلك العصور حتى عصر النهضة بل والعصور الحديثة(١). ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فكما رأينا احتل اليهود المناصب الرفيعة والوظائف الحساسة المهمة حتى أن زعماءهم حملوا لقب الشيخ تـــوقيرًا واحترامًا لهم. وهذا كله إن دل على شئ فإنما يدل على القدر الوافر من التسامح الذى أبدته السلطات المملوكية تجاه اليهود.

ب: الجهاز الإدارى عند اليهود فى المجتمعين الأوروبى والمملوكى

أمـــا فى داخل الجيتو اليهودى فإن خطابات عوبديا تقدم مادة متناثرة يمكن من خلالها الوقوف على أسس الجهاز الإدارى الذى ينظم مجتمعات اليهود التى مر بها؛ ففى باليرمو تحدث عن وجود ((قصـــر فخم وضخم، وهو مقر إقامة الرجال الذين يعملون بسلك القضاء وإدارة شئون المجتمع، ومن هؤلاء كان الملك يقوم بتغيير اثنى عشر رجلاً كل عام، ويمنحهم سلطة جباية الضرائب وتقييم الغـــرامات الواجب دفعها وإقرار عقوبات المحكوم عليهم بالسجن. وليس عندى ما يمكن قوله فى شـــأن هـــذا النظام، وهؤلاء الأشخاص النكرة الذين فى الغالب يوصفون بالسوء، فهم فى العادة يمكنهم طى الحاكم عن طريق الهدايا والهبات حتى يتمكنوا من الانخراط فى هذا النظام الحاكم، وما يلبـــثون أن يعوضـــوا ذلك بما يفرضونه من ضرائب على المعبد والطائفة اليهودية، وكذلك فإن الأهـــالى البؤساء مثقلون بالضرائب، أما تلك الطغمة المختارة من رجال النظام فهى مدعومة من الحـــاكم، ولذا فهى ذات سلطة مطلقة، ومن ثم فقد بلغت القلوب الحناجر من شدة البؤس(٢))). ومـــن الواضـــح أن هؤلاء الرجال هم أعضاء مجلس البرناسيم Parnasem الذى كان معروفًا فى المجتمع الأوروبى فترة العصور الوسطى داخل الجيتو اليهودى، وهم مجموعة من الموظفين بعضهم لا يتقاضـــى أجرًا، وبعضهم الآخر يعمل نظير أجر، وكان هذا المجلس يقوم بالفعل بالمهام التى أشار إلـــيها عـــوبديا(٣). وبالنظر إلى فئة يهود البلاد التى برزت فى المجالين الاقتصادى والإدارى خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين/ السابع والثامن الهجريين فى أوروبا على أنها أكبر معين

---

(١) قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص٨٨، ٩٧.

(٢) Obadiah, Op.Cit., pp.211- 212.

(٣) عبالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود واليهودية، جـ٤، ص٢٩٢.

للملــك فى حكمه بتمويله بسخاء وبغرض ابتياع الميثاق الذى يحمى حقوقها الدينية والاقتصادية، وأخــذ أفــرادها يقومون بدور رجال الملك[١]، فُيعتقد أن أعضاء مجلس البرناسيم فى باليرمو قد شكلوا نواة لهذا النظام لاشتراكهم فى كثير من الصفات مع فئة يهود البلاد.

تطرق عوبديا أيضًا إلى الأسلوب المتبع فى إدارة معبد جماعة اليهود فى ميسينا فذكر: ((أما فيما يتعلق بإدارة شئون هذا المعبد، فهناك عدد من الأشخاص يتم اختيارهم سنويًا للقيام بأعمال إدارية، وكانوا يضطلعون بالمهام ذاتها التى يقوم بها يهود باليرمو[٢])). وعليه فقد كان المعبد فى ميسينا هو المكان المقرر له أن يشهد اجتماع مجلس البرناسيم بدلاً من القصر كما هو الحال فى باليرمو، ويبدو أن تفــاوت حجم جماعة اليهود هو الذى يحدد طبيعة ظروف عمل كل مجلس؛ إذ أن جماعة يهود باليرمو ضعف عدد يهود ميسينا تقريبًا. ولذا بدأ أكثر نضجًا فى أدائه الإدارى.

من ناحية أخرى أشار عوبديا إلى وجود رئيس لليهود فى كل من باليرمو ورودس، حيث ذكر أن رئــيس يهود باليرمو دعاه إلى إلقاء الدروس الخاصة بيوم السبت، الأمر الذى لقى ترحابًا منه، أمــا رئــيس اليهود فى رودس فقد كان فى استقبال عوبديا واليهود الذين كانوا معه عند وصوله الجزيــرة، وقــام بــتوفير أسباب الراحة والاستضافة[٣]. وجدير بالذكر أن منصب رئيس اليهود الــبرناس أو البرنيس Parnas لم يقتصر على الإشراف على النواحى الدينية وتنظيم المعاملات بين الــيهود المحلــيين وأقــرانهم الغــرباء فحسب، إنما هو رئيس الجماعة الذى كان يترأسها فى كل المناسبات، كما كان يرأس اجتماعات الهيئة الإدارية (البرناسيم)، ومن مهامه مراقبة الموازين وتقرير المرتبات التى تدفع للموظفين التابعين للمجلس، وهو قائدهم على المستويين الدينى والدنيوى، لذا كان يختار أكثر الناس تفقهًا فى الدين لهذا المنصب، ولم يكن يتقاضى أجرًا عن عمله. ويليه منصب الجابى أو المحصل، وتعد وظيفته أهم الوظائف بسبب طبيعة الجماعة اليهودية فى العصور الوسطى فى أوربا كعنصر نافع مالى، حيث كان يحدد الضرائب ويقوم بجمعها لصالح السلطات الحاكمة[٤] ولعل

---

(١) عبدالوهاب المسيرى: الأقليات اليهودية، ص٣٣.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.214.

وعن أعداد أسر اليهود فى مجتمعى باليرمو وميسينا راجع: الجزء الخاص بالبعد الاجتماعى فى هذه الدراسة.

(٣) Obadiah, Op.Cit., pp.212, 216.

(٤) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٤، ص٦٦، ٢٩٢، ٢٩٧.

أبـــرز مهـــام الـــبرناس الاجتماعية توفير الخدمات الاجتماعية للفقراء والمحتاجين وإدارة ممتلكات الأوقاف[١].

أمـــا عـــن الجهاز الإدارى فى الدولة المملوكية المنظم للمجتمع اليهودى، فقد أتى على رأس المجتمع اليهودى ذلك الرجل الذى حمل لقب النجيد Nagid الذى تناوله عوبديا فى خطابه الأول بالقـــول: ((إن النجـــيد اليهودى الذى يتخذ لنفسه من القاهرة مستقرًا قد جُعل رئيسًا على كل اليهود الذين يخضعون تحت سيادة سلطان مصر ... وهذا النجيد كان يدعى الرابى ناثان هاكوهين Nathan Ha-Cohen (١٤٨٣ – ١٥٠٢م./ ٨٨٨ – ٩٠٨هـــــ.) وهـــو رجل غنى وحكيم وتقـــى وطاعن فى السن، وينحدر من البربر، وحينما قدمتُ إلى القاهرة، أبدى لى عظيم التقدير، وأحـــبنى كمـــا يحب الأب ابنه)) ثم أشار عوبديا إليه مرة أخرى حاملاً لقب ((أمير اليهود))[٢]، وبالفعـــل فحينما انتقل إلى القدس أخبر أخاه فى خطابه الثانى قائلاً: ((وإنى أسكن هنا بالقدس فى البيت الخاص بالنجيد، الذى قام بتعيينى حاكماً[٣])).

ومنصـــب النجيد على هذا النحو يستوجب أن نقف عليه لأهميته بالنسبة للمجتمع اليهودى، وقبل ذلك وبداية فما يلفت النظر دوره فى استقبال اليهود الغرباء واستضافتهم بكل كرم، وهذا ما أشاد به الرحالة ميشولام بن مناحم[٤] فضلاً عن عوبديا نفسه الذى قام بدوره باستقبال الطالب اليهودى وأخيه حينما وصلا القدس عام ١٤٩٥م./ ٩٠٠هـــ.[٥] الأمر الذى يبدو معه أن النجيد

---

(١) عرفة عبده على: ملف اليهود، ص٢٣٦.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.239.

ظل نجيد اليهود يحمل لقب أمير طيلة العصر الإسلامى، إلا أنه توقف استخدامه بعد الفتح العثمانى حيث استبدل بلقب الحاخام الأعظم التابع للحاخام باشا فى استانبول . انظر:

Ben- Sasson, H. H., A History of the Jewish people, p.377.

راجع أيضاً: عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـــ٤، ص٦٦؛ عبدالرحمن بشير: اليهود فى المغرب العربى، ٢٢- ٤٦٢هـــ./ ٦٤٢ – ١٠٧٠م.، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠١م.، ص١٢٩، ح٥.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.229.

(٤) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.172.

(٥) A student's letter, p.86.

ناثان اكتسب سمعة محمودة بين يهود العالم، وخاصةً أولئك الذين تعرضوا للطرد من أيبريا، فقرروا الهجرة إلى مصر وفلسطين حيث يتم استقبالهم استقبالاً طيبًا[١].

وتكمن أهمية وظيفة النجيد أيضًا فى إدارة مجتمع اليهود فى أنه يأتى على رأس جماعاتهم فى مجمل الدولـــة المملوكـــية، بل وفى كل الدويلات الإسلامية التى استقلت عن الخلافة العباسية بداية من القرن العاشر الميلادى/ الرابع الهجرى، حيث الأندلس وإفريقية واليمن فضلاً عن مصر؛ ذلك أن الدولـــة الإسلامية كانت تحرص على تعيين رؤساء لكل الجماعات غير الإسلامية لإدارة الشئون الداخلية للجماعة[٢] وفى ظل السيادة المملوكية يوضح لنا عوبديا أن النجيد تولى رئاسة اليهود فى جناحى الدولة، فمن الثابت أن سلطة نجيد اليهود فى القاهرة قد امتدت لتشمل يهود القدس أيضًا ذلك أن: ((وأمير اليهود الحالى كان قد أقام فى القدس فترة طويلة فيما مضى، بيد أنه كان يضطر إلى مغادرتها وتركها)) ليعود إلى القاهرة، أما عن اختصاصات النجيد يذكر عوبديا عنه: ((له كل السلطة التى للسلطان، وبإمكانه معاقبة وسجن أولئك اليهود الذين يقدمون على مخالفة مراسيمه، كما أن له أن يعين قضاة مجتمعاتهم[٣])). ويؤكد ميشولام بن مناحم على المعلومات والاختصاصات التى أتى بها عوبديا فى هذا الصدد[٤].

وفى ضوء المادة التى بالخطابات لنا أن نتخيل الهيكل الإدارى المنظم لجماعة اليهود تحت رئاسة وإشـــراف النجيد، وبدايةً فكما ذكر عوبديا كان النجيد يعد أكبر الموظفين على رأس هذا الهيكل نظـــرًا لحملـــه لقب أمير، إذ أن هذا يعنى أنه يرتدى الخلعة بأمر سلطانى. وكانت وظيفته تقتضى المحافظـــة على ترابط الجماعة والقيام بدور الوسيط بينهم وبين السلطات المملوكية، وتتطلب ذلك منه تشكيل فريق عمل من أجل تنظيم المجتمع اليهودى فى ظل سلطاتٍ واسعة تمتع بها. وعلى هذا الأساس له أن يعين عددًا من الموظفين عُرِفوا فى التاريخ اليهودى باسمِ ((الجاؤونيم)) Cohanim

---

(١) Fargeon, Mourice, les juifs en Egypte, p.135.

(٢) Ben – Sasson, H. H., A History of Jewish people, p.377.

وقد ناقشت إحدى الدراسات الآراء الخاصة ببداية ظهور منصب النجيد فى مصر، وما إذا كان أول ظهور له على يد الفاطميين، وقد مال صاحبها إلى أنه لو حدث ذلك لكان من المعتقد أن يسجله المؤرخون المسلمون كما خلص إلى أن الوثائق اليهودية أشارت إلى منصب النجيد فى القرن الحادى عشر الميلادى، ولم يستقر وجوده إلا فى القرن الثالث عشر الميلادى، راجع: قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص٦٠ – ٦٤.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.229.

(٤) عرفه عبده على: ملف اليهود، ص٢٣٩– ٢٤٠.

(ومفـــردها جاؤون) اكتفى عوبديا بمجرد الإشارة إليهم، وكان عليهم مساعدة النجيد فى أعبائه الوظيفية. وهو لقب يشير إلى الرفعة والعظمة والاحترام، ثم تطورت دلالة هذا الاسم بمرور الوقت ليشـــير إلى كل من نبغ فى أمور التوراة وصولاً إلى عهد عوبديا وبعده. ومن ثم فهم صفوة المجتمع الـــيهودى الممـــثلين لفئاته المختلفة. وفى العادة يكونون علماء وفقهاء، وانطلاقًا من هذه المكانة أعدوهم شيوخهم أو زعماءهم الدينيين، فغدا لهم سلطة الإشراف على السلوك الدينى والأخلاقى للـــيهود وشئون الزواج والطلاق وتعيين أو إقالة الخطباء والحزانين والجزارين الشرعيين ومراقبة أعمـــال المحاكم الشرعية وتحديد صلاحيات القضاة الشرعيين، وكانت قراراقم فى الأمور الدينية والإداريـــة نافـــذة[١]. ويلاحظ أن عوبديا حين الإشارة إلى إدارة الجماعة اليهودية فى القدس قد ذكرهم بالشيوخ كما ذكرهم ميشولام بن مناحم شيخ Sheik مستخدمًا اللفظ العربى الذى سمعه عـــنهم وقت زيارته للقدس[٢]. وكان النجيد يختار منهم وكلاء محليين يتولون الإشراف نيابة عنه علـــى كل ما يجرى داخل الطائفة اليهودية[٣]. ولم يقتصروا على كونهم من رجال الدين، إنما قد يكونون تجارًا أو من الأعيان أو أطباء أو أعضاء مجلس العائلات؛ إذ كان يتم ترشيح وكيل عن كل عائلة ليمثلها فى المجلس بعد موافقة السلطات المملوكية، وفى حالة وفاة أحد الشيوخ، يمكن توريث منصبه للابن[٤]. هذا وقد استندت سلطة هؤلاء الموظفين ((الجاؤون)) على عدد من الرجال لضبط الأمن وتنفيذ الأحكام والأعمال الإجرائية[٥].

ومـــن الناحـــية الدينية فعلى الرغم من كون النجيد ربانياً، إلا أنه كان يمارس الإشراف على النشاط الدينى لمختلف الطوائف اليهودية بتعيين اثنين من الوكلاء لمساعدته، أحدهما رئيسا للقرائين والآخـــر للسامريين، إلا أن رئيس السامريين كان يتلقى خطاب تعيينه من الحكومة مباشرة، ويأتى

---

(١) عبدالرازق أحمد قنديل: الأثر الإسلامى فى الفكر الدينى اليهودى، دار التراث بالقاهرة بالاشتراك مع مركز بحوث الشرق الأوسط، ١٩٨٤م. - ١٤٠٤هـــ.، ص١٤٤- ١٤٥؛ عرفه عبده على: ملف اليهود، ص ٢٢٧- ٢٢٨.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.229; Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.196.

(٣) عرفة عبده على: ملف اليهود، ص٢٣٩- ٢٤٠.

(٤) Ashtor, A History of The Jews, II, p.390.

انظر أيضًا: محاسن الوقاد: اليهود فى مصر المملوكية، ص٢٥٦- ٢٥٧.

(٥) Johnson, Poul, A History of the jews, p.183.

الإشـــراف على طائفة الربانين من خلاله هو شخصيًا بصفتها أكثر طوائف اليهود عددًا فى المجتمع الإسلامى[١].

ومن الناحية القضائية فمن اختصاصات النجيد الحكم بين أعضائها حسب الشريعة، والحكم فى الأحوال الشخصية وحق الطرد من حظيرة الدين، بل وتعيين القاضى الخاص بكل طائفة الذى كان ينـــتخب من بين أفراد الطائفة، ويصدق النجيد على الاختيار[٢]. وفى حالة رفض أحد اليهود دفع الضريبة الأسبوعية الاستثنائية أو الجزية، وما قد يفرض من ضرائب أخرى يتعرض للضرب بحكم قضـــائى من شخص غير يهودى إلى أن يمتثل للدفع، وذلك فى وجود النجيد[٣] ونائبه فى القضاء الذى يدعى ((ديان)). كذلك ومن الثابت أيضًا أن للنجيد الحق فى صياغة القوانين التى تحكم حياة طوائـــف اليهود فى الدولة، وهو الذى أعطى قوة للأنشطة القضائية بين طوائف المجتمع اليهودى. وقد ظلت سيطرة النجيد على القضاء اليهودى ثابتة حتى أواخر العصر المملوكى[٤].

وهـــناك اختصاصـــات تنفـــيذية، فقد تبين لعوبديا أن من أهم وظائف النجيد: حقه فى توقيع العقوبات مثل الجلد والسجن، وإشرافه على إقرار تعاليم الدين حسب الشريعة والفتاوى، وتحديد مســتويات أعضـــاء الجماعة وثرواهم لتقرير قيمة الضرائب، كما كان يقوم بالحفاظ على الأمن بشـــكل عـــام. وكانت الدولة المملوكية قد لجأت بالفعل إلى نجيد اليهود فى القرن الخامس عشر الميلادى/ التاسع الهجرى عدة مرات لإعانتها على جمع الأموال من اليهود[٥] وألزمته بسداد مبلغ محـــدد لهـــا، وكان عوبديا قد سجل شيئًا عن المرة الأخيرة التى جمع فيها السلطان الضرائب التى قُدرت بخمسة وسبعين ألف قطعة ذهبية من يهود القاهرة وحدهم فضلاً عن جمعه للجزية ولضريبة أسبوعية إضافية[٦]، وكان معاونوه من شيوخ اليهود يتولون الإشراف على صدقات الفقراء وإغاثة

---

(١) المقريزى: السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٢٨؛ القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١١، ص٢٩١- ٢٩٢؛ انظر أيضًا: عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٤، ص٦٦؛ قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص٦٥، ٦٧.

(٢) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.172.

(٣) Obadiah, Op.Cit., pp.229, 242.

(٤) محاسن الوقاد: اليهود فى مصر المملوكية، ص٢٧٣، ٢٧٦.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٣، ص٢٥٠.

(٦) Obadiah, Op.Cit., p.224.

المحتاجين وعابرى السبيل ودفع الجزية عن العاجزين، وتعليم الصبيان الفقراء واليتامى ودفن الموتى ودفـــع رواتب الموظفين وصيانة المعابد وفداء الأسرى، وذلك من خلال الإيراد الوحيد المتمثل فى التبرعات[١]. هذا وتكشف المصادر عن أن منصب النجيد أصبح وراثـــيًا فى مصر بين أولاد موسى بن ميمون، إذ شغلوه مدة تناهز القرنين من الزمان[٢].

أمـــا بالنســـبة للدور الذى لعبه عوبديا شخصيًا فى مجال الإدارة فلعله يتضح من أن المصادر المعاصرة ذكرت وجود رابى بالقدس يدعى يعقوب بن موسى R. Jacob ben Moses حمل لقب نجيد أيضًا، ورد اسمه ضمن قائمة طويلة من علماء اليهود وشيوخهم وأعيانهم المبرزين الذين كانوا يترأسون جماعتهم فى المدينة المقدسة، ويتولون زعامة الاجتماعات الدينية والاحتفالات التى تعقد فى المناســـبات الخاصة بهم[٣]. ولما كان النجيد بالقاهرة – وهو الرابى ناثان هاكوهين آنذاك – يعين له نائـــبًا بالقدس يعينه فى عمله، ويترأس الجماعة نيابةً عنه فيها[٤] يصبح واضحًا أن عوبديا هو الذى تولى هذا الدور بموجب أنه أصبح حاكمًا على جماعتهم مع فريق عمل من كبار الموظفين يتألف من خمسة رجال تولى هو رئاستهم[٥].

علـــى هـــذا النحو يلاحظ أوجه الشبه بين وظيفة كل من رئيس اليهود البرناس فى المجتمعات الـــيهودية الأوروبية ووظيفة النجيد فى المجتمعات اليهودية داخل المجتمع الإسلامى، وهذا ما تؤكد عليه دوائر المعارف المتخصصة التى تذهب إلى أن لقب النجيد كان يمنح إلى رئيس اليهود سواء فى البلاد الإسلامية أو فى البلاد المسيحية فترة العصور الوسطى[٦]. ولكن نلحظ أن عوبديا قد قصر اســـتخدام لفظة نجيد على الإشارة إلى رئيس اليهود فى دولة المماليك فى القاهرة والقدس رغم ما يفهـــم ممـــا أورده من أن هناك تشابهًا للدور الوظيفى للمنصب الواحد، وعليه نخلص إلى أن نجيد القاهرة أو القدس قد تمتع بحرية أكبر حيث أطلق له السلطان المملوكى العنان، فى حين ظل قرينه

---

(١) محاسن الوقاد: اليهود فى مصر المملوكية، ص٢٥٧.

(٢) المقريزى: السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٢٨؛ انظر أيضًا: قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص٦٥، ٦٧

(٣) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.196.

(٤) Ashtor, History of Jews, II, p.244.

(٥) Gotheil, Richard Deutsch gothard, and others, Jerusalem, p.12.

(٦) Ilana, Shamir, Shlomo Shavit, (eds.) Encyclopedia of Jewish History, Events & Eras of the Jewish people, p.271.

الأوروبى مُكـــبلاً بالقيود الصارمة التى يضعها الحاكم، إذ كانت قد اتخذت شكل السُخرة. وهذا يشهد لصاحب الخطابات على أنه كان محقًا فى التمييز بين اللقبين الأمر الذى يجعلنا نؤكد أن لقب البرناس)) كان قاصرًا على رئيس اليهود فى مجتمعاتهم الأوروبية فحسب.

كـــان عوبديا على ما يبدو غير قانع بالأداء الإدارى المملوكى فى القدس على مستوى طائفته الدينـــية، حيث يؤكد على أن الفرصة متاحة أمام اليهودى الذكى الملم بالعلوم السياسية أن يتبوأ منصـــبًا قياديًا ((إذ لا يوجد من بين كل الأهالى رجل حكيم له حس خاص، ولديه الحنكة للتعامل مـــع رجاله التابعين له بدماثة، فجميع أولئك جهلاء سيئو الظن فى من حولهم، وكل ما يهمهم هو الكســـب المـــادى فقط[١]))، ولعل هذا التقييم من شأنه أن يبرز أمرين أساسين أولهما أن الحرية كانـــت مكفولة لجماعة اليهود كى يبرز من بينهم قيادى ماهر شريطة أن يحمل حسًا سياسيًا، وأن يكـــون ذكـــيًا ولديه القدرة على مسايسة من حوله فى ظل فهمٍ واعٍ، وثانيهما فهو يعنى نفسه فى النهاية إذ أصبح هو تلك الشخصية التى يتحدث عنها.

جـــ: الضرائب

وفى مجال دفع اليهود للضرائب، فقد تضمنت الخطابات ذكر شئٍ عنها فى مجتمعات اليهود فى الجانب الأوروبى، حيث كانت أولى مهام البرناس، فى حين بين لنا عوبديا أن جمعها يعد أبرز مهام موظفـــى الدولة المملوكية من اليهود الذين تولوا جمعها من جماعتهم، وذلك تحت إشراف النجيد. بـــيد أن أولى الضـــرائب التى تعرض لها هذا المستوطن تلك التى شهدها بمجرد دخوله الأراضى المملوكـــية عبر ثغر الإسكندرية بصفته ذميًا غريبًا. وبصفة عامة فقد اهتم بإخبار ذويه بأن: ((كان سلطان مصر [الأشرف قايتباى] يتلقى قيمة الضرائب العائدة من الصادرات والواردات التى يتم دفعها مع دخول أى سلع إلى الإسكندرية، علماً بأن الضريبة هناك مرتفعة للغاية حتى تلك الأموال الســـائلة التى تجلب يجب أن يدفع اثنان فى المائة من قيمتها. أما بالنسبة لى فبعون الله لم أضطر إلى دفع رسم دخول من مالى الخاص، كما لم يخضع مهربو البضائع إلى أية عقوبات خاصة من قبل جباة الضرائب المصريين[٢])). وهكذا توجد إشارتان لنوعين من الدفع بالميناء؛ مكس يفرض على السلع الواردة، وضريبة دخول الغرباء. وعليه يفترض أن يتم تفسير إعفاء عوبديا من دفع الضريبة المقررة عـــند بوابة الإسكندرية وفقًا للقواعد المعروفة عند السلطات المملوكية التى تقضى بإعفاء رجال

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.235.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.223.

الدين من دفع الضرائب بما فيهم حاخامات اليهود[1]. وهو أمر لم يبينه عوبديا إلا أن عباراته يمكن تفسيرها بشكل أكثر قربًا من الواقع من خلال الوقوف على تجربــة اليهودى ميشولام بن مناحم الــتى وقعــت فى عصــر السلطان ذاته عند بوابة الإسكندرية أيضًا إذ ذكر: ((كان على الأغيار [المسيحيين] دفع ثلاث عشرة دوكية[2] عن كل فرد منهم عند دخولهم إلى الإسكندرية، ولم يكن فى وسعهم الخروج منها إلا عندما يدفعون هذا المبلغ. أما اليهود فليس عليهم أن يدفعوا أى شئ، بــيد أنــه علــيهم فقط الحصول على إذن من الأمير قبل خروجهم من المدينة)) كذلك أوضح ميشولام: ((لم يدفع اليهود شيئاً من الضرائب على السلع إلا أن المسيحيين كان عليهم دفع عشرة فى المائة من قيمتها، وكان من المستحيل تجنب دفع الضريبة)). ويضيف فى موضع آخر: ((لم يكن علــىّ أن أدفــع أية أموال عن الأحجار الكريمة التى اشتريتها فى مصر، والتى يدفع عنها الأناس الآخــرون عشرة فى المائة من ثمنها[3])). وشهد الطالب اليهودى أنه ((لعدة مرات سب المسلمون المســيحيين، لكنهم لم يقولوا كلمة على اليهود فى ميناء بيروت))[4]. وبذلك يتضح أن السلطات المملوكــية كانــت تعفى اليهود من دفع ضريبة الدخول إلى المدينة دون مسيحيى أوروبا، وهو ما أكــده عــوبديا، غير أنه ظن أنه أعفى منها بشكل شخصى، كما يتضح أن اليهود كانوا ينعمون بتســهيلات خاصة باستثناء سلعهم من دفع المكوس المفروضة عليها، وهو الأمر الذى لم يستوعبه عوبديا، وظن أن جباة الضرائب دأبوا على إعفاء مهربى البضائع من العقوبة علمًا بأن هؤلاء كانوا يهــودًا رافقوه فى السفر مصداقًا لما أخبرنا به ميشولام بأن هذا كان بمثابة قاعدة أفاد منها اليهود فقط دون غيرهم، ومن ثم فنقلهم للسلع دون ضريبة لا يمكن اعتباره نوعًا من أنواع التهريب.

هكــذا تأكد أن ظاهرة ارتفاع الضرائب والجمارك بالنسبة للأجانب لم تكن مؤثرة سلبًا على اليهود برغم الأزمات الاقتصادية التى تعرضت لها السلطنة المملوكية فى أواخر القرن الخامس عشر المــيلادى، تلك الأزمات التى دفعتها إلى اتخاذ بعض الإجراءات التى قد تتصف بالحدة أو المبالغة بغــرض تشديد قبضتها على سلع التجارة الخارجية، وذلك النقص الواضح فى عائدات مصر من

---

(1) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٥، ص٢٢٤.

(2) يفهم من خطاب الطالب اليهودى أن الدوكية البندقية هى التى كانت تــسيِّد باقى العملات فى التعامل فى شرقى المتوسط أواخر العصور الوسطى، ويذكر أنها تعدل ثلاثة عشر ونصف ماركو Marco . انظر:
A students letter, p.78.

(3) Meshullam of Voltera, Op.Cit., pp.158, 163, 167.

(4) A student's letter, p.78.

الـتجارة الخارجـية بـين أوروبا والشرق الأقصى، والتى كانت تدر أرباحًا وافرة للدولة سواء بإسـهامها مباشـرة فى هذه التجارة، أم بتقاضى المكوس عنها أثناء مرورها[١]. ومن ناحية أخرى احتكـرت السلطات المملوكية عددًا من المواد أهمها البهار، كما أنها زادت من قيمة الأسعار على السـلع مما أغـاظ أوروبا، ولم تجد لها متنفسًا إلا باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح من قبل الـبرتغاليين[٢]. وبمـراجعة إحدى الدراسات المتخصصة فى العملات الإسلامية يتبين مدى تراجع الاقتصاد فى تلك الآونة؛ إذ أثبتت أن الدينار الذهبى المضروب باسم السلطان الأشرف قايتباى وفى عصره يبلغ ١,٤سم فى حين كانت الدنانير المضروبة فى عهد سابقيه من السلاطين قد بلغت اثنين من السنتيمترات مما يؤكد على تراجع قيمته[٣]. ويبدو أن الإجراءات كانت جديرة بأن تلفت نظر عوبديا، فحرص على تدوينها وإعلام ذويه بها للإفادة من المعلومات.

أمـا علـى مستوى الضرائب على المسافرين والنقل الداخلى يذكر عوبديا: ((وفى جميع هذه المناطق [أى مصر وفلسطين] سواء فى الوهاد أم النجاد تجد جباة الضرائب الذين يقدمون أنفسهم علـى أنهم مشرفو أمن الطريق، وهم يدعون Napher نفر باللغة العربية. هؤلاء الرجال يأخذون الضـرائب مـن اليهود كما يحلو لهم فى حصانة تامة. ومن القاهرة إلى هنا [حيث القدس] توجد عشرون بوابة مكوس؛ وبالأصالة عن نفسى فقد دفعتُ لهم جميعًا حوالى دوكية واحدة. وكان على الـيهود القادمين من القاهرة أن يدفعوا مبلغًا وقدره عشرة دنانير فضية عند بوابة القدس، فى حين كان على اليهود القادمين من قبل يافا أن يدفعوا دوكية واحدة[٤])). وهنا تبرز بعض الملاحظات: أولهـا أن المـبلغ الذى كان الحاج اليهودى القادم رأسًا من أوروبا عبر يافا الواجب دفعه دوكية واحـدة، وهو مبلغ زهيد إذ ما قورن بثـلاث عشرة دوكية كان على الزائر المسيحى الأوروبى دفعهـا. والأمر الثانى أن عوبديا عومل وكأنه قادم من أوروبا رأسًا عبر ثغر يافا وقد دفع دوكية

---

(١) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص٢٦٤؛ اليهود فى مصر، ص١٥٢؛ زبيدة عطا: يهود العالم العربى، ص١٠٤.

(٢) عبدالكريم رافق: العرب والعثمانيون، ص٩.

(٣) عبدالمجيد محمد الخريجى، نايف بن عبدالله الشرعان: الدينار عبر العصور الإسلامية، دار العلم، الرياض، ١٤٢٢هـ.، ص٢٠٣ – ٢١٩.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.242.

وباستخدام المقارنات فى المادة التى وردت فى خطاب الطالب اليهودى يتبين أن الدوكية الواحدة تعادل حوالى خمساً وعشرين قطعة فضية.

واحدة، وفى ذلك تيسير واضح وكرم كان قد لقيه من قبل حين أُعفى من دفع الضريبة عند بوابة الإسكندرية، فى حين كان عليه دفع عشرة دنانير فضية لأنه قادم من القاهرة. وثالثها أنه حينما تدخل نجيد القاهرة وكتب إلى نائبه فى القدس فى صالح ميشولام بن مناحم وقت زيارته المدينة لم يدفع الضريبة التى اعتاد اليهود دفعها(١). وبذلك يتضح أن نائب النجيد المقيم فى القدس كان له حق التدخل من أجل إقرار ضريبة ما أو تعديلها أو إعفاء أحد اليهود منها. كما يتضح أن المتحصل من الضرائب كان يتم عنده جمعًا للمبالغ بغرض تسديدها مجتمعة إلى الإدارة المملوكية فى المدينة بعد تسديدها بشكل تضامنى من خلال هيكل جماعتهم الإدارى.

وبعد الحديث عن الضرائب ذات الصلة بالتجارة الخارجية والداخلية المفروضة على الغرباء، والتى يغلب عليها صفة التعميم، تحدث عوبديا أيضًا عن الضرائب التى تخص جماعة اليهود داخل المجتمع المملوكى فى القدس، بل ويعتقد أنه شمل جماعتهم أيضًا فى مجمل المجتمع الإسلامى فيقول: ((أما اليهود فى القدس فعليهم أن يدفعوا كل عام اثنتين وثلاثين قطعة فضية(٢) ضريبة رأس مثل الفقير فى ذلك مثل الغنى؛ فكل منهم عليه دفع هذه الضريبة بمجرد أن يشب عن الطوق ويبلغ عمر الرجولة(٣))) وأقر الطالب اليهودى بذلك مقدرًا الضريبة ذاتها فى بيروت باثنين وثلاثين مارينى Mareeny بما يعادل دوكية بندقية واحدة وربع، ولكنه ارتفع بها إلى دوكية واحدة ونصف بين يهود القدس(٤)، وهذه كانت بمثابة الجزية التى كانت تفرض على أهل الذمة من اليهود والنصارى داخل المجتمع الإسلامى سواء فى القدس أم غيرها من بلاد، وبالفعل كانت تفرض على اليهود فى شكل ضريبة تعرف باسم ضريبة الرؤوس أو ضريبة الجوالى، وكانت تفرض على كل شخص بالغ عاقل(٥). وبصفة عامة فإن الجزية كانت تفرض على الرجال القادرين من أهل الذمة، ولا تؤخذ من النساء والأطفال والمسنين وغير القادرين جسمانياً(١).

---

(١) Meshulam of Voltera, Op.Cit., pp.169 – 173.

(٢) مع بدايات العصور الوسطى كانت الخمسة وعشرون دينارًا فضيًا تعدل دينارًا رومانيًا ذهبيًا واحدًا. انظر: زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٥٣٣.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.242.

(٤) A student's letter, pp.78, 90.

(٥) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ص٤٢، ٤٨؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٣، ص٣٥٦، ٩٥٧؛ والجوالى: جمع جالية ويطلق على أهل الذمة، وهذا يرجع إلى أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أجلاهم=

وتفـــيد إحدى الوثائق العبرية، وتعود إلى القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى بأن موظفـــى الخليفة العباسى كانوا يقومون بجمع ضريبة الرأس عن مجمل اليهود فى الدولة الإسلامية وفقًـــا لوضعهم المالى؛ فكان على اليهودى من الطبقة الثرية دفع أربعة دنانير ذهبية ونصف، ومن الطبقة الوسطى ثلاثة، ومن الطبقة الفقيرة عليه دفع دينار ذهبى ونصف كل عام[٢]، وكانت أعلى قـــيمة لهـــذه الضريبة فى القرن الخامس عشر الميلادى/ التاسع الهجرى، قد بلغت خمسة وعشرين درهمًا، ووصلت أدنى قيمة لها إلى عشرة دراهم[٣]، والمعروف أن الجزية تعد شرطًا أساسيًا فى عقد الذمة. كما تعد من أهم الموارد المالية للدولة، ويعرف القائم على جمعها ((مباشر الجوالى))، ويتضح من حديث اليهوديين عوبديا وتلميذه أن السلطات المملوكية لم تكن تراعى التدرج فى دفع الجزية عـــند جماعـــة اليهود وفقًا لمستوياتهم المعيشية فى عصر السلطان قايتباى كما كان متبعًا فى الدولة الإسلامية سابقًا.

أمـــا طـــريقة جباية ضريبة الجزية من جماعة اليهود، ففى الواقع لم يتعرض عوبديا لها تفصيليًا، واكتفى بإبداء ملاحظته نحو التعسف فى جمعها من قبل شيوخ اليهود وشدة العقوبة التى يتعرض لها المتخلف عن دفعها موضحًا شأنه شأن الطالب اليهودى أنها واجبة على كل يهودى داخل الدولة دفعها بمجرد بلوغه سن البلوغ، وأضاف الطالب أيضًا ((أما إذا اشتكى أحدهم بأنه غير قادر على

=عن جزيرة العرب، وقد ارتبط هذا الاسم بكل من لزمته الجزية من أهل الذمة، وإن لم يُجلوا عن أوطانهم. راجع: المصدر نفسه: جـــ٣، ص٤٦٢.

(١) A student's letter, p.84.

راجع أيضاً: قاسم عبده قاسم: أهل الذمة، ص٢٧ – ٣١.

(٢) Scheiber, Alexander, Geniza studies, p.55, Folio 2:5.

وقد ورد فى الوثيقة أيضًا أنه فى حالة وفاة أحد اليهود دون أن يدفع المقرر عليه دفعه من مبالغ كان على ذويه جمع هذا المال له وتسديده للإفراج عن جثة الميت لدفنها، وإذا لم يتم ذلك كانت السلطات تقوم بإحراقها. وإذا ما صحت الوثيقة فيما ذكرته، فالباحث لا يجد ما يشين السلطات حين الإقدام على إحراق جثث اليهود المتخلفين عن دفع الجزية، إذ تشير تقاليدهم القديمة على اعتيادهم أنفسهم حرق جثث موتاهم تأسيًا بحرق جثث الملك ((شاؤول)) وأولاده. انظر: زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٥١٨.

(٣) القلشندى: صبح الأعشى، جـــ٣، ص٤٦٢ – ٤٦٣.

ويوضح المقريزى أنه فى عام ٨١٧هـــ. – ١٤١٤م. وضعت قيمة الجزية مختلفة بتباين أحوال الأفراد؛ أربعة دنانير على الغنى، وديناران على المتوسط، ودينار واحد على الفقير. انظر: المقريزى: السلوك، جـــ٤، ص١٤٧، ٢٨٩.

مجــرد العــيش، يضرب على قدميه إلى أن يدفع أو يموت[1])) وشارك الطالب اليهودى المصادر الإســلامية فى ذكــر جانب من التفاصيل الخاصة بجمع الجزية من أهل الذمة، إذ كان المباشر يعد الكشــوف بأسماء اليهود الربانين والقرائين، ثم يثنى بالسامريين ويثلث بالنصارى فى ترتيب أبجدى لتســهيل مهمــة ذلك الموظف، فإذا أخذت الجزية من أحدهم كتب بها إيصالاً، وشطب اسمه من ســجلات هذا العام. فإذا عاد أحد النازحين من اليهود إلى بلده، ولم تكن الضريبة قد أخذت منه كان عليه أن يدفعها، وإذا كان قد سددها فى أى مكان خارج بلدته، وأحضر الإيصال الدال على ذلك، نقل المبلغ إلى حساب بلده الأصلى، وقد طبقت هذه القواعد بالفعل على الطالب اليهودى الــذى كــان قد سدد قيمة الجزية فى صفد، وحصل على إيصال قدمه إلى الموظفين المختصين فى القدس حالما طالبوه بإظهاره[2].

وهناك نوع ثالث من الضرائب تحدث عنه عوبديا إذ يقول: ((كان على كل يهودى أن يشارك فى دفع مبلغ إجمالى خمسين دوكية سنويًا إلى نائب [السلطنة] بالقدس، وذلك بغرض الحصول على تصريح لصنع الخمر التى تعد شرابًا بغيضًا عند كل العرب. وهذه كانت حصيلة الضرائب الواجب دفعهــا من قبل اليهود سنويًا، ويتضح من خطاب الطالب اليهودى أن قيمة المبالغ كانت هى ذاتها فى السنوات اللاحقة إذ ظلت عند خمس من الدوكيات[3])). وتؤكد رحلة ميشولام بن مناحم على أن الــيهود فى المجــتمع الإسلامى كانوا يتولون صناعة الخمور، وأن الضريبة التى كانت تفرضها الدولــة تقــدر بأربعــة وعشرين فى المائة من ثمنها، مما أدى إلى دخولها ضمن السلع ذات السعر المرتفع[4]. والثابت أن الضريبة التى كانت تجمع من اليهود كانت تصنف وفقًا لإمكانيات كل فئة مشابهةً للجزية فى العصور السابقة، إذ كانت تدفع على ثلاثة مستويات؛ فكان على الأثرياء منهم دفــع عشرين قطعة فضية عن كل قنطار Kantro [5] نبيذ، أما أصحاب الدخول المتوسطة فعليهم

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.223, 242; A student's letter, p.90.

(٢) المقريزى: الخطط، جــ١، ص١٠٢ – ١٠٣؛ انظر أيضاً:
A student's letter, p.84.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.242; A student's letter, p.87.

(٤) Meshullam of Voltera, Op.Cit., p.160.

(٥) القنطار فى العادة يعدل فى بلاد الدولة الإسلامية مائة رطل، ومع أخريات العصور الوسطى تفاوت قدره من مكان إلى آخر، وفى دمشق عادل القنطار مائتين وثمانية وعشرين كيلو جرامًا فى المتوسط مع ملاحظة أن الحديث أعلاه عن الخمر الذى يقدر باللتر. انظر: فالترهنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية، ص٤٠، ٤٢.

دفـــع ســـــت عشـــرة قطعة، أما الفقراء فيجب عليهم دفع اثنى عشرة قطعة فضية حتى لو كانوا يستحقون الإحسان، وعليه قام الطالب اليهودى بدفع ضريبة تقدر بثلاثين قطعة فضية عن مكيالين ونصف مكيال من الخمر[١] على اعتبار أنه من الفقراء.

وبـــرغم تقـــبل مـــا ذكر عن إقدام السلطة الإسلامية على فرض ضرائب على صناعة الخمر بـــتحفظ[٢] حـــتى لو كان الذين ينشطون فيها من اليهود، إلا أن هناك ما يدل على تساهل تلك السلطات معهم فى هذا الشأن إذ يشير ابن الأخوة أنه كان على المحتسب – من حيث المبدأ – أنه إذ رأى مســـلمًا يظهـــر الخمر أن يريقها و يؤدبه،أما إذا كان الفاعل من اليهود أو من النصارى اكتفى المحتسب بتأديبه على إظهارها[٣]. أما الضريبة المرتفعة التى كان يفرضها السلطان المملوكى على اليهود لتصنيعهم الخمر، فقد يكون من قبيل الفتوى التى تخلص إلى أن للسلطان أن يأخذ منهم هذه الأموال التى قبضوها من أموال المسلمين بغير حق، ولا يردها إلى من اشترى منهم الخمر[٤]. ومن مظاهر رفض المجتمع الإسلامى للخمور أهم دأبوا على الاستيلاء عليها من اليهود وسكبها إذا ما نزلت بهم نازلة[٥] وأيًا كان الأمر، ففى ذلك ما يدل على أن النظام الحاكم القائم على الإسلام فى أواخـــر عصـــر المماليك كان قد أخذ فى الاهتزاز بل والانهيار الاجتماعى، ومع ذلك تتضمن عبارات عوبديا ما يفيد بأن عموم الشعب كانوا ما يزالون يبغضون الخمر ولا يقربونه.

---

(١) A student's letter, Op.Cit., p.87.

(٢) يذكر أن الخمور كانت متوفرة فى الدولة المملوكية، ولم يكن هناك صعوبة فى الحصول على نبيذ فاخر فى أى وقت، فضلاً عن أن كثير من أهل البلاد كانوا يتظاهرون بشربه. انظر: سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص ٢٣١.

(٣) ابن الأخوة (ت ٧٢٩هـــ/ ١٣٢٩م.) محمد بن محمد بن أحمد القرشي: معالم القربة فى أحكام الحسبة، تحقيق: محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى، القاهرة، ١٩٧٦م.، ص٣٢. راجع أيضًا: قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص١١٥. وثمة ما يشين السلطة المملوكية إقدامها فى عام ١٤١٣م. – ٨١٦هـــ. على إلزام الأسر المعروفة ببيع الخمر وبقية النصارى وطوائف اليهود الثلاثة بحمل ثلاثمائة قنينة خمر للسلطان أثناء نزهته ((وجبيت بعسف وعنف وضرب)). انظر: المقريزى: السلوك، جـــ٤، ص٢٧٢.

(٤) ابن تيمية، (ت ٧٢٨هـــ/ ١٣٢٨م.) تقى الدين أبوالعباس أحمد بن عبدالحكيم الحرانى: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ٣٧ مجلد، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد الحنبلى، النور الإسلامية، ١٩٩٠م.، جـــ٢٤، ص٢٦٤، ٢٨٢.

(٥) A student's letter, p.91.

وفضلاً عن هذه الضرائب الأساسية استاء عوبديا من وجود ضرائب أخرى إضافية واستثنائية، ففضلاً عن الخمسة وسبعين ألف دينار التى جمعها قايتباى من طوائف يهود القاهرة مساهمةً فى المجهود الحربى يشير كذلك إلى ما فرض منها فى القدس قائلاً: ((إلا أن شيوخ اليهود ذهبوا إلى حد أبعد من ذلك فى ظلمهم، فتحت زعم وجود عجز فى ميزانيتهم يفرضون ضرائب جديدة فى كل أسبوع مجبرين كل يهودى على دفع ما يرونه)). وفى الخطاب الثانى، وبعد مرور ما يناهز العامين على إقامته بالقدس، أبلغ عوبديا أخاه بالآتى: ((وحتى حينه لا يمكننى القول بأن أحدًا من اليهود بالقدس فعل شيئًا يثير غضبى، وحتى الشيوخ لم يقدموا على فعل شئ يضايقنى؛ إذ أنهم لم يثقلوا كاهلى بأية ضريبة بعد، وهو الأمر الذى كانوا قد اعتادوا فعله بصفة عامة كل أسبوع حتى أنهم أبدوا رغبتهم فى ألا يجعلونى أدفع ضريبة الرأس عن العام الأول، وهى الضريبة التى ليس لأحد أن يُعفى منها. ولذا فإن بقائى هنا هو بمثابة المعجزة، والله هو الذى يعلم ما ستفعله المقادير معى مستقبلاً[١])). وهناك ما يثبت أن هذا النوع من الضرائب الاستثنائية غير قانونية، ومن ثم ليس هناك ما يجبر اليهودى على دفعها إلا أن الطالب اليهودى يذكر: ((كنا نجبر أحياناً على دفع مبالغ باهظة نتمكن بصعوبة من تحملها، وهذا يحدث عندما يتولى حاكم جديد))، وضرب مثلاً على ذلك بأن الحاكم المحلى كان يفرض على السلع كالزيت والسكر والعسل والصابون التى هى فى الأصل رخيصة الثمن ضريبة تصل إلى مثل ثمنها، إلا أن شاهد العيان المذكور يؤكد على أن السلطات المملوكية تتعامل مع كل من اليهود والمسلمين والنصارى على حدٍ سواء فى هذا الشأن[٢].

وعلى غير العادة اتجه بعض السلاطين المماليك إلى مخالفة القواعد الخاصة بجمع الضرائب من اليهود باعتبارهم من أهل الذمة حيث كانوا يتعرضون أحيانًا لابتزازات مالية وذلك كحالة استثنائية[٣]. ومن قبل ذلك يذكر أبو اليمن العليمى إنه قبل قدوم عوبديا إلى القدس بما يربو عن عشر سنوات ((وصل إلى القدس الشريف الأمير جانم الخاصكى[٤]قريب السلطان وناظر الجوالى ... وجُمع له من جهة الأوقاف بالقدس الشريف تسعمائة دينار وقيل ألف دينار ومن أهل الذمة

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.224, 242, 247, 248.

(٢) A student's letter, p.90.

(٣) محاسن الوقاد: اليهود فى مصر المملوكية، ص٩٤- ٩٥.

(٤) المماليك الخاصكية: هم المماليك السلطانية الذين كانوا مقربين من السلطان، وكانت لهم الإقطاعات والرواتب، وكان يتخذ منهم الأمراء، وكان عددهم كبيرًا فى عهد الأشرف قايتباى، وأغلبهم من الشراكسة الجلبان، انظر: القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص١٥- ١٦؛ حياة ناصر حجى: المرجع السابق، ص١٣٠.

ثلاثمائة دينار، فلم يقبل شيئًا من جمعة الأوقاف ... وأخذ ما جُمع له من أهل الذمة[١])) ويستشف من هذه العبارة المصدرية أن مبلغ ثلاثمائة دينار المذكور ما هو إلا حصيلة ما كان يجمع من اليهود والنصارى بالقدس خلال فترة محددة على أن يتم تحصيل أقساطه بشكل أسبوعى.

وكان آخر ما أمدتنا به خطابات عوبديا عن موضوع الضرائب المفروضة على يهود القدس ذلك المرسوم الجديد الذى أصدره السلطان الأشرف قايتباى مؤخرًا حيث ذكر المستوطن فى خطابه الثانى: ((لقد استصدر السلطان مرسومًا سارى الصلاحية بأنه على اليهود المقيمين فى القدس من الآن وصاعدًا دفع ضريبة الرأس المفروضة عليهم فقط. حيث إنه كان على السكان اليهود مجتمعين فيما مضى أن يدفعوا أربعمائة دوكية سنويًا بغض النظر عن أعدادهم. أما حاليًا فإن كل فرد عليه بأن يدفع ضريبة الرأس المقررة عن نفسه. وهو غير مكلف بأن يدفع عن الآخرين، وإن مرسومًا كهذا لم يصدر مرسوم مماثل له فى القدس منذ خمسين عاماً[٢]. والثابت أن هذا المرسوم المشار إليه قد أبطل الزيادات التى تقدر بالضعف على قيمة الجزية التى يدفعها أهل الذمة، وكانت قد فرضت عليهم فى عام ١٤١٤م./ ٨١٧هـ. بسبب الاضطرابات التى تعرضت لها الدولة المملوكية إبان اعتلاء السلطان المؤيد شيخ العرش (١٤١٢- ١٤٢١م./ ٨١٥ - ٨٢٤هـ.)[٣]. وقد أغفل عوبديا الإشارة إلى أن المرسوم كان قد أعفى النساء والعجزة والقصر من دفع الجزية[٤]، ويرجع أحد الباحثين فضل إصدار مرسوم السلطان قايتباى المتسامح إلى عوبديا ذاته بعد الوضعية الكبيرة التى حازها بين جماعته وعند السلطات المملوكية حينما نجحت مساعيه فى إبطال الضريبة السنوية الجماعية من أربعمائة دوكية إلى ضريبة مناسبة[٥] تدفع مباشرة للحكومة وبدون تدخل من الموظفين الحكوميين اليهود الذين كثيرًا ما مارسوا الظلم على بنى جماعتهم.

هذه الرؤية اليهودية الموجعة لواقعهم الضرائبى ينبغى إخضاعها للواقع العام الذى كانت عليه دولة الجراكسة لتبيان أثرها الحقيقى، إذ تخلص الدراسات الحديثة إلى أن سلاطينهم فرضوا مزيدًا من الضرائب مع زيادة معدلات القائم منها على اعتبار أنها من الحقوق السلطانية، وأخذت

---

(١) أبواليمن العليمى: الأنس الجليل، جـ٢، ص٣١٨.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.248.

(٣) المقريزى: السلوك، جـ٤ ، ق١ ، ص٢٩٠.

(٤) A student's letter, p.90.

(٥) Genzberg, Louise, Bertinoro, Obadiah (yareh) Ben. Abraham, p.109.

الأســـواق تعانى من الضرائب المشاهرة منها والجامعة أى الشهرية والأسبوعية، وكانت النتيجة أن تعطلت حركة البيع والشراء، وكانت مثل هذه الضرائب تدفع بالباعة إلى رفع الأسعار عدة مرات فى بعـــض الأحـــيان دون خوف من العقاب لأنهم يجدون العذر فى ذلك، ومن ثم تنكمش حركة الـــتجارة[١]. وكـــان عصر الأشرف قايتباى قد ازدحم بالظروف السياسية فضلاً عن الكوارث الطبيعـــية الـــتى تضافرت لتحدث أزمات اقتصادية بل واجتماعية حادة، وقد حدد بعض الباحثين مصاريف السلطان على حملاته الخارجية والدفاعية فى الفترة من (١٤٦٧ - ١٤٨٩م./ ٨٧١ - ٨٩٤هـــ.) بسبعة ملايين ومائة وخمسة وستين ألف دينار[٢]، الأمر الذى جعل جميع فئات المجتمع يعانون، وهو ما أثبته جانب من الشهود اليهود أنفسـهم.

د- تقييم عام لمجتمعات اليهود وإدارتها فى شرقى المتوسط

ومن كل ما سبق من عرضٍ ودراسة للمجتمعات اليهودية الأوروبية منها والمملوكية فى شرق المتوســـط، يتـــبين من خلال المقارنة أن جماعات اليهود فى الغرب كانت تتسم بالاختلاف وعدم الـــتجانس بســـبب انقسام أوروبا فى العصر الوسيط إلى وحدات إقطاعية متعددة وربما متنافرة، وبســـبب ما هو كامن فى التراث المسيحى الكاثوليكي من عداء لليهود، فى حين كان يهود العالم الإســـلامى يتسمون بقسط كبير من التجانس والوحدة استمدوهما من وحدة الحضارة الإسلامية خاصـــة فى عصرها الأول[٣]. وعليه فإن عدم انتشار ظاهرة الجيتو على النمط الأوروبى فى المجتمع الإســـلامى راجـــع للبنية التاريخية الدينية والاقتصادية لهذا المجتمع ولموقف الإسلام المتسامح من الأقلـــيات، ومـــن ثم كان التركيب الطبقى للمجتمع المملوكى يعكس التباين بين عنصر الأتراك الغالب على الطبقة الحاكمة وفئات الشعب الأخرى أكثر من التباين بين طوائفه الدينية من مسلمين أو مسيحيين أو يهود[٤].

وفى هـــذا الإطار ينبهنا أحد الباحثين اليهود إلى أن عوبديا خرج أصلاً من بين يهود إيطاليا فى وقت نهضتها، ومن ثم فقد كان اليهود هناك أكثر تطورًا من يهود الشرق اجتماعيًا، ومع ذلك فقد

---

(١) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص٢٣١، ٢٤٦، ٢٤٧.

(٢) محمد مصطفى زيادة: نهاية المماليك فى مصر، مجلة الجمعية التاريخية، القاهرة، جـــ٤، ١٩٥١م.، ص ٢٠٧.

(٣) Eisenstadt, S. N., Jewish civilisation, pp.65, 68.

(٤) Faregon, Mourice, Les Juifs en Egypte, p.135.

كان يتم استبعادهم عن السلطة الحاكمة والدستورية فى المجتمع الغربى – كما بينا فى مجتمع اليهود فى صقلية وتحديدًا فى باليرمو – وذلك بالاعتداء عليهم والتعامل معهم على أنهم أغراب، بل كانوا يضطهدون بزعم ارتكابهم جرائم ضد المسيحيين والمسيحية، الأمر الذى ترتب عليه سجنهم أو نفيهم من أراضيهم حيث عاش أجدادهم منذ مئات السنين. أما فى الشرق فقد تم تهميش اليهود فى القرون الإسلامية الأولى، ومع ذلك لم يتعرضوا البتة إلى الاعتداءات الجسدية، ولم يتم طردهم كما كان يحدث فى المجتمعات المسيحية فى أوروبا، ولكن شهادات عوبديا تبرهن على أن أحوالهم غدت أحسن حالاً خلال العصر المملوكى[1]. وبدايةً فالباحث يميل إلى الأخذ بكثير مما ورد فى دراسة هذا الباحث اليهودى، ويضيف تفسيره لعدم إقدام المسلمين على طرد اليهود كما فعل مسيحيو أوروبا بأن الحضارة الإسلامية احتفظت بخاصية تعدد الأجناس تحت لواء الإسلام وقدرتها على استيعاب عديد من الجماعات، وعلى هذا الأساس لم تكن هناك حاجة إلى طرد اليهود أو النصارى فى حين بزغت فى أوروبا عدة قوميات ينتفى معها بقاء أقليات من اليهود المكروهين بينهم، ومن هنا كانت عملية طردهم. فى حين يختلف الباحث بعد وقوفه على خطابات عوبديا مع الباحث اليهودى فى هذا الصدد، فإذا ما شهدت خطاباته بحسن معاملة المماليك لليهود، فما كان ذلك إلا امتدادًا لسلوك المسلمين القويم منذ فتوحاتهم الكبرى، بل وبصورة أقل تسامحًا قياسًا بالقرون الإسلامية الأولى.

---

(١) Cohen, Mark, R., Under crescent and cross: "The Jews in the Middle Ages", pp.169, 192 – 194.

ويعقد هذا الباحث اليهودى مقارنةً تعد نموذجًا للكيفية التى كان يتم معاملة اليهود بها فى المجتمعين الإسلامي والمسيحى فى العصور الوسطى؛ فخلال فترة ما يعرف بالموت الأسود فى أوروبا ما بين ١٣٤٨ – ١٣٥٠م./ ٨٥٢ – ٨٥٤هـ. وهى فترة ملؤها الأمراض والأوبئة تم اتهام اليهود بتسميم الآبار محاولةً منهم لتدمير الحضارة المسيحية. وفى المقابل فحينما أصابت الدولة المملوكية الأوبئة والأمراض فترة ما يعرف بالجفاف الكبير لم يَلُم أحد اليهود، ولم يتهموا بالتسبب فى تلك الظاهرة.

المبحث الخامس

عادات اليهود وتقاليدهم فى شرقى المتوسط

وفى الصفحات الآتية ننتقل إلى دراسة ما أورده صاحب الخطابات فيها عن عادات اليهود وتقاليدهم، وذلك استجابةً لطلب والده بتقديم وصف لها فى الأماكن التى زارها، وكذلك أشكال الطقوس والشعائر المميزة لكل جماعة استنادًا إلى العقيدة المذهبية التى ينتمون إليها أو البيئة التى يعيشون فيها. ولعل أهم ما يميز الديانة التاريخية المنسوبة إلى موسى (عليه السلام) وفقًا لما ذكره أحد الباحثين هو أنها فى الصورة أشكال وطقوس، وفى الإطار تنظيم طائفي يربط جماعة بنى إسرائيل بمجموعة من الشعائر والتعاليم الخاصة. وكان من أشكال الصور؛ تابوت العهد، وخيمة الرب، ومذبح المحرقة وأبنيته، والثياب المقدسة ... إلخ، ومن أشكال الشعائر؛ القواعد المتبعة فى عبادة الرب أو الاجتماع به التى فى مجموعها تمثل جوهر الديانة الموسوية[1]. ومن هذا وذاك تشكل الفكر اليهودى مما صبغ حياتهم اليومية بما يميزهم عن غيرهم فى إطار الدين بحيث أصبح هو المتغلب على معظم جوانب الحياة، ومن ثم خضعت له عادات اليهود وتقاليدهم، وسوف يتضح ذلك فى الصفحات التالية، خاصةً وأن عوبديا ذاته حاخامٌ نوازعه دينية.

أ- حياة اليهود اليومية فى البلاد الأوروبية.

استحوذت جماعة يهود باليرمو على قدرٍ مهم من مادة الخطابات الخاصة برصد عادات اليهود وتقاليدهم من خلال حياتهم اليومية، وفى هذا الصدد يلاحظ أن عوبديا رصد بعض الاختلافات فيما بين بعض مجتمعات اليهود رؤية مقارنة مع مجتمعه الأشكينازى الغربى، كما سجل أحيانًا التباينات فيما بينها داخل المجتمع الإسلامى ذاته مقارنةً بين جماعاتهم فى مصر وفلسطين، ومن الشكل الأول من المقارنات، وفى أثناء حديثه عن جماعاتهم فى القاهرة ذكر: ((لقد كان كل شئ يباع فى شارع اليهود هناك؛ وهذا هو الحال أيضًا فى باليرمو، ولكن لم يكن الأمر فيها مثلما هو بالقاهرة ، ففى المدينة الأخيرة فإن اليهود يطبخون داخل منازلهم يوم السبت فقط، نظرًا لأن كلاً من الرجال والنساء على حد سواء مشغولون الأسبوع كله، ومن ثم يشترون كل شئ من السوق[2])). ويُفهم من ذلك أن يهود باليرمو لم يقتصروا فى طبخ طعامهم على يوم السبت، إنما

---

(1) جورجى كنعان: تاريخ يهوة، ص١٥١ - ١٥٦.

(2) Obadiah, Op.Cit., p.228.

كان لهم ذلك فى أيامٍ أخر، وقد تكون عادة الطهى عند اليهود فى بيوقم غير مستحبة بصفة عامة، وهناك من الشواهد الدالة على أفم كانوا يفضلون شراء طعامهم مطهيًا(١).

ومــن عادات اليهود وتقاليدهم أيضًا فى باليرمو المقترنة بالعقيدة أو بالمعبد أضاف عوبديا ((إن يهــود باليرمــو اعتادوا وضع لفائف الشريعة داخل تابوت الشريعة على أرفف خشبية، ولم تكن موضــوعة فى صناديق كما نضعها نحن(٢)))، وتجسد وثائق الجنيزة هذا الاختلاف نفسه الذى كان مــاثلاً منذ ثلاثة قرون خلت أو يزيد حيث بدا فيها الاختلاف بين وضع اللفائف فى معبد القدس عن مثيله الغربى(٣)، ثم أضاف عوبديا مقارنًا أيضًا ((يوجد فى قلب المعبد منصة خشبية يقف عليها المــرتلون لــتلاوة صلواقم. وبالفعل يوجد فى هذا المجتمع خمسة مرتلين يؤدون هذا العمل فى أيام الســبت، وفى الاحتفالات، ويقدمون أناشيدهم بعذوبة لم يسبق لى سماعها من أى مجموعة مرتلين آخــرين، وعلى مر أيام الأسبوع فإن أعداد المصلين ضئيلة جدا(٤))). وبذلك تتجسد الاختلافات بــين مجتمعــى باليرمو ومجتمعه اليهودى فى فلورنسا فيما يختص بكل من عادة وضع اللفائف على أرفــق خشبية بدلاً من الصندوق، وكذلك كان أمر ارتفاع المنصبة داخل المعبد بسلم من عدمها. وبرغم أن هذه الاختلافات تبدو مصطبغة بالدين إلا أن لها انعكاساقما الواضحة على تشكيل النمط الاجتماعى للمجتمع اليهودى الباليرمى، وتُظهر مقوماته المميزة على أفم من طائفة السفارد لتوافق عــاداقم وطبيعة معبدهم مع هذه الطائفة مقارنة بطائفة الأشكيناز التى ينتمى إليها عوبديا، ويبقى يــوم الســبت والاحتفالات العنصر الموحد الثابت الذى يلم شمل عامة اليهود. بيد أن قلة أعداد المصلين اليهود الذين يترددون على معبد باليرمو اعتبرها عوبديا ظاهرة تميز مجتمعهم أيضًا، ولكنه لم يصرح بتفسيرٍ لها.

---

(١) A student's letter, p.89.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.211.

تعطى الشريعة اليهودية الإنشاد الموسيقى صبغة دينية مقدسة، وتجعله فرضاً من فروض العبادة داخل المعبد وخارجه، وكان أغلب المنشدين ومن يصاحبونهم من الموسيقيين من اللاويين، وكان كثيرٌ من أدوات الموسيقى يُستخدم فى الإنشاد، وهى: عدة من الآلات الوترية، وآلات النفخ وآلات الضرب، وهم يقرنون العزف والإنشاد بالرقص أحيانًا. انظر: القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١٣، ص٤٧٤؛ زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٢٠٩-٢١٠.

(٣) Goitein. S. D., A Mediterranean society, vol. IV, p.118.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.211.

وعـــن الطقوس الجنائزية فى مجتمع باليرمو السفاردى سجل عوبديا ملاحظته ((أنه حينما يموت يهـــودى ما، يؤتى بجثمانه إلى داخل رواق المعبد، ويقوم الكهنة بإقامة مراسيم الجنازة، ويرددون بصـــوت مرتفع كلمات يرثون بها أقارب الميت أمام الحضور(١))). وبصفة عامة استندت التقاليد الجنائـــزية على أسس دينية، إذ دأب أهل الميت على إغماض عينيه وغسل جثته ودهنها بالأطياب ولفهـــا بأكفان من كتان وربط الرأس بمنديل، ثم يتوجهون بجثته إلى المعبد قبل الذهاب به إلى القبر ليدفن بعد ساعات قليلة من موته، ويحيط به أقاربه وأصحابه ومعهم النادبات اللاتى يستأجرونهن ليندبنه(٢).

ثم يضـــيف عـــوبديا ((أما إذا كان الميت رجلاً مرموق الجانب حبذا لو كان دارسًا للفقه يتم إدخـــال تابـــوته إلى قلب المعبد، كما يتم نزع لفائف الشريعة من على الأرفف ووضعها فى زاوية حجـــرة تابوت العهد، وحينئذٍ يوضع تابوت الميت فى الركن المقابل لتبدأ المراسيم الجنائزية ورثاء المـــيت، ثم يكررون الطقس ذاته فى الأركان الأربعة لحجرة تابوت العهد. وعلى التو يحمل تابوت المتوفى إلى المكان الذى سيدفن فيه خارج المدينة. وعند بلوغ الجمع بوابة المدينة يشرع القارئ فى ترديد المزمور التاسع والأربعين وبعض المزامير الأخرى، وذلك لحين الوصول إلى البقعة التى يدفن فـــيها المـــيت(٣))). هذا، وقد اعتاد اليهود صنع تابوت موتاهم من خشب عادى بسيط ليس به أدوات معدنـــية حادة، وكذلك وضع كيس يحتوى على تراب جيئ به من الأرض المقدسة ليوضع تحت رأس الميت على اعتبار أن هذا التراب به قوة روحانية تساعد على ابتعاثهم مع مشياح اليهود فى الحياة الثانية(٤). ومما يجدر ذكره هنا أيضًا أن المدافن اليهودية تقع عادةً خارج حدود المدينة نظرًا

---

(١) Ibid, p.212.

(٢) زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٥١٧ – ٥١٨.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.212.

وسفر المزامير بالعبرية ((تهيليم)) وسمى بهذا الاسم لأنه يحوى مجموعة من الأغانى تنشد بمصاحبة المزامير. وتقسم المزامير إلى خمس مجموعات (١)، (٤٢)، (٧٨)، (٩٠)، (١٠٧) ويتناول هذا السفر موضوعات كثيرة؛ كالترانيم والأدعية والتسابيح،والتعبير عن الإيمان بالله، وأغانٍ تعبر عن الحزن والفرح، وكان بعضها يغنى بشكل جماعى، ولا يعرف على وجه الدقة متى أصبح إنشاد المزامير جزءًا من الصلوات فى المعبد اليهودى، ولمعرفة المزيد: راجع

Ben – Sasson H. H., A History of the Jewish people, p.446.

راجع أيضاً: عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٥، ص٩٦.

(٤) لوتسك هارلى: عادات وتقاليد اليهود، ص٢٩.

للاعتقاد فى أن جثث الموتى هى إحدى مصادر النجاسة[١] وتُحمل جثة الميت على نعش مكشوف إلى القبر[٢].

ثم يكمـــل عوبديا ملاحظاته عن الطقوس الجنائزية عند السفارد، ولكن فى مجتمع أوروبى آخر حـــيث رودس؛ إذ كانـــت إقامة جماعة اليهود من طائفة السفارد فى رودس تفسر عادة اجتماعية عقائدية أوردها عوبديا حيث لاحظ أنه ((حينما يتوفى أحدهم فلا يعد له تابوت، إنما يدفن داخل كفـــنه، ويتم ذلك بطباعة قالب آدمى فى تربة لم تزرع من قبل حتى تكون أكثر استجابة لإحداث هذا الشكل الآدمي، وعندئذ توضع الجثة داخل هذا التجويف، وتغطى بلوح خشبى ثم يهال عليه تراب الأرض[٣])). وكان اليهود يدفنون الميت فى قبر خاص به وحده أو فى مقبرة العائلة أو مقبرة عامـــة، ويحفرون القبر فى بستان أو حقل أو مغارة فى جبل أو ينحتونه فى الصخور، وعلى ما يبدو فضـــل يهـــود رودس نحـــته فى الصخر[٤]. وكانت عادة دفن الموتى بدون تابوت قد انتشرت فى مجـــتمعاتهم الشرقية كما هو الحال بين يهود مصر[٥]. كما كان اليهودى يدفن فى الطاليت (شال الصـــلاة) الـــذى كان يستخدمه فى حياته،أما فى حالة قتله فيؤخذ بملابسه الملطخة بالدماء بدون غُسل، ويلف بالطاليت حتى لا يفقد أية أجزاء من أعضاء جسمه. كذلك اعتاد السفارد على إلقاء عمـــلات فى الجهات الأربع كهدية أو رشوة للأرواح الشريرة[٦]. وبذلك يمكننا القول إن عادات الدفن السفاردية متشابهةٌ مع عادات الدفن البسيطة عند المسلمين، وهذا أمر طبيعى نظرًا لـــنزوح هؤلاء السفارد أصلاً من مجتمع الأندلس الإسلامى.

واستنادًا إلى ما ورد فى الخطابات عن عادات اليهود السفارد وتقاليدهم وطقوسهم الدينية فى كـــل مـــن جزيرتى صقلية ورودس، نجد اختلافًا خاصةً فيما يتعلق بوضع التابوت ومنصة المرتلين داخل المعبد ورفع الصوت أثناء الصلاة، وكذلك أسلوب دفن الموتى تُظهر الفروق فيما بينهم وبين الأشـــكيناز ممـــا جعلـــها موضع استغراب عند عوبديا، نظرًا لأنه لم يألفها أثناء نشأته فى المجتمع

---

(١) غازى السعدى: الأعياد والمناسبات، ص٤٧.

(٢) زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٥١٨.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.218.

(٤) زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٥١٨.

(٥) محاسن الوقاد: اليهود فى مصر المملوكية، ص٣٤٤.

(٦) غازى السعدى: الأعياد والمناسبات، ص٤٧ – ٤٨، ٦٤.

الفلورنســي الإيطــالي الأشــكينازى. وهذه الشواهد تؤكد أيضًا على تأثر السفارد فى عبادتهم وتلاوتهــم وترتيلهم وإنشادهم بالذوق العربى فى الأذكار والأناشيد والموسيقى، وهذا كله أكسب السفارد دلالة دينية إلى جانب الدلالة العرقية فى أصولهم. وقد اتسع نطاق دلالة المصطلح، وأصبح يشمل كل اليهود الذين يتبعون التقاليد السفاردية فى العبادة سواء كان أصلهم من أسبانيا أم لا. وعلــى الــرغم من انتشار السفارد فى جزر شرقى المتوسط مما يستوجب وحدة المظاهر الحضارية خاصــة الاجتماعية منها. ورغم أن ذلك هو ما نلحظه فى الواقع، إلا أن عوبديا كان يرصد جانبًا من الظاهرة فى مكان قد يكمله بجانب آخر فى مكان مختلف يقطنه السفارد. ومثل هذا قضية دفن الموتــى التى أشار إليها مرةً فى مجتمع باليرمو، وأخرى فى مجتمع رودس دون أن تكتمل الصورة فى أيٍ منهما.

وفى باليرمــو أيضًا يذكر عوبديا : ((لاحظتُ العادات التالية؛ ففى يوم عيد الغفران Day of Atonement [١] وهــو اليوم السابع بعد عيد المظال عند اليهود، يقوم الخادمان بالمعبد بفتح بابى حجرة تابوت العهد عقب الانتهاء من الصلوات، ويمكثان الليل بطوله هناك، وإلى هذا المكان تأتى مجموعات من النساء فى شكل أسر، وتقمن بتقبيل لفائف الشريعة، وتنحنين أمامها توقيرًا وتمجيدًا، وهــن يــدخلن من باب معين بينما يخرجن من الباب الآخر. وعلى مدار الليل تتقاطر مجموعات النســوة علــى المعبد بين داخلات إليه وخارجاتٍ منه[٢]))، وفى الواقع لم يمدنا صاحب الخطابات بالمزيد الذى يجعلنا نتفهم لماذا قصرت هذه العادة علَى النسوة دون الرجال.

وكمــا تحدث عوبديا عن المراسم الجنائزية كما شاهدها فى باليرمو نجده فى المقابل يتحدث عن أسلوب اليهود فى الاحتفال بليلة الزفاف فى ميسينا إذ يروى عنها قائلاً: ((وقد تصادف إقامة حفل عرس بالقرب من محل إقامتى، وبعد ترديد المباركات السبع شاهدت المراسم التى أعقبت ذلك؛ إذ امتطت العروس صهوة فرس خلال البلدة، وكانت جماعة اليهود قد سبقتها سيراً على الأقدام إلى

---

(١) هو ترجمة للمسمي العبرى ((يوم كيبور)) وهو يوم صوم، ويعد أهم الأيام المقدسة عند اليهود على الإطلاق، حيث جعلوه عيداً، ويقع فى العاشر من تشرين آخر أيام الغفران العشرة التى تبدأ بعيد رأس السنة، وتنتهى بيوم الغفران، ويعرف أيضًا بيوم ((سبت الأسبات)) ويحتفل به بمناسبة نزول موسى عليه السلام فيه من سيناء للمرة الثانية ومعه لوحا الشريعة حيث أعلن أن الرب غفر لهم خطيئتهم فى عبادتهم للعجل الذهبى. راجع:

Ben- Sasson, H. H., A History of the Jewish People, p.53.

انظر أيضاً: عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـــ٥، ص٢٦٥.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.212.

هـــناك. أمـــا العريس فقد خرج وسط جماعة من شيوخ اليهود مستبقين العروس بحيث تظل هى الوحيدة بين الجميع التى تمتطى جوادًا. وكان الشباب والأطفال يحمل كل منهم مشاعل، وما لبثوا أن بدأوا فى التهليل حتى اجتمع الناس خاصةً اليهود من شتى النواحى فى شكل حلقة[١])). وتفيد الأحكـــام الشرعية عند اليهود أن إجراءات الزواج تتطلب وجود وكيلين عن العريسين، وتنتهى بصلاة البركة التى يشترط لها حضور جمع من الرجال لا يقل عن عشرة، لأن المباركة والعلانية كانا أمرين لازمين لإتمام الزواج، وتبدأ صلاة البركة بمباركة الموثق للزوجين، ثم يبدأ بالسبع بركات[٢]. وكانـــت التقاليد المبنية على النصوص التوارتية تستوجب الاحتفال فى اليوم السابق للزواج،وفى الـــيوم الموعـــود كان العريس يذهب مع أصدقائه وأقاربه ووالده فى موكب إلى منـــزل العروس لإحضارها فى غمرة الفرح حيث تميزت أفراحهم بالصخب الشديد والرقص والغناء والضرب على الدفوف والطبول[٣]. ولما كانت الاحتفالات بالزواج تقوم على فرائض شرعية، فوصف عوبديا لها لا ينبغى له أن يكون مختلفًا عما هو شائع، بيد أن نقطة الاختلاف تتمثل فى أن كل من العروسين أتـــى فى موكب خاص ليلتقيا فى مكان الاحتفال، فكان ذلك دافعه إلى تسجيل ما رآه فى الخطاب بصفته تقليد مختلف عما ألفه، والمعتقد أن هذا مرتبط بالمجتمع السفاردى المحيط كتقليد ولا صلة له بالدين.

ب- حياة اليهود اليومية فى المجتمع الإسلامى.

أمـــا فيما يخص العادات والتقاليد بين يهود المجتمع الإسلامى يروى عوبديا ((أن السفينة التى أقلـــته إلى مصـــر كانت تضم أسرة سفاردية خرجت معه من ميسينا تتألف من رب هذه الأسرة وزوجـــته وابنيه وبنتيه. وبعد أن أدخلهم الرابى موسى جراسو من بوابة الإسكندرية قام باستقبال عـــوبديا فى منـــزله، وأعد له فى يوم السبت حفل عشاء دعا إليه الرجل السفاردى الذى كان فى صـــحبته، وكان ابناه متواجدين فى حجرة الطعام حينما دخل إليها[٤])). وبدايةً تبرز هذه الرواية القيمة المقدسة ليوم السبت الذى يحتفل به من غروب شمس الجمعة إلى غروب يوم السبت[٥] عند

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.214.

(٢) Goitein, S. D., A Mediterranean society, vol. III, pp.48 – 70.

(٣) سفر التكوين: ١٩: ٢٧؛ سفر القضاة: ١٤: ٢؛ راجع أيضًا: زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٥١٥.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.221.

(٥) حسن ظاظا: الفكر الدينى، ص١٩٩.

هـــذه الطائفـــة واختياره كما هو واضح ليكون يوم اللقاء واحتفال فيما بينهم حيث ضمهم على مائـــدة واحـــدة سواء أكانوا أشكيناز أم سفارد، كما نلمس الروح الشرقية عند مضيفهم موسى جراســـو حـــين حرص على إعداد المائدة لهم فضلاً عن روح التضامن التى تشمل مجتمعاتهم على اختلاف أعراقها وانتماءاتها الدينية.

أمـــا عن العادات اليهودية ذات الصلة بمائدة الطعام فيستأنف عوبديا حديثه قائلاً: ((وسوف أروى لك يا أبى فيما هو آت ترتيبات اليهود لإعداد وجبة العشاء يوم السبت كتقليد لهم فى جميع البلاد العربية. فهم يجلسون فى حلقة فوق سجادة، ويقف حامل الكأس بجوارهم قريبًا من المفرش الموضوع على السجادة الذى افترشته شتى أنواع فواكه هذا الفصل [الشتاء]، وما يلبث المضيـف أن يحضر كأسًا من الخمر مقرًا بفضل الله على نعمه ذاكرًا افتتاحية اليهود قاديش Kaddish [١]، ويقـــوم حامل الكأس بتمريره على كل الحضور حتى يفرغ تمامًا، ويعود حامل الكأس مرة أخرى ليأخذ الكأس ثانية من المضيف، ويكرر الأمر نفسه مع جميع الحضور مرة بعد أخرى. وحينئذ يأخذ المضيف تمرتين أو ثلاث آكلاً بعضًا منها، وشاربًا كأسًا ثانيًا، بينما الجميع يقول: ((صحة وحياة)). ويقوم الجالس بجواره بأخذ بعض من الفاكهة أيضًا وكأسًا ثانيًا ملأه له حامل الكأس قائلاً له: ((من أجل سعادتك)) ويشاركه الجميع بمقولة: ((صحة وحياة)) ويستمر ذلك تباعًا. ويشرع المضيف فى أكل نوع آخر من الفاكهة، ويملأ له كأس آخر، ويكرر الجمع هذا الأمر حتى يفرغ كل منهم ستة أو سبعة كؤوس على الأقل. وأحيانًا يشربون أثناء استنشاقهم لعبير زهور الياسمين التى جلبت من أجل هذه المناسبة[٢])).

وفى الواقـــع، نجد حرصًا من قبل عوبديا على إبراز عنصر تداول الخمر وتناوله بشكل متكرر خـــلال الوجبة الواحدة، وقد نـــخلص من الدراسات المتخصصة فى عادات اليهود وتقاليدهم إلى تفسير هذا الأمر تفسيرًا دينيًا؛ إذ تذكر أن رب الأسرة فى المعابد الأرثوذكسية يقوم برفع كوب أو

---

(١) قاديش كلمة آرامية تعنى (مقدس)، وهى كلمة يذكرها اليهود فى مواضع مختلفة؛ إما على طعام، وإما فى الصلاة وغيرهما، وفى هذا الموضع فهى تشير إلى تقليد متبع حيث يتم ترديد القاديش قبل تناول طعام العشاء فى يوم السبت، أو يترنم بها الحاخام أثناء الطقوس التى تؤدى فى مساء يوم الجمعة. انظر:

Ben – Sasson, H. H., A History of the Jewish people, pp.277 - 278.

هذا وقد وردت الكلمة برسم ((قدوش)) فى دراسات أخرى متخصصة فى تاريخ اليهود. انظر على سبيل المثال: عرفة عبده على: ملف اليهود، ص٢٣٦.

(٢) Obadiah, Op.Cit, p.221.

كأس به خمر أثناء الطعام كنوع من المباركة مرددًا نوعين من العبارات الكريمة: فهو يدعو الله باسم الخمـــر والخبز[١]، كما يشكر الله بفضل يوم السبت بصفته يوم راحة اليهود ومتعتهم، وقد يكرر ذلك أربع مرات، كما هو الحال حين الاحتفال بالأعياد. ولكن أسباب شرب الأكواب الأربعة من النبـــيذ تبقى محلاً للاجتهاد فى التفسير، فالبعض يذهب إلى أن الأكواب الأربعة ترمز إلى المراحل الأربـــع الـــتى وعـــد الحق تعالى اليهود بها لتحريرهم: ((سأخرجكم، وسأرسلكم، وسأخلصكم، وســـأجعلكم شـــعبى المختار)). والبعض يقول إن الأكواب الأربعة ترمز إلى الصفات الأربع التى تمسك بها اليهود حتى خلصهم الحق تعالى من العبودية وهى: ((عدم تغيير الأسماء العبرية، والمحافظة على اللغة العبرية، والتمسك بالأخلاق الحميدة، والابتعاد عن الغيبة والنميمة))، والبعض يقول إن الأكواب الأربعة تذكر اليهود بقهرهم ونفيهم على أيدى أربعة شعوب وهم: الكلدانيون والمديون والإغـــريق، والرومان[٢]. وبذلك يتأكد أن الدين شكل العنصر الأساسى فى توجيه ثقافة الشعب الـــيهودى لاسيما المقيمين منهم بين ظهرانى المسلمين مما يثبت أنهم كانوا التزامًا بالعقيدة وبالتقاليد المستندة إليها.

ويستأنف عوبديا حديثه عن حفل العشاء قائلاً: ((والخمر عندهم [يهود الإسكندرية] عادةً لا تكون قوية ... بعد أن يكتفى الجميع من الشراب، يؤتى بطبق كبير من اللحم، فيمد كل منهم يده ليأخذ ما يرغبه، ويأكله فى فمه بالرغم من أنهم ليسوا أكولين، وقد أتى الرابى موسى إلينا بالحلوى والزنجبيل الطازج والبلح والزبيب واللوز وكذلك الكريز الحلو، ويُشرب كأس من الخمر مع كل نـــوع،ثم يتـــبعه خمـــر الـــزبيب الذى كان من النوع الممتاز. وفوق ذاك كأس من خمر الملمسى Malmcsey المصنوع فى كانديا، ومرة أخرى كأس من خمر يصنع محليًا، وقد شاركتهم الشراب حتى بلغ بى الابتهاج أشده[٣])). وهذا الوصف للمائدة اليهودية لا يختلف كثيرًا عن مائدة المسلمين خاصـــة فيما يتعلق بالجلوس على الأرض وتبادل الكلمات الطيبة على الطعام وترأس رب البيت المائـــدة ومـــا إلى ذلـــك، وجدير بالذكر ومما يؤسف له أن عادة شرب الخمر انتشرت بين أمراء

---

(١) Ben. Sasson, H. H., A History of the Jewish people, p.277.

(٢) لوتسك هارلى: عادات وتقاليد اليهود، ص٦٣.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.221

وللوقوف على صنوف الأطعمة التى فى العادة يضعها اليهود على موائدهم داخل المجتمعات الإسلامية، راجع ما ورد عنها فى وثائق الجنيزة.

Gotiein, S. D., A Mediterranean society, vol.IV, pp.232 – 256.

المماليك، وأسرفوا فى تقديمها فى أفراحهم وولائمهم محاكين فى ذلك بعض سلاطينهم، واعتادوا أن يتهادوا بها فى أفراحهم بل تجاهر بعضهم بشربها أمام الناس[١]. وقد عرفت مصر فى ذلك العصر أنواعًا عديدة من الخمور منها القمز وهو لبن الخيل المخمر، والنبيذ التمر بغاوى الذى كان يصنع عن طريق مزج عشرة أرطال من الزبيب إلى أربعين رطلا من الماء، ثم يوضع المزيج فى جرار تدفن فى زبل الخيل أيامًا حتى يتخمر، والمزرو؛ وهو شراب يُصنع من القمح[٢]، إضافة إلى القند وهو عسل السكر إذا تجمد واسمه فارسي معرب أى كند[٣]، فلعله هو خمر المملسى الذى أشار إليه عوبديا على أنه يصنع فى كانديا، وعلى كلٍ كان ميشولام بن مناحم قد لاحظ تشبه اليهود بالمسلمين فى أسلوب الطعام حيث اعتادوا تناوله بأصابعهم مشتركين فى طبقٍ واحد، كما أنهم لا يستخدمون فوط المائدة، ومع ذلك فملابسهم نظيفة[٤].

تناول عوبديا مرة أخرى المائدة اليهودية كتقليد اجتماعى يخصهم، وهذه المرة كانت فى فلسطين حيث روى بعض الجوانب عن أسلوب استضافة أحد المستوطنين اليهود له فيقول: ((أمضينا فى غزة مدة أربعة أيام حيث كان يقيم فيها أحد اليهود البارزين هاجر من ألمانيا يدعى الرابى موسى أف براغ Rabbi Moses Ben Baragh ... الذى أصر على أن يصطحبنى معه إلى بيته، وبالفعل اضطررتُ إلى قضاء هذه الفترة معه، ولما حل بنا يوم السبت قام بدعوة جميع شيوخ اليهود لتناول وجبة العشاء معنا حيث قدم لنا تشكيلة من الكعكات المطهية من الكروم والفواكه، وتناولنا قبل ذلك صنوفًا من الشراب، الأمر الذى أدخل علينا سرورًا عظيمًا[٥])). وكان ميشولام بن مناحم قد استقبل من قبل شيوخ اليهود فى غزة استقبالاً حافلاً، وكان منهم رابى يدعى موسى لعله هو موسى أف براغ المذكور الذى كان ينتمى إلى أسرة ثرية تمتلك إحدى المزارع فى البلدة، وحينما تحدث هذا الرحالة عن المائدة اليهودية أقرنها بموائد المسلمين، وقد تشابهت عباراته إلى حد بعيد مع ما ذكره عوبديا عنها مؤكدًا على ضرورة وجود أصناف من الخمور القوية أثناء الطعام

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٦، ٥٢؛ المقريزى: السلوك، جـ٣، ق(١)، ص٣٠٥-٣٠٦.

(٢) المقريزى: الخطط: جـ٢، ص١٠٥.

(٣) محاسن الوقاد: اليهود فى مصر المملوكية، ص١٩٢.

(٤) Meshullam of Voitera, Op.Cit., p.195.

(٥) Obadiah, Op.Cit., p.232.

ســـواء أكان ذلك فى مصر أم فى فلسطين[١]. أما عن القدس فقد تحدث المستوطن عن جانب من تقاليد جماعتها اليهودية حينما كان فى الإسكندرية وقال: ((إن الخمر الذى يقدم خلال المناسبات فى القدس أكثر تأثيرًا وقوة حيث يكون مشروب غير مخلوط، ويتم تناوله أثناء استنشاق عبير الياسمين أيضًا، كما هو الحال فى الإسكندرية[٢])).

وفى الواقع فإن المتفحص لهذه الصور الخاصة بالمائدة اليهودية وعادات الطعام فى البيت المصرى والفلســـطينى فى عصر المماليك كما رسمها عوبديا ليلحظ إلى أى حد اندمج اليهود مع مجتمعهم الإسلامى المحيط، وتأثروا به مع الحرص على الإبقاء على ما يبرز وحدهم وخصوصية المناسبة التى تجمعهـــم، فكان محورها الاجتماع فى يوم السبت الذى تحدث عنه مجسدًا ظاهرة اجتماعية شملتهم جميعًا فى البلاد العربية مرتكنة على الدين فيقول: ((ويهود هذه البلاد يحافظون بشكل صارم على قدســـية يوم السبت فلا يخرج أحد منهم من منـــزله إلا للذهاب إلى المعبد أو بيت هاميدراش[٣]. وجديـــر بى أن أذكـــر أنه لا يقدم أحد من اليهود على إيقاد نار أو حتى يعيد إشعال نار كان قد أشـــعلها أحـــد من غير اليهود فى غير السبت. وكان فى وسع كل من يتمكن من تلاوة الكتاب المقدس الإقدام على ذلك بعد أن يتخلص من تأثير الخمر عليه[٤])).

وفى هذا الصدد يتجه أحد الباحثين إلى الاعتقاد فى أن قدسية يوم السبت لدى اليهود تأتى من خلال أن الطقوس الموسوية تدور فى معظمها حول فكرة التميز؛ ومن ذلك أن اليهود لا يعملون فى هذا اليوم ليس من قبيل الراحة، بل ليتميزوا عن الآخرين[٥]. ويتبين من حديث عوبديا وجود اخـــتلافات بين اليهود فى الالتزام بطقوس يوم السبت، وهذا ما تؤكده وثائق الجنيزة التى تبرز ما كـــان من تباين فى الصلوات الخاصة بهذا اليوم فيما بين الربانين والقرائين[٦]. كذلك لمس عوبديا

---

(١) Meshullam of Voltera, Op.Cit., pp.169, 180.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.221.

(٣) يعنى بيت الدراسة، وهى مؤسسة شديدة القدم، وبها تتم الدراسة الثانوية العبرانية الدينية وخاصة دراسة نصوص الكتاب المقدس والتلمود، وتفتح أبوابها أيضًا للصلاة فى كل الأوقات. انظر:

Ben - Sasson, H. H., A History of the Jewish people, p.74.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.222.

(٥) جورجى كنعان: تاريخ يهوة، ص١٥٨. راجع أيضاً: زبيدة عطا: يهود العالم العربى، ص٢٧ – ٢٨.

(٦) Scheiber, Alexander, Geniza Studies, pp.264- 265.

بنفسه بعد إقامته بين يهود مصر وفلسطين مدى تمسك أبناء ملته بدينهم وعاداتهم وتقاليدهم فى جو يعمه الحرية المفقودة عند أقرانهم الغربيين.

وإذا مـــا طرحنا الخصوصية التى تميز يوم السبت فى مجتمعات اليهود الشرقية نلمس بوضوح عكـــس ذلك فى عاداتهم وتقاليدهم التى تأثروا فيها بشدة بالمسلمين، إذ ((لا يستطيع أى شخص [يهودى] فى جميع البلاد العربية أن يدخل المعبد مرتديًا حذاءه، حتى لو كان بغرض الزيارة، فعليه أن يدعـــه فى الخارج عند الباب، وجميع من بالداخل عليهم الجلوس على الأرض، إما على حصير وإمـــا علـــى سجاد)). ويبرز لنا هذا أيضًا الرابى ميشولام بن مناحم فى قوله: ((واليهود يسلكون مســـلك المســـلمين فى جميع بلاد السلطان، إذ أنهم ليس لديهم سرير ولا منضدة ولا كرسى ولا مصـــباح إنمـــا ينامون ويأكلون ويشربون، بل وجميع أشكال ممارساتهم اليومية دائماً ما تتم على الأرض)). وذكـــر أيضًا: ((وملابس اليهود كتلك التى يرتديها المسلمون، وعادة لا يستخدمون الأحذية، وإذ استخدموها لا يدخلون بها المعبد، ولا يلبسون السراويل[١])) (البنطلونات)، ومن ثم يتصـــرفون باعتـــبارهم عربًا أو أتراكًا، كما لم تكن عاداتهم فى هذا الشأن يهودية بدليل أن هذه العادات أثارت انتباه مشاهدها فدهشته إلى الحد الذى دفعه إلى تدونيها فى رحلته بغرض نشرها بين اليهود، وبناءً عليه ففى هذه الصور ما يؤكد على وحدة المجتمع العربى الإسلامى بصفة عامة، ومع ذلك فقد أتاح التنظيم الاجتماعى المملوكى لليهود قدرًا كبيرًا من حرية الظهور بمظهر يغلب عليه الخصوصية.

هكـــذا اصـــطبغت حـــياة الـــيهود اليومية بالدين إلى الحد الذى غدت فيه كثير من عاداتهم وتقاليدهم المميزة مقرونة بطقوسهم وشعائرهم[٢]، وفى مجتمعهم داخل فلسطين تشير الخطابات إلى حرصـــهم علـــى الخروج فى جماعات لزيارة مواقع مقدسة بعينها، وتشهد على ذلك رحلاتهم، بل وعـــوبديا ذاته فى رحلة القدوم حيث حرص على تأدية الصلوات فى الحرم الخليلى، وعند ضريح العـــيص وضـــريح السيدة راشيل. أما حينما وصل القدس وصعد الجبل يقول: ((عند هذا المكان يمكن رؤية المدينة التى بعثت فى نفوسنا البهجة، وحينئذ وجب علينا شق ثيابنا. وبعد مسافة قصيرة

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.222; Meshullam of Voltera, Op.Cit., pp.159, 161.

(٢) Firestone, Reuven, Jewish culture in the formative period of Islam, in: cultures of Jews, III parts, ed. By Biale, David, Schocken Books, 1st, ed., U. S. A, 1999, part I, (pp. 267 – 304), p. 273.

بدا لنا البيت المقدس Beis Hamikadash وهو الذى نجله حيث قمنا بشق ثيابنا مرةً أخرى[١]))
وعـندما دخـل الطالب اليهودى المدينة المقدسة ردد هذه الكلمات ((لقد حزنت وبكيت حتى انفطـرت روحـى، ووفقًا لما رود فى الشريعة فقد مزقت ردائى فى مكانيين، وأديت الصلاة موليًا وجهى شطر البيت المقدس[٢])) وقد ترجع أصول عادة شق الثياب عند دخول اليهود القدس إلى أن أجـدادهم كانـوا كثيرى الصخب فى أحزانهم، ويعبرون عن ذلك بدق الصدر وشق الثياب، ويغمرون أنفسهم بالرماد، ويرتدون المسوح المصنوعة من نوع خشن غليظ من النسيج[٣].

ومازال صاحب الخطابات على عهده مع والده يعلمه بعادات اليهود فى الشرق حيث يضيف: ((هناك عادة أخرى تخص اليهود فى البلاد العربية، ففى يوم الجمعة يذهب الرجال للاستحمام، وفى أثـناء عودهم تأتى لهم النساء بالخمر حيث يشربون حتى الثمالة، ويطلقون كلمة معينة مؤذنة بأن وجبة العشاء جاهزة، وذلك فى فترة بعد الظهر على أن تكون قبل العشاء، ومن ثم فعلى الجميع أن يأتوا إلى المعبد فى ثوب قشيب ونظيف[٤])). وهكذا يثبت عوبديا أن الأفكار التى ذهب إليها الرابى إبراهام بن موسى بن ميمون (كان نجيد مصر فى القرن الثالث عشر الميلادى) القاضية بإلزام اليهود بالاغتســال قـبل دخول المعبد قد وجدت سبيلها للتطبيق[٥]، بدليل تسجيل المستوطن إياها، مع ملاحظة تشبه اليهود بالمسلمين فى اغتسالهم قبل الصلوات. وبلغ الأمر أن حرم على اليهود دخول المعبد دون تطهر، وكان اليهودى المخالف لذلك يتعرض لعقاب شديد[٦]. أما اعتياد اليهود على شـرب الخمـر بعد الاستحمام فقد يرجع إلى رغبتهم فى تمييز طقوسهم فى الطهارة عن المسلمين بتناولها، وربما كان ذلك أمرًا متأصلاً فيهم بحكم احتكاكهم أو قدومهم من مجتمعات أوروبية كانت قد دأبت على هذه العادة. والذى وجههم أكثر إلى ذلك حدوثه فى يوم الجمعة، وهو اليوم الذى يتطهر فيه المسلمون بالاستحمام قبل الصلاة أيضًا.

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.234.

(٢) سفر التكوين: ٤٦: ٤؛ زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٥١٧.

(٣) A student's letter, p.86.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.221.

(٥) Ashtor, History of the Jews, II, pp.373- 374.

(٦) زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٢٠١.

ومن عادات اليهود أيضًا ذات الصلة بالدين وأماكن العبادة أوضح عوبديا أنه ((لا يستطيع أى شخص فى جميع البلاد العربية أن يدخل المعبد مرتديًا حذاءه حتى لو كان بغرض الزيارة. فعليه أن يدعه فى الخارج عند الباب، وجميع من بالداخل عليهم الجلوس على الأرض[١])). وتوضيحًا لذلك فقد كان اليهود القراؤون لا يدخلون المعبد بأحذيتهم، ولو بنية الزيارة، وإنما كانوا يتركون أحذيتهم خارج المعبد بجوار الباب، ويجلس الجميع على الأرض المفروشة بالسجاد أو الحصير داخل المعبد، أما اليهود الربانون فقد كانوا يدخلون المعبد بأحذيتهم[٢]. وما يؤكد وجود هذا الاختلاف تسجيل عوبديا للظاهرة باعتبارها أمر غير معتاد بالنسبة له على اعتباره ربانيًا، ومن ثم فما زالت عيناه ترصدان ما يخص اليهود ويختلف عما هو سائد بينهم فى المجتمعات الإيطالية. وبذلك فهو يبرز عنصرًا إضافيًا من عناصر تأثر اليهود ببعضٍ من عادات المسلمين كعادة خلع الحذاء عند دخول المعبد.

يبدو أن صلاة الجمعة عند المسلمين بالبلاد العربية كانت موحية لليهود لكى يجتمعوا للصلاة حتى أصبح بمثابة عادة عندهم حيث دأبوا على الذهاب إلى ساحة فضاء كبيرة فى وسط القدس قبالة الحرم عن بكرة أبيهم للصلاة[٣]، أما فى داخل المعبد بصفة عامة يتحدث عوبديا عن طقوس اليهود فى البلاد العربية فيقول: ((إن صلاة المنشا فى هذه البلاد تقام يوم الجمعة بعد الظهر وقبل العشاء فى سرية. وما يلبثون أن يبدأوا الشعائر بالمزامير وإسداء الحمد والشكر بإقامة صلاة لمدة تبلغ ساعتين حتى يدركهم الغسق، وفى طريق العودة إلى ديارهم فإنهم يرددون القاديش، وهم يأكلون كسرة من الخبز فى حجم الزيتونة ذاكرين فضل الله عليهم بعد تناول تلك الوجبات[٤])) وتتفق هذه الطقوس مع صلاة اليهود الجماعية التى يؤدونها بعد الظهر حين تنحرف الشمس من نقطة الزوال إلى قبيل الغروب[٥]، وعندما كان عوبديا يقارن بين ما شاهده فى القاهرة، وما شاهده فى القدس أوضح أنه فيما يختص بتأدية صلاة المنشا قبل العشاء فى القدس ((فإن اليهود الألمان الأشكيناز أقلعوا عن هذا التقليد؛ إذ أنهم يضيفون تلك الصلاة إلى أدعية المساء وقت الليل مع

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.222.

(٢) Meshullam of Voltera, Op.Cit., pp.159, 161.

(٣) A student's letter, p.91.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.221.

(٥) محمد بحر: اليهود فى الأندلس، ص١٢٤ – ١٢٦.

المنيان Minyan، وبعد أن تسطع النجوم فى السماء كما نفعل نحن، ومن ثم فهم يتناولون طعامهم فى الليل[١]). وهذه الاختلافات فى الشعائر بين جماعات اليهود فى القدس رغم تغلب الأشكيناز الربانين الغربيين تبرز الخصوصية التى تميزهم عن باقى اليهود الغربيين المنتمين للمذهب ذاته، وتجعل من الشعيرة تقليدًا دينيًا اجتماعيًا فى آن واحد، وهو أمر مهم فعليه تتجسد ملامح المجتمعات اليهودية فى الشرق متميزةً عن مثيلاتها فى أوروبا.

أما عن صلوات اليهود التى تؤدى فى القدس فقد أورد عوبديا فى خطابه الأول، وقد انصب حديثه عن طائفة الأشكيناز ((وهنا بالقدس توجد بعض العادات المحمودة، فلم أرَ فى مكان آخر الخدمة اليومية تمارس بأسلوب أفضل مما رأيته فيها. إذ على اليهودى أن ينهض ساعة أو ساعتين قبل انبلاج الصباح حتى لو كان يوم سبت حيث كانوا يتلون المزامير ويرددون أناشيد التسابيح حتى يدركهم الفجر. وحينئذٍ يرددون القديش[٢] ومن ثم يقوم اثنان من القراء المختصين [وبالأحرى الحزانين] بتمجيد الشريعة، كما يقرءان فصلاً عن الأضاحى، وكذلك جميع أناشيد التسابيح التى يعقبها لحن جميل يخاطب فيه الجميع إسرائيل "Hear, Israel" وذلك مع بزوغ أول شعاع للشمس فى كل صباح، ويكرر الجاؤون منح

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp.221- 222.

والمقصود بلفظة منيان هنا ذلك العدد من المصلين الذى لا يجب له أن يقل عن عشرة رجال، وهم يمثلون مجتمع بنى إسرائيل، ويتألف منهم الجماعة فى الصلاة، ومن ثم فهم النصاب الشرعى لأداء عديد من الطقوس التى تتطلب الجماعة. انظر: عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٥، ص٢٣٦؛ راجع أيضاً: غازى السعدى: الأعياد والمناسبات، ص٦١.

(٢) هو نوع من أشهر التسابيح الدينية اليهودية كان يتلى قديمًا قبل أو بعد الصلاة. وقد اكتسب صيغة أخرى فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، وتسبيح قديش كلمات تمجيد لاسم الإله وملكه والخضوع لحكمه ومشيئته والتعبير عن الأمل فى سرعة مجئ المشياح وبعد التطوير تعددت الأدعية التى تسمى ((القديش)) وأصبح هناك أربعة أنواع أساسية: القديش القصير، ويتلى قبل أو بعد أجزاء معينة من الصلاة، القديش الكامل وهو الجزء الختامى فى الصلاة اليهودية، القديش الحاخامى ويتلى بعد الانتهاء من الدرس. قديش الحداد ويتلوه أقارب الميت، الذى أصبح أهم الأنواع بعد قديش الصلاة. انظر: عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٥، ص٢٣٤؛ غازى السعدى: الأعياد والمناسبات ، ص٦٩ وما طرأ على القديش مؤخرًا يعد من المؤثرات الإسلامية فى فكر الجماعات اليهودية. راجع : عرفة عبده على: ملف اليهود، ص٢٣٦ – ٢٣٧.

البركة[١] الكهنوتية عقب الصلاة يومياً، ولا يقتصر طقس البركة عقب الصلاة على يوم السبت بل يمـــتد ليشمل كل صلاة عامة فى جميع أيام الأسبوع. وتقال الابتهالات فى الصباح، وبعد الظهر فى خشوع شديد جنبًا إلى جنب مع الصفات الثلاث عشرة المنفرد بها الله. وليس هناك فرق بين يومى الاثـــنين والخميس وباقى أيام الأسبوع إلا فيما يختص بالشريعة، فإنها تقرأ فى هذين اليومين[٢])). ونخلص مما ذكره عوبديا أن يهود القدس من الأشكيناز لم يكتفوا بقراءة ((ببراشة)) وهو جزء من أســفار موسى الخمسة فى المعبد فى صباح يوم السبت من كل أسبوع كما هو معروف عند باقى اليهود[٣]، كما لم يكتفوا بممارسة طقوس البركة بعد صلوات ذلك اليوم فحسب، إنما شمل أعقاب الصـــلوات العامـــة جميعًا طول الأسبوع، كما لم يخصوا يومى الاثنين والخميس بالصلوات، حيث كانوا يؤدونها فى كل الأيام، ولم يخصوهما إلا بقراءة الشريعة.

وإذا مـــا كانـــت هذه هى شعائر اليهود الأشكيناز فى صلواتهم على مدار اليوم الواحد كما مارسها عوبديا، فإنها تختلف عما هو واجب على اليهودى تأديته من صلاة، إذ كان عليه أن يؤدى ثلاث صلوات كل يوم: صلاة الصبح (شحاريت)، وهى من الفجر حتى نحو ثلث النهار، وصلاة نصـــف الـــنهار، وهـــى صلاة القربان (منحة)، من نقطة الزوال إلى قبيل الغروب، صلاة المساء (معاريـــف)، مـــن بعد غروب الشمس إلى طلوع القمر، وكانت الصلاتان الأخيرتان تختزلان إلى صلاة واحدة (منحة – معاريف)[٤]. ويبدو أن هذه الصلوات أساسية عدا تلك الإضافية منها، إذ هـــناك مـــن يذكر أنها سبع صلوات فى اليوم الواحد، ومنها ما هو فردى أو جماعى، ومنها ما هو سرى أو جهرى[٥]. ويتجه اليهودى فى صلاته جهة أورشليم، أما إذا كان فى القدس فيولى وجهه

---

(١) البركة جمعها براخوت، فى العبرية ولم تكن الكلمة مجرد تعبير عن عواطف، وإنما كان ينظر إليها باعتبارها حروفًا تحمل قوة خارقة ينتج عنها واقع ما يفرضه الله. ولمعرفة المزيد: راجع: عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٥، ص٢٢٧ – ٢٢٨.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.236.

(٣) Scheiber, Alexander, Geniza studies, pp.261 – 264;

ولأداء عديد من الطقوس التى تتطلب الجماعة. انظر: عبدالوهاب المسيرى: موســوعة اليهود، جــ٥، ص ٢٣٦؛ عرفة عبده على: ملف اليهود، ص٢٢٢ – ٢٢٣.

(٤) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جــ٥، ص٢٢٦؛ غازى السعدى: الأعياد والمناسبات، ص٦١.

(٥) لوتسك هارلى: عادات وتقاليد اليهود، ص٤٩؛ محمد بحر: اليهود فى الأندلس، ص١٢٤ – ١٢٦.

موضـــع الهـــيكل[١]، وهـــذا يعنى أن يهود القدس كانوا حريصين على تأدية مزيد من الصلوات الإضـــافية موساف Mussaph ، فضلاً عن تلك الواجبة عليهم مما يعكس شدة التيار الدينى لهذه الطائفة بالأراض المقدسة فى تلك الآونة.

سجل عوبديا كذلك عن صلوات اليهود فى القدس حيث المكان الذى يحمل اسم النبى زكريا علـــيه السلام، فيقول: ((وتقام صلوات اليهود فى المكان الخاص بالنبى زكريا فى أيام الصيام؛ وفى يوم التاسع من شهر آب، حيث تتكرر عبارات الرثاء[٢])) الذى يعد يوم صوم وحداد عند اليهود، ويذكرهم بحدث سقوط أورشليم وتخريب الهيكل الأول والثانى لوقوعهما فى توقيت واحد تقريبًا، وبالفعل ففى هذا اليوم يقرأ كتابا المراثى فى المعبد بعد صلاة المساء، كما يربط اليهود هذا التاريخ بأحداث تاريخية مأساوية أخرى[٣].

كـــتب عوبديا أيضًا شيئًا عن عادات اليهود فى فلسطين حيث بلدة الخليل، إذ يذكر ((وهناك تقليد سائد معروف فى كل البلد أنه من الأفضل أن يوارى اليهودى فى ثرى الخليل من أن يدفن فى القدس[٤])) ومن قبل أكد بنيامين التطيلى وجود هذه الظاهرة حين ذكر أنه: ((جرت عادة اليهود أن يأتوا بعظام موتاهم إلى هذا المقام[٥]))، ويتفق هذا مع إشارة الرحالة ناصر خسرو حيث ذكر أنـــه يوجد بالقرب من مشهد الخليل ((على جانب الصحراء ... قرافة كبيرة يدفن بها الموتى من جهـــات عديـــدة[٦])). وبذلك تعد طقوس الدفن جزءًا هامًا من الوجدان الدينى اليهودى؛ حيث كانـــوا يهتمون بدفن موتاهم فى الأرض المقدسة، وحرص الغرباء عنها على شراء قطع أرض هناك ليدفنوا فيها، أو جلب كميات من ترابها ونشره على رأس الميت. وكانت رغبة أهل الميت فى نقل جثمانه ليدفن مرة أخرى فى تلك الأرض مبررًا كافيًا للإقدام على هذا التقليد، ونجد فى الفلكلور الدينى اليهودى أن جثة الميت خارج فلسطين تزحف تحت الأرض بعد دفنها حتى تصل إلى الأرض

---

(١) غازى السعدى: نفسه.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.241.

(٣) غازى السعدى: الأعياد والمناسبات، ص١٩.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.249.

(٥) بنيامين التطيلى: الرحلة، ص١٠٦.

(٦) ناصر خسرو (ت ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م.) أبومعين الدين العلوى: سفر نامة، ترجمة: يحيى الخشاب، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٣م، ص٣٤ - ٣٥.

المقدسة، هذا وترتكن كل هذه الأفكار على دلالة أن إبراهيم (عليه السلام) اشترى لنفسه قبرًا فى الخليل[1]، ولم يقتصر الأمر على ذلك، إنما كان بالقرب من الحرم الإبراهيمي بيت يرتاده الزوار للصلاة يضم غرفةً اعتقد كل من اليهود والمسيحيون أن داود (عليه السلام) كان يسكنها. وما لبثت فى العصر المملوكى أن تحولت إلى مقبرة حتى عُرف المكان باسم دير الأربعين[2]. وبذلك نعثر على تفسير للأفكار التى شاعت عند اليهود، وسجلها عوبديا من أن دفن موتاهم فى ثرى الخليل أفضل من القدس، خاصةً وأن ثراها ارتبط بهذين النبيين بالذات.

جـ- الأعياد والمناسبات:

تكاد تكون الأعياد والمناسبات الدينية العنصر الأكثر وضوحًا الذى يعمل على إظهار وحدة اليهود وتآلفهم. ومع ذلك لم يتوقف صاحب الخطابات عندها إلا شذرًا، واكتفى بالتعرض إلى جانب منها من قبيل استخدام بعضها للتأريخ لأحداث رحلته بشكل خاص – وهو ما أوردنا بعضه سلفًا – بيد أن أول ذكر عنده إلى أعياد اليهود أو مناسباتهم الدينية كمظهر اجتماعى فضلاً عن كونه علامة زمانية عيد البوريم Purim أو عيد الفوز، حيث أنه كان قد قضاه فيما بين يهود القاهرة واصفًا إياه بأنه كان عيدًا حزينًا خانقًا وباكيًا على اليهود لفداحة الضرائب التى أثقلت كاهلهم فى هذا العام[3]، فى حين كان يهود مصر قد اعتادوا فى هذا اليوم إبداء فرحهم والإسراف فى الشراب حتى أسماه العرب ((عيد المساخر[4])). ويتحدد موعد هذا العيد باليوم الثالث عشر من شهر آذار، ويبدأ بصوم يسمى (صوم أستير) ويستمر حتى الخامس عشر من الشهر نفسه. ثم يقام احتفال صاخب (كرنفال). وتدور الأصول التاريخية لهذا العيد حول قصة (أستير) الواردة فى السفر المعروف باسمها. والعيد من الأعياد المستحدثة عند اليهود[5]. هذا وقد اختص به يهود

---

(1) غازى السعدى: الأعياد والمناسبات، ص٤٨.

(2) Vincent, L. H. Mackay E. J. H. et Abel, F. M., Hebron, vol.1, p.158;

راجع أيضاً: أبواليمن العُليمى: الأنس الجليل، جـ٢، ص٨١.

(3) Obadiah, Op.Cit., p.224.

(4) القلشندى: صبح الأعشى، جـ٢، ص٤٢٨؛ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٧٣؛ غازى السعدى: الأعياد والمناسبات، ص١٤.

(5) قاسم عبده قاسم : اليهود فى مصر، ص٧٧– ٧٨.=

= يتكون سفر أستير من اثنى عشر إصحاحًا تحكى قصة مؤداها. أنه بعد أن تواجد اليهود فى بابل نتيجة الأسر البابلى سنة ٥٨٦ق.م.، أن وقع ((كسرى فارس إزد شير بن بابك)) فى غرام أستير اليهودية فتزوجها، وعلا نجم

مصر، فكان يقال بوريم القاهرة[١]، ولذا فيعد عيدًا محليًا فضلاً عن أنه من الأعياد التى لم تذكر فى الشريعة.

وثمة عيد آخر تعرض إليه عوبديا يدعى عيد شابوعوت Shabouth ويحتفل به اليهود من طائفة القرائين ذكر عنه: ((ومن المعروف جيدًا أنهم يحتفلون بعيد شابوعوت ويوافق يوم الأحد، ويعلقون زعف النخيل ونباتات أخرى ... فى وسط المعبد ويلقى الجميع بنظرهم عليه، وهم يرون أن هذا كاف بالنسبة لهم[٢])). ويعرف أيضًا عند سائر اليهود بعيد الحصاد، ويقع فى اليوم السادس من شهر سيوان الذى هو الشهر الثالث فى الشهور العبرية. وقد حمل المسمى المذكور لأنه يجئ بعد الانتهاء من حصاد القمح. ومن أسمائه أيضًا: عيد الباكورة لأن الشريعة تقضى فيه بتقديم رغيفين من باكورة محصول القمح مع القرابين والذبائح المقررة فى ذلك اليوم، وعيد الأسابيع لأنه كان يأتى بعد عيد الفصح بسبعة أسابيع ..، وعيد الخمسين نظرًا لأنه يقع فى اليوم الخمسين بعد اليوم الثانى من الفصح. وإذ كان معروفًا فى التقليد اليهودى أن الله أعطى الشريعة لليهود فى اليوم الخمسين بعد خروجهم من مصر، فقد كان هذا العيد تذكارًا لإعطاء الشريعة أكثر منه احتفالا بحصاد القمح، وكانت مدة هذا العيد يوما واحداً، يتحتم فيه على اليهود الامتناع عن العمل والاحتفال به فى المعبد لتوطيد العلاقات الاجتماعية فيما بينهم[٣]. والملاحظ أن جميع اليهود يحتفلون بهذا العيد، ومع ذلك نجد عوبديا وقد قصره على طائفة القرائين، ولا يمكن القطع بدافعه

اليهود فى البلاد، فأكلت الغيره قلب الوزير هامان الفارسى، وحدد يوم الثالث عشر من آذار للقضاء عليهم، وعلمت أستير بالخبر، فأبلغت كسرى به، فأمر بقتل هامان، وأباح لليهود قتل أنصاره على مدى يومين حتى يوم الخامس عشر من شهر آذار، ولذا عرف بعيد الفوز.

Ben – Sasson, H. H., A History of The Jewish people, p.449.

أما مسمى بوريم الذى استخدمه عوبديا فى إشارته للعيد فهو مصطلح عبرى فى صيغة الجمع مفرده ((بور)) أى القرعة إشارة إلى القرعة التى أجراها هامان لتحديد اليوم الذى يهلك فيه اليهود. انظر: زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٢٨١.

(١) عرفة عبده على: ملف اليهود، ص٢٢٢.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.226.

ويستند عوبديا هنا إلى سفر الخروج: ٢٣: ١٥ و١٦؛ ٣٤: ٢٢؛ وسفر اللاويين: ٢٣: ١٥، ٢٢.

(٣) زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٢٧٤ - ٢٧٥.

ونلحظ فى هذا الموضع خلط أحد الباحثين بين هذا العيد وعيد المظال كما ورد عند: محاسن الوقاد: اليهود فى مصر المملوكية، ص٣٧٦.

إلى ذلــك؛ ولــذا فقد يكون اشتراك المسيحيين مع اليهود فى الاحتفال بهذا العيد ما جعله ينأى بطائفته الربانين عن معتنقى المسيحية ترفعًا وتمييزًا لبنى ملته.

أما فيما يتعلق بالمناسبات العامة التى يحتفل بها جميع اليهود، وأشار إليها عوبديا عيد رأس السنة وعيد الغفران، على اعتبار أن طائفتى الربانين والقرائين قد تعارضتا فى تحديد توقيتهما لاختلافهما فى اســتخدام التقويم الشمسى والقمرى[١]. ويحتفل اليهود بعيد رأس السنة فى الأول والثانى من شــهر تشــرين من كل عام (سبتمبر – أكتوبر) ولمدة عشرة أيام على اعتبار أنها أيام التكفير[٢]، وتكمــن دلالته الدينية فى أن المشناه ذكرت إنه اليوم الذى خلق الله فيه العالم، وهو يوم الحساب السنوى، إذ على اليهودى أن يحاسب نفسه فى هذا اليوم عما اقترفه طوال العام من ذنوب، كذلك يحتفل به تخليدًا لذكرى خروج بنى إسرائيل من مصر وخلاصهم من عبودية وعذاب فرعون[٣].

أما عيد الغفران أو يوم ((كيبور)) أو الكفارة؛ فهو يصادف اليوم العاشر من تشرين، ووجب صــومه علــى الرجال والنساء والأبناء بصفته أكثر أيام اليهود قدسية،وفى هذا اليوم يحرم العمل وإيقــاد الــنار والاغتسال والتطيب والجماع بالاضافة إلى الامتناع عن الطعام والشراب، ويجب التضحية بكبش أو ثور، وتوزع الصدقات والذهاب إلى المعابد حفاة الأقدام لإعلان التوبة والندم. وإذا وافق مجيئه يوم السبت يسمى ((سبت الأسبات)) وهو اليوم الذى يدخل فيه الحاخام الأكبر إلى قدس الأقداس واليوم الوحيد الذى يذهب فيه جميع اليهود للصلاة فى المعابد بدون استثناء[٤]. كمــا أشار عوبديا إلى عيد الفصح Passover [٥] على أنه توقيت يؤرخ به ليس إلا، ويبدأ هذا العيد فى الخامس عشر من نيسان (إبريل – مايو) ويستمر سبعة أيام بالنسبة لليهود داخل فلسطين وثمانــية أيام خارجها، ويحرم العمل فى اليومين الأول والأخير بالنسبة للفئة الأولى، أما الفئة الثانية فيحرمونه فى اليومين الأولين والآخرين بحيث تتخللها الاحتفالات بخبز وأكل الفطير، وترجع تسمية Passover إلى عبور موسى (عليه السلام) البحر، ولها مدلولات أخرى أهمها عبور الشتاء وحلول

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.226.

(٢) لوتسك هارفى: عادات وتقاليد اليهود، ص٦١.

(٣) غازى السعدى: الأعياد والمناسبات، ص١١– ١٢؛ انظر أيضًا: حسن ظاظا: الفكر الدينى، ص٢٠٢.

(٤) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود ، جـ٥، ص٢٦٥ – ٢٦٦؛ كامل سعفان: اليهود تاريخ وعقيدة، ص٢٢٣ – ٢٢٤.

(٥) Obadiah, Op.Cit., p.246.

الـــربيع محله، وهنا امتزجت مناسبة نجاة شعب إسرائيل من العبودية فى مصر بفصل الربيع، وغدا يحـــتفل بها كل عام[١]. وجدير بالذكر أن عوبديا لم يتعرض للمزيد من أعياد اليهود أو المناسبات الدينية الاجتماعية التى تخصهم طالما لا يوجد سبب فى الوقوف عندها، وما من شك أنها عديدة[٢].

---

(١) Ilana Shamir, Shlomo Shavit, (eds.) A History of Jewish people, Events Eras of Jewish people, Israel, 1986, p.271; cf. Also, Ben – Sasson, H. H., A History of Jewish people, pp.325- 326.

(٢) هناك دراسات عديدة تناولت موضوع أعياد اليهود فى حياتهم اليومية، راجع على سبيل المثال: غازى السعدى: الأعياد والمناسبات، مواضع متفرقة؛ محاسن الوقاد: اليهود فى مصر المملوكية، ص٣٦٧ – ٣٩٧.

المبحث السادس

التعليم والعلماء فى خطابات عوبديا:

وبعد دراسة الجوانب المختلفة فى خطابات عوبديا الجغرافية منها والسياسية والدينية والاجتماعية والنظم الإدارية، وكذلك عادات اليهود وتقاليدهم تتناول الدراسة أيضًا جانبًا إضافيًا ألا وهو التعليم والعلماء الوارد ذكر عنها فى الخطابات، ولعله بديهيًا أن العلوم الدينية ودراستها تأتى على رأس اهتمامات عوبديا فى هذا الاتجاه، وذلك لاهتمامه بالدراسات التوارتية والتلمودية وغيرها؛ ففيما يختص بالتوراة وبالأجزاء الخمسة التى أوحى بها إلى موسى (عليه السلام) واعتاد أن يذكرها باسم لفائف الشريعة، فقد روى أثناء حديثه عن المعبد الذى أقيم تكريسًا للنبى إلياس بالقاهرة القديمة أن اللفائف كانت مودعة فى الجهة الشمالية الشرقية منه. وقد أكد المؤرخ المقريزى على صحة الرواية التى وردت عند عوبديا بشأن لفائف عزرا، وأنها ظلت موجودة داخل المعبد[1] إلا أنها نُقلت خارج البلاد.

وكان عوبديا قد أشار إلى جانب من الظروف التى أحاطت بالحياة العلمية ليهود القدس، فذكر أنه كى ينجو العلماء والربيون بحياتهم من قمع شيوخهم بالمدينة بارحوها كليةً بسرعة، ونلتقط من بين الأسطر وفى موضع آخر مثال على ذلك؛ حيث أشار عوبديا إلى أنه ((كان يقيم فى غزة رابى من ألمانيا يدعى الرابى موسى أف براغ الذى جاءها فارًا من القدس[2])). وقال فى هذا الصدد وعن هؤلاء الشيوخ ((إنهم أولئك المجرمون ذوو الشعر الرمادى الذين تخطوا أقصى الحدود ببيع لفائف الشريعة مع أغلفتها والباروخيت[3] والنفائس والمقتنيات المقدسة الثمينة بالقدس إلى من هم غير يهود، الذين قاموا بتهريبها وتبديدها إلى أراضٍ غريبة، إنهم باعوا كتبًا عديدة مثل التلمود ومجموعات المخطوطات التى كانت قد أودعت بالقدس بواسطة اليهود الأشكيناز حتى أنه لم يتبقَ

---

(١) Obadiah, Op.Cit., pp. 221 – 222;

المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٢٧٢.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.232.

(٣) هى ستار من القطيفة أو من الحرير، مطرز بفخامة بخيوط فضية أو ذهبية، عادة ما تقدم هبةً بغرض وضعها على التابوت المحتوى لأسفار التوراة داخل المعبد، وتحمل هذه القطعة عادة اسم صاحب الهبة تخليدًا لذكراه. انظر: عرفه عبده على: ملف اليهود، ص٢٢١.

شـــئ ذو قيمة[١])). وعليه فمن المفترض أن الكتب النفيسة الخاصة بطائفة القرائين وغيرهم التى أشارت وثائق الجنيزة إلى وجودها بالقدس[٢] قد فقدت أيضًا، وهذه الأحداث تشهد بلا شك على تردى واضح وفقد لأساسيات قيام حياة علمية منتظمة بين يهود القدس نظرًا لأنها جاءت لتحاكى واقعهم الاجتماعى والاقتصادى المنهار غداة وصول عوبديا المدينة المقدسة.

أ- التعليم:

وبـــرغم هـــذه الحالة المتردية لحياة اليهود العلمية فى القدس، إلا أنه يستشف من الأسطر التى خطهـــا عوبديا فى هذا الصدد أن المدينة كانت وما تزال بها بعض المظاهر الدالة على كونها مركزًا تعليمـــيًا للـــيهود خرَّج العلماء، فضلاً عن الأدلة التى تؤكد على استمرار وجود بعض من علماء اليهود فى المدينة مع هذه الظروف الصعبة حيث يروى قائلاً: ((التقينا هناك بأحد الأشكيناز؛ وهو رجـــل كان قد تلقى تعليمة فى إيطاليا اسمه الرابى يعقوب كالمن، فأخذنى معه إلى منـــزله، وبقيتُ ضيفًا عنده طوال فترة عيد الفصح)). وفضلاً عن ذلك، فهناك شخصية أخرى ذكر عنها ((ويوجد هـــنا فى الوقت الحالى رابى ألمانى كان قد تلقى تعليمه فى القدس. لم أرَ أبدًا من يضاهيه فى تواضعه وورعـــه من الرب، وهو يكرس وقته ليلاً ونهارًا فى الحياكة طالما لم يكن عاكفًا على دراسته، وظل لمدة ستة أشهر لم يذق فيها الخبز من السبت إلى السبت، وكان طعامه يتألف من اللفت النئ وبقايا خبـــز القـــديس يوحنا St. John's bread المصنوع من الذرة المزدهرة زراعتها فى هذه الأرض، وذلك بعد انتزاع السكر منها[٣])) ولم يهتم عوبديا بذكر اسم هذا الرابى هنا، إلا أنه فى موضع تال أشـــار إلى رجـــل يهـــودى بالقدس كان مرجعه فيما عن له من أمور تتعلق بالعقيدة حيث يقول: ((وجهـــت إلى ابـــن شتياح Eben Shethiah بعض الاستفسارات عن المكان الذى يضم تابوت العهد بالهيكل. فقيل لى: إن التابوت يوجد أسفل القبة ... [٤])) فهل هو ذاته ذلك الرابى؟. وفضلاً عـــن هذا وذاك فهناك المخضرم الحاخام زكريا Zechariah الذى بلغ من السن عتيًا ثمانين عامًا، وكان قد هاجر إلى القدس من أسبانيا، وتولى تلاوة التوراة كل يوم لما يقرب من الساعة على جماعة

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.229.

(٢) Goitein, S. D., A Mediterranean society, vol. I, p.51.

(٣) Obadiah, Op.Cit., pp.234, 237.

(٤) Ibid, p.239.

اليهود[١]. وعلى كلٍ اجتمعت الشواهد على أن عوبديا آل على نفسه تغيير تلك الأوضاع، وعمل ما فى وسعه من أجل النهوض بحياة اليهود العلمية من جديد فى فلسطين.

وبالفعل تحدث عوبديا عن جانب من الإجراءات التى اتخذها من أجل تنشيط الحياة العلمية فى المدينة المقدسة فقال: ((كنت أذهب مرتين إلى المعبد اليهودى شهريًا كى ألقى محاضرات باللغة العبرية، وقد كان غالبية الناس هنا يفهمونها. وكان صوت مواعظى ينساب إلى آذانهم وكأنه أغنية محبوبة، فلقد امتدحوها، وأظهروا شغفًا بسماعهم إليها، لكنهم لم يكونوا على مستوى إحساسهم هذا، فلم يتفاعلوا معها. وحتى حينه لا يمكننى القول بأن أحد منهم فعل شيئًا يثير غضبى[٢])). وقد شهد تلميذه فى خطابه على جهوده تلك، فذكر أن أستاذه الحبر كان يتحدث إلى جماعة اليهود بصوت جميل فى نقاءٍ وطهر، ويختار الكلمات الرقيقة والورعة عند الحديث عن الله، ومع إمكاناته العظيمة تلك فهو نادرًا ما يلقى محاضرات، وأقر تلميذه أيضًا ((بأن الجميع من أصغرهم إلى أعظمهم كانوا يستمعون إليه بتركيز كبير، حتى يكاد المرء لا يسمع مجرد الصوت الخافت)). ثم يقول تلميذه عن نفسه أنه لا يمكنه أن يوفى عوبديا حقه من كلام ((لأنه فوق كل إعجاب، وإنى أقل من أن أدرك مدى عظمته، فالصمت هو مدحه)). ويفهم من رواية التلميذ أن عوبديا قلل كثيرًا من محاضراته إذ اكتفى بعد سنوات من التدريس بإلقاء محاضرتين أو ثلاث فقط فى كل عام، وذلك فى المناسبات المهمة التى تخص اليهود مثل أيام التكفير[٣].

هكذا تبدو محاضرات عوبديا بمثابة دروسٍ عامة أو خطبٍ لم يخص بها فئةً بعينها من يهود القدس، إذ دأبت جماعتهم بعد سماع خطبة كل يوم التى يشارك أحيانًا فى إلقائها على الجلوس فى بيت هاميدراش لدراسة التوراة لمدة ثلاث ساعات، ثم يخرجون فى جماعات صغيرة إما لزيارة المرضى، وإما لتفقد الفقراء لتقديم الإحسان إليهم حتى لو لم يكن لديهم إلا القليل، وهذا كله تحت إشرافٍ منه[٤]، وهذه الشهادة تبرهن على بروز عوبديا رائدًا تعليميًا بين جماعته، فضلاً عن بروزه رائداً إجتماعيًا – وهذا ما فسرناه سلفًا – كما يُستشف من ذلك أن المعبد اليهودى كان يستغل فى

---

(١) A student's letter, p.88.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.247.

(٣) A student's letter, pp.88- 89.

(٤) Ibid, p.89.

الأنشــطة العلمية من قبيل المحاضرات العامة التى كان يلقيها هذا المستوطن، وكان يحضرها عامة اليهود بدليل أنهم كان لا يعنيهم كثيراً فهم دقائق المواعظ التى كان يلقيها، والتى لم تكن منتظمة.

قدمت خطابات عوبديا تفاصيلاً إضافية عن نشاط اليهود الدراسى فى القدس إذ يذكر ((ونحن نجــتمع ســويًا فى كل صباح ومساء لدراسة هالاخاه Halacha [الشريعة]، وقد اعتاد اثنان من الطلبة السفارد فضلاً عن اثنين آخرين من الأشكيناز من الربانين المتواجدين معى هنا على الانتظام فى المحاضــرات الــتى ألقيها[١]))، ولما كان اليهودى الأوروبى شديد الحرص على التعليم فى تلك الآونة حتى لو اضطر إلى الهجرة[٢] فبعد بضع سنوات حضرت مجموعة طلاب أخرين للتلمذ على يــد عوبديا الذى استقبلهم، وتدخل لإجراء تبديل فى المساكن التى استأجروها إذ ((رأى أنه من الضــرورى لعملية التعليم أن يسكن الطلاب سوياً فى مكان واحد))، وكان يتمنى لو كانت شقته الصــغيرة تســعهم فى الوقت الذى كانوا جميعهم مشغولين بدراسة التوراة ليل نهار[٣]. ولعله من الواضــح أن محاضــرات عوبديا فى هذه المرة لتلاميذه قد أخذت شكلاً آخرًا يتسم بالتخصيصة الأكاديمية، الأمر الذى يجعلها مختلفة عن تلك التى كان يوجهها للعامة من اليهود. وتفيد الدراسات المــتعمقة عــن الــيهود أن هــناك نوعين من طلاب العلم ينتمون إلى الأكاديمية الدينية اليهودية ((هيشيفا)) Yeshiabah [٤]؛ طلاب منتظمون، طلاب منتسبون وذلك وفقًا للتعبير المتداول حاليا فى الجامعــات، وكانــوا يتلقون تعليمًا عاليًا يجعله مختلفًا عما يدرس فى هاميدراش، حيث تتناول دراســتهم التوراة والتلمود، وما يتعلق ببعض أمور الشريعة، وعادةً ما يكون الطلاب المنتظمون

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.208.

(٢) Horowitz, Elliott, Families and their fortunes,: The Jews of Early modern Italy, part II, p.602; Johnson, Poul, A History of the Jews, p.183.

(٣) A student's letter, p.87.

(٤) فى ظل السيادة الإسلامية كانت القيادة الروحية وإدارة شئون الجماعة اليهودية تتم إما فى العراق أو فلسطين حيث كانت مدارس التلمود (الهيشيفا) أو الأكاديميات التى ترجع إلى ما قبل الإسلام تجمع وتناقش وتسن قوانين التلمود، وتمد جماعة اليهود بالقضاة الذين يتولون الحكم داخل الجماعات اليهودية فى أرجاء دار الإسلام، إذ كان الخليفة العباسى يعترف برئيس يهود العراق رئيساً على كل يهود دولة الخلافة ومنها مصر. وفى العصر الفاطمى حقق اليهود المصريون قدرًا كبيرًا من التقدم بحيث صارت مصر عنصر جذب للمهاجرين اليهود من جهة، كما زاد معدل اعتماد المدارس اليهودية التلمودية (الهيشيفا) فى العراق وفلسطين على الدعم المالى من يهود مصر من جهة أخرى، ولذا فمنذ القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى انتقلت الهيشيفا من فلسطين إلى مصر بحكم الثقل اليهودى المتزايد فيها مقارنةً بفلسطين. انظر: قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص٥٩ – ٦٠؛ وكذلك غازى السعدى: الأعياد والمناسبات ص٧٤ – ٧٦.

مغتربين يأتون من بلاد بعيدة، أما الطلاب المنتسبون فهم يستطيعون الحضور والانتظام فى الجلسات إذا رغبوا فى ذلك للاستماع إلى الدروس دون الانتظام فيها[١]؛ هذا فضلاً عن وجود تعليم أولى خاص بالصبية، وفيه يرددون بصوتٍ عالٍ أسفار التوراة، ويغلب عليه الغناء متشبهين بأسلوب المسلمين فى تعليم أطفالهم فى الكتاتيب[٢]. وعليه، فالطلاب الأجانب المذكورون تلاميذ عوبديا كانوا من الفئة المنتظمة فى الدراسات الأكاديمية اللاهوتية العليا.

هكذا جاء عوبديا من أوروبا كى يلقى الدروس على جماعة اليهود فى القدس وبصفة خاصة علم هالاخاه، وهى لفظة عبرية تعنى التشريع أو الشريعة، إذ يحتوى التلمود على أجزاء تشريعية وأخرى قصصية وعظية[٣]. ومن جانب آخر فدراسة هالاخاه اعتمدت على تجارب اليهود الفكرية والروحية، وقد شكّلت ركناً أساسياً فى الحياة اليهودية بين الربانين منهم بدايةً من القرن الثامن الميلادى، والمفهوم العام لهذه الدراسة هو البيان الكامل للشريعة اليهودية، أما مفهومها الخاص فهى تمثل مجموعة القوانين التقليدية التى تسيدّت جماعات اليهود من واقع حياتهم مما شكّل تاريخهم[٤]، والملاحظ أن عوبديا عندما تحدث عن هذا النوع من الدراسة لم يذكر مقرها مما يفسح المجال إلى الاعتقاد فى أنه لجأ فى ذلك إلى استئجار إحدى المدارس[٥] تحقيقًا لهدفه مستفيدًا بأموال التبرعات التى كانت ترد من أثرياء اليهود فى الغرب لهذا الغرض.

والمتمعن لعبارات الخطاب فى هذا الموضع يستشف بعض الحقائق ذات الصلة بمحاولة إحياء اللغة العبرية؛ فقد اعتاد اليهود فى أوروبا استخدام اللغة العبرية فى كتابة الأدب مثلما استخدم

---

(١) عبدالرازق قنديل: الأثر الإسلامى، ص١٦٦ - ١٦٩.

(٢) Johnson, Poul., A History of the Jews, p.182.

(٣) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٥، ص١٤٦.

(٤) Kaplan, Yosef, Benjudesma: the western Sephardic Diaspora in: cultures of Jews, III parts. Ed. By, Bio;e, David, Schocken Books, first published, U. S. A., 1999, part II (pp. 611 – 670), p.639.

ولمعرفة المزيد عن هالاخاه راجع:

Eliead, Mircea, (ed.) The Encyclopedia of Religion, vol VI, Art. Halakhah.

(٥) تشير إحدى الرسائل التى تضمنتها وثائق الجنيزة إلى أن أحد أثرياء اليهود فى القدس كان يدير إحدى المدارس لحسابه، وكانت تدر عليه دخلاً وفيراً، انظر:

Goitein, S. D., A Mediterranean Society, vol I, p.60.

المسيحيون اللغة اللاتينية فى الشأن ذاته بصفتها لغة ذات مكانة عالية وتعليمية لائقة[١]، خاصةً فى عصر النهضة وقت كتابة عوبديا لخطاباته. ومن ناحية أخرى كانت عبرية السفارد – وهم يرمزون إلى اليهود الشرقيين – تختلف عن عبرية الأشكيناز – الذين يرمزون إلى اليهود الغربيين – ، وهذا يـرجع إلى أن يهـود البلاد العربية سواء المحليين أم القادمين من الأندلس كانوا لا يتحدثون إلا العـربية، واقتصـر استخدام العبرية عندهم على الأنشطة الدينية المتخصصة. وقد كان لامتزاج الـيهود بالعرب أثر عميق على اللغة العبرية، فقد ازدادت فصاحةً بمجاورتها للغة العربية التى تعد أرقـى لغات المجموعة السامية كلها[٢]. وترتب على هذا وذاك فيما يبدو أن أنيط التدريس باللغة العبرية إلى عوبديا بصفته عالم من وراء البحار رغم وجود ربيين ذوى علم فى فلسطين من قبل أشار هو نفسه إليهم؛ ولعل تفسير ذلك هو بدء سريان الشعور القومى الدينى عند يهود أوروبا مواكبةً للعصر، فحمل عوبديا على عاتقه مسئولية نشر استخدام اللغة العبرية، خاصةً أنه أوضح أن اللغة العـبرية لم تكن متداولة بين يهود القدس، وفى حالة إلمام بعضهم بقدرٍ منها فلم يكن بشكل معمق بدلـيل عدم فهمهم جيداً لمحاضراته التى ألقاها بالعبرية، واكتفوا فقط بالإحساس بها وتذوقها دون التفاعل معها. وبناءً على ذلك لنا أن نخلص إلى أن اللغة العبرية لم تكن متداولة بين اليهود سواء فى فلسـطين أم فى مصر. كما نلحظ وجود أربعة من الطلاب الأوروبيين تلاميذًا لعوبديا كدفعة أولى منتظمين فى حضور دروسه التى يلقنها باللغة العبرية، والراجح أن ذلك كان بغرض نشرها وتوريثها جيلا بعد جيل فى مجتمع اليهود. وهذا فى مجمله يدفع بشكلٍ أقوى إلى الاعتقاد فى أن قدوم عوبديا إلى القدس كان بغرض تثبيت دعائم الدين اليهودى تدريساً وشرحاً باللغة العبرية إحياءً لتراثهم.

وثمـة براهين تدلل على أن الحياة العلمية فى فلسطين ما لبثت أن نشطت، بل وشهدت طفرة اقتـرانًا بجهـود عوبديا فيها، إذ لم يقتصر ازدهار حياة اليهود العلمية على أكاديمية القدس، إنما شهدت البلاد أثناء إقامته بها نشوء مركز علمى يهودى آخر فى صفد، ونتثبت من ذلك من خلال وجود عدد من الرجال الذين وصفوا بأنهم علماء فترة أواخر العصور الوسطى، إذ تحدث الطالب اليهودى فى عام ١٤٩٥م./ ٩٠٠هـ. عن رجل يدعى برتز كولومبو Pertez Colombo على أنه أحد علماء وشيوخ المدينة الذى استقبله بترحاب، ويسر له الإقامة فى صفد طيلة فترة تواجده، وعـرض عليه وأخيه أن يبقى معه للدراسة مقابل عشرين دوكية لكل منهما، لكنهما آثرا التوجه للدراسة فى القدس. ثم أضاف موضحاً: ((إن الحكومة كانت تقدم له دعمًا، ولا أعرف مقدار ما

(١) Roth, Cecil, The Jewish contribution to civilization, London, 1939, p.89.

(٢) غازى السعدى: الأعياد والمناسبات، ص٥٧.

كانـــت تدفعـــه له[١])) كذلك تألق بين مفكرى اليهود فى مركز صفد الدراسى كل من جوزيف كارلـــو Joseph Carlo الـــذى أقام بالمدينة عام ١٤٨٨م./ ٨٩٣هـــ. وإسحاق لوريا Issac Loria المتوفى عام ١٥٣٢م./ ٩٣٨هـــ.[٢].بيد أن عوبديا لم يشر إلى نشوء مركز صفد العلمى، ومن ثم لم يحدثنا عن علمائه أو سير الدراسة فيه، كما لم يشر إلى إقدام حكومة السلطنة المملوكية على دعم العملية التعليمية لليهود كما هو الحال فى صفد، وهو أمر مهم، ففيه إسهام فى رفع قدر هذه الدولة وجهودها فى محاولة الارتقاء بالتعليم حتى بين الأقليات الدينية التى تعيش فوق أرضها.

وفى الأســـطر التالـــية نقدم تجربة أحد تلاميذ عوبديا التى تبين منها جانب من أسلوبه فى مجال الـــتدريس، إذ يذكر الطالب اليهودى فى خطابه: ((لقد فتحتُ قلبى له وحدثتهُ عن حالتى السيئة وكـــيف إنى أشـــعر بالغربة، لكنى سافرتُ إلى هنا [حيث القدس] لأتعلم التوراة. ومن اجل حب الـــرب تركت عائلتى وموطنى حتى يقبلنى تلميذاً لديه ويعلمنى التوراة. وبعد ذلك تحدث لى بكل حب ومودة كما هى عادته وقالى لى، سوف أعتنى بك كأفضل أولادى ... الأمر الذى جلعنى فى غايـــة من السعادة[٣]))، ولم يكف عوبديا بإبداء هذه الروح الطيبة إنما كان يحيط تلاميذه برعايته حتى فى مجال الإعاشة والسكن، وبذلك يتبين منهجه الذى يكمن فى الاهتمام بالجيل الناشئ، وذلك بتعلـــيمه التوراة وعلم التلمود والهالاخاه باللغة العبرية بغرض الارتقاء بالمستوى الدينى والفكرى للجماعة وإيجاد جيل يضطلع بالنهوض علميًا وثقافياً بجماعة اليهود فوق أرض فلسطين.

وهكذا فمن شأن المادة الواردة فى خطابات المستوطن اليهودى وغيرها أن توضح الدور الذى قـــام به بين جماعة اليهود فى فلسطين خاصة فى الجانب العلمى الدينى، إذ غدا من المؤكد أنه صار معلمًـــا لأبناء الطائفة والطلاب، والوافدين عليهم من أوروبا الذين يرغبـون فى ألا يكتفوا بالمواد التعليمـــية الأساسية من كتابة وقراءة المتوفرة فى أوطانهم إلى ما هو أعلى من ذلك من دراسات فى علوم المشنا والتلمود ومؤلفات الربيين المشهورة فضلاً عن قواعد اللغة العبرية التى وضعها النحاة الـــيهود بغـــرض إخراج عناصر منهم تعمل فى مجال القضاء والوظائف الدينية المختلفة، ولعل فى انـــتقال الطالب اليهودى صاحب الخطاب – الذى شكل أحد الركائز للمادة العلمية التى قامت عليها الدراسة – مع أخيه إلى فلسطين للتلمذ على يد عوبديا بعد أن ذاع صيته فى إيطاليا ليجسد

---

(١) A student's letter, p.82.

(٢) صابر طعيمة: التاريخ اليهودى العام، جـــ٢، ص١٩١.

(٣) A student's letter, pp.86- 87.

دوره فى إحياء علوم اليهود الدينية وبروزه حلقة وصل بين جيل مغمور من العلماء اليهود السابقين وجيل واعد من الدارسين الجدد وبروزه أيضًا جسرًا حضاريًا يربط يهود الغرب والشرق هم فى حاجة إليه ليبث فيهم الروح القومية التى اجتاحت أوروبا عصر النهضة مستندةً إلى عنصر الدين. ومما أضفى على جهوده العلمية زخمًا خاصًا أن فلسطين كانت تعانى من أزمات اقتصادية وسياسية ومن ثم اجتماعية لبضعة عقود سبقت وصول هذا الحبر إليها. وهذا التضاد بين مرحلة من التردى الشامل وسنوات من إحياء الدراسات والنشاط العلمى كان من شأنه أن يبرز عوبديا إصلاحيًا وعالمًا وباعث نهضة بين جماعات اليهود فى الشرق.

وقد ترتب على ما بذله عوبديا من جهدٍ واضح فى مجال التعليم وربط جماعات اليهود بعضها ببعض، وفى أثناء حياته التى واكبت بداية القرن السادس عشر الميلادى/ العاشر الهجرى خرجت من القدس أعداد من مبعوثى اليهود إلى الشرق بغرض جمع التبرعات من الطوائف اليهودية هناك لصالح المستوطنين اليهود فى القدس وغيرها، كما قاموا أيضًا بدور الزعماء الروحيين، ومن بين مهام هؤلاء المبعوثين حث إخوانهم اليهود على الهجرة لفلسطين، ودعم الاستيطان اليهودى بها، والعمل فى مجال التدريس، والتوجيه فى أصول الشريعة والعبادات، وإثارة الرغبة لدى اليهود فى الخلاص، وتقوية الروابط بين فلسطين والشتات اليهودى. وقد تعامل يهود الشرق دائمًا معهم بالتقدير والمهابة الدينية ليس فقط لمجيئهم من الأرض المقدسة ومن رحاب الأماكن اليهودية المعروفة فى فلسطين بقدسيتها، وإنما لأنهم كانوا أكثر درايةً منهم بالشريعة اليهودية وبكافة القضايا العالمية بالمقارنة بهم، وذلك باستثناء يهود بغداد وصفد الذين نشطت فى أوساطهم دراسة الشريعة[1] التى تعد دعامة العملية التعليمية فى المدارس اليهودية أواخر العصور الوسطى حيث كانت دراسة هالاخاه مفتوحة لمن يرغب على أنها لم تكن من المسلمات وقابلة للتعددية فى التفسير فى حدود القيود العامة للتقاليد المعروفة[2]، ويشهد على ذلك كثرة الجدال حول تعاليم ابن ميمون، وهى الشخصية الأكثر شهرة وقوة لإحاطتها بالشرائع اليهودية فترة العصور الوسطى.

ب–العلوم والعلماء:

فى الواقع تضمنت خطابات عوبديا عدة إشارات إلى مشاهير علماء الدين اليهود الذين حرص أحيانًا على ذكر أسمائهم، كما هو الحال حينما تحدث عن ثقافة جماعة اليهود فى اليمن حيث تنبه

---

(١) أفيطبول، ميخال ، وآخرون: اليهود فى البلدان الإسلامية، ص١٣٥ – ١٣٦.

(٢) Eisentadt, S. N., Jewish civilization, p.82.

إلى أنهـــم رغم عزلتهم عن باقى جماعات اليهود إلا أنهم كانوا ينعمون بحياة ثقافية غنية ومتنوعة، حياة خاصة بهم وحدهم[١]، حيث تحدث عن طائفة الربانين هناك، فقال: ((وليس لدى يهود عدن كتابا التلمود، وإن كل ما يمتلكونه مجرد أعمال الرابى إسحاق الفاسى Isaac El-Fessi ، ملحق بها شروح عليها، فضلاً عن أعمال ابن ميمون Maimonides[٢])). وبذلك فإن عوبديا ينوه هنا إلى أن أعمال كل من هذين العلمين ترقى إلى أن تكون بديلة للتلمود فى هذا المجتمع؛ ذلك فى ضوء أن إســحاق الفاســى (١٠١٢ - ١١٠٣م./ ٤٠٣ - ٤٩٧هـــ.) الذى عمل قاضيًا وحاخامًا للطائفة اليهودية عام ١٠٨٩م./ ٤٨٢هــ. فى بلدة لوسينا Lucene - وهى مدينة يهودية خالصة لا يســكنها أحد من المسلمين - يعتبر من الفقهاء المجتهدين فى الشريعة اليهودية. وكان قد وضع خلاصة الأحكام التشريعية فى مؤلف أسماه ((التلمود الصغير))، وكانت طريقته فى مختصره هو بأن يأخذ كل مقالة على حدة، ويختصرها مبتعدًا عن المناقشات والمجادلات التى تدور حول الحكم نفسه مركــزًا فقط عليه، وبهذا يصبح الحكم واضحًا خاصةً وأنه حافظ على نص المصطلح المستخدم فى التلمود الكبير متأثرًا فى ذلك بالفقهاء المسلمين[٣]، مع ملاحظة حرص إسحاق الفاسى على كتابة تصنيفاته وفلسفاته باللغة العربية الأمر الذى جعل منها مادة متداولة. ومن هنا فقد نجح الفاسى فى شــرح المناقشـــات الطـــويلة المعقدة الكلمات، وأوجزها بشكلٍ سهّل على اليهود الرجوع إلى التلمود[٤] كما هو الحال بالنسبة ليهود اليمن.

أما فيما يخص العالم اليهودى الشهير موسى بن ميمون، فمن الضرورى إلقاء بعض الضوء عليه، خاصةً وأن عوبديا أشار إليه غير مرة؛ فهو الرابى موسى بن ميمون أبو يوسف المعروف أيضًا باسم أبى عمران موسى بن عبيدالله القرطبى، وهو الزعيم الروحى لليهود، ولد فى مدينة قرطبة ١١٣٥ م./ ٥٣٠هـــ. واشتهر فى اللغات الغربية باسم ((ميمونيدس)) كما أورده عوبديا بالرسم ذاته[٥]،

---

(١) لويس، برنارد: اليهود فى ظل الإسلام، ص١٣١.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.246.

(٣) مارجوليز، م. ل، ماركس، أ.: تاريخ الشعب اليهودى، جـــ١، ص٦٨ - ٧٠؛ راجع أيضاً: عبدالرازق قنديل: الأثر الإسلامى، ص٢٢٦ - ٢٣٢.

وعن الوجود اليهودى فى بلدة لوســينا، وللاستزادة من شخصية إسحاق الفاسى انظر:

Scheindlin, Raymand, P., Merchants and intellectuols, Rabbis and poet: Judeo – Arabic Culture in the Golden Age of Islam, in: cultures of Jews, III parts, ed. by Biale, David, Schocken Books, first published, 1999, part II, pp.313 – 388.

(٤) صابر طعيمة: التاريخ اليهودى العام، جـــ٢، ص١٩٠.

(٥) Obadiah, Op.Cit., p.246.

واعتاد اليهود على اختصاره برسم ((رميم)). وقد نشأ ابن ميمون فى عائلة تضم علماء وأدباء، إذ كان والده موظفًا كبيرًا ورياضيًا وفلكيًا، الأمر الذى أثر بعمق فى ابنه موسى فبرز فيلسوفًا وطبيبًا، ويقوم فكره على أساس أن الدين والفلسفة لا يختلفان، وذلك من خلال النصوص الدينية الموجودة فى التوراة أو التلمود[١]، كما يعتبر من أعظم الفيزيائيين فى العصور الوسطى[٢]، ولما انتقلت أسرته مـــن قرطبة إلى فاس المغرب، وبعد خمس سنوات انتقلوا إلى فلسطين ومنها إلى الإسكندرية، وكان مستقرهم فى الفسطاط بمصر القديمة حيث ألف معظم كتبه، وقضى بها معظم حياته حتى توفى عام ١٢٠٤م./ ٦٠١هـــ. وكان قد مارس مهنة الطب، فاكتسب شهرة واسعة فيها حتى أصبح طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين الأيوبى، ولا تزال مؤلفاته من أمهات الكتب التى يرجع إليها علماء اليهود فى مجال الفقه والدين اليهودى مما جعلهم يقولون: ((من موسى (١) إلى موسى (٢) لم يظهر كموسى[٣])) وقد نجحت هذه المؤلفات فى جمع شمل الشعب اليهودى وبعث عقيدته بعـــثا جديدًا، كما ساهمت فى نشر التراث العربى الإسلامى[٤].

---

(١) Roth, Cecil, The Jewish contribution to civilization, p.195

راجع أيضاً: عبدالرازق قنديل: الأثر الإسلامى، ص٢٤٦ - ٢٤٨.

(٢) Roth, Cecil, Op.Cit., p.195.

ويوضح هذا الباحث أن لابن ميمون نهجًا خاصًا فى ممارسة الطب؛ وذلك بالعلاج عن طريق الدين فى حالة المرض الخطير ذى الخلفية النفسية، بالإضافة إلى أنه يؤمن فى قوة الطبيعة وقدرتها على الشفاء وأهمية الغذاء الصحيح، وهو ينصح بأنه يجب أن يستشار الفيزيائى عن طبيعة المرض بغرض جعل المريض دائمًا فى حالة فيزيائية جيدة. كما يؤكد على أهمية تحسين النسل، ويوصى بالرياضة وأهمية نظافة البدن والمنـــزل والتعرض للهواء النقى وأشعة الشمس للتعقيم، ويرى الباحث صاحب هذه الدراسة أن هذا الفكر الرفيع لدى ابن ميمون لن يتأتى إلا بتأثير الحضارة الإسلامية عليه. وهناك تقييم جيد لهذه الشخصية يمكن مراجعته عند: زبيدة عطا: يهود العالم العربى، ص١٠١ - ١٠٣.

(٣) ابن أبى أصيبعة (ت ٦٦٨هـــ/ ١٢٦٩ - ١٢٧٠م) موفق الدين أبوالعباس أحمد بن القاسم خليفة بن يونس السعـــدى الخزرجى: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، نشره: نزار رضا، بيروت، ١٩٦٥م، ص٥٨٢ - ٥٨٤.

ويوجد معبد يحمل اسم موسى بن ميمون بحارة اليهود بالموسكى بالقاهرة حيث دفن أولاً، ثم نقلت رفاته إلى مدينة طبرية بفلسطين، وما زال يحتفل بذكراه فى معبده بالقاهرة احتفالاً دينيًا فى أواخر كل عام ميلادى. راجع: محمد خليفة حسن، النبوى جبر سراج: الجنيزة و المعابد اليهودية فى مصر، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٩١- ٩٢. هذا برغم زعم اعتناقه الإسلام فى أواخر أيامه، هو أمر ينكره اليهود رغم أن شاهد قبره فى طبرية التى نُقل جثمانه ليدفن بها يحمل عبارة بالعبرية معناها ((دفن فى هذا القبر موسى بن ميمون الطريد المحروم الكافر)). انظر: محمد بحر: اليهود فى الأندلس، ص٨٨ - ٩٠.

(٤) فؤاد حسنين على: المجتمع الإسرائيلى، جـــ٢، ص٣٣ - ٣٤.

من ناحية أخرى يثبت عوبديا أن فكر موسى بن ميمون قد انتقل هو أيضًا إلى مجتمع يهود اليمن، وأثر فيه بعمق حيث يقول: ((ويهود عدن جميعًا من كبيرهم إلى صغيرهم يشغلون أنفسهم بشكل أساسى بما ورد من أقوال فى أعمال ابن ميمون، ويعكفون على دراستها[١])). ولم يكشف مستوطن القدس اليهودى عن دواعى ذلك، بيد أن هناك شواهد تفسر هذا الأمر، إذ ثمة عشرين سنة من الاتصالات بين ابن ميمون ويهود اليمن تخللتها رسالته الشهيرة إليهم – أشير إليها فى دراسة الجانب الاجتماعى – التى تكشف عن تلك العلاقة؛ ففى ذلك الوقت ظهر مشياح كذاب مما أحدث فتنة عظيمة بينهم أدت إلى اضطرابات ألبت السلطة الإسلامية عليهم حيث ضيقت عليهم الخناق تأديبًا لهم؛ ولكنهم اعتصموا بدينهم بشكل أوثق، وانكبوا على دراسة التوراة والشريعة ووصايا النبى موسى العشر مما أثار إعجاب ابن ميمون الشديد بهم، وأرسل إليهم بهذه الرسالة التى عدد فيها فضائلهم، وأثنى على صبرهم وقوة بأسهم[٢]. ويبدو أن واقع هذه الرسالة كان عظيماً على جماعة اليهود باليمن حيث تركت أثرًا طيبًا بينهم، فارتبطوا بشخص ابن ميمون عاطفيًا وعلميًا مما ترك انطباعًا ظل أثره عدة قرون فكان انتماؤهم له مما رصده عوبديا. وهكذا يكون من الطبيعى أن تتطرق خطابات المستوطن اليهودى إلى شخصية ابن ميمون طالما قصدت التعرض إلى علماء اليهود فترة العصور الوسطى.

ومرة أخرى سيطرت كتابات ابن ميمون على ثقافة العصر بين جماعات اليهود ونلحظ هذا عند عوبديا نفسه حين تناول قضية ما إذا كان إقليم الشام جزء من الأرض المقدسة أم لا ؟. وفى هذا الشأن يقول: ((وإنه لمن المعروف عندى الكلمات الصادرة عن كل الناس الحكماء خاصة أولئك أنصار ابن ميمون الواردة فى مؤلف هاليشوت تيرموت Halichot Terumot (٨١ – ٩) الذى اعتبر دمشق جزءاً من الأرض المقدسة[٣])). والواضح أن ابن ميمون بنى حكمه على أساس تواجده فى الأراضى المقدسة نظراً لأنه كان قد هاجر إلى فلسطين أثناء سيطرة الصليبيين عليها فى القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى. أما ما ورد فى مؤلفه المذكور فقد جاء ضمن ما ألفه من كتب باللغة العربية التى ترجمت إلى العبرية، وكان أبرزها على الإطلاق كتاب ((مشناه توراة)) الذى استغرق فى كتابته عشر سنوات متواصلة مرتباً فيه كل ما حواه العهد القديم من تشريعات

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.246.

(٢) راجع العبارات الواردة فى رسالة ابن ميمون إلى جماعة اليهود فى اليمن فى:

Heschel, J., Abraham, Maimonides, pp.105, 106 – 120.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.250.

وقوانين فى نظام منطقى وإيجاز واضح، بالإضافة إلى قوانين المشناه والجماراه، وهى مجموعة الشروح والتفاسير التى يتألف منها التلمود، وبذلك شمل جميع جوانب التشريع اليهودى. ومن مؤلفات ابن ميمون الأكثر شهرة أيضًا كتاب دليل الحائرين ((موريه هانبوخيم)) الذى أتمه فى عام ١١٩٠م/ ٥٨٦هـ باللغة العربية ثم ترجمه إلى العبرية(١)، وقد شرح فيه فكرة وحدانية الله، وفى هذا الكتاب ظهر أثر التفكير الإسلامى واضحًا وجليًا(٢). هذا وقد ترجم ابن ميمون عديدًا من الكتب العربية إلى اللاتينية التى ما من شك أنها أفادت الأوروبيين فى نهضتهم الحديثة بدليل حرصهم على طباعتها باستمرار منذ معرفتهم الأولى بالطباعة(٣). وعلى الرغم من الوضعية الخاصة التى تمتع بها فكر ابن ميمون، ورغم اتساع شعبيته بين جماعاتهم إلا أنه لم يُقبل بشكل كامل كسلطة عليا، بل كان موضع نقد عندما حاول أن يستحوذ على هذه المكانة، ويشهد على ذلك كثرة الجدال حول تعاليمه رغم أنه الشخصية الأكثر شهرة وقوة لإحاطتها بالشرائع اليهودية فترة العصور الوسطى، وكذلك لقدرته على وضع التفاسير الخاصة بالاخاه ودأبه على تجميع الشرائع وترتيبها(٤).

تعرض الخطاب الأول أيضًا لاسم عالم يهودى شهير آخر دعاه رشى Rashi عَرفه عوبديا بأنه مترجم نقل أعمالاً إلى اللغة العربية مستشهدًا بقدرته على الترجمة فى لفظة dudiam على أنها تعنى كلمة ياسمين العربية(٥). ولابد وأن تكون هذه الشخصية هو رابى شلومو بن يسحق الذى اختزل اسمه إلى رشى، وقد ولد وعاش فى فرنسا (١٠٤٠ – ١١٠٥م/ ٤٣١ – ٤٩٩هـ.)، وهو يعد من أشهر المعلقين والمفسرين الأشكيناز على التلمود(٦)، ترأس إحدى المدارس التلمودية، واشتغل بتجارة الخمور، وكان ملماً بالمصادر الدينية اليهودية السابقة عليه. كتب تفسيرًا لمعظم كتب العهد القديم، فجمع بين المنهجين المجازى والحرفى بكل يُسر ووضوح، كما كتب تفسيرًا للتلمود، وحقق

---

(١) Roth, Cecil, The Jewish contribution to civilization, p.195.

(٢) محمد خليفة حسن: الجنيزة، ص٩٣ – ٩٤.

(٣) وعن الكتب التى ترجمها ابن ميمون إلى اللاتينية وتجدد طبعها انظر:

Roth, Cecil, Op.Cit., pp.195 - 196.

(٤) Eisenstadt, S. N., Jewish civilization, pp.75, 82.

(٥) Obadiah, Op.Cit., p.221.

(٦) Ecncyclopedia Britanica, 1973, vol 18, art. Rashi

انظر أيضاً: صابر طعيمة: التاريخ اليهودى العام، جـ٢، ص١٩٠ – ١٩١.

نصه، وعَرَّف مصطلحاته، وشرح مفرداته الصعبة، ويعد هذا من أهم أعماله. وله أسلوب خاص فى رسم الخطوط يُعرف باسمه استخدمه فى كتابه الشروح والحواشى على التوراة وأسفار العهد القديم. ولم يتأثــر رشــى كثيرًا بالأفكار الفلسفية السائدة فى عصره، ومما يلاحظ تأثره العميق فى أحكامه الدينــية بالعلاقــات الاقتصادية التى عرفتها أوروبا العصور الوسطى أواخر القرن الحادى عشر وأوائــل القرن الثانى عشر الميلاديين. وقد كان رشى يورد دائمًا المرادف الفرنسى للمصطلحات التى يستخدمها بحروف عبرية، ولذلك أصبحت أعماله مصدرًا مهمًا لدراسة نطق فرنسية العصور الوســطى[1]، فى وقــت لم تكن العبرية تستخدم كلغة للحديث والتخاطب بين اليهود فى مختلف البلاد، واعتمد اليهود على لغات البلاد التى يقيمون فيها فى حياتهم العامة، وظهر ذلك بين يهود فرنسا، فقد كانت الفرنسية هى لغتهم الشائعة[2]. وإذا كان ذلك هو ما اشتهر عن شخصية رشى، نجــد عوبديا، وقد أبرز لنا جانبًا غير مألوف عنها؛ ألا وهو انشغاله أيضًا باللغة العربية ومضاهاتها بلغات أجنبية، مما يمكننا من إقرار وجود تأثير للأندلس القريبة من فرنسا على جماعة اليهود فيها.

وبصــدد علمــاء اليهود أيضًا أورد عوبديا فى خطابه الأول شيئًا عن عالم آخر كان قد تناول الحديث عن حيوان التمساح فى نهر النيل فى رؤية دينية، وفى هذا الشأن ذكره عوبديا أنه قد قيل له: ((أن هناك منه ما يبلغ حجمه ضعف حجم هذا الحيوان، ولعلها تكون هى تلك الضفادع التى تعود إلى زمن [النبى] موسى كما ذكرت شروح نحمانيدس Nachmanids[3]))، الذى يرد اسمه برســم آخــر Nahmanides، ولكن ماذا عن صاحب هذه الشروح التى أثرت فى فكر عوبديا وثقافته على هذا النحو؟ فإن واضعها هو موسى بن نحمان Moses Ben Nahman (١١٩٤ – ١٢٧٠م/ ٥٩٠ – ٦٦٨هـــ) الذى يعد أحد كبار حاخامات اليهود فى أسبانيا حيث مكث ثلاثة أعوام بين قشتالة وفرنسا، وكان يعد أكثر علماء اليهود اطلاعاً وثقافة فى عصره، وقد استقر ابن نحمان فى فلسطين عام ١٢٦٧م/ ٦٦٥هـــ. فالتف من حوله اليهود، وتمكن من إقامة جماعة يهودية فى القدس، وبعد مكوثه فى القدس لفترة قصيرة انتقل إلى عكا حيث ورد إليه طلاب العلم من شتى

---

(١) Ben- Sasson, A History of the Jewish people, p.502.

انظر أيضاً: عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـــ٥، ص١٥٨.

(٢) عبدالرزاق قنديل: الأثر الإسلامى، ص٢٧٥. وقد أفرد هذا الباحث صفحات طوال تناول فيها أعمال رشى وهى: ((استفسارات وفتاوى))، ((كتاب الفردوس))، ((كتاب المحظور والمباح))، ((كتاب الفصول))، ((سدوررشى)). راجع المرجع نفسه، ص٢٨٧ – ٢٩١.

(٣) Obadiah, Op.Cit., p.224.

أنحاء الشرق لينهلوا من علمه، حيث تميزت شروحه بالنظرة النقدية الخاصة التى غلب عليها معارضتها للنزعة الفلسفية المعاصرة فى الكتابة، وهذا يظهر فى تعليقه على العهد القديم الذى اعتمد فيه على العقل مع عدم استبعاد النزعة الصوفية. وكان له شعرًا غامضًا تم ترجمته إلى اللغتين الفرنسية والألمانية. ويمكن القول بان ابن نحمان نجح بفضل أسلوبه فى الكتابة أن يسيطر على اتجاهات الفكر الدينى اليهودى[١] ذلك أن مؤلفاته بلغت خمسين عملاً اتصلت بشروح التلمود وقواعد الهالاخاه والفكر الأصولى من خلال الكابالاه[٢]، بيد أنه لم نجد فى الثقافة أو الأدب العربى صدى لهذه الشخصية رغم إقامته فى مجتمع عربى فلسطينى فى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر الميلادى[٣]. وهذا يؤكد على هيمنة الثقافة العربية على أبنائها فى فلسطين شاملة بذلك جماعة اليهود فيها ولأجيال عديدة تلت.

وفضلاً عن هذه النماذج الخاصة بعلماء الربانين تعرض عوبديا أيضًا إلى جانب من علماء القرائين حيث يقول: ((لقد قرأتُ بعضًا من تعليقاتهم مثل تلك التى بقلم جافيت Japhet التى اقتبسها ابن عذرا، وكذلك تلك التى كتبها رابى هارون من طائفة القرائين[٤]))، ولم يمدنا عوبديا بأية تفاصيل تجعل من السهل التعرف على هؤلاء العلماء؛ إلا أنه من بين طائفة القرائين برزت شخصية الرابى جافيت الذى كان قد استقبل موسى بن ميمون ووالده وأخاه فى عكا أثناء رحلتهم إلى فلسطين؛ باعتبار أن جافيت كان يرأس جماعة اليهود المقيمة بالمدينة، ويقدر عددهم بمائتى أسرة يهودية[٥]. ويبدو أن الاتصالات كانت مستمرة بين المجتمع اليهودى فى عكا بصفته امتدادًا لمجتمعهم السفاردى فى الاندلس بدليل أن ابن عزرا الأندلسى اقتبس من جافيت بعض التعليقات.

---

(١) من أهم ما يذكر لنحمانيدس أنه أحيا جماعة اليهود فى القدس بعد الضربة التى وجهها المغول إليهم أثناء الغزو ١٢٦٠م/ ٦٥٨هـ. حيث حرص على إعادة المخطوطات التى كانوا قد هربوا بها إلى نابلس. كما أصلح أحد الأبنية، وجعل منه معبداً لليهود، وأقام الشعائر بحضور عشرة رجال بحيث غدا يستقبل اليهود الحجاج، كذلك أكمل تفسيره لأسفار موسى عليه السلام هناك، وحينما توفى عام ١٢٧٠م/ ٥٦٨هـ. تم دفنه فى حيفا. انظر: مارجوليز، م.ل.، ماركس، أ.: تاريخ الشعب اليهودى، ص١٦٨؛ ولمعرفة المزيد عن هذه الشخصية، راجع:

Ben – Sasson, H. H., A History of Jewish people, pp.226 –228; Sirat, Colette, A History of the Jewish philosophy in the middle ages, p.156.

(٢) Johnson, Poul, A History of the Jews, p.198.

(٣) قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص١٢٥.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.227.

(٥) Heschel, J., Abraham, Mamonides, p.45.

أما عن عزرا فهو الرابي إبراهيم بن عزرا ولد فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (١٠٩٢ أو ١٠٩٣م./ ٤٨٦هـ.) فى طليطلة بالأندلس، وتوفى فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى، ويعد أول من أدرك بصورة علمية مشاكل النقد الأدبى للتوراة فى تفسيره لها، وقد أكسبه ترحاله ثقافة وخبرة ربما لم تتوفر لغيره، وله مؤلفات فى النحو واللغة، وعرف بين الشعراء شاعراً ووضع تفاسيره التى اشتهر بها[١]. وبصفة عامة فقد أحدث نقله علمية ثقافية فى التراث الدينى اليهودى خلال القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى[٢].

أما الرابى هارون فلعله موسى بن يعقوب بن عزرا المكنى بأبى هارون، الذى اشتهر بشعره الذى حاكى فيه الشعر العربى، الذى ساد بلاد الأندلس التى نشأ فيها أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر الميلاديين. وفضلاً عن كتابه الشعرى الذى وضعه تحت عنوان ((سفرها عناق)) له كتاب شهير آخر أسماه ((المحاضرة والمذاكرة)) الذى كتبه بالعربية بأحرف عبرية، ويتناول كتابات فى تاريخ الأدب العبرى والشعر وخلاصة تجاربه ونصائحه. وفى مقدمته يعترف بفضل الثقافة العربية على اليهود. وفضلاً عن هذا أو ذاك فله كتب فى الفلسفة، وكانت وفاته فى أسبانيا المسيحية، وتأثر عدد من تلاميذ ابن هارون به مما جعل منه أحد علماء عصره[٣]، وقد بدا تأثيره على الأجيال اليهودية بدليل إشارة عوبديا إليه ورجوعه إلى كتبه.

وقد شملت المادة ذات الصلة بالعلوم والعلماء شيئًا عن تراث طائفة السامريين؛ ومن ذلك ما ذكره صاحبها عن طريقة كتابتهم للغة العبرية حيث يقول: ((وطريقة كتابتهم تختلف عن طريقتنا وهى الكتابة المقدسة. وأن تعاليم الميمونية تسجل أن طريقة كتابة السامريين تعد من الأمور المتعارف عليها والمألوفة عند بنى إسرائيل، قبل طرد الآشوريين كما أنها متعلقة تماماً بما ورد فى كتاب السنهدريم Sanhedrim [٤] يبد أن لغتهم العبرية مثل لغتنا، وإنما تنسخ قواعد النحو

---

(١) عبدالرازق قنديل: الأثر الإسلامى، ص٢٣٤ -٢٤١؛ محمد خليفة حسن: الجنيزة، ص٩١.

(٢) مارجوليز، م.ل.، ماركس، أ.: تاريخ الشعب اليهودى، ص١٠١ - ١٠٣.

(٣) محمد بحر: اليهود فى الأندلس، ص٦٨ - ٧٠.

(٤) هو أحد كتب التلمود، ويتناول تركيب مجلس السنهدريم عند اليهود ووظيفته، وهو مجلس قضائى يتألف من سبعين عضوًا انعقد فى المناطق التى كان يعيش فيها اليهود فى فلسطين قديمًا، وللمجلس الرأى النهائى فى إصدار الأحكام وتفسير القوانين بأغلبية الأعضاء. وقد قدم السنهدريم الأسانيد للرومان التى بناء عليها حكموا بصلب المسيح حينما اكتشف أنه ليس المشياح اليهودى وفقا لبعض المعتقدات. وتختلف الآراء حول نشأة السنهدريم بينما تتفق فى اختفائه فى القرن الرابع الميلادى، وقد حاول اليهود إعادة تشكيل المجلس، ولكن تناقص أعدادهم فى فلسطين حال دون ذلك. ولمعرفة المزيد راجع: عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٤، ص٦٣؛ عبدالرازق قنديل: الأثر الإسلامى، ص١٩٤ - ١٩٥؛ ذكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص١٨٤.

الخاصـــة بكلمـــات رباعـــية الحروف Tetragrammaton فهم يكتبون أشيما Ashima [١])).
ويشرح ميشولام بن مناحم ذلك تفصيليًا، ومما ذكره أن السامريين لهم لهجة عبرية وأبجدية خاصة تخـــتلف عـــن لغة سائر اليهود، ويزعمون أنها جاءتهم صحيحة من زمن موسى عليه السلام، وأن الأبجديـــة الـــتى يستخدمونها تنقص أربعة أحرف عن الأبجدية التى يستخدمها سائر اليهود[٢]. وفى الواقع فإن عدد الحروف السامرية تتساوى مع عدد الحروف فى اللغة العبرية، وتحمل نفس أسمائها. وهـــناك تفـــاوت فى تحديد أصول اللغة السامرية، فقد تكون لهجة آرامية، وربما اشتقت من اللغة العـــبرية والكلدانية والسريانية[٣]. أما المصطلح الذى استخدمه عوبديا تتراجراماتون فهى كلمة إغـــريقية تعنى (مكون من أربعة أحرف) ومن ثم فهو مصطلح يستخدم للإشارة إلى الاسم المقدس (يهوه) المكون هو أيضًا من أربعة أحرف[٤] وهى: (I. H. V. H.) وهى بالعبرية يود – هى – فاى – هى، غير منغمة[٥] وهذا يتفق مع خصائص هذه اللغة إذ أنها ليس لها نظام للحركات مثل اللغة العبرية[٦].

هكذا اكتفى عوبديا بتلك الشذرات المقتضبة عن حياة اليهود العلمية من خلال التعرض لأبرز علمائهم وأُدبائهم، ويلاحظ أن الذين اهتم بذكرهم قد عاشوا خلال الفترة من القرن الحادى عشر حـــتى الثالث عشر الميلاديين/ الخامس – السابع الهجريين وكانوا جُلهم من أصول أندلسية حيث نشأوا فى المجتمع الإسلامى فى تلك الديار أو تأثروا به، وهؤلاء وغيرهم من المعاصرين أسدل الستار

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.225.

من المعتقد أن عوبديا استخدم كلمة أشيما نموذجًا لنطق السامريين للكلمات العبرية، ولعل الأصل فى نطق الكلمة فى العبرية المألوفة هو ((شماع)) بمعنى اسمع؛ وهى أول كلمة من آية التوحيد عند اليهود ((اسمع يا إسرائيل، الرب الهنا الرب واحد)) . انظر: سفر التثنية ٦: ٤؛ حسن ظاظا: الفكر الدينى، ص١٧٣.

(٢) Mleshullam of Voltera, Op.Cit., p.171.

(٣) سيد فرج راشد: السامريون واليهود، ص١٩٥ – ١٩٧؛ فؤاد حسنين على: المجتمع الإسرائيلى، جـ١، ص١٠٢– ١٠٣.

(٤) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـ٥، ص٧٠.

(٥) عرفة عبده على: ملف اليهود، ص٢٢٣.

(٦) تتميز الأبجدية السامرية بانقسامها إلى خمسة أقسام طبقاً لأداء الحديث وهى: الحروف الحلقية، الحروف الشفوية،الحروف الفخمة، الحروف اللغوية، حروف الصفير. راجع: سيد فرج راشد: السامريون واليهود، ص ١٩٨ – ٢٠٠.

على فترة من أزهى وأجمل فترات الأدب العبرى، وكان الفضل فى ذلك دون شك للمعاملة الطيبة التى لقيها اليهود من العرب، هذه المعاملة التى كان ثمرتها العصر الذهبى للأدب العبرى خلال أربعة قـــرون[1]. وبرغم البعد المكانى والزمانى، فهناك أكثر من عالم يهودى سعى جاهداً إلى ربط يهود الشرق انطلاقًا من فلسطين بنهضتهم الكائنة فى الأندلس فى ظل رعاية إسلامية فى كل من الاتجاهين على حدٍ سواء، ويعد نحمانيدس نموذجاً بارزاً فى هذا الشأن.

وثمة مادة إضافية فى الخطابات فى موضوع العلوم ذاته لم ترقَ إلى مرحلة أن يكتب فيها عوبديا، إنمـــا اكتفى بالتنويه إليها، فيحنما تحدث عن زيارته لجزيرة رودس تعرض للطبيب اليهودى ناثان Nathan شقيق الرابى ميشولام بن مناحم[2]، الرحالة الذى عاصره، وحينما انتقل إلى الإسكندرية والقاهـــرة ثم القدس لم يذكر شيئًا عن الأطباء اليهود فى مجتمعاتهم هناك رغم وجود عدد منهم[3]. أما فى مجال العلوم الدينية فى الدولة المملوكية فقد نوّه عوبديا إلى امتلاك أحد اليهود السكندريين ويدعـــى موســـى جراسو لكتاب القبالاه Kabbalah، وأوضح أنه كان موضع نقاش علمى فيما بيـــنهما، ونظرًا لأنهما التقيا فى أفكارهما الخاصة بهذا العلم أصبحا صديقين[4]. والجدير بالذكر أن القـــبالاه هى عبارة عن تقليد أو عرف، وهو عبارة عن نظام فلسفى يهودى ذاع عن طريق أحبار اليهود وبعض النصارى فى العصر الوسيط أفكارها مبنية على تفسير الكتاب المقدس تفسيرًا صوفيًا الـــذى كـــون بعد ذلك ما يشبه الجماعة أو الطائفة، وبدأت تقريبًا عام ١٢٠٠م/ ٥٩٧هـــ فى جيرونـــا وأسبانيا، وانتقلت إلى فلسطين. وبعد ذلك أصبحت لها مراكز أخرى مثل شمال وجنوب أســـبانيا والمغرب وسالونيكا وبلاد الأتراك[5]. وبصفة عامة يلاحظ أن ما ورد من مادة عن العلوم المختلفة والعلماء فى الخطابات تعد شحيحة، رغم شغف صاحبها بهذه الأمور، ومع ذلك فمنها تم

---

(١) محمد بحر: اليهود فى الأندلس، ص٩٥.

(٢) Obadiah, Op.Cit., p.216.

وقد اشتهر عن الطبيب اليهودى قدرته على التعامل مع السحر والشعوذة وعمل العصائب فضلاً عما تعلمه فى مجال الطب. انظر: زكى شنودة: المجتمع اليهودى، ص٥١٠.

(٣) قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر، ص٩٦؛ زبيدة عطا: يهود العالم العربى، ص١٠٧ – ١٠٨.

(٤) Obadiah, Op.Cit., p.220.

(٥) Ben - Sasson, A History of the Jewish People, pp.89 – 92.

عبدالوهاب المسيرى: موسوعة اليهود، جـــ٥، ص١٦٣، ١٩٤.

إبـــراز الملامـــح الرئيســـية لحركة اليهود الفكرية فى الشرق بين مجتمعاتهم بالقدر الذى تضمنته الخطابات.

وإذا كانـــت الدراســـة قـــد اهتمت بتسليط بعض الضوء على علماء اليهود الذين وردوا فى خطابـــات عـــوبديا، فيمكن إضافة عالم آخر إليهم لم يرد عنه ذكر فيما كتب؛ ذلكم هو عوبديا البرتينورى نفسه؛ إذ تتفق الموسوعات المتخصصة فى الدراسات اليهودية على وصفه بالعالم الشهير فى علوم التوراة والمشنا، وتنسب إليه إنجاز بعض الأعمال العلمية المهمة بالنسبة لليهود، ولعله كان قد تأثر فيها بقراءاته للعلماء السابقين، وكان من أهم وأشهر مؤلفاته تعليقه على المشنا التى حرص فيها على دمج شروح رشى Rashi مع شروح ابن ميمون الأمر الذى جعل منه عالماً مرموقاً لقيامه بتوضيح أعمالهما، وظل مؤلفه هذا مقروناً باسمه Mishna The Bertinoro على مر الأجيال[1]. على ذلك بدا عوبديا كأحد رواد أسرة ابن تيبون Ebn Teppon الإيطالية التى عمل أفرادها على الجمـــع بين ثقافة يهود أوروبا وإخوانهم الشرقيين حيث دأبت على الانكباب على ترجمة التراث العربى إلى العبرية أو اللاتينية والعكس، وقد ظل نشاطها واضحاً حتى أواخر القرن الخامس عشر المـــيلادى/ التاسع الهجرى[2]. ومن ثم يبرز عنصر قوة إضافى فى شخصية عوبديا حيث بدا عالمـــاً فضـــلاً عن كونه إصلاحياً دينياً اجتماعياً. وقد استعان عوبديا فى مساعيه على ما يبدو بعدد كبير من تلاميذه الوافدين بعد طردهم من أسبانيا فى عام ١٤٩٢م./ ٨٩٧هـــ. ونظرًا لتفوقهم العلمى والـــثقافى عن أقرانهم اليهود العرب فقد نشطوا بحياة اليهود الثقافية فى ظل زعامته حتى تمكن من إعـــادة الهيشـــيفا Yeshibah اليهودية إلى فلسطين التى كانت قد فقدتها فى القرن الثالث عشر المـــيلادى/ السابع الهجرى بعد مرور قرنين من الزمان من انزوائها، وذلك بعد أخذها من مصر

---

(١) Wigoder, Geoffrey (Ed.), The New standard Jewish Encyclopedia, Art. Bertinoro; Roth, Cecil, (ed.) The Concuse Jewish Encyclopedia, First printing, London, 1980, Art. Obadiah of Bertinoro.

وقد طُبع مؤلف عوبديا فى البندقية فى عام ١٥٤٣م. وما يزال يشكل ركيزة تفسير اليهود للمشنا حتى يومنا الحاضر. انظر:

Barnvi, Eli, A Historical Atlas, p.43.

(٢) Horowitz, Elliott, Families and their fortunes, in: The Jews of Early modern Italy, p.597;

فؤاد حسنين على: المجتمع الإسرائيلى، جـــ٢، ص٣٥؛ حسين شريف: المفهوم السياسى، جـــ١، ص١٥٢.

والدولة العثمانية[١]. وبذلك أحدث عوبديا طفرة علمية ثقافية دينية كبيرة فى المجتمع اليهودى فى فلسطين لم يشهدها منذ عصر نحمانيدس. وشكلاً معًا حلقتين محورتين فى سلسلة نقل نهضة العصر الذهبى لليهود فى الأندلس إلى جماعتهم فى الشرق.

وأخيرًا نجد لعوبديا تقييمًا ورد على لسان أحد المقربين إليه، ألا وهو تلميذه الطالب اليهودى صاحب الخطاب، وبدايةً فهو يذكره على أنه ((الحكيم قائد إسرائيل الحاخام عوبديا)) وفى شهادته التى كتبها عنه يقول: ((إن الحاخام عوبديا رجل عظيم جدًا؛ فهو صاحب نفوذ كبير، لا يستطع أحد أن يرفع بنانه أمامه، ويأتى إليه اليهود من أقصى بلاد العالم، ويطيعونه فى كل كلمة يقولها. وعندما يصدر قرارًا يصبح قانونًا لآخر مدى، كما هى المسافة من مصر إلى بابل [العراق] حتى أن المسلمين يوقرونه ويحترمونه ويخشونه ... وكل الناس تثنى عليه وتمتدحه ويقولون عنه أنه أعظم من أى إنسان آخر[٢])). وكما رأينا فقد كان قدومه إلى فلسطين بمثابة علامة مميزة لعهد جديد للمجتمع اليهودى هناك، بل والشعب اليهودى فى العالم بأسره. إذ كان المجتمع اليهودى فى القدس على حافة الانهيار جراء الإدارة الطاغية للموظفين الرسميين اليهود التى كانت تتحكم فى كل كبيرة وصغيرة فى حياتهم. أما حينما حل بينهم تمكن بشخصيته القوية، وسمعته الطيبة كعالم ومصلح دينى واجتماعى أن يحوز على ثقتهم وحبهم مما أهّله إلى أن يصبح زعيمًا روحيًا لمجتمعهم هناك. وجديرًا بأن يلقبه تلاميذه بلقب قائد إسرائيل.

---

(١) Genzberg, Louise, Bertinoro, Obadiah, p.109.

(٢) A student's letter, pp.86 – 87.

ويضرب التلميذ مثلاً على مدى قوة تأثير أستاذه على من حوله فى أنه تمكن من قتل أحد الأشقياء بمجرد أن اتهمه بالسحر.

وفى وقفة تقييمية لخطابات عوبديا يتأكد أن ثلاثتها احتوت على مادة أصيلة منوعة من الطراز الأول، وكما حدد هو نفسه نهجه فى الكتابة -٠ على سبيل المثال – فيما قال: ((لقد سمعتُ أشياء لا تحصـــى عـــن فيضان النيل، وإنه لأمر قد يكون من الصعب تسجيله، خاصةً وإننى لم أرَ تلك الأشياء بعيني حقيقةً[١])). وإذا قسنا نهجه بالمعاصرين الذين اكتفوا بترديد حديث الأقدمين أمثال فليكس فابرى[٢] وغيره لاتضح الفارق، وقد نجح هذا المستوطن اليهودى فى تطبيق ما وضعه لنفسه مـــن نهـــج؛ فجمـــيع المادة التى تضمنتها الخطابات تقريبًا تنتمى إلى أدب الرحلة، ولا ينقصها إلا المســـمى كى تصبح من هذا الصنف من الأدب، إذ أنها تعتمد أساسًا على المشاهدة والاستقصاء؛ حـــيث نلمس ملامح هذا النوع من الأدب فى حرصه على تدوين ما رآه بنفسه داخل المجتمعات الـــتى انتقل منها وإليها وتعامل معها انتهاءً بالخليل والقدس، وقليلاً ما سجل مشاهدة غيره لبعض الجـــوانب، وفى العادة كان ينبه إلى ذلك، ويقر بأنه لم يرَ ذلك بنفسه إنما قيل له. وفى أحيان كثيرة كـــان يحدد مصدره. بل كان يقيمه، ويحدد مدى مصداقيته. ونلمس أيضًا فى كثير من عباراته ما يؤكد أنه لم يكتفِ بمشاهدة الظواهر المحيطة به أو تلك التى فى الأماكن الواقعة على طريق رحلته، إنمـــا كـــان يحرص فى العادة على نقدها بجمع المعلومات من اليهود بخاصة والتقصى عنها بالسؤال بغرض الوصول إلى الحقيقة المجردة ما أمكنه ذلك، وهذا فى حد ذاته يجعل منه رحالة متميزًا. فضلاً عـــن كونه أحد واضعى دليل الأرض المقدسة التى يفيد منها اليهود المسافرون مستندًا إلى تجربته الشخصية فى الهجرة إلى فلسطين.

ولمـــا كانت خطابات عوبديا قد أهلته لينتسب إلى رحالة أواخر العصور الوسطى اليهود فلم تـــبلور أهمية ما كتب إلا بمضاهاته بمن سواه الأقرب له زمنيًا منهم؛ ويمكن أن نخلص إلى أنه كان يتميز عنهم، إذ لم يُمعن فى وصف كل ما رآه ؛ كأنما اختار لنفسه أن يصف فقط ما له مغزى، وما قد يفيد فى إيجازٍ متعمد؛ وقد يتضح هذا الأمر للقارئ إذ ما تصفح رحلة الرابى ميشولام بن مناحم على سبيل المثال التى اهتمت بذكر تفاصيل لا داعى لسردها؛ وهذا لا يقلل بدوره من قيمة رحلة هذا الرحالة الذى سد فى كثير من الأحيان ثغرات فى المعلومات، أو أكد على ما ورد فى خطابات

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.230.

(٢) لاحظ انسياق هذا الرحالة وراء الجغرافيين اللاتين القدامى خاصة فى الأساطير المتعلقة بالنيل وظاهرة الفيضان والقصص الخاص بالتماسيح فيه.

عوبديا، أما إذا قارنا بين خطابات هذا المستوطن وخطاب تلميذه فإنه يتأكد تميز الأستاذ أيضًا، ففي الوقت الذى لم نعثر على منهجية محددة المعالم فى خطاب الطالب اليهودى وتناوله عديد من الأمور بشكلٍ متداخل وانتقاله من موضوع إلى آخر بلا مبرر، نجد عوبديا قد أبدى اهتمامًا أكبر بكل ما يخص اليهود وكأن عينيه لم تريا سواهم، وحينما تطرق عرضًا إلى موضوعات تخص المعلومات الجغرافية أو المجتمع الإسلامى أو الطوائف المسيحية أو التجارة الدولية كانت رؤيته إلى هذه الجوانب بعين يهودية، بمعنى أنه رأى مصر من نيلٍ وأهرامات وبحر أحمر مقرونة بذكريات اليهود الغابرة، أما العربان فى الصحراء فقد آثر أن يراهم من أبناء إسرائيل الذين فقدوا بحكم الزمن، وسبح بخياله إلى أن رأى مجد اليهود قادم من بين ثنايا هذا المجتمع الشرقى، وحينما سلط الضوء على النشاط التجارى سواء فى المجتمعات الأوروبية أو الإسلامية ربما وجد فى ذلك نفعًا وضرورة يجب تبليغهما لبنى ملته فى إيطاليا. وفى هذا الصدد لنا أن نتساءل عن الغرض من حرصه على إبلاغ ذويه بتحصينات المدن والأسوار والإمكانيات الاقتصادية الأساسية المتاحة فى كل بلد، خاصةً وأن هذا الاتجاه كان أكثر وضوحًا عند قرينه اليهودى ميشولام التى تكاد رحلته تكون قد قدمت تقريرًا وافيًا عن تحصينات المدن وأسوارها واقتصادياتها فى معظم البلاد التى تضمنتها رحلته، ولكن بشكل تنقصه الموضوعية التى تميزت بها كتابات عوبديا هذا مع ملاحظة أن كتابات المستوطن اتخذت شكل الخطابات التى يكون الغرض منها فى العادة إبلاغ ذويه بأمور محددة تخص الطرفين، فى حين كانت كتابات ميشولام عبارة عن سرد لرحلته بغرض تقديم دليل لمن سيأتى من بعده لزيارة الأرض المقدسة، وأيضًا بغرض تسجيل مجد خاص به وبسيرته الذاتية بصفته أنجز شعيرة الحج إلى القدس، وبالإشارة إلى خطاب الطالب فقد غلب عليه الحديث عن المعاملات المالية والشئون الخاصة بالسفر والتعليم دون المجالات الأخرى التى أوردها عوبديا.

وهكذا يمكن القول بإن خطابات المستوطن اليهودى تميزت بشمولية الرؤية، وكان على الباحث بذل جهد وافر لبلورة هذه الرؤية من خلال تصنيف مادتها بوضعها فى قوالب علمية بحيث تناولت دراسة الجوانب الجغرافية والسياسية والدينية والاجتماعية والنظم الإدارية والحياة اليومية والعلمية بين جماعات اليهود فى شرقى المتوسط الأمر الذى أدى إلى وضع تصور متكامل ومدقق لكل مبحث طارحًا المادة التى يغلب عليها تعميم، ولا تخص اليهود بعينهم جانبًا، ففيما يختص بالمعلومات الجغرافية فقد تميزت بالاهتزاز أحيانًا والوضوح أحيانًا أخرى، غير أنها تعد كافيةً للتمهيد لدراسة المجتمعات الرئيسية الثلاثة التى تم تناولها سواء أكانت أوروبية أم مصرية فلسطينية مملوكية. أما بالنسبة للبعد السياسى فى الخطابات فبطبيعة الحال لم تعنِ كثيراً بهذا البعد، ومع ذلك اجتمعت لدى الباحث بعضها من بين السطور، وكانت كافية أيضًا لفهم الظروف السياسية العامة

لجماعات اليهود أواخر العصور الوسطى من خلال العلاقات الدولية فى شرقى المتوسط بين القوى الرئيسية هناك؛ العثمانيين من ناحية وجزر المنطقة والقراصنة فيها من ناحية، ودولة المماليك من ناحية أخرى. وفضلاً عن ذلك، وعن طريق الرواية مكنتنا الخطابات من التعرف على أحوال اليهود السياسية فى بلادٍ بعيدة حيث اليمن والحبشة التى يقطنها يهود الفلاشا.

ولما كانت الخطابات قد خطها حبرٌ يهودى؛ فمن الطبيعى أن يكون البعد الدينى فيها واضحاً، وبالفعل فقد كان المعبد اليهودى ركيزته عند النزول بأى مجتمع يضم جماعة لليهود وكانت معابد باليرمو وميسينا ورودس محوراً ليهود جزر شرقى البحر المتوسط، وكذلك معابد الإسكندرية والقاهرة وغزة والقدس فى المجتمع المملوكى، ولما كانت جماعات اليهود تنقسم إلى طوائف، فقد برزت بعض الاختلافات فى العمارة والتجهيزات بل والأداء الدينى داخل معابدهم؛ فمنها ما هو للربانين، ومنها ما هو للقرائين، وظلت العقيدة تشكل الركيزة الأساسية التى تصنف كل جماعة، ولما كان عوبديا ربانيًا؛ فكانت عيناه ترصدان كل ما هو غريب، الأمر الذى ترتب عليه تقديم كثير من المعلومات عن الاتجاهات المخالفة لمعتقداته، ومن ثم تبرز لنا أوجه المقارنة بين كل طائفة من خلال نشاطها الدينى داخل المعبد. والثابت أن هذا البعد نجح فى رصد البقاع المقدسة التى اهتمت الخطابات بالحديث عنها أو التعرض لها، وتكاد تكون أرض فلسطين قد استحوذت على هذا الجانب فيما تم تدوينه.

ومن أكثر القضايا حرجًا وأهمية عند عوبديا تلك التى تتعلق بالنزعة الدينية التى كانت وراء أفكاره الاستيطانية، وكانت قد تملكت من صاحب الخطابات، وجعلته ينتمى فكريًا وعقائديًا بأرض المهجر فى فلسطين، وإنها لظاهرة نلمسها فى معظم الكتابات اليهودية. بيد أنها أكثر وضوحًا عند عوبديا مقارنةً بغيره، وترتب على ذلك اتجاهه بشكل لافت للنظر إلى التأصيل التاريخى اليهودى بربط أرض الشرق بالتراث الإسرائيلى، وبدا ذلك فى رؤيته النيل وأرض دموة وجوشن (بلبيس) وسكوث (العريش) وحبرون (الخليل) متوجًا إياهن بمدينة الله أورشليم. ونلحظ فى هذا الصدد اهتمامه بذكر الحرم القدسى على أنه الهيكل، والحائط الغربى على أنه الحائط المقدس والحرم الخليلى على إنه الماكفيلا حيث المغارة التى تضم رفات الأنبياء، وغزة على أنها أرض الفلسطينين التى شهدت قصة شمشون. وفى هذا الإطار أيضًا عدد عوبديا المقابر التى تضم شخصيات بارزة فى التراث الإسرائيلى مثل مقبرة راشيل وهاجيا وهيلدا وشمعون. فضلاً عن عشرات من القبور والكهوف التى تضم زعماء اليهود على مر العصور. وكثيرًا ما كان يرى الواقع العربى الإسلامى مقرونًا بالتاريخ الإسرائيلى حتى أولئك البدو فى شرق الأردن اعتبرهم من الركابيين من نسل إسرائيل، كما أقرن بقاعًا فى فلسطين بأسماء من بنى إسرائيل الأنبياء ومنهم الزعماء، ومن ذلك أنه

رأى جانبـاً من أطلال القدس هى بقايا دار السكة التى أنشأها سليمان عليه السلام، وعلى كلٍ رأت عيـنا عـوبديا القدس بالذات وفلسطين بعامة خرابًا يبابًا وكأنه صدم برؤيتها على عكس الصـورة الوردية المرسومة فى مخيلته عنها، أو التى كان يتمناها، وربما بإيحاء أنها طالما ليست تحت سيادة بنى إسرائيل فهى خراب، ولا شك أن هذه الروح ألقت بظلالها على كتابته؛ إذ التزم على مـدى خطاباته الثلاثة بتدوين تواريخ وقائع رحلة سفره إلى الشرق بالتقويم العبرى أو بالمناسبات الـيهودية أو الأشهر أو الأعوام. وفى النهاية قامت بدور الدليل الذى يلزم المسافر اليهودى عند توجهه إلى الأرض المقدسة بغرض الحج.

وإذا مـا توقفنا للإطلال على البعد الاجتماعى فى خطابات عوبديا الثلاثة، فسوف تبرز حقيقة حرصـه على إحاطة والده بالمعلومات الخاصة باليهود فى هذا الاتجاه بالذات، وبصفة عامة يمكن القـول إن هـذا المستوطن نجح إلى حد بعيد فى رسم صورة تجمع بين البساطة والعمق لجماعات اليهود ملبيًا بذلك مطلب والده بدقة نظرًا لنجاحه فى تناول جوانب عديدة من حياتهم، ومما قدمه مساعدةً للدراسة رصده فى العادة ما يراه غريباً عما ألفه فى مجتمعه الفلورنسى بإيطاليا بعينٍ واعية مدفـوعًا بالدين، حيث اهتم بذكر أعداد اليهود أينما وجدوا فى البلاد التى مر بها أثناء رحلته من إيطاليا إلى فلسطين؛ فتناول جماعاتهم الأوروبية فى صقلية حيث باليرمو وميسينا وفى جزيرة رودس وفى المجتمع المملوكى حيث الإسكندرية والقاهرة وغيرها فى مصر وغزة والخليل والقدس وغيرها فى فلسـطين. وفى المقابـل نجـده قد حرص على الإشارة لبعض المناطق التى انعدم فيها الوجود اليهودى، فحددها بمنطقة البحر الأحمر والجهات الشرقية من مصر مرورًا بشبه جزيرة سيناء حتى غزة. ولم يتوقف الأمر عند حد تعداد اليهود وأماكن تجمعاتهم إنما تمكنت الدراسة من بلورة المادة التى تؤرخ لأحوال اليهود وحياتهم اليومية فى هذه المجتمعات، وفى هذا الصدد يجدر بنا أن نسجل للمســتوطن موضوعيته التى غلبت على معظم ما دون وعدم جنوحه للمبالغة فى تقدير أعداد أو تقييم أحوال اليهود بحيث مكنتنا خطاباته الثلاثة من الخروج بانطباع عام وموضوعى، ألا وهو أن الـيهود عاشوا فى جيتوات معزولة داخل المدن الأوروبية حتى من قبل تبلور هذا المصطلح فى حين عاشوا فى البلاد المملوكية فى شوارع أو حارات خاصة بهم ليس بغرض عزلهم إنما بتأثير الأُلفة التى تجمع أبناء الدين الواحد.

وثمـة انطباع آخر تمثل للباحث من خلال الدراسة؛ هو أن يهود أوروبا لم يتمتعوا بالحرية التى تمتع بها أقرانهم فى ظل الحكم المملوكى فىمصر والشام، ففى الوقت الذى حرص فيه عوبديا على الحـديث عـن اشـتغال اليهود فى أعمال مهينة ومع تمييزهم بعلاماتٍ حمراء فى باليرمو مع شرحٍ للظـروف البائسة وانتشار الفقر بين يهود رودس، نجده يشير إلى ثراء السامريين وبعض القرائين

وربما الـــربانين أيضًا فى القاهرة، وهكذا كان تكافؤ الفرص يشكل الركيزة لبلاغ مرتبة أفضل جعلت منهم عنصرًا فعالاً وإيجابيًا داخل المجتمع المملوكى، وليس عنصرًا منبوذًا تم التعامل معه على أساس من النفعية المجردة فى المجتمعات الأوروبية.

وهناك كلمات لها مغزاها فى الخطابات تكشف بوضوح عن رؤية عوبديا للمجتمع المملوكى ورعايتــه للحــربات وتكافؤ الفرص بين طوائفه؛ ومنها على سبيل المثال أنه رأى من السهل على اليهودى أن يصبح ثريًا أو يزداد ثراءً بالعمل فى القاهرة، وبهذا فهو يوجه الدعوة لبنى ملته للعمل واســتثمار أمــوالهم فى الشرق بهدف الثراء، وهذا فى حد ذاته يعكس تعطش السوق المملوكية لــرؤوس الأموال، وربما يعكس أيضًا فشل الإدارة المالية فى الدولة بحيث عجزت عن وضع النظم الكفــيلة بتوفير رؤوس الأموال وتوجيهها نحو الاستثمار الأمثل فى الوقت الذى أوضحت لنا فيه الخطابــات تفوق أصحاب رؤوس الأموال الإيطاليين فى هذا المجال. ويتمثل الموقف الآخر فى رأى عوبديا الخاص بتكافؤ الفرص أمام من يرغب فى اعتلاء المناصب فى المجتمع الفلسطينى حينما ذكر إنــه من السهل على أى يهودى ذكى متمكن من العلوم السياسية أن يرتقى إلى أن يصبح رئيسًا سواء لليهود أو العرب، وأكد على أن السلطات لم تضع أمامه أية معوقات أثناء تحركاته فى البلاد طولاً وعرضًا على الرغم من كونه أجنبيًا، فما بالكم وتعاملهم مع اليهود العرب! هذا كله جعل مـــن جماعات اليهود داخل المجتمع المملوكى مجرد جماعة عربية تعتنق دينًا يختلف عن دين الأغلبية، ولكـــنها تشاركهم فى الأرض واللغة والخصائص الثقافية العامة، وعليه كان الدين اليهودى يمثل العنصر الذى يميزهم داخل معابدهم ومؤسساتهم المرتبطة بالدين، واقتصر التعليم باللغة العبرية على المنكبين على دراسة اللاهوت بدليل عدم دراية غالبيتهم بها.

شملت المادة التى احتوتها الخطابات أيضًا على معلومات كانت كافية للوقف على بعض الجوانب الإداريـــة التنظيمية التى تساعد فى إدارة جماعات اليهود سواء الأوربية منها أو المملوكية؛ فهناك الجيتو الأوربى الذى يشكل فى حد ذاته وحدةً اجتماعية يديرها مجلس البرناسيم، ويتشكل من عدد محـــدد مـــن الأعضاء شرح عوبديا لنا جانبًا من الإدارة داخله، أما فى المجتمع المملوكى فقد اهتم بمنصب النجيد، وتمكنت الدراسة من خلال المادة المتوفرة وغيرها من الوقوف على وظائفه وآلية عمله. كذلك تناولت الدراسة أنواع الضرائب التى كان على اليهود دفعها سواء التجار أو الزوار أو الأهالى، فتراوحت بين مكسٍ يدفع أو ضريبة يُعفى منها الأجنبى اليهودى أو جزية يدفعها جميع الـــيهود بشكل تضامنى، وكانت الخطابات قد أشارت إليها بضريبة الرأس، ثم هناك الضريبة التى تدفع بغرض الحصول على ترخيص صنع الخمر فضلاً عن الضرائب الاستثنائية التى لا ترتكز على

قـواعد محـددة، وفى العادة كان يتم دفع الضرائب بشكل تضامنى، وقد أثبتت الدراسة أنه هو الأسلوب الذى اعتمدته السلطات مع اليهود فترة قدوم عوبديا.

وفى هـذا الـبعد المـتعلق بالإدارة تعرضت الخطابات لألقاب منها الأكومودور فى رودس، والنَجـيد فى القاهرة، وشيوخ اليهود فى القدس الذين يتشكل منهم مجلس الجاؤون، ومن الألقاب المملوكـية تم الإشـارة إلى جامـع الضـرائب على الطرق بلقب ((نفر)) Napher، وإلى والى الإسـكندرية بلقـب ((الأمـير))، وإلى نائب السلطنة بالقدس ((نيبو)) Niepo، أما السلطان المملوكـى، ففـى العـادة أشـارت إلـيه الخطابات بلقب الملك، وأوضحت فى كل مرة أبرز الاختصاصات الإدارية لكل منها.

استخلصـت الدراسـة أيضًا بعدًا إضافيًا من مجمل الخطابات، وهو ما يتعلق بعادات اليهود وتقاليدهم سواء فى المجتمعات الأوربية التى تعامل معها عوبديا أو فى المجتمع المملوكى، وإن كانت قد ارتكنت جميعًا إلى الدين؛ فقد تبين للباحث أن عوبديا كان أشكينازيًا من خلال اهتمامه بذكر العادات السفاردية على أنها مخالفة، كما استنتج أنه من طائفة الربانين نظرًا لأنه ذكر تقاليد القرائين مخالفةً لها أيضًا، وكان المعبد اليهودى خير مكان تبدو فيه هذه الاختلافات بحكم أنه يمثل محور حياة اليهود اليومية، وفى الواقع تم التثبت من عدم وجود طُرز معينة تميز العمارة اليهودية فى بناء المعابد، أمـا ما يميزها فيتمثل فى الاختلافات فى العادات والتقاليد الخاصة بممارسة بعض الطقوس الدينية والشعائر الخاصة بتحديد بدء السنة العبرية، وفى مدى الالتزام بتأدية صلاة المنشا مؤكدًا على أن اليهود الشرقيين كانوا يؤدونها قبل العشاء منفصلة عن صلاة المنيان، فى حين أن الأشكيناز يؤدون الصـلاتين معًـا. كما لفت نظره الاختلاف فى وضع لفائف التوراة على الأرفف وارتفاع منصة المـرتلين مـن عدمها داخل المعبد وأسلوب السفارد فى دفن موتاهم وتشدد القرائين فى عدم لمس أجساد الموتى على اعتبار أنه نجس، وعلاوة على ذلك كان للمجتمع المملوكى الإسلامى بصماته الواضـحة علـى عـادات وتقاليد اليهود المقيمين خاصةً ما يخص خلع الحذاء عند دخول المعبد والجلـوس على الأرض ومائدة الطعام، وفيها تتضح أيضًا المؤثرات الشرقية العربية بصفتهم جزءًا من نسيجه العام، وكان وقوع القدس والخليل فى فلسطين سببًا فى بروز عادات خاصة ميزتها عن باقـى المجتمعات بالنسبة لليهود، إذ كان عليهم شق ثيابهم مرتين لحظة دخولهم القدس، والحرص علـى دفـن موتاهم بأرض الخليل. ولما كانت الأعياد والمناسبات هى أكثر ما يميز مجتمعٍ ما، فقد اهتمت الدراسة أيضًا بتسليط الضوء على ما اهتم عوبديا بالحديث عنها أو الإشارة إليها مثل عيد البوريم وعيد شابعوث.

ثم كـــان آخر مباحث هذه الدراسة حيث الحياة العلمية والعلوم والعلماء اليهود، فقد شكلت القــدس الركيــزة عند صاحب الخطابات؛ حيث أبدى الحسرة على انحطاط الحياة العلمية فيها، وبالـــرغم مـــن أن الدراســـة اهتمت بتبيان دور عوبديا فى تغيير هذا الوضع معلمًا وحبرًا يلقى المحاضـــرات والمواعظ، إلا أنه لم يهتم كثيرًا بهذا الجانب فى خطاباته، وما ذكره عن علماء اليهود كان عرضًا، ومن ثم كان من الضرورى إلقاء بعض الضوء على كل الشخصيات والأحداث ذات الصـــلة بالعلـــوم الدينية والعلماء الذين تم الإشارة إليهم، هذا وقد اقتصر التدريس على التوراة والـــتلمود والمشـــنا وعلم هالاخاه وعلم القابالاه فضلاً عن اللغة العبرية،بيد أن خطابات عوبديا مكنتنا مع خطاب تلميذه من الوقوف على أسلوب التدريس فى المدينة والنقلة التى أحدثها عوبديا فى هـــذا المضـــمار، وكان من العلماء الذين تم الإشارة إليهم فضلاً عن ابن ميمون العالم إسحاق الفاسى ورَشى وموسى بن نحمانيد وجافيت وإبراهيم بن عذرا، وانتهى هذا المبحث بوقفة تقييمية لشخص عوبديا معلمًا وعالـــمًا وباعثًا لنهضة اليهود فى فلسطين؛ حيث أصبح يمثل حجر الزاوية بين جماعات اليهود فى الشرق فى أخريات العصور الوسطى، حتى يمكننا القول بأنه شكل الشخصية الأبرز بين علماء اليهود وزعمائهم فى فلسطين، ومن ثم يمكن مقارنته برشى وموسى بن ميمون من الســـابقين، وتيودور هرتزل من اللاحقين، وأصبح جديرًا بأن يلقبه تلميذه بقائد إسرائيل العظيم. نظـــرًا لـــبروزه ليس فقط مصلحًا دينيًا وتعليميًا واجتماعيًا، وإنما تخطى ذلك إلى ظهوره زعيماً له نفوذه بين اليهود، كما كان له احترامه عند السلطات المملوكية.

وأخيرًا، وبعد نهاية الدراسة فقد نتساءل مرةً أخرى السؤال نفسه الذى ورد فى المبحث الأول فيها عما إذا كانت نزعة استيطان عوبديا قد توقفت عند مجرد كونها فكرةً معنوية، على اعتبار أن فكرة العودة إلى فلسطين محرمة من قبل اليهودية الحاخامية؛ فلقد أثبت عوبديا على مر الدراسة أنه رجـــل متدين شديد التعصب ليهوديته جاء القدس مكرسًا حياته وعلمه ونفوذه للنهوض بجماعة اليهود فى فلسطين، وربما فى دولة المماليك قاطبةً، وقدمت الدراسة الشواهد الأخرى لتؤكد على أنـــه تمكن من أن يوجد المناخ المناسب لهم بتعميق الدين فى أنفسهم بل وفى نفسه بحيث غدا أبرز علمـــاء الـــيهود فى دراسة المشنا، فضلاً عما أحدثه من طفرة إصلاحية بالنهوض بجماعة القدس اليهودية، وجعل منهم قاعدةً يلجأ إليها يهود أسبانيا والبحر والمتوسط فضلاً عن يهود الشرق فى فـــارس ومـــا يليها لتبدو أكثر قوةً مع بدء العصر العثمانى فى فلسطين،الأمر الذى جعل منها دارًا لهجرتهم.

وعليه نخلص إلى أن نزعة عوبديا الاستيطانية لم تتوقف عند مجرد كونها فكرة معنوية، بل تخطت ذلك ولو فى خطوة أولى على الطريق إلى تجسيد الشعار الدينى لمفهوم أرض إسرائيل إلى إرهاصات

المفهوم السياسى لها، وهو ما تصبو إليه النظرية الصهيونية فى العصر الحديث، ولا غرابة فى ذلك، فقــد ظل اليهود يسعون إلى إقامة كيانهم المنهار طيلة الفترة الواقعة من القرن الثانى الميلادى حتى القرن العشرين، وطيلة هذه العصور أخذوا يستعدون بشتى السبل ليوم العودة إلى ما يدعونه أرض الميعاد.

ملاحق الدارسة

ملحق رقم (١)

الطرق البحرية والنهرية والبرية والموانئ فى خطابات عوبديا:

(أ) الطرق البحرية:

يمكن أن نستشف بعض الطرق البحرية وخطوط سير السفن التجارية والركاب من مجمل ما ورد فى خطابات عوبديا، فهناك الخط الملاحى الواصل بين نابولى وباليرمو، وكذلك هناك طريق البندقية -- بيروت البحرى المار بمدينة سيراكوز فى صقلية، وهو خط يخدم حركة التجار والمسافرين المتوجهين إلى بيت المقدس. وهناك أيضًا الخط الملاحى الواصل بين جنوب فرنسا وميناء الإسكندرية عن طريق باليرمو لجزيرة رودس. وكانت السفينة تقطع المسافة من رودس إلى الإسكندرية فى ستة أيام. وفضلاً عن هذا فهناك الطريق الدولى الذى يربط البندقية بالأرض المقدسة فى فلسطين الذى يعد بمثابة طريق الحج المسيحى، ويشير إليه عوبديا بقوله: ((وها هم اليهود يأتون كل عام فى السفن البندقية، بل وكذلك السفن الخاصة بالحجيج؛ إذ لا يوجد طريق أكثر أمنًا ولا أقصر من الطريق الذى تسلكه تلك السفن))[١]. إلا أن الطريق الواصل بين باليرمو والإسكندرية يعد من أكثر هذه الطرق انتظامًا، وكانت السفن تقطعه فى العادة خلال ثلاثة عشر يومًا[٢].

تحدثت الخطابات أيضًا عن آلية العمل فى بعض الموانئ؛ حيث تم التعرض إلى الدور الذي يلعبه فنار ميسينا فى تنظيم حركة السفن ومرورها من الشرق إلى الغرب والعكس، وقدرة استقبال ميناء البلدة للسفن الضخمة نظرًا لعمق المياه فيه. أما فى ميناء الإسكندرية، فالواضح أن دخوله من قبل السفن الأجنبية كان يستدعى الحصول على ترخيص من السلطات المملوكية، وقد أثبتت الدراسة أن هناك تعاملاً خاصًا مع السفينة التى كانت تقل عوبديا لأسباب سياسية، حيث أشار إلى أن ربانها رسا بها على مبعدة أربعة أميال قبالة أبى قير انتظارًا للأمان الذى حرص على الحصول عليه قبل دخول الميناء، والمهم فى هذا الموقف أن عوبديا أوضح استخدام سفينة صغيرة كانت تحمل داخل السفينة الكبيرة لنقل بعض السلع التى حملها الربان لبيعها فى الإسكندرية، وكانت سعتها مائتى طن من الغلال. ومن مواصفاتها أنها مركب شراعى ذات ثلاثة صوارى وثلاثة مراسى؛ ولما كان هذا

---

(١) Obadiah, Op.Cit., p.243.

(٢) Goitein, S. D., A Mediterranean society, vol. 1, p.322.

المركب قديم وخرب فقد تعرض لخطر التحطم والغرق، فما كان منهم إلا أن لجأوا: ((إلى إرسال إشـــارات إلى الســـفن الأخرى بإطلاق رصاصات البنادق بغرض إرسال مركب للإنقاذ)) إلا أن العاصـــفة توقفت. وبالنسبة للبحر الأحمر أشار صاحب الخطابات إلى طبيعة السفن التى تجوبه بأن ليس لها أن يكون بها حديد أو تستخدم فى صنعها المسامير مفسرًا ذلك باحتوائه على المغناطيس[١].

لهـــذا ولم يذكر عوبديا ميناء مصر الرئيسى على البحر الأحمر الذى كان عليه القيام بكل هذا الـــدور التجارى مكتفيًا بالإشارة إليه حيث ذكر ((قيل أيضًا أن الميناء الذى تأتى إليه سفن البحر الأحمر المحملة بالبضائع من كل مكان، وتفرغ فيه بضائعها لتنقل إلى القاهرة بواسطة الجمال، لا يقع بعـــيدًا عـــن جبل سيناء الذى ليس بينه وبين القاهرة سوى رحلة خمس أيام[٢])) ولما كانت هذه المواصـــفات تنطـــبق تمامًـــا علـــى ميناء القلزم عند رأس خليج السويس وفقاً لما ورد بالمصادر الإسلامية[٣]، فيكون هو الميناء المعنى من قبل صاحب الخطابات.

(ب) الطرق النهرية:

وفضـــلاً عن هذه الخطوط الملاحية فهناك إشارة إلى خط نهرى استخدم عوبديا إحدى السفن المنتظمة فى السير فيه من رشيد إلى القاهرة.

(جـــ)الطرق البرية:

أمـــا عـــن الطرق البرية فى الرحلة فلم يذكر عوبديا منها إلا الطريق الواصل بين الإسكندرية ورشيد، وكذلك الطريق الواصل بين القاهرة والقدس الذى استخدمه ويبدأ من الخانكة، وبعد أن غادرها ذكر ((وصلنا بعد ذلك إلى الصالحية حيث مكثنا هناك ... منتظرين مرور إحدى القوافل، نظـــرًا لأن الطريق عبر البرارى يبدأ من هذه البلدة، وهو غير مأمون لمجرد عبور رحلة مكونة من خمســـة جمال فقط ... إلى أن وصلت قافلة عربية تتألف من ثمانية جمال، الذين اصطحبناهم إلى أن وصـــلنا قطـــية، وهى بلدة وسط البرارى حيث لا يمكننا رؤية أى مظهر من مظاهر الحياة النباتية سوى النخيل ... وعلى امتداد الأراضى [حتى بلوغ فلسطين] ما هى إلا رمال، فلا يوجد كذلك

---

(١) Obadiah., Op.Cit, pp.219, 225.

(٢) Ibid, p.225.

(٣) ابن جبير (ت ٦١٤هـــ/ ١٢١٧م.) أبو الحسين محمد بن أحمد الأندلسى: رحلة ابن جبير المسماة تذكرة الأخبار فى اتفاقيات الأسفار، تحقيق: حسين نصار، القاهرة، ١٩٥٥م، ص٦٨.

أى نــوع من النباتات حتى أن أشجار النخيل توجد فى أماكن محددة ومعروفة ... وخلال البرية وصلنا إلى العريش ... وكانت القوافل قد اعتادت على نصب خيامهم فيها وقت الظهيرة لتبدأ فى البرية حتى وصلنا إلى غزة دون حدوث أية مشكلة تذكر)). ثم كان الطريق الداخلى الواصل بين غزة والخليل ثم طريق الخليل – القدس عبر حلحول وبيت لحم[1].

ملحق رقم (٢)

جدول يتضمن أسماء البلاد وتواريخ الوصول إليها وعدد الأسر اليهودية فيها وفقا لما ورد فى خطابات عوبديا.

خط سير الرحلة	تاريخ الوصول ومدة الإقامة	عدد الأسر
سيتا دى كاستيلو	٩ نوفمبر ١٤٨٦م.	----------
روما	----------	----------
نابولى	١٢ نوفمبر ١٤٨٦م.	----------
سالرنو	مكث فيها أربعة أشهر	----------
مغادرة نابولى ثانية	٨ يوليو ١٤٨٧م.	
باليرمو	مكث فيها من ١٣/ ٧ – ١/ ١٠/ ١٤٨٧م. شهرين ونصف تقريباً	٨٥٠ أسرة
ميسينا	٣ أكتوبر ١٤٨٧م.	حوالى ٤٠٠ أسرة
قلعة القديس يوحنا	----------	----------
رودس	١٨نوفمبر ١٤٨٧م مكث فيها ما يزيد عن شهر	باقى فيها ٢٢ أسرة
الإسكندرية	يناير – فبراير ١٤٨٨م مكث فيها سبعة أيام	حوالى ٢٥ أسرة
رشيد	فبراير ١٤٨٨م	----------
فوه	فبراير ١٤٨٨م مكث فيها يومين	----------
بولاق – القاهرة	مارس ١٤٨٨م.	حوالى ٧٠٠ أسرة

(1) Obadiah, Op.Cit., pp.231 – 233.

الخانكة	مكث فيها يومين	----------
الصالحية	مكث فيها ثلاثة أيام	----------
قطية	محطة مرور	----------
العريش	----------	----------
غزة	مكث فيها أربعة أيام	----------
الخليل	٢٣ مارس ١٤٨٨م.	حوالى ٢٠ أسرة
القدس	٢٥ مارس ١٤٨٨م.	٧٠ أسرة
طرابلس	ليست على خط السير	١٠٠ أسرة

أشكال وخرائط الدراسة

شكل رقم (١)

صورة داخلية لمعبد من طراز تومار Tomar

نقلاً عن: Krinsky, C. H., Synagogues of Europe, p.240.

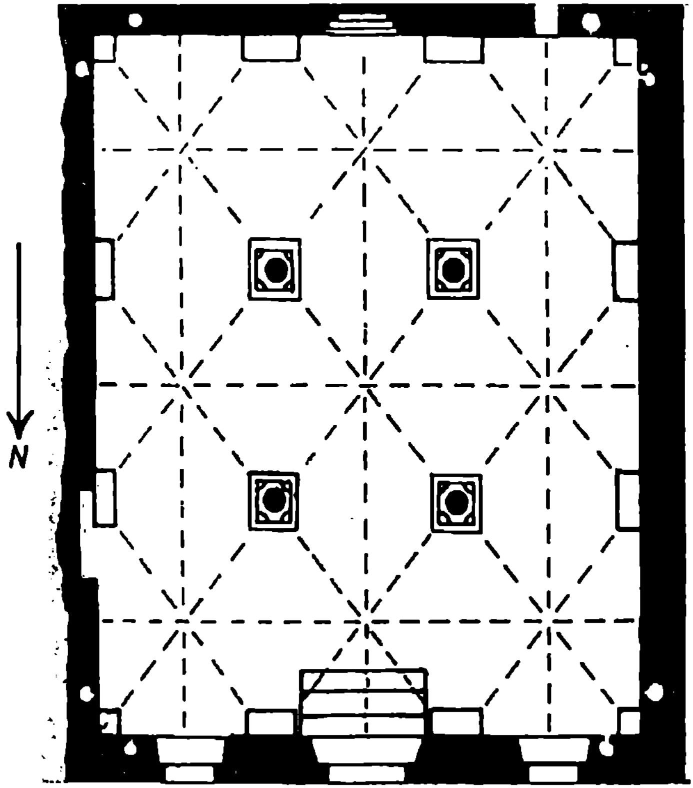

شكل رقم (٢)

رسم تخطيطي لمعمار التومار

Krinsky, C. H., Synagogues of Europe, p.339. نقلاً عن:

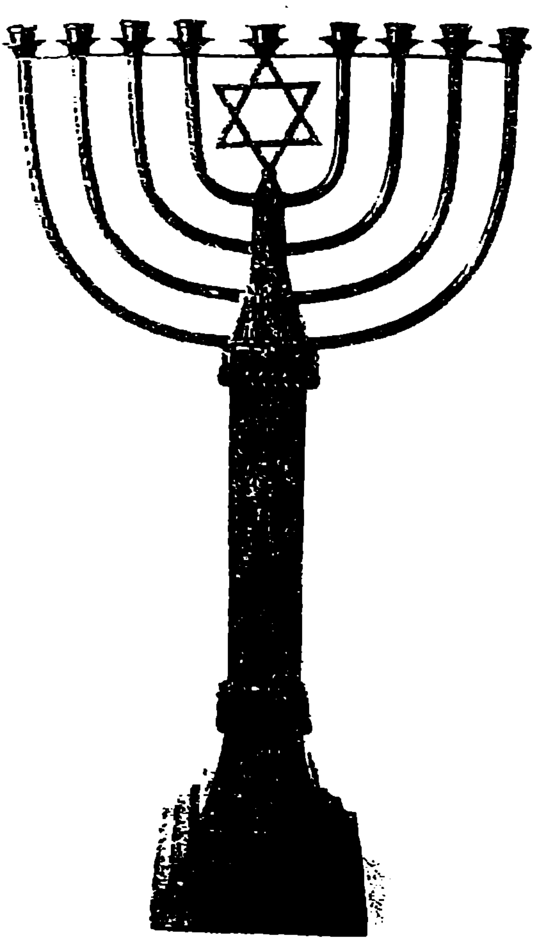

شكل رقم (٣)

الشمعدان الذهبى (المينوراه)

معبد ابن عزرا بالقاهرة

نقلاً عن: تقرير هيئة الآثار، إعداد: محسن ربيع

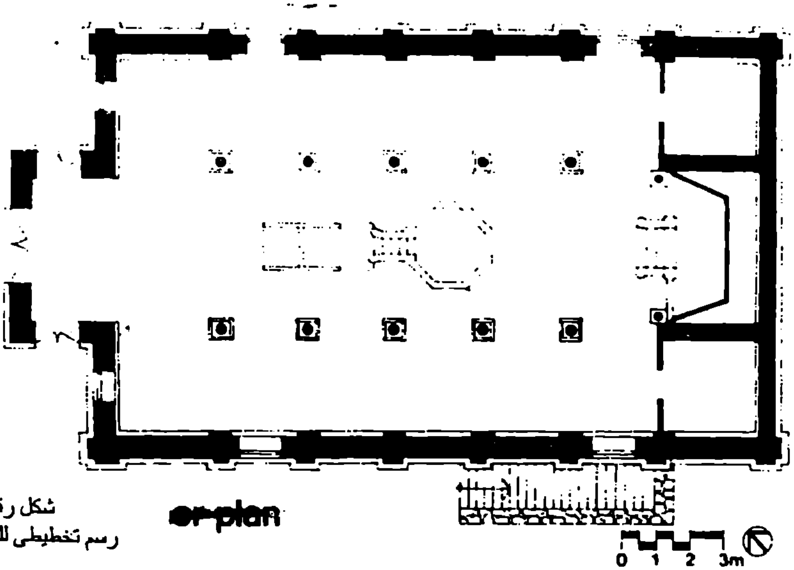

شكل رقم (٤)
رسم تخطيطى للطابق الأرضى

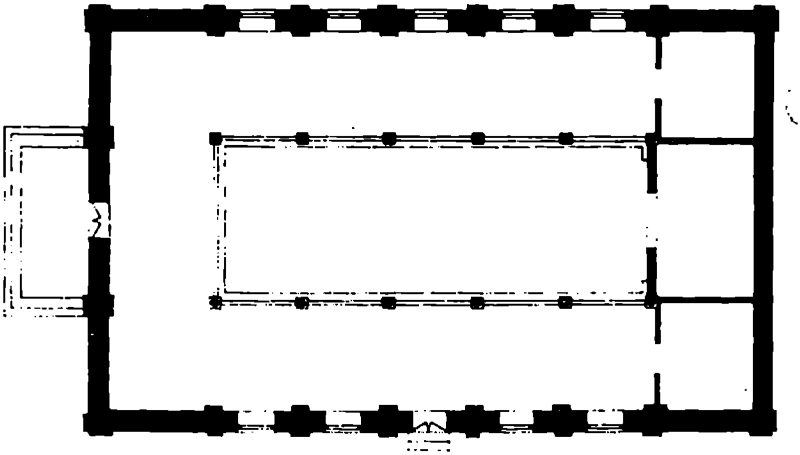

شكل رقم (٥)

رسم تخطيطى للطابق العلوى

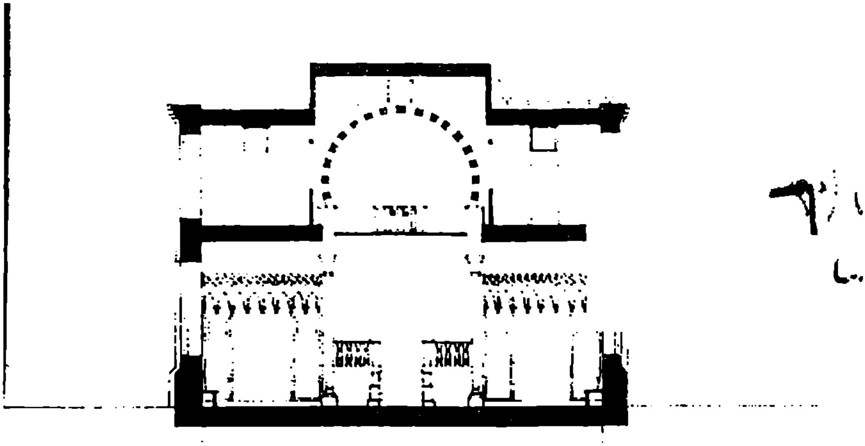

شكل (٦)
قطاع عرضى

tion

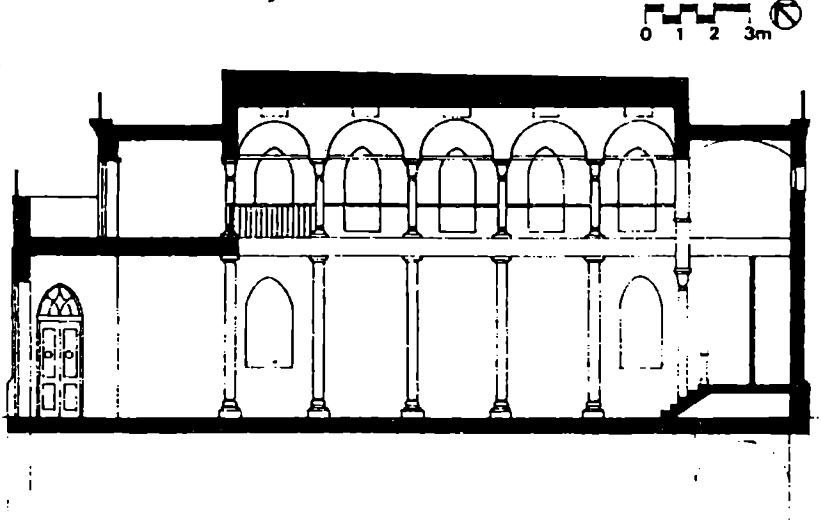

شكل (٧)

قطاع طولى

شكل رقم (٨)

معبد يوحانان بن ذاكى بالقدس فى القرن الثالث عشر الميلادى (المنظر من الداخل).

نقلاً عن:

Sed – Rogna, G., L'art Juif, C., L'art et les grandes civilisations, p.602.

خط سير رحلة الذهاب عند عوبديا البرتينورى عام ١٤٨٦ – ١٤٨٨م.

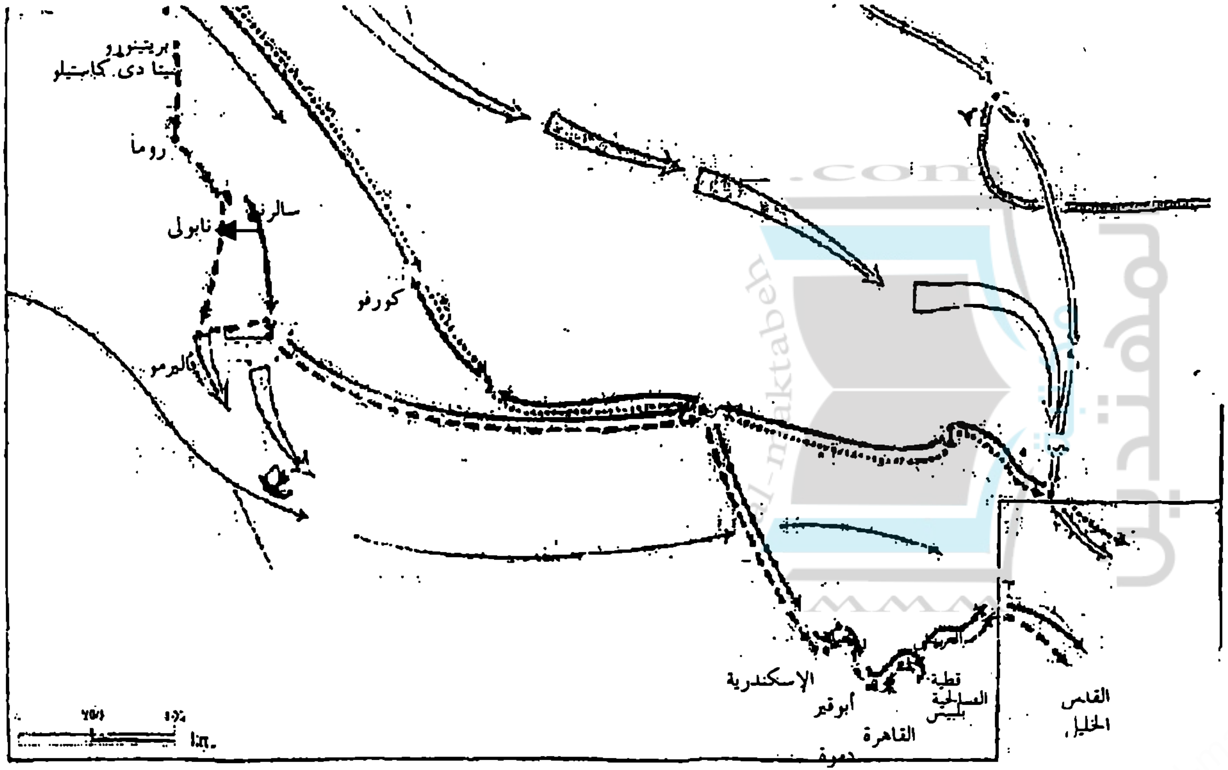

تذييـــل علـــى الدراســـــة

عرض للخطابات الثلاثة

نستعرض فى الصفحات الآتية ما اختطه قلم عوبديا جار دا برتينورو إلى ذويه فى خطابات ثلاثـــة، تضمنت وقائع رحلته ومشاهداته فى البلاد التى مر بها من موطن المنشأ إيطاليا حتى موطن المهجـــر القدس. وقد حرص الباحث على الإبقاء على الحواشى التى وضعها الناشر أدلر فى ترجمته للخطابات الثلاثة على حالها.

الخطاب الأول

«إننى أعلم يا والدى العزيز أن رحيلى قد سبب لك الألم والمشاكل، وها أنا الآن لا أجد من البشر من فى وسعه مواساتى لتركك فى الوقت الذى أخذت فيه عافيتك فى التدهور، ولا يمكننى أن أجفف دموعى يا والدى حينما أتذكر أننى قد هجرت شعرك الأشيب. ولذلك فمنذ ذلك الوقت، فقد حرَّمت على نفسى الابتهاج إلى أن ألبى مطالبك كما عاهدتك، ذلك أن الرب هو الذى قدر لكلينا أن نفترق. على الأقل اسمح لى أن أقص عليك وقائع رحلتى منذ البداية p.210 وحتى النهاية، وفقًا للنهج الذى تمنيت علىّ اتباعه فى خطاباتك، التى تسلمتها أثناء وجودى فى نابولى Naples فى مثل هذا الوقت من العام الماضى، وذلك بوصف عادات وتقاليد اليهود فى مختلف الأماكن التى قمت بزيارتها متناولاً واقع حياتهم وطبيعة علاقاتهم المتبادلة مع السكان الآخرين فى هذه المدن.

ففـــى اليوم الأول من الشهر التاسع كسليف [Kislev[1]-15 November1486] (*)
بعـــد أن أعـــددت كل الأمور بمحل إقامتى فى سيتا دى كاستيلو، أخذت فى التردد على روما ثم انطلقت منها إلى نابولى التى وصلت إليها فى اليوم الثانى عشر من الشهر ذاته وأمضيت فيها فترة كنت خلالها مجهدًا غاية فى الإجهاد، حيث إننى لم أجد أى مركب على النحو الذى يروق لى، لذا فقد توجهت إلى ساليرنو Salerno حيث مكثت لمدة أربعة أشهر ثم عدت مرة ثانية إلى نابولى.

---

(1) انظر: Encyclopedia of Jewish Knowledge, p. 281.

(*) كل ما هو مذكور بين الأقواس [ ] توفيقٌ من الباحث بين التواريخ اليهودية والميلادية.

وفى الشهر الرابع فى يوم الصيام [السابع عشر من تموز[١] Tammuz الممتد من يونيو إلى يولـيو ١٤٨٧م.] خرجت من نابولى على متن سفينة ضخمة وسريعة لصاحبها السيد بلانكى[٢] Mossen Blanchi وكـان فى رفقـى تسعة من اليهود. وقد أمضينا على أية حال خمسة أيام فى البحر حتى وصلنا إلى باليرمو Palermo بفضل الرياح الساكنة.

وباليرمـو هـى مدينة ذات شأن كبير فى جزيرة صقلية، ويبلغ عدد اليهود المقيمين فيها حوالى ثمانمائة وخمسين أسرة يعيشون جميعًا فى شارع واحد يقع فى أرقى أحياء هذه المدينة، وهم من الحرفيين: حدادين ونحاسين وصانعى الفخار وفلاحين، وهم مكروهون من المسيحيين نظرًا لكونهم يرتدون ملابس رثة. وكعلامة لتمييزهم كانوا مجبرين على وضع قطعة قماش أحمر، فى حجم العملة الذهبية، تثبت على الصدر. وكان للضريبة الملكية وقع ثقيل على كاهلهم ذلك لأنهم مجبرون على العمـل مـن أجل الملك فى أى عمل يطلب منهم، فكان عليهم سحب السفن إلى الشاطئ، وبناء السدود، وغيرها من الأعمال. كما كان يتم تقليدهم الوظائف الإدارية ذات الرتب الصغيرة التى من مهامها تنفيذ العقوبات وحمل أجساد الموتى المحكوم عليهم بالإعدام.

إن معبد اليهود الكائن فى باليرمو لا يوجد له مثيل فى العالم كله؛ إذ أن الأعمدة الحجرية بالسـاحة الخارجية كانت تتسلقها تكعيبات العنب، وهو أمر لم أرَ فى حياتى مثيلاً له. ولقد قمت بقيـاس أحد هذه الأعمدة p.211 فوجدت سُمكه خمسة أشبار. ومن هذه الساحة يمكنك النزول عـن طـريق سلالم حجرية إلى ساحة أخرى تعد امتدادًا لردهة المعبد. ولهذه الردهة ثلاثة جوانب ورواق يضـم مقاعـد كبيرة لمن لا يريد أن يدخل إلى المعبد، كما يوجد بالردهة ينبوع مياه رائع المنظـر ويقـع المدخل عند الجهة الرابعة من المعبد الذى يتخذ شكل المربع، إذ أن طوله كعرضه أربعـون ذراعًـا. وتضـم الجهة الشرقية بناءً حجريًا على شكل قبة حيث يوجد تابوت العهد- الشـريعة- وبداخلـه لفائف الشريعة وهى مزخرفة بالتيجان وبحب الرمان المصنوعة من الفضة والأحجـار الكريمة تبلغ قيمتها -وفقًا لتقييم الأهالى المقيمين فى باليرمو من اليهود- أربعة آلاف قطعـة ذهبية. هذه اللفائف المخطوطة موضوعة على أرفف خشبية ولم تكن موضوعة فى صناديق كمـا نضـعها نحن. أما حجرة تابوت العهد فلها بابان أحدهما مفتوح جهة الشمال والآخر جهة الجـنوب، وخلف كل من البابين يوجد مكتب لبعض الرجال المتدينين الموثوق فى أمانتهم يتولون

---

(١) Encyclopedia of Jewish Knowledge, p.551.

(٢) Monsignor

الإشـــراف علـــيها. وفى قلب المعبد توجد منصة خشبية "تيباه the theba" يقف عليها المرتلون لـــتلاوة صـــلواقم. وبالفعل يوجد فى هذا المجتمع خمسة مرتلين يؤدون هذا العمل فى أيام السبت Sabbathوفى الاحتفالات، ويقدمون أناشيدهم بعذوبة لم يسبق لى سماعها من أى مجموعة مصلين آخـــرين، وعلـــى مر أيام الأسبوع فإن أعداد المصلين تعد ضئيلة جدًا إلى حد أنه يمكن لأى طفل صغير السن أن يحصى عددهم.

وكـــان المعـــبد محاطًا بالعديد من الأبنية مثل مبنى المستشفى الذىكان يضم أسِرَّة معدة لاستقبال المرضى، ونُزُل لاستقبال الغرباء الذين يفدون إلى المكان دون أن يجدوا مكانًا يمضون فيه ليلـــتهم. كما كان يوجد قصر فخم وضخم، هو مقر إقامة الرجال الذين يعملون بسلك القضاء وإدارة شئون المجتمع(١) ومن هؤلاء كان الملك يختار اثنى عشر رجلاً كل عام ويمنحهم سلطة جباية الضرائب وتقييم الغرامات الواجب دفعها وإقرار عقوبات المحكوم عليهم بالسجن. وليس هناك ما يمكـــن قوله فى شأن هذا النظام وهؤلاء الأشخاص النكرة الذين كانوا غالبًا ما يتصفون بالسوء؛ فعادة ما كان يمكنهم طى p.212 الحاكم بواسطة الهدايا والهبات حتى يتمكنوا من الانخراط فى هذا النظام الحاكم، وما يلبثون أن يعوضوا ذلك بما يفرضونه من ضرائب على المعبد والطائفة اليهودية، وكذلك فإن الأهالى البؤساء مثقلون بالضرائب، أما تلك الطغمة المختارة من رجال النظام فكانت مدعـــومة من الحاكم، ولذا فهى ذات سلطة مطلقة، ومن ثم فقد بلغت القلوب الحناجر من شدة البؤس.

وقد لاحظت العادات الآتية فى باليرمو ومنها؛ أنه حينما يموت يهودى ما يؤتى بجثمانه إلى داخل رواق المعبد، حيث يقوم الكهنة بمراسيم الجنازة فيرددون بصوت مرتفع الكلمات التى يرثون بها هذا الميت أمام الحضور، أما إذا كان المتوفى رجلاً مرموق الجانب، حبذا لو كان دارسًا للفقه، فيـــتم إدخـــال تابوته إلى قلب المعبد ونزع لفائف الشريعة من على الأرفف ووضعها فى زاوية فى حجـــرة تابوت العهد، وحينئذ يوضع تابوت الميت فى الركن المقابل لتبدأ المراسيم الجنائزية ورثاء الميت ويكرر الطقس ذاته فى الأركان الأربعة لحجرة تابوت العهد. ويُحمل بعد ذلك تابوت المتوفى إلى المكان الذى سيدفن فيه خارج المدينة، وعند بلوغ الجَمع بوابة المدينة يشرع القارئ فى ترديد المزمور التاسع والأربعين بالإضافة إلى بعض المزامير الأخرى(٢) وذلك لحين الوصول إلى البقعة التى يدفن فيها الميت.

---

(١) راجع: باب المعبد اليهودى vol., V, p. 216 .

(٢) Encyclopedia of Jewish Knowledge, p. 446.

كما لاحظت أيضًا العادات التالية؛ أنه فى مساء يوم عيد الغفران (Day of Atonement)[١] وكذلك اليوم السابع من عيد المظال عند اليهود (Day of Tabernacles)[٢] يقوم الخادمان بالمعبد بفتح بابى حجرة تابوت العهد عقب الانتهاء من الصلوات، ويمكثان الليل بطوله هناك. وإلى هذا المكان تأتى النساء فى شكل مجموعات وتُقمن بتقبيل لفائف الشريعة وتنحنين أمامها توقيرًا وتمجيدًا، وهن يدخلن من باب معين بينما يخرجن من الباب الآخر. وعلى مدار الليل تتقاطر مجموعات من النسوة على المعبد بين داخلاتٍ إليه وخارجات منه.

وقد أمضيت فى باليرمو فترة تمتد من الثانى والعشرين من تموز لعام ٥٢٤٧ حتى السبت برشيت (Sabbath Bereshith) ٥٢٤٨[٣] حوالى من يوليو حتى أكتوبر عام ١٤٨٧م.]. ومنذ أن حللت بهذه المدينة دعانى رئيس اليهود The Chief Jews بها إلى إلقاء خطب السبت قبل p.213 صلاة منشا Mincha Prayer وقد رحبت بذلك، وبالفعل شرعت فى هذا العمل بداية من يوم السبت عند ظهور القمر الجديد من شهر آب ٥٢٤٧ [أغسطس ١٤٨٧م.]، وقد أبدى الناس إعجابهم بالدرس الذى ألقيته حتى أصبحت مضطرًا إلى الاستمرار فى إلقاء درس كل يوم سبت، ولم يكن لهذا الأمر وقعه الطيب على نفسى إذ لم أجد من وراء ذلك طائلاً نظرًا لأن هدفى لم يكن باليرمو، وإنما كنت عاقدًا النية على الذهاب إلى سيراكوزSyracuse ، وهى المدينة الواقعة فى أطراف صقلية. وكنت قد نما إلى علمى فى ذلك الوقت أن هناك سفنًا تبحر من البندقية وتصل إلى سيراكوز وهى فى طريقها إلى بيروت القريبة من بيت المقدس. وقد تمكن يهود باليرمو من تجنيد بعض الناس بغرض ترويج إشاعات ليس لها أى قدر من الصحة بغرض إثنائى عن عزمى فى الرحيل، وبالفعل نجحوا فيما عمدوا إليه إذ أننى فقدت الوسيلة الأفضل للنفاذ إلى سيراكوز وبقيت وسطهم لأستأنف إلقاء دروسى على الأهالى التى كانت تمتد ثلاث ساعات قبل صلاة منشا وخلالها حملتُ بشدة على أولئك الواشين والخارجين عن الأعراف، وقد أخبرنى وجهاؤهم بأن كلماتى كان لها وقعها عليهم، إذ تأثر بها كثير منهم وأقلعوا بالفعل عن هذا السلوك الآثم، ولاحظت بنفسى تراجع عدد الواشين فيما بينهم ولا أدرى ما إذا كانوا سيعودون إلى سيرتهم الأولى أم لا ؟ لكنى

---

(١) يوم الفداء – كفارة.

(٢) يعرف هذا العيد بالعبرية باسم Hoshna Rabba

Encyclopedia of Jewish Knowledge, vol. 5, pp. 264-265.

(٣) غير موجودة فى القاموس ويبدو أن هناك خطأ فى كتابة عوبديا للتاريخ.

منذ هذه اللحظة لم يعد يسعنى أن أتحمل البقاء بين ظهرانيهم رغم أنهم كانوا يعظموننى ويتعاملون معى معاملة المتدينين من المسيحيين لقديسيهم.

وقد بلغ تقدير الأهالى لى أنهم أخذوا يرددون أن الله قد بعثنى إليهم، وحرص كثير منهم على الظفر بشىء منى والاحتفاظ ولو بقطعة قماش على سبيل التذكرة؛ حتى أن المرأة التى تولت مهمة غسيل ملابسى الكتانية كانت تبتهج عندما تقوم بهذا العمل، ووضعوا فى حسبانهم أنى سوف أمكــث معهــم فترة لا تقل عن عام، وقرروا تقديم راتب كبير لى، بيد أننى كنت أرغب فقط فى الوصول إلى ما ابتغيه من كل قلبى، وهو تلك الأرض، أرض الميعاد.

وفى مساء يوم عيد المظال ٥٢٤٨ (١٤٨٧) وصلت إلى ميناء باليرمو سفينة شراعية فرنسية متجهة إلى الإسكندرية وقد كان الرابى ميشولام[1] أف فولتيرMushollam of Voltera على متنها وقد اصطحب معه خادمه، ومما أدخل السرور على نفسى أن أسافر فى صحبته. وفى الليلة التالية ليوم السبت برشيث شرعنا فى الإبحار، وغادرنا باليرمو مع منتصف نهار يوم الأحد p.214وكان الطقس مواتيًا على مدار اليوم نهارًا وليلاً، ولذلك عندما أدركنا الصباح كنا على مقربة من فنار ميسينا Pharos of Messina ، وأتممنا عبور هذا المكان وبالفعل وصلنا إلى ميسينا فى ظهيرة يوم الإثنين. وكانت هذه المدينة هى بلدة التجارة حيث تجتمع فيها كل الأجناس، وتَرِدها السفن من كل صوب نظرًا لأن البلدة كان يتوسطها فنارها، الأمر الذى جعل السفن القادمة من جهة الغرب والشرق يعتبر ميناءها هو الميناء المتفرد فى العالم بقدرته على استقبال السفن ذات الحجم الكبير حتى أقرب نقطة إلى الشاطئ. وميسينا ليست مدينة كبرى مثل باليرمو، كما لم يكن بها ينابيع ماء جيدة كتلك التى رأيناها فى باليرمو، ومع ذلك فقد كانت ميسينا آية من الجمال، وبها قلعة شديدة المناعة، ويعيش بها حوالى أربعمائة أسرة يهودية، يقيمون جميعًا فى شارع واحد، لذا فقد أصبح يخصهم ويقترن بهم. ويهود هذه البلدة كانوا أكثر ثراءً من أولئك اليهود المقيمين فى باليرمو، فقد كانوا جميعًا تقريبًا حرفيين؛ إلا أنه من بينهم عدد من التجار، كما كان لهم معبد خاص مفتوح من أعلى، أما جهاته الأربع فقد كانت مغلقة وتقع فى وسطه عين ماء وساقية، وفيما يتعلق بإدارة شئون هذا المعبد، فهناك عدد من الأشخاص يتم اختيارهم سنويًا للقيام بأعمال إدارته، وكانوا يضطلعون بالمهام ذاتها التى يقوم بها يهود باليرمو. وقد تصادف لى حضور حفل عرس أقيم بالقرب من محل إقامتى حيث شاهدت بعد ترديد المباركات السبع، المراسم التى أعقبت ذلك، إذ امتطت

---

[1] ميشولام هو كاتب الخطابات المترجمة والمنشورة من ص١٥٦-٢٠٨، ولابد وأنه قد قام برحلة ثانية إلى الشرق. والناشر يقصد الإشارة إلى مجموعته (Jewish Travelers) .

العروس صهوة فرس خلال البلدة، وكان مجتمع اليهود قد سبقها سيرًا على الأقدام إلى هناك، أما العريس فقد خرج وسط جماعة من شيوخ اليهود مستبقين العروس بحيث تظل هى الوحيدة بين الجميع التى تمتطى جوادًا. وكان الشباب والأطفال يحمل كل منهم مشاعل، وما لبثوا أن بدءوا فى التهليل حتى اجتمع الناس خاصة اليهود من شتى النواحى فى شكل حلقة. وكان الأهالى من المسيحيين يسعدون ويبتهجون بمثل هذه العادات، ولذا لم يتعرض أحد منهم لهذا الاحتفال بسوء.

وفى اليوم الحادى عشر من شهر مارشيشفان [Marcheshvan أكتوبر] غادرنا ميسينا فى طريقنا إلى رودس حيث تم إلحاقنا بمركب هو ملك لأحد التجار اليهود من سكرى[1] Succri وكان فى صحبته خادمه وثلاثة من الصناع اليهود فى مجال الجلود جاءوا من سيراكوز، كذلك ركب معنا يهودى سفردى Sephardic ومعه زوجه واثنان من أبنائه واثنتان p.215 من بناته، وبذلك أصبح عددنا فوق ظهر هذا المركب أربعة عشر يهوديًا، وكُتب لنا أن نعبر حد فنار إرشاد السفن بسلام، ثم شرعنا فى الإبحار عبر خليج البندقية إلى أن بلغنا منطقة الأرخبيل Archipelago وهى مجموعة جزر صغيرة منها جزيرة كورفو Corfu وكانديا Candia ونيجروبونت Negropont ورودس وأخيرًا قبرص التى تعد إحدى هذه المجموعة، ويبلغ عدد جزر هذا الأرخبيل ثلاثمائة جزيرة بعضها مأهول والبعض الآخر مهجور. وعلى مدى أربعة أيام كانت تداعبنا ريح طيبة، إلا أنه قبل أن يرخى الليل سدوله فى اليوم الرابع واجهتنا عاصفة هوجاء، وبالكاد تمكنّا من أن ننجو بأنفسنا من عنف الأمواج باللجوء إلى ميناء طبيعى صغير وسط الجبال التى كان يغطيها نبات خبز القديس يوحنا وأشجار نبات الآس، وقد أمضينا هناك ثلاثة أيام.

وبعد ثلاثة أيام، وفى يوم الأحد الموافق الثامن عشر من شهر مارششيفان، غادرنا هذه الجبال وغدونا على مبعدة ستين ميلاً من رودس. وطوال الطريق كنا نرى أعدادًا من الجزر المتناثرة على الجانبين، وأتاحت لنا الرؤيا كذلك جبال تركيا، غير أننا عدنا أدراجنا مرة أخرى بمسافة ثمانين ميلاً، فوصلنا جزيرة تدعو لنجو Longo كانت تقع تحت سيادة رودس، ومكثنا بها عشرة أيام نظرًا لأن الرياح لم تكن مواتية للإبحار، وفى أثناء إقامتنا هناك قام أحد البحارة بالتحدث بطريقة غير لائقة ومهينة إلى الرابى ميشولام أف فولتيرا إلى الحد الذى اضطره إلى رفع شكوى بذلك إلى الربان، وعندئذ خرج الربان بنفسه ليبحث عن هذا البحار إلا أن زملاءه سعوا إلى التستر عليه؛ إلا أن مسعاهم باء بالفشل، إذ أمر الربان بتوثيقه ثم جلده، وعندما أخذت قوة الجلاد

---

[1] ربما تكون زوكو Zucco، وهى جزيرة تقع ما بين باليرمو Palermo وترابانى Trapani .

تخور، أخذ الربان الحبل من يده ليكمل بنفسه عقاب البحار وذلك لما أبداه من إهانة لميشولام، ولم يكتفِ بهذا بل أصر على أن يقدم البحار كذلك اعتذارًا لميشولام على رؤوس الأشهاد، واستشاط جميع طاقم بحارة السفينة غيظًا، لشعورهم بأن واحدًا منهم أجبر على أن يقدم اعتذارًا ليهودى بسبب أنه تكلم بالسوء فى حقه، ومنذ ذلك الوقت وصاعدًا أبدوا كراهيتهم لنا ولم يعاملوننا كما كنا نُعامَل من قبل.

وقد استغل ميشولام p.216 التاجر الثرى وجود سفينة صغيرة قادمة من رودس وذاهبة إلى خيوس Chios ليترك مركبنا تلك، عاقدًا النية على التوجه إلى خيوس، ومنها إلى القسطنطينية، ذلك أنه تخلى عن نيته الأولى فى مرافقتنا إلى الإسكندرية. وفى اليوم الثانى بعد ترك الرابى ميشولام لنا، أقبلت علينا سفينة صغيرة على متنها رهط من الرجال المسلحين تسليحًا جيدًا من الجنويين، وبعثت هذه الأخبار القلق فى نفس الربان لعدم وجود رياح تحرك سفينتنا، وفى حالة إذا ما أصبحت الرياح مواتية فإن السفينة سوف لا تأتيه بسبب وجود أعداد كبيرة من السفن الأخرى من حولها، وبذلك أصبح لا يوجد مركب أكثر أمنًا من هذه السفينة، وعليه قرر الربان التوجه صوب بلدة صغيرة تدعى قلعة القديس يوحنا Castel San Giovani خاضعة لسيادة رودس، وهى واقعة على جبال الأتراك، وتعد المكان الوحيد فى تركيا الذى بقى تحت يد المسيحيين. حقًا إنها بلدة صغيرة إلا أنها فى غاية من التحصين والمناعة، علمًا بأن كل الأراضى التى على أطرافها من ممتلكات الأتراك. وبالفعل وصلنا بسلام إلى هناك فى يوم الجمعة، وهو يوم بداية الشهر القمرى كسليف [١٥ نوفمبر] عام ٥٢٤٨. وقبيل ظهر اليوم التالى السبت دفع الله إلينا برياح مواتية مكنتنا من مغادرة هذا المكان، فأبحرنا لمدة يوم كامل نهاره بليله. وفى يوم الأحد الثالث من كسليف [نوفمبر] عام ٥٢٤٨ وبعد إبحار استمر لمدة اثنين وعشرين يومًا وصلنا فى رحلتنا إلى رودس.

وابتهج أهالى رودس بوصولنا، ورحبوا بنا ترحابًا شديدًا، إذ كان ربان سفينتنا تربطه صلة قرابة بحاكم الجزيرة، كما كان صديقًا له. كذلك قدم إلى السفينة لاستقبالنا رئيس اليهود المقيمين فى رودس وأبدى لنا حبورًا، ذلك أن الرابى والتاجر ميشولام الذى كان فى رفقتنا آنفًا فى السفينة هو شقيق الرابى الطبيب ناثان R.Nathan أشهر رجال اليهود فى رودس. وقد تم تخصيص غرفة رائعة للغاية لى مزودة بجميع ما احتاج إليه، فى حين تم تكريم بقية اليهود الآخرين الذين كانوا فى رفقتى بما يتناسب معهم على سبيل الضيافة. ويرجع ذلك إلى أن جميع منازل اليهود تقريبًا فى رودس كانت قد تعرضت للتدمير التام أثناء أعمال الحصار على يد الأتراك خلال فترة حكم أول أباطرتهم الذى أقدم على هذا التخريب فى العام الذى مات فيه P.217 إن الذى لم يرَ رودس بأسوارها الشاهقة المنيعة، وبوابتها وتحصيناتها العتيدة، كأنما لم يرَ تحصينات من قبل قط. لقد أرسل

هذا الإمبراطور التركى[١] جيشًا إلى رودس لمحاصرتها فى العام الذى توفى فيه، فقاموا بقذف البلدة بوابل من الحجارة التى لاتزال شاخصة للعيان هناك. وعلى هذا النحو أطاحوا بأسوار اليهود المحيطة بأحـــيائهم ودمروا منازلهم. وقد أخبرنى بذلك اليهود الذين يعيشون هناك، كما رَوُوا لى أنه حينما دخـــل الأتـــراك البلدة، قتلوا كل من فى طريقهم حتى وصلوا إلى بوابة معبد اليهود، وهناك أنزل الرب عليهم سخطه فارتبكوا وتفرقوا فيما بينهم وأخذوا فى الهروب بقتل بعضهم بعضًا. وبناءً على تلـــك الكرامة المعجزة التى حدثت، قام الحاكم ببناء كنيسة فى موقع المعبد، وأعطى اليهود موقعًا آخر بديلاً عنه. وبينما كنت هناك فى رودس قام ذلك الحاكم بالفعل بمنحهم مائة دوقية ducats من عوائد البلدة مخصصة لبناء معبد جديد لهم.

لم يـــبقَ فى رودس مـــن اليهود عدد كبير؛ إذ يبلغ عددهم أول عن آخر اثنتين وعشرين أســـرة، جميعهم فقراء، فبالكاد هم يعيشون على الخضروات، لا يأكلون الخبز أو اللحم، فهم لا يذبحـــون، كمـــا أنهم لا يبتاعون الخمر خشية الدخول فى مهاترات أو جدل مع اليونانيين الذين يعيشون هناك. وعندما يقومون بشراء شيء من السوق فإنهم يحرصون على عدم المساس بأى شيء خـــاص بهم؛ كما أنهم يمتثلون للقانون الذى يحرم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير. وفى الواقع فإن الـــيهود فى رودس شـــديدو الـــذكاء، كما أنهم متعلمون تعليمًا جيدًا ويتحدثون بلسان فصيح، ويتصـــفون بـــالأدب ومكارم الأخلاق؛ حتى أن الدباغين كانوا حسنى الهندام ويتحدثون بطريقة مهذبـــة ملائمة. وجميعهم يطلقون السراح لشعرهم لينمو ويطول. وفى مجملهم يتصفون بالحسن. ولا يوجد بين اليهوديات من هن أجمل من اللاتى تقمن فى رودس؛ وهن يشغلن أنفسهن بصنع جميع الأعمال اليدوية خدمةً للنبلاء المتسيدين لهذه الأرض، وبهذا الأسلوب تتمكن النساء من مساعدة أزواجهـــن. أما هؤلاء النبلاء فيضعونهم فى مكانة ملؤها التقدير، حتى إنهم كانوا يأتون إلى بيوت اليهود من أجل الاستئناس بالحديث إلى النسوة اللاتى تعملن داخلها لبعض الوقت.

أمـــا حيـــنما يتوفى أحدهم فلا يعد له تابوت p.218 إنما يدفن داخل كفنه؛ ويتم ذلك بطـــباعة قالـــب آدمـــى فى تربة لم تزرع من قبل حتى تكون أكثر استجابة لإحداث هذا الشكل الآدمى، وعندئذ تودع الجثة داخل هذا التجويف وتغطى بلوح خشبى ثم يُهال عليها تراب الأرض. والهـــواء فى رودس نقـــى للغاية، بل هو بديع بشكل لم أشعر به نحو جمال أى مكان آخر، كما أن

---

[١] سليمان الثانى Solyman II .

مـــياهها عذبـــة وتربتها نظيفة إلا أنها فقيرة، ومعظم أهلها من اليونانيين الخاضعين لسلطة النبلاء Acomodors.

وفى رودس، مكثنا الفترة من اليوم الثالث من شهر كسليف [نوفمبر] حتى الخامس عشر مـــن شـــهر تيـــبث [Tebeth ديسمبر]، وذلك لأن حاكم رودس لم يسمح للسفينة بالإبحار إلى الإســـكندرية خشية أنه سوف يكون فى مقدور ملك مصر التحفظ عليها، ذلك أن حاكم الجزيرة كـــان قد تقاضى مبلغ مائة وعشرين ألف قطعة ذهبية من ملك مصر بعد أن وعده بأنه سيسلمه مقابل ذلك شقيق الإمبراطور التركى جم Dschem الذى كان مسجونًا فى فرنسا، ولكن الحاكم لم يكـــن فى وســـعه أن يفى بالوعد خوفًا من غضب الإمبراطور التركى؛ ذلكم هو السبب وراء مخاوف حاكم رودس من أن يضع ملك مصر يده على السفينة، خاصة أنها كانت محملة بكم كبير من السلع الثمينة، وكل هذا العدد من البحارة. هذا كله والوقت يمر ببطء. على أية حال، تشاور ربان السفينة مع التجار الذين على متنها، اقترحوا عليه الشروع فى الإبحار برغم كل المخاطر التى قد يتعرضون لها. وفى هذا اليوم المذكور، الخامس عشر من شهر تيبث، غادرنا رودس، وبعد ستة أيـــام أصـــبحنا قبالة الإسكندرية. ورفض ربان السفينة ولوج الميناء إلا بعد تقديم الأجرة المادية الواجـــبة. على ذلك، فقد بقينا فى مياه أبى قير وهو مكان يقع بين الإسكندرية ورشيد، فى الطريق نحو القاهرة؛ ولم تكن المياه فى هذه البقعة بعميقة، إلا أن المجال كان متسعًا، فألقينا بمرسانا على بُعد أربعـــة أمـــيال تقريبًا من الشاطئ، وكان معنا على السفينة مركب صغير سعته مئتا طن يستخدم للانتقال إلى الشاطئ، كان الربان قد اشتراه وحمّله بغلال لبيعها فى الإسكندرية.

وقـــد أرسل الأمير بالإسكندرية، وهو الممثل لملك مصر، وكان قد اتخذ من الإسكندرية مقـــرًا له، أرسل p.219 إلى الربان مؤكدًا أن السفينة وكل ما عليها فى إمكانهم الدخول إليها فى أمان، إلا أن الربان لم يضع ثقته بهذا الوعد فأرسل بنفسه سفراء إلى الملك، رغم أنه فى قرارة نفسه كـــان راغبًا فى أن يرسل المركب الصغير بحمولة القمح مع عدد قليل من البحارة إلى الإسكندرية بـــناءً علـــى ما قاله الأمير، لذلك انتقل اليهود إلى هذا المركب يوم الجمعة توقعًا منهم أن يصلوا الإســـكندرية يوم السبت. ولكن الأمير لم يسمح للسفينة بالتحرك نظرًا لأن الربان رفض أن يضع الـــثقة فيه. على ذلك فقد بقينا نحن اليهود فى المركب الصغير على بعد مرمى سهم من السفينة، ومضى بعض الوقت دون أن يصل الرسل من القاهرة، فأخذت المؤن فى النفاد، كما افتقدنا إلى الماء فبلغنا حدًا فضلنا معه الموت على الحياة.

وفى الـثامن من شباط [أواخر يناير] حوالى منتصف الليل، هبت عاصفة هوجاء فتحطم معهـا اثنتان من مراسى المركب ولم تبقَ سوى المرساة الأضعف، مما أصاب طاقم البحارة بالذعر، فقاموا بإلقاء العديد من الأشياء التى على متنها لتخفيف حمولتها، كما أرسلوا إشارات إلى السفينة الأخـرى بإطلاق رصاصات البنادق بغرض إرسال مركب للإنقاذ، لكن أحدًا لم يسمع ولم يُجب؛ ذلـك أن مَـن بالسـفينة لم ينشغلوا إلا بسلامة أنفسهم، وكان من الصعب على أى مركب من المراكب ذات الصوارى الثلاثة الاقتراب منا طالما كان البحر هائجًا إلى حد بعيد بسبب العاصفة، وجـرفتنا مـياه البحر إلى دوامة بالمرساة الباقية التى تحطمت هى الأخرى، فتقاذفتنا الأمواج هنا وهـناك، وبلغت مستوى أعلى منا، ونظرًا لأن المركب كان باليًا وخربًا، أخذ الدمار يتهدده بين الفيـنة والأخرى فتسربت إليه المياه من كل جانب. كما كانت المنطقة مليئة بالصخور، وظللنا فى هـذا الخطر الداهم لمدة أربع وعشرين ساعة حتى توقعنا المنية فى أية لحظة، وأمسك كل منا بدلوٍ لإفـراغ المـياه المتسربة بكم كبير بأيدينا، فعانينا كثيرًا من ملئها وإفراغها حتى غمرنا الله برحمته وخلصنا بما يشبه المعجزة من خطر هذه العاصفة، وعقب توقف العاصفة p.220 أعاد الربان أولئك الناس من المركب المدمَّرة إلى السفينة. وبالفعل دخلنا صباح اليوم التالى إليها وبقينا هناك حتى عاد السـفراء ومعهـم أمانًا من الملك. وعلى كلٍ فقد سكنت الرياح والأمواج حتى لم يكن فى وسع السفينة مغادرة أبي قير، فآثر كل من التجار واليهود الذين كانوا على ظهرها الذهاب إلى الشاطئ بواسطة مركب شراعى، إنقاذًا لحياتنا وشعورًا بالأمان هناك. ومن ثم قطعنا مسيرة ثمانية عشر ميلاً على الأقدام فى الطريق، نظرًا لأننا لم يسعنا الحصول على جحاش تنقلنا، ووصلنا إلى الإسكندرية. فى الرابع عشر من شباط [فبراير]، وقد حل بنا التعب والقلق. وعندئذ قدم لنا الله برهانًا على حبه لنا فى صورة رجل يهودى كريم كان محبوبًا حتى بين العرب، اسمه الرابى موسى جراسو R. Moses Grassoوكـان يعمل ترجمانًا للبنادقة، وقد جاء لمقابلتنا ليخلصنا من أيدي العرب المتربصين عند بـوابة المدينة، ساعين لسلب ونهب اليهود الأجانب، وهم فى غمرة سعادتهم. وقد أخذنى معه إلى مسكنه، وكان علىَّ أن أمكث هناك طوال فترة إقامتى فى الإسكندرية، حيث قرأت معه كتابًا عن القـبالاه Cabbala الـذى كان فى حوزته، نظرًا لأنه كان شغوفًا بحب هذا العلم. وبسبب هذه القـراءة التقيـنا فى أفكارنا، وأصبحنا صديقين. وفى يوم السبت أعد الرابى حفل عشاء دعا إليه الـرجل السـفردى الذى كان فى صحبتى، وكان ابناه الاثنان متواجدين فى حجرة الطعام حينما دخلت إليها.

وسوف أروى لك يا والدى فيما هو آت ترتيبات اليهود لإعداد وجبة عشاء يوم السبت كتقلـيد لهـم فى جمـيع البلاد العربية. فهم يجلسون فى حلقة فوق سجادة، ويقف حامل الكأس

بجـوارهم قريبًا من المفرش الموضوع على السجادة والذى افترشته شتى أنواع فواكه هذا الفصل [الشـتاء] وما يلبث المضيف أن يحضر كأسًا من الخمر مقرًا بفضل الله على نعمه ذاكرًا افتتاحية الـيهود قاديش Kiddush ويقوم حامل الكأس بتمريره على كل الحضور حتى يفرغ تمامًا ويعود حامل الكأس مرة أخرى ليأخذ الكأس ثانية من المضيف، ويكرر الأمر نفسه مع جميع الحضور مرة بعد أخرى، وحينئذ يأخذ المضيف ثمرتين أو ثلاث آكلاً بعضًا منها، وشاربًا كأسًا ثانيًا p.221 بينما الجميع يقول "صحة وحياة" (*) "Health and life" ويقوم الجالس بجواره بأخذ بعض من الفاكهة أيضًـا وكأسًـا ثانيًا ملأه له حامل الكأس قائلاً له "من أجل سعادتك" "To your pleasure" ويشاركه الجميع بمقولة "صحة وحياة"، ويستمر ذلك تباعًا. ويشرع المضيف فى أكل نوع آخر من الفاكهة، ويملأ له كأسًا آخر، ويكرر الجميع هذا الأمر حتى يُفرغ كل منهم ست أو سبع كؤوس علـى الأقل. وأحيانًا يشربون أثناء استنشاقهم لعبير الزهور التى جُلبت من أجل هذه المناسبة، إن هـذه الـزهور معروفة باسم Dudaim التى دأب راشى Rashi على ترجمتها إلى اللغة العربية فى كلمة (الياسمين)، وهو نبات يحمل زهورًا ذات عبير لطيف ومنعش للغاية. أما الخمر عندهم فعادة لا تكون قوية وهذه الحالة كثيرًا ما تكون أوضح فى القدس حيث تكون مشروبًا غير ممزوج. وبعد أن يكتفـى الجمـيع من الشراب، يؤتى بطبق كبير من اللحم فيمد كل منهم يده ليأخذ ما يرغبه ويأكله فى نهم بالرغم من أنهم ليسوا أكولين. وقد أتى الرابى موسى إلينا بالحلوى والزنجبيل الطازج والبلح والزبيب واللوز، وكذلك بحبوب الكريز الحلوة، ويُشرب كأس من الخمر مع كل نوع، ثم يتـبعه خمـر الزبيب الذى كان من النوع الممتاز. وفوق ذاك كأس من خمر الململسى Malmsey المصـنوع فى كانـديا ومرة أخرى كأس من خمر يصنع محليًا، وقد شاركتهم الشراب حتى بلغ بى الابتهاج أشده.

عـادة أخـرى تخـص الـيهود فى البلاد العربية؛ هى أنه فى يوم الجمعة يذهب الرجال للاستحمام، وأثناء عودتهم تأتى لهم النساء بالخمر حيث يشربون حتى الثمالة، ويطلقون كلمة معينة مـؤذنة بأن وجبة العشاء جاهزة، وذلك فى فترة بعد الظهر، على أن يكون قبل العشاء، ومن ثم فعلـى الجمـيع أن يأتوا إلى المعبد فى ثوب قشيب ونظيف، وما يلبثون أن يبدأوا الشعائر بالمزامير وإسداء الحمد والشكر بإقامة صلاة لمدة تبلغ ساعتين حتى يدركهم الغسق، وفى طريق العودة إلى ديارهم يرددون القاديش وهم يأكلون كسرة من الخبز فى حجم الزيتونة، ذاكرين فضل الله عليهم

(*) وردت ترجمتها فى إحدى الدراسات "بالهناء والشفاء". راجع : قاسم عبده قاسم : اليهود فى مصر، ص ١١١. (الباحث)

بعد تناول تلك الوجبات. إن صلاة المنشا فى هذه البلاد تقام يوم الجمعة بعد الظهر وقبل العشاء فى سرية، فيما عدا القدس حيث إن اليهود الألمان الأشكيناز Ashkenazim p.222 أقلعوا عن هذا التقليد، إذ إنهم كانوا يضيفون تلك الصلاة إلى أدعية المساء كما نفعل نحن، ومن ثم فهم يتناولون طعامهم فى جوف الليل. إن يهود هذه البلاد يحافظون بشكل صارم على قدسية يوم السبت؛ فلا يخرج أحد منهم من منزله إلا للذهاب إلى المعبد أو بيت هاميدراش Beth Hamidrashوجدير بى أن أذكر أنه لا يقدم أحد من اليهود على إيقاد نار أو حتى يعيد إشعال نار كان قد أشعلها أحد من غير اليهود فى يوم السبت. وكان فى وسع كل من يتمكن من تلاوة الكتاب المقدس الإقدام على ذلك بعد أن يتخلص من تأثير الخمر عليه.

تضم مدينة بالإسكندرية حوالى خمس وعشرين أسرة يهودية، كما يوجد بها معبدان قديمان؛ أولهما كبير جدًا ولكنه أصابه التخريب إلى حد ما، أما المعبد الثانى فهو أصغر حجمًا. ومعظم الصلوات تقام فى الأصغر منهما، إذ أنه يحمل اسم النبى إلياس Elijah ؛ ويقال إنه قد ظهر مرة لشخص فى الجهة الجنوبية الشرقية من المعبد حيث وضع مشعلاً أزلى الإضاءة فى المكان ذاته الذى ظهر فيه، وقد قيل إنه ظهر مرة أخرى منذ عشرين عامًا لرجل عجوز، والله وحده يعلم الحقيقة ! ولا يستطيع أى شخص فى جميع البلاد العربية أن يدخل المعبد مرتديًا حذاءه حتى لو كان بغرض الزيارة، فعليه أن يدعه فى الخارج عند الباب، وجميع من بالداخل عليهم الجلوس على الأرض إما على حصير أو سجاد[1].

إن مدينة الإسكندرية مدينة كبيرة جدًا، محاطة بسور ويلفها البحر، إلا أن ثلثى أبنيتها مدمرة حاليًا وكثير من منازلها مهجور، أما قصورها المأهولة فهى مبلطة بالفسيفساء، وتتوسطها أشجار الخوخ والبلح. وجميع هذه المنازل كبيرة وبديعة، إلا أن ساكينها قليلو العدد، ويرجع هذا إلى الطقس غير الصحى السائد فيها منذ بضع سنين. ويقال إن أولئك الذى اعتادوا الإقامة فيها فترة طويلة يتعرضون للموت أو على الأقل يقعون فريسة للمرض. أما معظم الأهالى فهم معرضون باستمرار للإصابة بأمراض الرمد. ويأتى التجار إليها من كل صوب، وفى الوقت الحالى يوجد بها أربعة قناصل ينتمون إلى p.223 البندقية، جنوا، قطالونيا Catalonia وأنكونا Ancona وكان على التجار من جميع الجنسيات الأخرى التعامل معهم. وبالنسبة للمسيحيين فى المدينة، فكان عليهم أن يوصدوا أبوابهم داخل بيوتهم وقت العشاء؛ وكان العرب يغلقون بوابات الشوارع

---

[1] لعله يقصد بها Tapedi أى الأرائك المنخفضة المعروفة فى الشرق.

جــيدًا، ويقومون بفتحها مرة أخرى مع صباح اليوم التالى. والشيء نفسه يحدث يوم الجمعة من الظهيرة حتى العشاء؛ وفى الوقت الذى يمكث فيه العرب داخل دور العبادة، كان على المسيحيين البقاء فى بيوتهم، وأيًا منهم يتواجد فى الشارع لا يلومنّ إلا نفسه إذا ما عومل معاملة سيئة. وكان ملــك مصر يتلقى قيمة الضرائب العائدة من الصادرات والواردات التى يتم دفعها مع دخول أى سلع إلى الإسكندرية، علمًا بأن الضريبة هناك مرتفعة للغاية؛ حتى تلك الأموال السائلة التى تجلب يجــب أن يدفع اثنان فى المائة من قيمتها. أما بالنسبة لى، فبعون الله لم اضطر لدفع رسم دخول من مالى الخاص، كما لم يخضع مهربو البضائع إلى أية عقوبة خاصة من قِبل جباة الضرائب المصريين.

وقــد قضــيت سبعة أيام فى الإسكندرية تاركًا ورائى فى السفينة الكبيرة –التى كانت محتجزة فى أبى قير نتيجة لسكون الريح– متاعى الشخصى، وهو فى واقع الأمر محدود جدًا. وفى تلك الآونة حدث أن كان بالإسكندرية رجل يهودى قطع على نفسه عهدًا بأن يحتفل مع زوجته وابنــيه بعيد الفصح Passover بالقدس، وضممت نفسى إلى هذا الرجل فى رحلته على الجمال. ودفعــت مبلغًا كعمولة للرابى موسى جراسو مفوضًا إياه بأن ينقل متاعى من السفينة الكبيرة إلى القاهرة. وفى رشيد الواقعة على النيل، استقلينا سفينة، وعلى جانبى النهر مررنا بعدد من البلدات والقــرى الواسعة، شديدة الجمال والمأهولة بالسكان لكنها غير محصنة. ونظرًا لأن الرياح لم تكن مواتية، فقد أمضينا فى فوة Fooah يومين، وهى فى الواقع مكان رحب وجميل ويمكن الحصول فيه علــى الأسماك والخضروات بدون مقابل تقريبًا. وما لبثنا أن وصلنا بعد ذلك إلى بولاق التى تمثل نقطة بداية القاهرة. وعلى ضفاف النيل رأيت حيوانًا هو أضخم ما فى فصيلة الضفادع، يطلق عليه الأهالى مسمى التمساح؛ وهو أضخم من الدب وتظهر البقع على جلده. وقال لى طاقم السفينة أن هناك منه ما يبلغ حجمه p.224 ضعف حجم هذا الحيوان، ولعلها الضفادع التى ترجع إلى زمن [النبى] موسى كما ذكرت شروح ناحمونيدس Nachmonides . أما نهر النيل فهو عريض وماؤه شديد العذوبة لكنه عكر. والجزء الذى كنا قد أبحرنا فيه من هذا النهر فرع منه، أما الفرع الآخر فهو الذى يتجه نحو دمياط حيث يصب فى البحر.

وقبــيل الوصول إلى بولاق، رأينا بناءين اتخذا شكل القبة وكانا يقعان على أحد جانبى النهــر، وقد قيل إنهما المخازن التى بناها يوسف [عليه السلام]، وكان الباب عاليًا عن السطح، وهمــا الآن مجرد أطلال فقط، ولكن مايزال من السهل للرائى أن يوقن أنهما كانا بناءين عظيمين، والجهة التى تضمهما غير مأهولة بالسكان. وإذ نحن مقبلون على وقت العشاء، وصلنا إلى القاهرة قبل اثنى عشر يومًا من عيد البوريم [Purim عيد الحصاد عند اليهود] ويصادف هذا الوقت موسم الحصاد الكبير، وبحلوله أخذت المجاعة الشديدة التى اجتاحت جميع أرجاء القاهرة فى الانحسار. إن

الشعير هنا ينضج بسرعة أكثر من أى مكان آخر بفضل تأثير مياه النيل، وبدا الحصاد جيدًا جدًا. وفى الشهر التالى تعددت المحاصيل الزراعية، حتى إنه لم يعد هناك أى ذكر للمجاعة فى البلاد. إن الأهـالى والأرض تابعان للملك ويئولان إليه، وهو يأخذ خُمس حجم الإنتاج، وأحيانًا أكثر من ذلـك. ومصـر هى المكان الوحيد فى العالم الذى نجد فيه الأرض الزراعية منذ القدم تتبع الملك وصولاً إلى يومنا هذا. وليس فى وسعى أن أتحدث عن كم هو حجم القاهرة الضخم. وكذلك عدد الأجناس الذين يمكن رؤيتهم فيها. فهناك أناس كثيرون وصفوا ذلك، وكل ما قالوه عن هذه المدينة صحيح، وهى ليست محاطة بالأسوار بشكل كامل. وعليه فهناك عديد من الأماكن هنا وهناك تم تـوفير الحماية لها بوقوعها خلف الأسوار. والمدينة فى حركة ونشاط دائبين، ويسمع الشخص هنا عديدًا من اللغات التى يتحدث بها الأجانب الذين يقيمون فيها. وهى تقع فيما بين البحر المتوسط والبحر الأحمر ويأتى إليها جميع التجار من الهند وأثيوبيا وبلاد الكاهن يوحنا Prester John وذلك من خلال البحر الأحمر بغرض بيع بضائعهم التى تتألف من توابل ولؤلؤ وأحجار كريمةp.225 كما يأتـون لشـراء السـلع التى تأتى من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وتركيا بعد أن تعبر البحر المتوسط، فالإسكندرية ومنها إلى القاهرة. والبحر الأحمر به مغناطيس، لذا فإن السفن التى تسلكه ليس لها أن يكـون بها حديد، ولا تستخدم المسامير فى صنعها. وفيما يختص بهذا البحر، فهو الماء الذى انشق أمام آباء الأقدمين، وقد قيل إن مكان ذلك معروف وإن كثيرًا من القساوسة يذهبون لزيارته بيد أنـى لم ينم إلى مسامعى أن يهوديًا وصل إلى هناك. وقد قيل أيضًا إن الميناء الذى تأتى إليه سفن البحـر الأحمـر المحملـة بالبضائع من كل مكان، وتفرغ فيه بضائعها لتنتقل إلى القاهرة بواسطة الجمال، لا يقع بعيدًا عن جبل سيناء الذى ليس بينه وبين القاهرة سوى رحلة خمسة أيام. ورجال الـدين المسـيحى فى هذا المكان يعيشون داخل أديرة، ويذهبون يوميًا إلى القاهرة، وهم يقطعون رحلـتهم هـذه جيئة وذهابًا عدة مرات، أكثر من أى أناس آخرين، بل لعلهم أكثر من العرب أنفسهم، لأنه من المعروف أنهم لا يحملون معهم ذهبًا.

ويحـدق البدو بالطريق كله، حيث يسرقون وينهبون كما يحلو لهم فى تلك البرارى دون أن يحدثوا أذى بين سالكيه، إلا أن هذا الأمر لا يندرج على رجال الدين المسيحى الذين كانوا قد أبرموا اتفاقًا مع كلٍّ من الملك والبدو، ويقال إن البدو فى حقيقة الأمر كانوا يحترمون كلمتهم مع الغرباء الذين يسكنون فيما بين ظهرانيهم. ويوجد بالقاهرة حاليًا حوالى سبعمائة أسرة يهودية من بيـنهم خمسـون أسـرة مـن السامريين Samaritans الذين أطلق عليهم أيضًا اسم الكوثانية Cutheans، ومائـة وخمسون أسرة من القرائين Karaites وبقية الأسر من الربانينRabanit . ولدى السامريين الكتب الخمسة الخاصة بموسى [عليه السلام] فقط، وطريقة كتابتهم تختلف عن

طريقتنا، وهى الكتابة المقدسة. وتسجل تعاليم الميمونيةMaimonides أن طريقة كتابة السامريين تعد من الأمور المتعارف عليها عند بنى إسرائيل قبل طرد الأشوريين، كما أنها متعلقة تمامًا بما ورد فى مقالة Sanhedrin بيد أن لغتهم العبرية مثل لغتنا، وإنما تنسخ قواعد النحو الخاصة بالكلمات رباعية الحروف tragrammaton فهم يكتبون أشيما[١] Ashima والسامريون موضع بغض واستنكار من اليهود، نظرًا لأنهم يقدمون الأضاحى ويحرقون البخور على جبل جرزيم Gerizim . وكثير منهم غادروا p.226 القاهرة معنا إلى جبل جرزيم لذبح أضاحى عيد الفصح قربانًا هناك، كذلك لديهم معبد فوق هذا الجبل؛ ويحتفلون بيوم السبت من منتصف نهار الجمعة حتى منتصف نهار يوم السبت. ومازال نفر قليل منهم باقين إلى يومنا هذا، ويقال إن من بقى منهم يبلغ عددهم بالكاد خمسمائة أسرة فى العالم كله.

وكما تعرف يا والدى فإن القرائين لا يعتقدون فيما يقوله حكماؤنا، ولكنهم يؤمنون بكل ما جاء به الكتاب المقدس. ويحددون يوم ظهور الشهر الجديد بناءً على ظهور القمر[٢] . وبناءً على ذلك فإن هؤلاء القرائين فى القاهرة يختلفون فى تحديد كلٍّ من يوم الاحتفال برأس السنة الجديدة Rosh Hashana ويوم عيد الغفران Day of Atonement عن أولئك اليهود ساكنى القدس، فالمتقدمون يتمسكون بوجهة نظرهم التى لا تشوبها أخطاء، ويقومون كل عام بإرسال من يستطلع بداية فصل الربيع فى القدس، وعند رؤيتهم للقمر يكون من الضرورى عندهم اعتماد هذه السنة سنة كبيسة Ibbur وإضافة شهر كبيس، وهم لا يرون غضاضة فى إضافتهم هذا الشهر وكذلك عدم أخذ أولئك القرائين المقيمين بالقسطنطينية بهذا الأمر، إذ أن كل مكان يحدد تقويمه السنوى وفقًا لأعرافه. ويصوم القرائون بالقاهرة يومى السابع والعاشر من شهر آب [يوليو- أغسطس]. ومن المعروف جيدًا أنهم يحتفلون بعيد شابوعوت [Shabuoth عيد الحصاد] الموافق يوم الأحد، ويعلقون زعف النخيل Lulab ونباتات أخرى [مذكورة فى أسفار اللاويين ٣٣، ٤٠] فى وسط المعبد ويلقى الجميع بنظرهم عليه، وهم يرون إن هذا كافٍ بالنسبة لهم، وهم لا يوقدون أية نار فى بيوتهم يوم السبت سواء فى النهار أم بالليل، فالقواعد الخمس تحترم طقس شيشيتا (Shechitaذبح الحيوانات للطعام) وشأنهم فى احترام هذا الطقس شأننا نحن، برغم أن ذلك لم يرد بوضوح فى النصوص التوراتية؛ وهم يراعون القواعد فى ذبح ذبائحهم باستخدام سكين حاد للغاية خالٍ من أى ثلم، كما أن شرائعهم تحرم الخمور، وهم فى ذلك أكثر حرصًا من الربانين. وفى كل

---

(١) وقع ابن عزرا فى الخطأ نفسه وربما جاء هذا الخطأ نتيجة القراءة الخاطئة للنص السامرى.

(٢) ليس بحسابات فلكية كما يفعل الربانون.

البلاد التى مررتُ بها لاحظت أن القانون الذى يحرم الخمر هو موضع احترام من قِبل الجميع، حتى إن هـــناك شبهة فى مدى إمكانية استخدام العسل الذى يقوم العرب بإعداده من العنب وهو يعد فى منتهـــى الجودة، وعند إعداده كان لا يتم عصر العنب كما هو الحال عند إعداد الخمر p.227 مـــنه، وقـــد طُلب منى أن أرخص لليهود باستخدامه إذ كان هناك كثير من الجدل حول إمكانية تناوله، إلا أن أسلاف لم يقدموا على ذلك. وقد أردت ألا أحدث بدعة، ولا يوجد من اليهود مَن يقدم على شرب خمر صنعه رجل عربى، خاصة إذا ما كان رجلاً غير يهودى. ويتبع القراؤون كل طقـــوس غســـل المـــيت بدقة؛ فحينما يتوفى أحدٌ منهم، يغادر جميعهم البيت ويستأجرون بعض الـــتلموديين الفقـــراء لحمل جثمانه بعيدًا، نظرًا لأنهم لن يقدموا على لمس الجثمان بأنفسهم. وقد قـــرأت بعضًا من تعليقاتهم مثل تلك التى بقلم جافيت Japhet والتى اقتبسها ابن عزرا، وكذلك تلـــك التى كتبها رابى هارون، من طائفة القرائين؛ فهم يقدمون على تأليف شروح جديدة للتوراة كمـــا يحلو لهم. كما أنهم ملتزمون بفكرة جواز إدخال تعديلات على أصل الشريعة التى وضعها الأوائل طالما تبدو غامضة أمام الحكماء فى الوقت الحالى بما يتفق مع نصوص الكتاب المقدس، ومن ثم فهم يقرون بحرفية كل ما جاء فى التوراة. وعلى هذه الأسس فإنهم لا يضعون فى اعتبارهم أن يكـــون سواء العلماء القدامى أم الحاليين منهم قد وقعوا فى أى خطأ. وللقرائين معبد فى القاهرة، ومعظم القائمين على الصلاة يشملون فى صلواتهم المزامير وكذلك أجزاء أخرى من أسفار الكتاب المقدس؛ وفى أيامنا هذه قد استحدثوا قواعد للتلاوة فى التوراة فى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع، وهى شعيرة لم يعمل بها من قبل، ومن بينهم كهنة ولاويون. ومما ذكر أن هناك رجلاً من أثـــرياء وشرفاء القرائين فى القاهرة يدعى زادكه Zadakah انحدر من ذرارى بيت داود David [علـــيه الســـلام] وقد حاول أن يطلعنى على نسب عائلته مستشهدًا بالعديد من الأسماء على مرّ الأجيال، ولكن لم يسعفنى الوقت للجلوس إليه.

إن الســـامريين هـــم أغنى اليهود فى القاهرة، ويشغلون أعلى الوظائف فى الدولة؛ حيث يعملـــون صـــرافين، وفى وظائـــف إدارية. وقيل إن واحدًا منهم كان يمتلك مائتى ألف قطعة من الذهب. والقراؤون أكثر ثراءً من التلموديين، ونجد أغنياء حتى فيما بين هؤلاء التلموديين. وكثيرًا ما نجد أن اليهود اعتادوا أن يقدموا أنفسهم على أنهم من الفقراء فى البلاد العربية؛ p.228 ويُبدوا أنفســـهم كصعاليك ومتسولين وهم يتنقلون بين العرب؛ فى حين أنهم لا يبدون الشفقة والإحسان كلٌ حيال الآخر؛ والقراؤون كذلك يمزجون أنفسهم خلال التلموديين ويحاولون التودد إليهم.

ويوجد بالقاهرة حوالى خمسون عائلة من المارانو Marranos جاءوا من أسبانيا وكانوا قد أجبروا على الارتداد عن يهوديتهم. وقام جميعهم بتقديم كفارة عن ذلك. وكان عليهم أن يخلو

وراءهـم جميع ما لديهم؛ ومن ثم فمعظمهم معوزون نظرًا لأنهم قد أُجبروا على ترك ممتلكاتهم، وآبائهم، وأقاربهم، وقدموا إلى هنا ليلتمسوا مأمنًا لهم تحت أجنحة رب إسرائيل العظيم. ومن بين يهـود القاهرة أيضًا يوجد التجار الذين يعملون بمهنة استبدال العملات؛ ذلك لأن البلد ضخم، كمـا أن بعـض أفرع الصناعات مفتوحة أمام أى فرد. وللاتجار فليس هناك مكان أفضل له من القاهـرة؛ فمن السهل أن تزداد ثراءً. وهاهنا يمكن للفرد أن يلتقى بأجانب لا حصر لهم من شتى الأمم واللغات. وتستطيع أن تذهب إلى الخارج أثناء الليل وكأنك فى النهار، إذ أن جميع الشوارع مضاءة بالمشاعل؛ فالناس تنام على الأرض قبالة المحال، وبإمكان اليهودى ابتياع أى شيء ضرورى، مثل اللحم، والجبن، والسمك، والخضروات، وكذلك جميع الأشياء التى يُحتاج إليها. لقد كان كل شـيء يباع فى شارع اليهود، هذا هو الحال أيضًا فى باليرمو، ولكن لم يكن الأمر هناك مثلما هو بالقاهرة، ففى المدينة الأخيرة فإن اليهود يطبخون داخل منازلهم فى يوم السبت فقط، نظرًا لأن كلاً من الرجال والنساء على حد سواء مشغولون الأسبوع كله ومن ثم يشترون كل شيء من السوق. والخشـب كان عزيزًا نادرًا جدًا؛ حتى إن حملاً من الخشب ليس كبيرًا إلى الحد الذى يمثل حمولة زوج من البغال، يقدر بثلثى دوكية وربما أكثر من ذلك، وحتى اللحم والفاكهة أيضًا من الأشياء العزيزة ذات الثمن الباهظ. واللحم رائع جدًا، وأخص بالذكر منها إلية الخروف. والقراؤون لا يأكلـون هذا، وذلك يرجع إلى أن التوراة حرمت هذا النوع من الدهون. وفى القاهرة لم أرَ شيئًا أرخص من بصل النيل onions of the Nile والكراث والشمام والخيار والخضروات. وأحيانًا ما يكون الخبز رخيصًا مرتبطًا بأعوام ازدهار الغلة p.229 ويأخذ فى صنعه شكل الكعك الذى يتسم عجينه بالنعومة.

إن اليهودى النجيد Nagid الذى يتخذ لنفسه من القاهرة مقرًا له، قد جُعل رئيسًا على كـل اليهود الذين يخضعون تحت سيادة ملك مصر؛ فله كل السلطة التى للملك، وبإمكانه معاقبة وسجن أولئك اليهود الذين يقدمون على مخالفة مراسيمه، كما له أن يعين قضاة Dayyanim من مجـتمعاتهم. وأمير اليهود الحالى كان قد أقام فى القدس لفترة طويلة فيما مضى، بيد أنه كان يضطر إلى مغادرتها وتركها تحت وطأة شيوخهم the Elders المفترين الواشين. وهذا النجيد كان يدعى الـرابى ناثان هاكوهين R. Nathan Ha-Cohen وهو رجل غنى وحكيم وتقى، وكبير فى السن، ويـنحدر من البربر. وحينما قدمت إلى القاهرة أبدى لى عظيم التقدير، وأحبنى كما يحب الأب ابـنه، وحاول أن يثنينى تمامًا عن الذهاب إلى القدس خشية ما ذكرته سلفًا؛ الأمر الذى جعل كل العلمـاء والـربيين يـبرحون هذه المدينة كلية بسرعة، وذلك كى ينجوا بحياتهم من قمع هؤلاء الشـيوخ. وقد بلغ عدد اليهود الذين كانوا فى القدس حوالى ثلاثمائة أسرة، وما لبثوا أن اختفوا

تدريجيًا تحـــت وطأة تضخم الضرائب وتفاقم الأعباء على كاهلهم بفعل هؤلاء الشيوخ، ونتيجة لـــذلك لم يتبقَّ بها سوى البؤساء والنساء؛ وأيضًا ذلكم الذى هو مجرد بشر ليس له كنه إلا اسمه. إنهـــم أولـــئك المجرمون ذوو الشعر الرمادى الذين تخطوا أقصى الحدود ببيع لفائف الشريعة مع أغلفتها والستائر والنفائس والمقتنيات المقدسة الثمينة بالقدس؛ إلى من هم غير يهود، الذين قاموا بتهـــريبها وتبديدها إلى أراضٍ غريبة. لقد باعوا كتبًا عديدة مثل التلمود ومجموعات المخطوطات، الـــتى كانت قد أودعت بالقدس بواسطة اليهود الاشكيناز، حتى إنه لم يتبقَّ هناك شيء ذو قيمة. ولقد أخبرنى النجيد أنه ليس فى وسعه أن يضع حدًا لهذه الأفعال وذلك لأنه خشى من أن شيوخ اليهود يتحدثون بشكل شرير تجاه جميع اليهود إلى الملك، وأن «حلق الملك ما هو إلا قبرٌ فاتح فاه، كما أن عينيه ليس لها أن تشبعا». وكانت قد وقعت اضطرابات p.230 فى هذا الوقت تقريبًا فى مصر؛ ذلك أن الملك أراد أن يجمع أموالاً بغرض تقديمها إلى قادة جيشه، الذين كان عليهم الخروج للقتال ضد الإمبراطور التركى فى حلب؛ إذ قام الملك المملوكى بفرض ضرائب باهظة تقدر بخمسة وســبعين ألف قطعة من الذهب على يهود القاهرة؛ أى: السامريين والقرائين والربانين، وكذلك كـــان هـــو الحال للنصارى والعرب، ولذا فقد عُنى الملك بتحصيل هذا القدر الضخم من المبلغ. وبســبب ذلــك فإن عيد البوريم فى هذا العام كان حزينًا خانقًا باكيًا بين اليهود؛ وحتى فى ذلك الوقت، فإننى لم أفقد شجاعتى، ومازال قلبى معلقًا بالرب.

وفى العشـــرين مـــن شهر آذار Adar [مارس]، قمت بمغادرة القاهرة فى صحبة الرجل اليهودى الذى كان قد جاء معى من الإسكندرية، وبلغنا منطقة الخانكة Chanak على مبعدة ميلين من القاهرة. وبعد خروجى من القاهرة الجديدة ذهبت إلى القاهرة القديمة، التى كانت تدعى مصر العتـــيقة Mizraim Atika، وكانـــت هى أيضًا مأهولة بالسكان، وإن كانت ليس مثل القاهرة الجديـــدة فى هـــذا الشأن، بيد أن الاثنتين شديدتا القرب من بعضهما، وعلى الطريق هنالك رأينا المـــنطقة التى كان الملك يرسل إليها الناس بغرض إقامة سد على النيل كل عام، لمواجهة الفيضان الـــذى يحدث عادة فى شهر آب Ab [يوليو-أغسطس]. ولقد سمعت أشياء لا تحصى عن فيضان النيل، وهو أمر قد يكون من الصعب تسجيله، خاصة وأننى لم أرَ تلك الأشياء بعينى حقيقة. ولقد رأيت المطر فى القاهرة لكنه لم يكن بكمية كبيرة؛ وفى الوقت الذى شعرت فيه ببرد قارس أثناء عيد بوريم Purim تعجب الناس لذلك، وقالوا إنهم لم يروا هذا البرد القارس منذ سنوات عديدة، إذ إن مصر بكل المقاييس تعد دافئة جدًا.

ويوجد بالقاهرة القديمة معبد جميل مبنى على دعائم ضخمة رائعة المنظر، تم تكريسه للنبى إلياس Elijah الذى قيل إنه ظهر للمتدينين الأتقياء فى الجهة الجنوبية الشرقية، حيث تبقى فى هذا

المكان شعلة أزلية الإضاءة، أما فى الجهة الشمالية الشرقية فتوجد لفائف عزرا Ezra التى هى ذاتها لفائف الشريعة، على منصة وفى العادة كانت توضع هناك؛ إذ يُحكى أن يهوديًا جاء من الغرب منذ سنوات عديدة محضرًا معه هذه اللفائف بعد أن حصل عليها من أحد خُدام المعبد ثم أبحر بها عن طريق p.231 الإسكندرية وقُدِّر لهذه اللفائف أن تُفقد معه حينما غرقت به السفينة ليس بعيدًا عن الإسكندرية. أما خادم المعبد الذى أقدم على بيع هذه اللفائف لليهودى مقابل مائة قطعة ذهبية فقد غدا مرتدًا عن دينه ومات على التو. وقد تم وضع الصندوق الذى كان يحفظ اللفائف على حاله فى المعبد وأمامه توقد شعلة أزلية الإضاءة. وقد أراد الملك فى العام الماضى أن يأخذ الدعائم التى يرتكز عليها بناء المعبد لكى يستخدمها فى بناء قصر له نظرًا لأنها كانت ضخمة وجميلة، إلا أن اليهود افتدوها مقابل ألف قطعة ذهبية. ووفقًا للتاريخ المدون على الحائط الخاص بالمعبد، فإن بناءه يعود إلى ثمانية وثلاثين عامًا قبل تدمير المعبد الثانى. وإلى القرب منه يوجد معبد جميل آخر ولكنه لا يضاهى سابقه؛ وتقام الصلوات هنا بخشوع كل يوم سبت، ويستأجر اليهود شخصًا لمباشرة المعبد ومراقبة أموره.

لم أكن محظوظًا بما فيه الكفاية نظرًا لأننى لم أذهب إلى دموة Dimo وهو مكان خارج القاهرة حيث قيل إن موسى [عليه السلام] قد أدى صلاة هناك؛ وعليه يوجد بالمكان معبدان، أحدهما ملك للربانين والثانى ملك للقرائين؛ وعادة ما تقام فيهما الخدمات المقدسة فى أيام السبت وأيام الأعياد؛ وقد أخبرت بأن مماليك الملك كانوا يقومون بتقديم العلف لخيولهم فى الطريق ذاته المؤدى إلى المعبد، ويشكل هذا خطرًا داهمًا على اليهود حيث اعتاد المماليك فى تلك الآونة ضرب وإيذاء اليهود شأنهم شأن العرب الذين كانوا يتعرضون أيضًا لهذا الأذى.

ومكثنا فى الخانكة لمدة يومين، واستأجرنا هناك خمسة جمال لحمل رجلين وامرأتين كانوا قد انضموا إلينا فى القاهرة. ويقال إن هذا المكان هو جوشن Goshen حيث نزل اليهود مصر فيه بشكل مؤقت. ومن ثم وصلنا إلى الصالحية حيث مكثنا هناك لما بعد يوم السبت منتظرين مرور إحدى القوافل، ونظرًا لأن الطريق عبر البرارى يبدأ من هذه البلدة وهو غير مأمون لمجرد عبور رحلة مكونة من خمسة جمال فقط. ولا يوجد أى يهودى يقطن تلك المنطقة الممتدة من الصالحية وحتى غزة.

وفى الصالحية قضينا ثلاثة أيام إلى أن وصلت قافلة عربية تتألف من ثمانية جمال، الذين اصطحبناهم إلى أن وصلنا p.232 قطية Katiah وهى بلدة وسط البرارى حيث لا يمكننا رؤية أى مظهر من مظاهر الحياة النباتية سوى النخيل. والبرية بين مصر وفلسطين ليست واسعة وبها

محطــات للجمــال بين كل منها مسيرة يوم واحد، وقد أنشئت فى الأساس لخدمة المسافرين على الطريق، وعلى امتداد الأراضى ما هى إلا رمال؛ فلا يوجد أيضًا أى نوع من النباتات سوى أشجار النخـيل وفى أماكن محددة ومعروفة، وقد يتوفر الماء بعد قطع رحلة يومين وأحيانًا بعد رحلة يوم واحد وفى معظم الأحيان تكون تلك المياه آسنة.

ثم وصــلنا إلى العريش Arish خلال البرية التى كانت تعرف سالفًا باسم سكوث Succoth. كانــت القوافل قد اعتادت على نصب خيامهم فيها وقت الظهيرة لتبدأ الرحلة مع حلول العشاء حــتى يدركهم منتصف الليل، وقد تبدأ الرحلة من منتصف الليل حتى الثلث الأول من نهار اليوم الــتالى، ويــتوقف أمــر بدء الرحلة على ما يرتأيه المسئولون عن حركة القوافل لكنهم فى معظم الأحوال كانوا يفضلون السفر ليلاً أكثر من السفر نهارًا، وكنا نرتحل من مكان إلى آخر فى البرية حــتى وصلنا إلى غزة دون حدوث أية مشكلة تذكر. كانت غزة هى البلدة الأولى التى صادفناها بعد خروجنا من البداية، وهى التى أفضت بنا إلى بلاد الفلسطينيين. والبلدة متسعة وجميلة تشبه فى حجمها حجم القدس، بيد أنها بلا أسوار، وكل هذه الأراضى خاضعة للسيادة المصرية وهى تمتد لتشمل مجمل فلسطين التى هى موطن الشعب الفلسطينى بالإضافة إلى سوريا، ومن بين جميع المدن الواقعة تحت هذه السيادة لا نجد سوى الإسكندرية وحلب وقد أحاطتهما الأسوار. واستنادًا إلى ما أخبرنى به اليهود المقيمون فى غزة، إذا ما صح حديثهم، فقد رأيت بأم عينى هناك أطلال الأبنية التى هدمها شمشون Samson فوق رأس الفلسطينيين. وقد أمضينا فى غزة مدة أربعة أيام كان يقيم فــيها رابى من ألمانيا يدعى الرابى موسى أف براغ Rabbi Moses of Prague الذى جاءها فارًا مــن القدس، والذى أصر أن يصطحبنى معه إلى بيته وبالفعل اضطررتُ إلى قضاء هذه الفترة معه، ولمــا حــل بنا يوم السبت قام بدعوة جميع أعيان اليهود لتناول وجبة العشاء معنا حيث قدم لنا تشكيلة من الكعكات المطهية من الكروم والفواكه، وتناولنا قبل ذلك صنوفًا من الشراب، الأمر الذى أدخل علينا سرورًا عظيمًا.

p.233 وفى يوم الأحد الموافق الحادى عشر من نيسان [إبريل]، بدأت رحلة الخروج من غزة ممتطين الجحاش وقد أصبحنا على مبعدة ميلين من حبرون، حيث أمسينا هناك وفى نهار يوم الاثنين وصلنا إلى حبرون، وهى بلدة صغيرة تقع عند منحدر الجبل، وكان الأتراك قد أطلقوا عليها اسم الخليل. والبلدة مقسمة إلى شطرين: أحدهما بجوار مغارة الأنبياء أما الآخر فهو قاب قوسين أو أدنى مــن الشــطر الأول لكن فى الاتجاه المعاكس. وكنت قد بلغت مغارة ماكفيلا حيث أقيم المسجد فوقها وهو موضع يجله العرب بشدة، ويأتى إليه جميع حكام وملوك العرب بغرض تأدية الصلوات، ولا يمكن لأى يهودى أو عربى الدخول إلى هذه المغارة نظرًا لأنها تضم القبور الحقيقية للأنبياء. وقد

دأب العـرب على الوقوف أعلى المغارة وتدلية المشاعل داخلها من خلال فتحة بغرض الحصول على إضاءة دائمة. وقال لى اليهود المقيمون فى الخليل إن جميع الذين يأتون بغرض الصلاة كانوا يلقـون النقود إلى داخل المغارة من خلال الفتحة، وحينما يبتغى الناس استرداد النقود مرة أخرى كانـوا يدلون بشاب صغير السن، غير متزوج، إلى أسفل بعد ربطه بحبل ليأتى بها. إن الخليل وما تضمه من حقول والأراضى المجاورة موقوفة على المغارة إذ يتم توزيع الخبز والعدس وربما بقوليات أخرى على الفقراء كل يوم دون تمييز بين عقيدة كل منهم، وهذا تكريمًا لإبراهيم [عليه السلام] وبالخـارج يوجد فى أحد حوائط المغارة فتحة صغيرة يقال إنها استحدثت بعد دفن إبراهيم [عليه السلام]، وعندها يسمح لليهود بالصلاة على ألا يتخطى أحدهم حوائط تلك المغارة وشرعت فى أداء صـلاتى من خلال تلك الفتحة الصغيرة. أما على قمة الجبل المقابل فتوجد مغارة كبيرة يقال إنهـا تضـم رفات العيص Jesse والد داوود [عليه السلام]. ثم خرجنا فى اليوم ذاته مرة خرى للصلاة هناك. ويقع بين قبر العيص ومغارة الأنبياء بئر يطلق عليه العرب اسم بئر إسحقIsaac ، ويقـال إنه ينسب إلى النبى إسحق [عليه السلام]. وبالقرب من الخليلHebron توجد عين ماء مـتدفقة بـين الصـخور تعرف باسم بئر سارة Sarah p.234 وتضم الخليل عديدًا من بساتين الكـروم وأشـجار الزيتون، كما تشمل عشرين أسرة كلهم من الربانين كان نصفهم من سلالة أولئك الذين أجبروا على الارتداد عن دينهم إلا أنهم عادوا إليه مرة أخرى.

فى صباح يوم الثلاثاء الموافق الثالث عشر من نيسان [إبريل] غادرنا الخليل التى تبعد عن القـدس برحلة يوم واحد، وعلى الطريق بدا لنا من بُعد مقبرة راشيل Rachel حيث يوجد مبنى دائرى ذو قبة. وعندئذ نزلنا عن ظهور جحاشنا، وأدينا الصلاة عند هذه المقبرة كلٌ بما يتيسر له. وعلـى اليد اليمنى للمسافر إلى القدس يوجد تل تقع عليه بيت لحم، وهى مجرد بلدة صغيرة تقع على مبعدة نصف ميل من مقبرة راشيل وبها كنيسة الكهنة الكاثوليك.

تمـتد المسافة من بيت لحم إلى القدس ثلاثة أميال والطريق على امتداده إلى هناك عامر بالكرمات والبساتين وتتشابه كرمات العنب فى هذه الجهات مع مثيلاتها فى رومانيا Romagna إذ أن أشـجار العنب بها قصيرة وكثيفة. وعلى بعد ثلاثة أرباع ميل قبل وصولنا إلى القدس حيث يصـعد الجـبل متدرجًا، وعند هذا المكان يمكن رؤية المدينة التى بعثت فى نفسنا البهجة. وحينئذ وجب علينا شق ثيابنا. وبعد مسافة قصيرة بدا لنا البيت المقدس مهجورًا، وهو الذى نجله، حيث قمنا بشق ثيابنا مرة أخرى. وما لبثنا أن وصلنا إلى بوابات القدس. وفى ظهيرة يوم الثالث عشر من شهر نيسان [إبريل] عام ٥٢٤٨، وصلنا إلى بوابات المدينة، حيث التقينا بأحد الأشكيناز وهو رجل كان قد تلقى تعليمه فى إيطاليا اسمه الرابى يعقوب كالمان R.Jacob Calmann، فأخذنى معه

إلى منزله وبقيت ضيفًا عنده طوال فترة عيد الفصح. والقدس من أكثر المناطق المهجورة التى يعمها الخراب. ولست محتاجًا إلى أن أكرر الإشارة إلى أنها لم تكن محاطة بأية أسوار، وقيل لى أن سكانها يـبلغون حـوالى أربعـة آلاف أسرة. أما بالنسبة لليهود فكان عددهم سبعين أسرة هم من أشد الطبقات التى بقت فى القدس فقرًا. ونادرًا ما توجد أسرة لا تعوزها الاحتياجات الأساسية، حيث إن الأسـرة التى كان يمكنها أن توفر الخبز طوال عام كامل، يطلق عليها أسرة غنية. p.235 ومن بـين الشعب اليهودى يوجد عدد كبير من المسنين والأرامل اللاتى لا تجدن من يعولهن، وهن من ألمانيا وأسبانيا والبرتغال وبلاد أخرى، إلى الحد الذى يبلغ إلى أن يكون عدد النساء بالنسبة للرجال سبعة إلى واحد. فقد أصبحت الأرض أكثر هدوءًا وسعادة مما كانت، وذلك بسبب توبة شيوخها الـيهود وإقلاعهم عن الشر والفساد اللذين أقدموا عليهما حتى أن الطبقة التى بقيت فى القدس غـدت هـى الطـبقة الفقيرة، إذ أصبحوا شديدى الود والترحاب بأى وافد عليهم، كما كانوا يلتمسـون الأعذار لأنفسهم عما اقترفوه سلفًا وأكدوا أنهم لم يبدأوا بإيذاء أحد طالما لم يبادر فى إبـداء النية فى انتزاع الزعامة من أيديهم. وبالنسبة لى، فحقيقة ليس بداخلى أى ضغينة حيالهم، فعلـى النقيض مما شاع عنهم قد أبدوا لى مزيدًا من اللطف والترحاب، وتعاملوا معى بكل حفاوة وهذا ما أحمد الله عليه.

فى الواقـع، فإن اليهود ليسوا مضطهدين من العرب فى هذه المناطق؛ فقد ارتحلت داخل هـذه الـبلاد طولاً وعرضًا ولم أقابل فى طريقى عقبة من أحد منهم، وكان هؤلاء -أى العرب- شـديدو اللطـف مع الأجانب خاصة أولئك الذين لا يعرفون لغتهم، وإذا ما وجدوا عصبة من الـيهود مجتمعة لا يزعجهم هذا فى شىء. ومن السهل على أى رجل يهودى ذكى متمكن بالعلوم السياسية أن يرتقى إلى أن يصبح رئيسًا سواء لليهود أم للعرب على حد سواء؛ إذ لا يوجد من بين كل الأهالى رجل حكيم له حس خاص ونديه الحنكة للتعامل مع رجاله التابعين له بدماثة، فجميع هؤلاء جهلاء سيئوا الظن فيمن حولهم، وكل ما يهمهم هو الكسب المادى فقط.

المعـبد هـنا مقام على أعمدة طويلة، متقاربة ومظلمة، ولا يدخله الضوء إلا عن طريق الـباب، وفى وسطه عين ماء. ويوجد فى ساحة المعبد وقريبًا جدًا منه المسجد، وساحة المعبد كبيرة جـدًا حـيث ضمت عديدًا من المنازل التى قُدمت هبة من الأشكيناز للعمل الخيرى كى تسكنها أرامـل هذه الفئة. فكان هناك فيما سبق عدة ساحات فى شوارع اليهود تتبع هذه الأبنية، ولكن شيوخ اليهود باعوها p.236 حتى لم يبقَ أى منها. وعلى كلٍّ فليس فى وسعهم بيع أبنية الأشكيناز نظـرًا لأنها تخصهم وحدهم ومن ثم ليس لأى يهودى فقير أى حق فيها إن لم يكن أشكينازيًا. إن شوارع اليهود ومنازلهم واسعة جدًا؛ كما أن بعضهم كان يقيم فوق جبل صهيون. ويومًا ما كان

لليهود فى القدس عدد من البيوت أكبر مما هو حاليًا إلا أنها الآن ما هى إلا أكداس من المخلفات ولا يمكن إعادة بنائها مرة أخرى، إذ أن قانون الأراضى لا يعطى الحق لليهودى فى إعادة بناء بيته الخرب دون ترخيص، وكان الحصول على تصريح بناء يكلفه فى الغالب أكثر من ثمن البيت نفسه. وكانت منازل القدس مبنية من الحجر وليس من خشب أو ملاط.

وهنا بالقدس توجد بعض العادات المحمودة؛ فلم أرَ فى مكان آخر الخدمة اليومية تمارس بأسلوب أفضل مما رأيته فيها، إذ على اليهودى أن ينهض ساعة أو ساعتين قبل انبلاج الصباح، حتى لو كان يوم السبت، حيث كانوا يتلون المزامير ويرددون أناشيد التسابيح حتى يدركهم الفجر، وحينئذ يرددون القاديش، ومن ثم يقوم اثنان من القراء المختصين بتمجيد الشريعة، كما يقرءون فصلاً عن الأضاحى، وكذلك جميع أناشيد التسابيح التى يعقبها لحن جميل يخاطب فيه الجميع إسرائيل«Hear, O Israel» وذلك مع بزوغ أول شعاع للشمس فى كل صباح. ويكرر الكهنة cohanim منح البركة الكهنوتية للصلاة يوميًا، ولا يقتصر طقس منح البركة عقب الصلاة على يوم السبت بل يمتد ليشمل كل صلاة عامة فى جميع أيام الأسبوع. وتقال الابتهالات فى الصباح وبعد الظهر فى خشوع شديد، جنبًا إلى جنب مع الصفات الثلاث عشرة المنفرد بها الله؛ وليس هناك فرق بين يومى الإثنين والخميس، وباقى أيام الأسبوع إلا فيما يختص بالشريعة فإنها تقرأ فى هذين اليومين.

إن القدس، وبالرغم من الدمار الشديد الذى ألَمّ بها، فإنها ماتزال تضم عند سفح جبل صهيون أربعة أسواق طولية، من أجمل ما رأيت وكأنى لم أرَ أبدًا بهاءً يماثل بهاءها من قبل. وجميع أسقفتها تتخذ الشكل القبابى فى البناء، وتضم بضائع من شتى الأنواع. وهى مقسمة إلى محلات بيع مختلفة، حيث الدكاكين الخاصة بالتجار، ودكاكين التوابل p.237 وأسواق بيع الخضار، وفى إحدى هذه الأسواق كان يباع الطعام مطهيًا، وكذلك يباع الخبز. وحينما وصلت القدس كان فى البلاد مجاعة شديدة. وكان فى وسع الرجل متوسط الدخل أن يأكل خبزًا فى كل وجبة بمقدار درخمة Drachma واحدة، وهى ما تعدل بالنسبة لعملتنا واحد بولونينو Bolognino من الفضة العتيقة، علمًا بأن هذا القدر من الخبز لا يسمن ولا يغنى من جوع. وقد أخبرت بأن المجاعة غدت أقل مما كانت عليه فى بداية العام بكثير. إن عديدًا من اليهود ماتوا جوعًا، إذ شوهدوا آخر مرة قبل يوم أو يومين من حتفهم يلتمسون الخبز، الذى لم يكن بوسع أحد أن يمنحهم إياه، وفى اليوم التالى تم العثور عليهم موتى داخل بيوتهم. وعاش كثير منهم على أكل العشب، وكانوا يخرجون كالبهائم الهائمة على وجوهها إلى مسافات بعيدة باحثين عن الكلأ. ويوجد هنا فى الوقت الحالى رابى ألمانى كان قد تلقى تعليمه فى القدس. لم أرَ أبدًا مَن يضاهيه فى تواضعه وورعه من الرب؛ وهو

يكرس وقته ليلاً ونهارًا فى الحياكة طالما لم يكن عاكفًا على دراسته، وظل لمدة ستة أشهر لم يذق فيها الخبـز مـــن الســبت إلى السبت، وكان طعامه يتألف من اللفت النيء وبقايا خبز القديس يوحنا المصنوع من الذرة المزدهرة زراعتها فى هذه الأرض، وذلك بعد انتزاع السكر منها. وبناءً على ما قالــه أحد الرجال الموثوق فيهم، فإن بلدة أريحا Jericho "مدينة النخيل City of Palms" تقع علـــى مـــبعدة رحلة نصف يوم فقط من القدس، وفى وقتنا الحاضر فهناك بالكاد ثلاثة من أشجار النخيل فى هذه البلدة.

وفى هذه الأيام فقد أتى محصول القمح لهذا العام أُكُله، وبلغت المجاعة منتهاها، ونظرًا لأن المحصول جاء أكثر ازدهارًا فقد كان مدعاة لحمد الرب. فهنا، فى القدس، رأيت العديد من أنواع الفاكهة التى لا يمكن أن نجدها فى بلادنا. وتوجد هنا شجرة ذات أوراق طويلة، تنمو إلى أن تصبح أكثــر ارتفاعًا من قامة الرجل وهى تطرح ثمارها مرة واحدة فقط؛ وما تلبث أن تذبل بعد ذلك، ومـــن جـــذورها تنمو شجرة أخرى مثلها، التى بدورها تطرح ثمارها مرة أخرى فى العام التالى؛ ويتكـــرر هـــذا الأمر على الدوام. والعنب أكبر حجمًا من ذلك الذى فى بلادنا، إلا أنه ليس من الممكن أن تجد هنا لا الكريز ولا البندق ولا خشب الكستناء، ولكن فى الإمكان أن يكون لديك جمـــيع ضـــروريات الحياة، مثل: اللحم، النبيذ، الزيتون p.238 وزيت السمسم بأسعار زهيدة. والتـــربة الـــزراعية ممتازة، إلا أنه ليس لأى فرد أن يكسب قوت يومه من عمل فى أى صنف من صنوف الصناعة، إلا إذا كان من صانعى الأحذية، أو إذ ما كان يعمل فى سباكة الذهب أو الحياكة وحـــتى مثل أصحاب هذه الحرف فإنهم يكسبون رزقهم بصعوبة بالغة .وعادةً ما تصادف بالقدس شخصـــيات مـــن أجـــناس شتى من البلاد المسيحية، وكذلك من مصر Babylonia والحبشة Abyssiniaوقد دأب العرب على أن يأتوا إلى الهيكل [المسجد الأقصى] The Temple ليؤدوا صلواتهم فى خشوع، ذلك أنهم يحيطونه بالتبجيل الشديد.

وقـــد تحريت حول سامباشن Sambation، وسمعت من رجل كان على علم بأن هناك رجلاً قد قدم من مملكة الكاهن يوحنا Prester John كان على بينة بالجبال العالية والوديان التى هـــناك، وكان بإمكانه أن يقطعها فى رحلة قدرها عشرة أيام، وهذه المملكة مأهولة تحديدًا بأناس ينحدرون من سلالة إسرائيل. إن لديهم خمسة أمراء أو ملوك تمكنوا من الاستحواذ على مدى قرن كامل أو يزيد على تلك البلاد بعد حروب طاحنة مع أتباع الكاهن يوحنا Johannites، وللأسف فقـــد انتصر أتباع الكاهن يوحنا وانهزم إفرايم Ephraim وأخذ أتباع الكاهن يوحنا فى النفاذ إلى بلادهـــم، وعصـــفوا بها، وتم القضاء تقريبًا على ذكرى إسرائيل فى تلك الربوع، ذلك أن هناك مرسومًا استصدر ضد من بقى منهم يحظر عليهم ممارسة واجباتهم الدينية، وشأن هذا الأمر هو شأن

المرسوم الذى أصدره أنتيوخوس Antiochus فى الماضى فى عصر الحاشمونيين Hasmoneans غير أن الـــرب ذا رحمـــة، فإن ملوكًا آخرين فى الهند آل إليهم حكمه بالوراثة ولم تكن قلوبهم قاسية كأســـلافهم؛ إذ غـــدا يقال إن مجد اليهود الغابر فى طريقه الآن إلى صحوة عظمى؛ كما أخذت أعدادهم فى التزايد مرة أخرى من جديد، ومع ذلك فقد استمروا فى دفع الجزية إلى أتباع القديس يوحـــنا إلا أنهم لم يخضعوا لهم بشكل كامل. وقد قيل إنهم دخلوا فى حرب، منذ أربع سنوات، مع جيرانهم، حينما أوقعوا بأعدائهم واتخذوا كثيرًا منهم أسرى. وفى المقابل، أخذ الأعداء بعضًا منهم أسرى، وقاموا ببيعهم كعبيد؛ فقد تم جلب بعض أولئك p.239 إلى القاهرة وهناك استرد اليهود ملكيتهم لهم. وقد رأيت اثنين منهم فى القاهرة؛ وكانا ذوى بشرة سوداء إلا أنهما لم يكونا داكنى الســـواد مـــثل الـــزنوج. وكان من المستحيل أن تعرف منهما إذا ما كان ينتميان إلى القرائين أم الربانين؛ ففى بعض الأحوال يبدون هؤلاء وكأنهم يعتنقون المذهب القرائى، إذ أنهم يقرون بأنهم لا توقد النار داخل بيوتهم فى يوم السبت؛ وفى أحوال أخرى يبدون وكأنهم ربانيون. ويقال إن الفلفل وتوابل أخرى التى يقوم الزنوج ببيعها تأتى بشكل أساسى من بلادهم.

والمعروف على نطاق واسع هنا أن العرب كانوا يقومون بتجهيز رحلة الحج من مصر إلى مكـــة مختـــرقين فيها صحارٍ شاسعة وموحشة، حتى إن قوافلهم تتألف من عشرة آلاف جمل على الأقـــل، وأحـــيانًا ما كانت تتعرض هذه القوافل للسطو عليها فى البرية من أناس عمالقة، كان فى وســـع أحـــدهم أن يتعقب ألفًا من العرب. وقد أطلق عليهم العرب مسمى العرب [وبالأحرى العربان El Arabes] الذين هم أبناء الله children of Almighty ذلك أنهم يستشهدون دائمًا باســـم الله القدير. ويؤكد العرب على أن واحدًا من هؤلاء العربان كان قادرًا على أن يحمل جملاً بإحدى يديه، بينما يقبض على السيف الذى يحارب به بيده الأخرى؛ ومن المعروف إنهم ملتزمون بالأعراف الدينية الخاصة باليهود، فمن الثابت أنهم ينحدرون من نسل ركابRechab .

ولـــيس لأى يهودى أن يدخل إلى محيط هذا الهيكل. ومع ذلك فأحيانًا ما يسمح للعرب وهم متوجسون للنجارين وسابكى الذهب من اليهود بإنجاز أعمال لهم هناك شريطة عدم النفاذ إلى داخلـــه، نظرًا لأننا نحن اليهود نُجِّسنا (بالاعتداء على أجساد الموتى). وإننى لا أعرف إذا ما كان العرب دخلوا إلى أقدس المقدسات أم لا. كذلك وجهت إلى ابن شتياح Eben Shethiah بعض الاستفسارات عن المكان الذى يضم تابوت العهد Ark of the covenant فقيل لى: إن التابوت يوجد أسفل قبة جميلة ومرتفعة بنيت بأيدى العرب فى ساحة الهيكل. وأنه فى جوف هذ المبنى، ولا يســـمح لأحـــد الدخول إليه. وهناك حيث الأسوار المحيطة بالهيكل توجد الكنوز والثراء العظيم. كـــذلك فنحن نسمع p.240 أن الحكام قد قاموا بتشييد غرف مطعمة بالذهب هناك. ويقال أن

الملك الذى يمسك بمقاليد الحكم حاليًا، قد حرص على تشيد مبنى، أكثر بهاءً من أى مبنى تم بناؤه من قبل، حيث تم تزيينه بالذهب والأحجار الكريمة.

إن أسوار هذا الهيكل ماتزال بها اثنتا عشرة بوابة. أما التى تحمل اسم الرحمة من بينها فقد صنعت من الحديد، وهما بوابتان، تطلان على شرق الهيكل، وعادة ما تكونان مغلقتين. ونصفاهما يعلوان فوق الأرض، أما النصف الآخر فهو مغروس فيها. وقد قيل إن العرب حاولوا جادين عدة مرات رفعهما إلى أعلى ولكنهم لم يستطيعوا إتمام هذا العمل.

وفيما يختص بالحائط الغربى، فإن جزءاً منه مازال قائمًا، وهو يتألف من حجارة ضخمة، صلبة، ولم أرَ أبدًا من قبل مثيلاً له من حيث قِدم بنائه، سواء أكان فى روما أم فى أى بلد آخر. ويوجد برج من كتل حجرية شديدة الضخامة فى الركن الشمالى الشرقى. لقد دخلته ووجدته عبارة عن صرح شامخ يرتكز على أعمدة ضخمة وشاهقة، كما يوجد الكثير من الأعمدة التى أصابتنى بالسأم قبل أن أبلغ نهاية المبنى. فكل شىء ملىء بالثرى الذى أُلقى هناك من بقايا الهيكل. وتوجد فتحة فى جميع الأعمدة التى يقوم عليها مبنى الهيكل يمكن من خلالها جذب حبل، وقد قيل إن الثيران والكباش المقدمة كأضاحى كانت توثق هنا. وفى كل مكان بمنطقة القدس، كانت توجد الحقول ومغارات متصلة حيث تجاور المغارة منهم الأخرى شأنها فى ذلك شأن بساتين الكروم.

وفوق جبل الزيتون Mount of Olives يقبع قبر النبى هجاء Haggai وقبر السيدة هيلدا Huldah، علاوة على ما يزيد عن عشر مغارات، كلٌ منها تنفذ إلى الأخرى. أما المقبرة التى تضم رفات السبعين من الزعماء، وهو الذى يقع على مبعدة حوالى ألفى ذراع من القدس، وهو مبهر وفخم، خاصة قبر شمعون Simon العادل. فى كل مكان، فى الخارج والداخل، وسواء فى الحقول أو المنازل فإن المغارات لا حصر لها.

إن مياه سلوام Siloam تنسل من تحت الأرض إلى وادى جوشيفات Jehoshaphat وسلوام لا تعد جدولاً مائيًا بالتحديد، إنما هو نبع يرتفع ماؤه كل صباح p.241 حتى قرابة الظهر، وما يلبث أن ينخفض ويجرى تحت الجبل نحو مكان قريب حيث تزخر به الآن أطلال ممتدة. وقد قيل إن هذه الأبنية كان سليمان [عليه السلام] قد شيدها لتكون دارًا للسكة؛ وتستغل حاليًا كساحة لدبغ الجلود. ويشغل وادى جوشيفات حيزًا قليلاً يمتد طوليًا بين جبل الهيكل وجبل الزيتون. وتوجد مقابر اليهود عند أسفل سفح جبل الهيكل؛ أما المستحدث منها فتوجد عند أسفل جبل الزيتون، فى حين يخترق الوادى أفنية القبور. وليس بعيدًا من هنا تقبع معالم تحمل ذكرى

أبشـــالوم Absalom والـــنبى زكريا Zachariah؛ وتقام صلوات اليهود فى المكان الخاص بالنبى زكريا فى أيام الصيام؛ وفى يوم التاسع من شهر آب، حيث تتكرر عبارات الرثاء.

إن جـبل الـزيتون أرض مكرمة لكنها مقفرة؛ إذ بالكاد يمكن أن تعثر فيها على شجرة زيـتون. ومـن فـوق قمـة جبل الزيتون قد يكون من الممكن رؤية سدوم Sodom وعمورة Gomorrah من بُعد، وهما تشكلان بحرًا مالحًا حاليًا. وقد سمعت من الأهالى المقيمين هناك أن الملح كان يفترش جميع أنحاء الأرض. وأما عن امرأة لوط [Lot عليه السلام] فإنه لم يكن فى وسع أحد أن يخبرنى بشىء عنه، إذ كانت أعداد أعمدة الملح لا حصر لها، وعليه فقد كان من المستحيل تمييز أى من تلك الأعمدة يمثل امرأة لوط.

وكـان جبل إفرايم Mount of Abarim الذى دفن فيه موسى [عليه السلام] فى مجال الـرؤية مـن القدس. أما المناطق الواقعة فيما وراء نهر الأردن، وهى التى تتألف من أرض رؤبين Reubenوجيد Gad وماناسى Manasseh وأرض أبناء عامون Ammon وجبل مؤاب Mount of Moabوجـبل سـعير Mount Seir، فجميعها حاليًا مناطق مدمرة. ولا يمكن أن تجد مدينة مأهـولة بالسـكان هناك؛ ذلك أن البدو يأتون على الأخضر واليابس. إنهم يصلون حتى بوابات القدس، وهم يسلبون وينهبون فى الطرق المسلوكة، ولا يمكن لأحد أن يتصدى لهم. إن أعدادهم كبيرة، وذلك هو السبب الذى أدى إلى إقفار المنطقة تمامًا، ولا يقطنها سكان؛ حيث لا حرث فيها ولا زرع. وتعـد أريحـا قرية صغيرة، حيث تتألف من عشرين أو ثلاثين بيتًا، أما بيثان Bethan فكانت فى الماضى مدينة كبيرة، إلا أنها أصبحت حاليًا مرعى للماشية، وتشتمل على حوالى عشرين بيـتًا؛ وهى تقع على مبعدة نصف يوم من القدس. وتقريبًا فإن جميع البيوت التى كانت ذات شأن كـبير فى الماضى غدت الآن أماكن مقفرة. p.242 ورغم أن هذه البقاع لاتزال تحتفظ بمسمياتها القديمة نفسها، إلا أنها فى حقيقة الأمر مهجورة حاليًا.

وفى جمـيع هـذه المـناطق سواء فى الوهاد أم النجاد نجد جباة الضرائب الذين يقدمون أنفسهم على أنهم مشرفون على أمن الطريق وهم يدعون "نفر" Naphar[1] باللغة العربية. وهؤلاء الـرجال يأخـذون الضرائب من اليهود كما يحلو لهم فى حصانة تامة. ومن القاهرة إلى هنا توجد حـوالى عشـرون بوابة مكوس؛ وبالأصالة عن نفسى فقد دفعت لهم جميعًا حوالى دوقية واحدة. وكان على اليهود القادمين من القاهرة أن يدفعوا مبلغًا قدره عشرة دنانير فضية عند بوابة القدس،

---

(١) أخذت من اللغة العربية "نفر" بمعنى انتابه الخوف.

فى حين كان على اليهود القادمين من قبل يافا أن يدفعوا دوقية واحدة، أما يهود القدس فعليهم أن يدفعوا كل عام اثنتين وثلاثين قطعة فضية ضريبة رأس، مثل الفقير فى ذلك مثل الغنى، فكل منهم عليه دفع هذه الضريبة بمجرد أن يشب على الطوق ويبلغ سن الرشد.

وكان على كل يهودى أن يدفع مبلغ إجمالى قدره خمسين دوكية سنويًا إلى النائب نيبو[١] Niepo حاكم القدس، وذلك بغرض الحصول على تصريح لصنع الخمر التى تعد شرابًا بغيضًا عند كـل العـرب. وهذه كانت حصيلة الضرائب الواجب دفعها من قبل اليهود سنويًا إلا أن شيوخ اليهود ذهبوا إلى حد أبعد من ذلك فى ظلمهم، فتحت زعم وجود عجز فى ميزانيتهم يفرضون ضـرائب جديـدة فى كل أسبوع مجبرين كل يهودى على دفع ما يرونه، وفى حالة رفض أحدهم لذلك يتعرض للضرب بحكم قضائى من شخص غير يهودى إلى أن يمتثل لأمر الدفع.

وبالنسـبة لى، فبتوفيق من الله لم يطلب منى شىء حتى هذه اللحظة، أما ما سيحدث فى المستقبل فلا أستطيع التنبؤ به.

وينقسـم المسيحيون فى القدس إلى خمس طوائف: كاثوليك، أرثوذكس، يعاقبة، أرمن، ومـن مسـيحيى الحبشـة؛ وكل طائفة منهم تكفر بعقيدة الطائفة الأخرى بالضبط مثل ما فعله السـامريون والقـراؤون حينما حرموا عقيدة الربانين. وكل طائفة من هذه الطوائف لديها قسم منفصل داخل كنيسة الضريح المقدس التى تعد ضخمة للغاية ولها برج تعلوه قبة لكنها بغير جرس p.243 ويـوجد داخل هذه الكنيسة شخصان بشكل مستمر ينتميان إلى كل طائفة ليس لهما أن يغادراها أبدًا. وعند جبل صهيون Mount of Zion وقريبًا من مقبرة الملوك The Sepulchre of the kings تـوجد لطائفة الفرنسيسكان Franciscan كنيسة كبيرة كما تنتمى مقبرة الملوك إلـيهم مـنذ عهد بعيد، بيد أن ثمة يهوديًا من الأشكيناز قدم إلى القدس قد تمنى شراء المقابر من الملـك، وبذلك أوقع نفسه فى منازعة مع رجال الدين المسيحى وما لبث أن استولى العرب على تلك المقابر التى ظلت فى حوزتهم. ولما أصبح من المعلوم لدى أهل البندقية أن القبور انتقلت من أيدى الكاثوليك من خلال اليهود الذين وفدوا من الأراضى المسيحية، تم إصدار مرسوم بأنه ليس لأى يهودى أن يسافر إلى القدس عن طريق البندقية، إلا أن هذا المرسوم تم إبطاله حاليًا، وها هم يأتون كل عام فى السفن البندقية بل وكذلك السفن الخاصة بالحجيج؛ إذ لا يوجد طريق آمن ولا أقصر من الطريق الذى تسلكه تلك السفن. وكم كنت أتمنى لو أحطت علمًا بذلك حينما كنت فى هذه البلاد، إذ كان ذلك لن يجعلنى أقضى مدة طويلة فى هذه الرحلة.

---

[١] ربما هو النائب باللغة العربية التى تعنى صاحب السيادة.

ولقد اتخذت منزلاً لى بالقرب من المعبد فى الغرفة العليا للبيت تلاصق جدار المعبد، وفى الساحة التى بداخلها منزلى، يوجد خمسة من السكان كلهن نساء، كما يعيش رجل أعمى هناك وتقوم زوجته على خدمتى. ويجب علىّ أن أتوجه للرب شاكرًا، الذى تعطف علىّ ببركاته حتى حينه؛ إذ لم أمرض أبدًا مثلما كان آخرون يمرضون وكانوا قد قدموا معى فى الوقت ذاته إلى هنا. إن أغلبية أولئك الذين وفدوا إلى القدس من بلاد أجنبية وقعوا فريسة المرض، بسبب التغيرات المناخية والتقلبات الفجائية فى الرياح، التى كانت تارة باردة وتارة أخرى دفيئة. فكل أنواع الرياح التى تهب تنشط فى القدس. ويقال أن أية رياح قبل أن تتجه إلى أى مكان فهى تصل أولاً إلى القدس مسخّرة نفسها لقدرة الرب فى حضرته ليباركها طالما هو سبحانه الذى يعلم الحق.

ولقد تضرعت إلى الله يا والدى بحرارة ألا تجزع ولا تعانى إشفاقًا علىّ بسبب إقدامى على الرحيل بعيدًا على هذا النحو، وألا تذرف الدموع من أجلى. ذلك أن الله هو الذى جاء بى إلى بيته المقدس بفضل رحمته. وما من شك فى أن إرادته تعالى هذه لسوف تدخل السرور على قلبى كما أنها سوف تعود بالسعادة عليك. والله شاهدى على أننى قد نسيت كل كروبى وهمومى السابقة، وأن الذكريات جميعًا ذات الصلة ببلادى الأصلية قد ذهبت بعيدًا عنى. أما كل الذكريات التى هى فى صميم تخيلك مازلت أحتفظ بها، وهى راسخة دائمًا أمام عينى، أيها الأب المبجل. وإن عيناى لتغشى حزنًا كلما تذكرت أننى قد فارقتك وأنت فى هذه السن الكبيرة، ولعل أقصى ما أخشاه ألا تكون دموعك الغاليك كافية كى يمحو الله بها ذنوبى فترة الشباب.

والآن فإنى أتوسل إليك أن تهب بركتك لتشمل خادمك، ولتجعل من خطابى هذا عوضًا عن غيابى؛ إذ أنه سوف يثبت لك قدرة ابنك على تدبير الأمر، ومن الآن فصاعدًا لم تعد مستاءً منه. وإذا ما حفظنى الله فلسوف أبعث إليك بخطاب فى كل عام مع البحارة التى ما من شك سوف تبعث عليك بالطمأنينة، وأنزع من قلبك كل الأحزان، وعِشْ فى ابتهاج وسط أبنائك وأحفادك الذين يجلسون إلى مائدتك ومن حولك وسوف يتولون رعايتك ويؤازرونك فى شيخوختك، وإنى قد دعوت لهم بالخير ولسوف أمعن فى دعائى لهم أينما ذهبت إلى الأماكن المقدسة فى القدس وهى سوف يعاد بناؤها على يد المشياح Messiah والله أسأل أن يجعلنا نشهد هذه العودة، ولعل وعسى أن تأتى إلى صهيون فى حبور وسعادة. آمين.

أنهيت فى عجالة فى القدس، المدينة المقدسة، التى ربما لها أن يعاد بناؤها قريبًا فى أيامنا هذه.

من ابنك

تحريرًا فى ٨ أيلول [سبتمبر] ٥٢٤٨ [١٤٨٨م]

كم هى كلماتك آسرة لقلبى يا أخى. فهى أحلى من قطع الحلوى. لقد وصلت خطاباتك الثلاثة إلىّ فى الخامس من أيلول [سبتمبر]، عن طريق قائد إحدى السفن التى تنقل الحجاج مع رسالة أخرى طويلة p.245 من السنيور الثرى عمانويل شاى أف كاميرينو Emanuel Chai of Camerino وسوف أتولى الرد عليهم جميعًا بصفة عامة، إلا أننى سوف أتناول بالشرح بعض النقاط منها فقط.

وبادئ ذى بدء فإنى احمد الله، كما أتوجه إليك بالشكر على الأخبار الرائعة من أن أبانا المسن الذى لا أكف عن حبى الغامر له مازال حيًا يرزق. ولعل الله يتمم علينا نعمته ويحفظه لنا فى عافية وصحة على مرّ الأيام. إلا أننى فى غمرة هذه السعادة أصبت بحزن شديد نظرًا لوفاة ابنتك الكبرى، وكذلك ابنك الذى رزقت به بعد فراقى لك. وإن ما يشاؤه الله دائمًا يكون هو الأفضل. وعلى أية حال، فليس فى وسعنا ما يمكن عمله إلا أن ندعو لهؤلاء الذين مازالوا على قيد الحياة، راجين من الله أن يمنحهم بركاته ويحفظهم لنا زخرًا.

فأنت تسألنى عن المعجزات التى تردد حدوثها فى جبل الهيكل وفى مقابر الأتقياء والأبرار. ولكن ما حسبى أن أخبرك، يا أخى، عنها ؟ فى الواقع فإننى لم أرَ تلك المعجزات. وبالنسبة لما يقال عن الأنوار التى تلقى على أحد جوانب الهيكل وهى التى سمعت أنت بها بأنها فى العادة لا تتوقف عن الإضاءة فى يوم التاسع من آب وهو أمر قيل إنه يحدث بالفعل، إلا أنه لا يمكننى أن أتحدث بشكل مؤكد عنه؛ حيث إننى لا أرى بدًا من أن أجزم على عدم صدق القصة المنسوبة إلى أحد اليهود الشرقيين وما يملؤها من خداع وأكاذيب؛ إلا أن رجالاً أذكياء مثلك، يا أخى، عليهم أن يتحققوا من مثل هذه الأساطير وألا يثقوا فى ما يصلهم من تقارير كاذبة.

ومنذ أن حضرت إلى هنا فلم أمتلك بعد وقتًا كى أذهب فيه إلى أى مكان، ولذلك فإن بمقدورى فقط أن أروى ما ترامى إلى مسامعى فى أرجاء المدينة المقدسة وفى المناطق الأخرى التابعة لها. فإنه يقال إن اليهود فى صفد Safed يعيشون فى وئام وسلام مع العرب، وكذلك الأمر فى قرية قانا Cana وفى جميع أراضى الجليل Galilee. وحتى حينه فإن معظم اليهود الذين قابلتهم كانوا فقراء، وهم يعيلون أنفسهم بالعمل فى أعمال وضيعة، وكثير منهم يتنقلون بين القرى لتدبير الحد الأدنى لقوت عيشهم. وفى المقابل، فقد سمعت أن اليهود فى دمشق تجار أغنياء، ومع خالص تقديرى فليس هناك مكان أكثر مباركة مثل دمشق. إذ أن بها بيوتًا رائعة وحدائق شديدة الجمال، ومن الصعب تمامًا أن ترى شبيهًا لها p.246 فى أى مكان. ومع ذلك، فهواؤها ليس نقيًا للغاية، حتى إن

الغرباء الذين يذهبون إليها يمرضون. وإلى هنا حيث القدس يأتى الناس من مصر ودمشق وحلب، ومن بلادٍ أخرى ليسجدوا بين يدى الله وفى حضرته.

إن اليهود هنا جاءوا من عدن Aden. وكما يقال فإن عدن هى الموضع الذى به جنة عدن: وهى تقع إلى الجنوب الشرقى من أثيوبيا Ethiopia، ويفصلهما البحر الأحمر عن بعضهما. ويقول هؤلاء اليهود الذين جاءوا من هناك أنه يوجد فى بلادهم مجتمعات يهودية عريضة. وملك هذه البلاد عربى، وهو شديد اللطف فى تعامله مع اليهود، كما أن البلاد ذاتها ممتدة الأرجاء وخلابة، وينضج بها عديد من صنوف الفواكه الرائعة، ومنها ما لا نجد لنوعيتها مثيل فيما بيننا، وهم لا يعرفون بشكل محقق المكان الذى كانت تقع فيه الجنة؛ ويقوم الأهالى بزرع محاصيلهم فى شهر آذار [فبراير-مارس] ويحصدونه فى شهر كسليف [نوفمبر-ديسمبر]. ويمتد موسم المطر هناك من عيد الفصح اليهودى فى شهر آب [يوليو-أغسطس]. وكنتيجة حتمية لكميات المطر الغزيرة التى تسقط هناك فإن منسوب مياه النيل يرتفع فى الشهر المذكور. أما عن سكانها والأهالى فهم إلى حد ما يميلون إلى البشرة السمراء. وليس لدى اليهود كتب التلمود؛ وإن كل ما يمتلكونه مجرد أعمال الرابى إسحاق الفاسى Isaac Alfasi، ملحق بها شروح عليها، فضلاً عن أعمال ابن ميمون. ويهود عدن جميعًا من كبيرهم إلى صغيرهم يشغلون أنفسهم بشكل أساسى بما ورد من أقوال فى أعمال ابن ميمون، ويعكفون على دراستها. وقد أخبرنا اليهود أيضًا أنه من المعروف الآن فيما بين التجار العرب أن نهر سامباشن يقع على بعد رحلة خمسين يومًا من بلادهم داخل البرية، ومن ثم فهو أشبه بمحيط، يحيط بكل الأراضى التى يسكنها سلالات بنى إسرائيل. ويقوم النهر بطرح الأحجار والرمال ولا يستقر له أمر إلا فى يوم السبت، ومن ثم فليس هناك يهودى واحد، من الذين يتنقلون داخل هذا البلد له أن يفتتن بانتهاك حرمة يوم السبت. ومما هو سائد فيما بين [يهود عدن] بشكل عقائدى، أن نسل يعقوب [عليه السلام] يعيش هناك [فيما وراء نهر سامباشن] [ويكرر عوفاديا العبارة الآتية] إن هذا النهر يطرح الأحجار والرمال ولا يستقر له أمر إلا فى يوم السبت، و من ثم فليس هناك يهودى واحد له أن يعبر إلى ما يلى النهر، وإلا فسوف ينتهك حرمة يوم السبت. ومما هو سائد p.247 فيما بين يهود تلك البلاد أنهم جميعًا ينحدرون من سلالة موسى [عليه السلام]، ولذا فكلهم طاهرون ومعصومون كما الملائكة، ولا يوجد فيما بينهم من يقدم على فعل الشر. أما أبناء إسرائيل فى الضفة الأخرى من نهر سامباشن فأعدادهم لا تحصى كرمال البحر، ويوجد عديد من الملوك والأمراء فيما بينهم، إلا أنهم ليسوا طاهرين ولا منزهين إلى الحد الذى عليه أولئك اليهود الذين يلفهم النهر. ويروى يهود عدن كل ذلك على أنه حقيقة مجردة، كما وكأنها مسلم بها، وليس لأحدٍ أبدًا أن يشكك فى مصداقية مزاعمهم الراسخة.

وثمة شيخ رابى يهودى من الاشكيناز، الذى ولد وتعلم هنا، أن أخبرنى بأنه يذكر وهو فى مرحلة الشباب أن قدم بعض اليهود من عدن، وأخذوا فى رواية كل شىء له عما فعلوه تفصيليًا. كـــذلك فإن يهود عدن يقولون بأن مواطن بنى إسرائيل تقع عند التخوم الخاصة بأراضى بلادهم، وهــم أولــئك الذين كتبت عنهم فى خطابى الأول، الذين هم حاليًا فى حرب مع شعب القديس يوحــنا، وكان بعض منهم قد أخذوا أسرى وتم جلبهم إلى القاهرة. ولقد رأيت بعينى بعضًا من هــؤلاء الأسرى؛ وهؤلاء اليهود يقيمون أبعد من اليهود الآخرين الذين يعيشون على ضفاف نهر سامباشــن مســافة رحلــة شهر. وقد حكى المسيحيون القادمون من الأراضى الخاضعة لملوك اليوحانــيين أن الــيهود هناك، والذين هم فى حرب مع شعب القديس يوحنا، قد ألمت بهم هزائم مريــرة، ونحن فى غاية الشغف للتحقق إذا ما كانت هذه الأحداث قد وقعت بالفعل أم لا؛ وهذا الأمر لا يعلمه إلا الله وحده. وعسى الرب أن يحمى على الدوام شعبه وعبيده !

وإنى أسكن هنا بالقدس فى البيت الخاص بالنجيد، الذى قام بتعيينى حاكمًا، وكنت أذهب مــرتين إلى المعــبد الــيهودى شهريًا كى ألقى محاضرات باللغة العبرية، وكانت غالبية الناس هنا يفهمــوها. وكان صوت مواعظى ينساب إلى آذانهم وكأنه أغنية محبوبة، فلقد امتدحوها وأظهروا شــغفًا بسماعها، لكنهم لم يكونوا على مستوى إحساسهم هذا فلم يتفاعلوا معها. وحتى الآن لا يمكــنى القــول بــأن أحدًا منهم فعل شيئًا يثير غضبى : حتى الزعماء لم يقدموا على فعل شىء يضايقنى؛ إذ أنهم لم يثقلوا كاهلى بأية ضريبة بعدp.248 ، وهو الأمر الذى كانوا قد اعتادوا فعله بصفة عامة كل أسبوع. حتى أنهم أبدوا رغبتهم فى ألا يجعلونى أدفع ضريبة الرأس فى العام الأول، وهى الضريبة التى ليس لأحد أن يعفى منها. ولذا فإن بقائى هنا هو بمثابة المعجزة. والله هو الذى يعلم ما ستفعله المقادير معى مستقبلاً!

وأحيطك علمًا أنه بناءً على طلب منى أرسل لى عمانويل شاى أُف كاميرينو المحترم مبلغًا وقدره مائــة دوقية بندقية، وتركت معه ربع رأس المال، ووعدنى بأنه سوف يقوم بهذا العمل على التوالى كــل عــام. ولسوف أدفع عشرة بالمائة لربان السفينة، الذى سيأتينى بهذا المال ولقد أضاف هذا الشريف عمانويل خمسًا وعشرين دوقية، شطرًا للصرف منه على مصابيح المعبد اليهودى، وشطرًا آخــر يمنح للفقراء. وبالنسبة لى فإنى أعيش قانعًا بالقدس لا أريد جزاءً ولا شكورًا من أىٍّ كان. ونحــن نجتمع سويًا فى كل صباح ومساء لدراسة هالاخاه Halacha. وقد اعتاد اثنان من الطلبة الســفرد فضــلاً عن اثنين آخرين من الأشكيناز من الربيين المتواجدين معى هنا على الانتظام فى الــدروس التى ألقنها. وبالمناسبة فإن أرض الميعاد غدت مهيأة للسكنى وإعادة إعمارها، ذلك أن الملك قد أصدر مرسومًا سارى الصلاحية بأنه على اليهود المقيمين فى القدس من الآن وصاعدًا دفع

ضــريبة الرأس المفروضة عليهم فقط. حيث إنه كان على السكان اليهود المجتمعين فيما مضى أن يدفعــوا أربعمائــة دوقية سنويًا، بغض النظر عن أعدادهم. أما حاليًا فإن كل فرد عليه أن يدفع ضــريبة الرأس المقررة عن نفسه، وهو غير مكلف أن يدفع عن الآخرين. وإن مرسومًا كهذا لم يصــدر مرسوم شبيه له فى القدس منذ خمسين عامًا. وعلى ذلك فإن كثيرًا ممن كانوا قد غادروا القدس أخذوا فى العودة إليها. ولعله بفضل الله وعونه أن يعاد بناء المدينة والهيكل ولعله كذلك أن يعود سبطا يهوذا Judah وإفرايم المشتتان ليلتقيا من جديد ويخر الجميع لله تعالى سجدًا فوق الجبل المقدس. وإنى لمضطر الآن أن أختم خطابى هذا حيث إننى مشغول للغاية.

أُرسل هذا الخطاب على وجه السرعة من القدس. تحريرًا فى السابع والعشرين من أيلول عام ٥٢٤٩ (الموافق شهر سبتمبر ١٤٨٩م).

من أخيك.

Obadiah Jare

p.249 الخطاب الثالث

سيدى الفاضل[١].

أرجو من الله أن يغمرك برحمته وبطول العمر، كما أرجو أن تنال شرف رؤية المقدسات والهيكل. آمين.

إنــه حينما قدم إلى هنا السفير الفلورنسى حاملاً معه خطابات سيدى المباركة. ولم أكن آنــذاك بالقدس، المدينة المقدسة. حيث ذهبت إلى الخليل وأقمت بها عدة أيام. إن إقامتى فى هذه البلدة كانت محببة إلى قلبى أكثر من إقامتى فى القدس؛ إذ كانت أعداد اليهود فى الخليل قليلة وكما أنهم طيبون وهم ليسوا بسيئين مثل أولئك الذين بالقدس. ويوجد هنا حوالى عشرين أسرة يهودية يقــيمون جميعًا فى فناء مقصور عليهم ولا يندس فيما بينهم مسلم أو أىّ من حثالة الناس. وهناك تقليد سائد معروف فى كل البلد أنه من الأفضل أن يوارى اليهود فى ثرى الخليل من أن يدفن فى القدس.

---

[١] يحتمل أن يكون هذا الخطاب قد وجه إلى عمانويل شاى أف كاميرينو الذى تم الإشارة إليه فى صفحتى pp.245, 248.

وهنا فى الخليل حيث مقبرة الآباء Tomb of the Patriarchs، يوجد مبنى عتيق معظمه مـن كتلٍ حجرية مهولة، ويوجد فوق هذا البناء العتيق مبنى آخر حديث خاص بالعرب، وفى هذا المكان حيث شهد كشف الملائكة عن أنفسهم لإبراهيم (عليه السلام) ما يزال يطلق عليه مسمى ممـرى Mamre، كما توجد أيضًا مغارة صغيرة تعلوها صخرة يقال أنه قد تم ختان إبراهيم (عليه السـلام) فوقها، وعلى مبعدة مسافة من البلدة يوجد بئر واسع وهو الذى يطلق عليه العرب بئر إبـراهيم، وليس ببعيد عنه يوجد بئر آخر معروف باسم بئر إسحاق. وعلى مرمى سهم أو يزيد يوجد على الطريق جدول مائى مايزال يحمل اسم أشكول Eshcol، أما كرمات العنب القريبة من الجـدول مـا زالت إلى يومنا هذا تنمو بشكل أفضل من الكرمات الأخرى الموجودة فى المناطق المحـيطة، كمـا مـا تزال عديد من القرى فيما حول الخليل حاملة نفس أسمائها الواردة فى كتب الأنبياء.

والآن فيما يختص بمدينة دمشق العظيمة، التى نتساءل عنها يا سيدى، ما إذا كانت تدخل ضـمن الأرض المقدسة. وإنه لمن المعروف من خلال الكلمات الصادرة عن كل الناس الحكماء، خاصة أولئك أنصار ابن ميمون الواردة فى مؤلف: هاليشوت تيرموت-81) Hilchot Terumot (9 الذى اعتبر دمشق جزءًا من سوريا، وأن جميع سكان الجليل حتى يومنا هذا يتفق على ذلك، إلا أنهـم يقولون p.250 بأن حدود الأرض المقدسة شديدة القرب منها. وربما تكون صفد وبانورسا Banorsa[1] وهـى كبرى مدن الجليل، قريبة من دمشق، وحدودهما تمتد لتلامس حدود دمشق. أما طرابلس سوريا فهى ميناء للسفن وسوق لشتى الأمم، وتقع عند حد فلسطين، والحديث عنها ذو شجون، ذلك أن الله حباها بالفاكهة وجميع المنتجات التى ترد من مدن الأرض المقدسة، ويفد إلـيها الـرحالة من أقصى الأراضى. وبها حاليًا حوالى مائة أسرة يهودية، حيث يقيمون فى وئام وسـلام. ويقـول كثير من الناس أنه إذا ما جاء رجل حكيم من إيطاليا إلى طرابلس فإنه حتمًا سيصبح ثريًا جدًا فى فترة وجيزة، وذلك عن طريق التجارة مع تجار إيطاليا الذين يترددون عليها.

والحرب التى نشبت بين ملك تركيا وملك مصر، قد ران عليها النسيان، وظن الكثيرون أنهمـا قد وقّعها منذ عامين اتفاقية عدم اعتداء بينهما، علمًا بأن الملك الذى يعيش هناك هو الملك نفسه لم يبدل أو يمت. لقد ظل فى حكم السلطنة المصرية على مدى عشرين عامًا، وإنه قد بلغ من الكبر عتيًا، وخلال تلك الفترة لم يكن هناك عداء تجاه اليهود، إلا أنه قد أثقل كاهلهم بالضرائب

---

[1] يحتمل أن تكونا تافاس Tafas وميذرب Mzreib.

الـــباهظة، بيد أنه أقدم على فعل الشيء ذاته مع العرب وأولئك غير المختونين (النصارى) الذين يقطنون أراضيه.

سيدى، ليس لدى اليوم جديد أخبرك به، سوى أننى أفكر مليًا فى قبور آبائى المقدسة، وأصلى كـــل يـــوم فى اتجـــاه الهيكل هذا الذى بيده السلام متدفقًا كالنهر وشطر بيته العادل الذى ملؤه السلام، هو الله الذى يباركنا فى كل أفعالنا وفقًا لمشيئته ووفقًا لما يتمناه عباده.

المستوطن بالأرض المقدسة بالقدس

هنا، الخليل فى ٢٢ من تيفت Tebeth عام ٥٢٥٠ (الموافق آخر ديسمبر- يناير ١٤٩٠).

فى عجالة.

al-maktabeh www. .com
مكتبة المهتدين

بيان بأهم مصادر الدراسة ومراجعها

بيان بالمختصرات الواردة فى قائمة المصادر والمراجع.

أولاً: المصادر والكتب الوثائقية الأجنبية

ثانياً: المصادر العربية

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

رابعاً: المراجع الثانوية العربية والمعربة:

بيان بالمختصرات الواردة فى قائمة المصادر والمراجع.

A. C. P. S. I,	Ain- Shams University Center of Papyrological Studies and Inscriptions.
J. T,	Jewish Traverllers.
P. E. F,	Palestine Exploration Fund.
P. P. T. S,	Palestine Pilgrims' Text Society.
S. O. A. S,	School of Oriental and African Studies.

أولاً: المصادر والكتب الوثائقية الأجنبية

- A student's letter' written in 1495 A.D., (ed.) Marmorostein, Rabbi Avroham, in: Pathway to Jerusalem, the travel letters of Rabbi Ovadiah of Bartenura, written between 1488 and 1490, during his journey to the Holy land, translated by Shulman, Y.D., Jerusalem, 1992.
- Benjamin of Tudela, The voyages of Benjamin

وقد رجع الباحث إلى النسخة العربية، انظر: بينامين التطيلى؛ (قام برحلته ما بين (٥٦ – ٥٦٩ هـــ)، الرابى بنيامين بن يونه التطيلى الأندلسى: رحلة بنيامين التطيلى، ترجمة: عزرا حداد، بغداد، ١٣٨٤هــ.

- Burchard of Mount Sion, A Description of the Holy land, 1232 A.D., trans. by Aubrey Stewart in: P.P.T.S., vol. XII, London, 1896, pp.1 – 111.

وقـــد اعتمد الباحث على النسخة العربية. انظر: بورشارد من جبل صهيون: وصف الأرض المقدســـة، ترجمة: سعيد عبدالله البشاوى، مراجعة وتدقيق: مصطفى زيادة، الطبعة الأولى، عمان، ١٩٩٥م.

- Daniel the Russian, the pilgrimage of Daniel the Russian in the Holy land, 1106 – 1107 A.D., Trans. By Wilson, C.W., in: P. P. T. S., vol. IV, London, 1882, pp.1 – 108.

- Felix Fabri, Le Voyage en Egypte, 1483 A. D., Traduit du Latin, présenté et annoté par le P. P. Jacques Masson S. J, 3 Parties, Institut Français d'Archéologie orientale, Le Caire, 1976.

- Goitein, S. D., Mediterranean society, the Jewish communities of the Arab world as portroyed in documents of the Cairo Geniza, 4 vols. University of California, press 1967 – 1978.

- Isaac Chelo, Roads From Jerusalem 1334 A.D., (ed.): Adler, N. E., in: J. T., London, 1930, pp.134 – 150.

- Jacob, R., The Messenger of R. Jechiel of Paris (1238 – 1244), in: J. T., ed. Adler, N., London, 1930, pp.115 – 129.

- John of Wurzburg, Description of the Holy land by John of Wurzburg 1160- 1170 A. D., Trans. By C. W. Wilson, in: P. P. T. S., vol. V, London, 1890, pp.1 – 72.

- Joos Van Ghistele, Le voyage en Egypte, 1482 - 1483 A. D., Traduction, introduction et Notes de Mme Renée, Bauwens – Preaux, vol. (16) XVI, L'Institut Francais d'Archéologie, Le Caire, 1976, pp. II – X.

- Judah – al – Harizi, Tachkemoni, 1216, in: J. T., ed. Adler, N., London, 1930, pp. 111 – 114.

- Judah Halevi, His Pilgrimage to Zoin, 1085 – 1140 A. D., ed. Adler, N., London, 1930.

- Marmorstein, Rabbi Avrohom, (ed.), pathway to Jerusalem, the travel letters of Rabbi Ovadiah of Bartenura, written between 1488 – 1490, during his Journey to the Holy Land, translated by Shulman, Y. D., Jerusalem, 1992.

- Meshullam Ben R., Menahem of Voltera, Itinerary of Rabbi Meshullam Ben R. Menahem, 1481 A. D., in: J. T., ed. Adler, N. E., London, 1930, pp.156- 208.

- Obadiah Jara Da Bertinoro, Itinerary of Obadiah 1487 – 1490, A. D., in: J. T. ed. Adler N., London, 1930, pp.209 – 251.

- Petachia of Retisbon, The Itinerary of Rabbi Petachia, 1174 – 1187 A. D., in: J. T., ed. Adler, N., London, 1930, pp.61 – 90.

- Reif, C., Stefan, Hebrew Manuscripts at Cambridge University library, A., description and introduction, first published, New York, 1997.

- Samuel Ben Samson, Itinerary of Rabbi Samuel Ben Samson, 1210 A. D., in: J. T., ed. Adler, N., London, 1930, pp.103 – 110.

- Scheiber, Alexander, Geniza Studies, Collection XVII, New York, 1981.

- Sklare, E., David, Samuel ben Hafni Gaon & his cultural world, texts and studies, New York, 1996.

- Tafur Pero, Travels and Adventures, trans. by Malkholm, L., in: Broadway travellers, 1926.

وقد رجع الباحث إلى الترجمة العربية للرحلة. انظر: طافور بيرو، رحلة طافور الأسبانى فى عالم القرن الخامس عشر، ترجمة: حسن حبشى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢م.

- Theoderich, Description of the Holy places, 1172 A. D., Trans. by Aubrey Stewart, in: P. P. T. S, vol. V, London, 1884.

- William of Tyre, A History of deeds done beyond the sea, 2vols., Trans. by Babcock and Krey, New York, 1943.

ثالثاً: المصادر العربية

- ابن الأثير، (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م.) على بن احمد بن أبى الكرم: الكامل فى التاريخ، ١٢جـ، بيروت، ١٩٦٥م.

- ابن الأخوة، (ت٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م.) محمد بن محمد بن أحمد القرشي: معالم القربة فى أحكام الحسبة، تحقيق: محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى، القاهرة، ١٩٧٦م.

- الإدريسى، (٥٦٠هـ/ ١١٦٤م.) أبوعبدالله محمد: نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمداين والآفاق، نشر: راشن موللر، ليدن، ١٨٩١م.

- الأسنوى، (ت ٧٧٢هـ/ ١٣٦٩م.) جمال الدين أبومحمد عبدالرحيم: الكلمات المهمة فى مباشرة أهل الذمة، نشره موشى برلمان، بروكلين، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٦٩م.

- ابن أبي أصيبعة، (ت ٦٦٨هـ./ ١٢٦٩ - ١٢٧٠م.) موفق الدين أبوالعباس أحمد بن القاسم خليفة بن يونس السعدى الخزرجي: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، نشره: نزار رضا، بيروت، ١٩٦٥م.

- ابن إياس، (ت ٩٣٠هـ./ ١٥٢٤م.) أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي: بدائع الزهور فىوقائع الدهور، ٥جـ، نشر: محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٦٠ - ١٩٦٣.

- ابن بطوطة، (ت٧٧٩هـ./ ١٣٧٧م.) محمد بن عبدالله: الرحلة (تحفة النظار فى غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار)، القاهرة، ١٩٦٦م.

- البكرى، (ت ٤٨٧هـ./ ١٠٩٤م.) أبي عبيدالله عبدالله بن عبدالعزيز البكرى الأندلسي: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ٣جـ، حققه وضبطه: مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥ - ١٩٤٩م.

- التدمرى، (ت٨٣٣هـ./ ١٤٢٨م.) إسحق بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن كامل التدمرى الشافعي: مثير الغرام وخلاصة الكلام فى فضل سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام، مخطوط مودع فى :

History of The Prophets, etc. Arabic Manuscript, in: S. O. A. S., Un. Of London, No. 46353.

- ابن تغرى بردى، (ت٧٨٤هـ./ ١١٤٧م.) جمال الدين أبوالمحاسن يوسف: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٦جـ، جـ١٣-١٦، القاهرة، ١٩٧٠م. - ١٩٧٢م.

- ابن جبير (ت ٦١٤هـ./ ١٢١٧م.) أبوالحسين محمد بن أحمد الأندلسي: رحلة ابن جبير المسماه تذكرة الأخبار فى اتفاقيات الأسفار، تحقيق حسين نصار، القاهرة، ١٩٥٥م.

- ابن الحاج العبدرى، (ت ٧٣٧هـ./ ١٣٣٧م.) أبوعبدالله محمد بن محمد العبدرى الفاسي: المدخل فى تنمية الأعمال بتحسين النيات، الطبعة الأولى، ٤ أجزاء فى مجلدين، المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٤٨هـ./ ١٩٢٩م.

- السخاوى، (ت٩٠٢هـ./ ١٤٩٧م.) شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن محمد: الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع، ١٢جـ، القاهرة، ١٣٥٣ - ١٣٥٥هـ.

- السيوطي: (ت ٩١١هـ./ ١٥١٧ م.) شمس الدين السيوطي: اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق: أحمد رمضان أحمد، القاهرة، ١٩٨٤م.

- عبدالغنى النابلسى، (ت ١١٤٣هـ./ ١٧٣٠م.) عبدالغنى إسماعيل النابلسى: الحضرة الأنيسية فى الرحلة القدسية، القاهرة، ١٩٠٣م.

- العمرى، (ت ٧٤٩هـ./ ١٣٤٩م.) شهاب الدين أبوالعباس بن فضل الله: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، دولة المماليك الأولى، تحقيق: دوريتا كرافولسكى، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠٧هـ./ ١٩٨٦م.

- أبوالفدا، (ت ٧٣٢هـ./ ١٣٣١م.) إسماعيل بن على محمود: الملك المؤيد صاحب حماة: المختصر فى أخبار البشر، ٤جـ، فى مجلدين، بيروت (د - ت).

- القلقشندى، (ت ٨٢١هـ./ ١٤١٨م.) أبوالعباس أحمد بن على بن أحمد عبدالله: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ١٤جـ، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٣م.

- ابن قيم الجوزية، (ت ٧٥١هـ./ ١٣٥١م.) محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الزرعى الدمشقى، أبوعبدالله شمس الدين: هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى، تقديم وتحقيق وتعليق: أحمد حجازى السقا، القاهرة، ١٣٩٩هـ./ ١٩٧٩م.

- الماوردى، (ت ٤٥٠هـ./ ١٠٥٨م.) أبوالحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مكتبة مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٧٣ م.

- محسن ربيع، (مدير عام الآثار المصرية، إعداد: تقرير هيئة الآثار المصرية عن معبد بن عزرا اليهودى بمصر القديمة المسجل فى عداد الآثار بالقرار الوزارى رقم ٢٧٤ لسنة ١٩٨٤م.

- المقدسى البشارى، (ت ٣٨٨هـ./ ٩٩٨م.) شمس الدين أبوعبدالله: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية، ليدن، ١٩٠٣.

- المقريزى، (ت٨٤٥هـ./ ١٤٤٢م.) تقى الدين أحمد بن على المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤ ج، الجزء الأول، والثانى، نشر وتحقيق: مصطفى زيادة،القاهرة، ١٩٣٦م.، الجزء الثالث والرابع، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٠ - ١٩٧٤م.

- ________:كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، طبعة القاهرة، (د- ت).

al-maktabeh

- ابــن الــوردى، (ت ٧٥٠هـــ./ ١٣٥٠م.) زين الدين عمر: تتمة المختصر فى أخبار البشر، القاهرة، ١٢٨٥هـــ.

- أبوالـــيمن العليمى، (ت ٩٢٨هـــ./ ١٥٢٢م.) عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن مجير الدين الحنبلـــى: الأنـــس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢جـــ، الطبعة الأولى، النجف، العراق، ١٣٨٦هـــ./ ١٩٦٦م.

ثالثًا: المراجع الأجنبية:

- Ashtor, E., History of the Jews in Egypt and Syria under the Rule of the Mamluks, Geniza documents, III vols., Jerusalem, 1970, (in Hebrew) Fragments from the Cairo Geniza.

- Barnawi, Eli, A historical Atlas of the Jewish people from the time of the patriarchs to the present, London, 1992.

- Beinour, Haim, Atlas of Medieval Jewish History, New York, 1992.

- Ben- Sasson, H. H., A History of the Jewish people, Cambridge, 1976.

- Benvan. Edwyn, R., Singer Charles (ed.s), the legacy of Israel, London, 1928.

- Buxtorf Johannes patris, Synagoga judaica de judaeorum fide, Ritibus, ceremoniis, tàm publicis & Sacris, qua'm privatis in domeftica vivendiratione: Tertia Editione, Zurich, 1989.

- Clements, R. E (ed.), The world of Ancient Israel, Cambridge UK, 1991.

- Cohen, Mark, R., Under Crescent and cross: "The Jews in the middle ages", New Jersey, U. S. A, 1943.

- Conder, C. R., Cenotaphs of the Hebrew patriarchs at the cave of Machpella, in: P. E. F., Quarterly statement, London, October 1882, pp.197 – 206.

- De Long, Nicholas, Atlas of the Jewish Word, 5th printing, Spain, 1992.

- Eisenstadt, S. N., Jewish civilisation "the Jewish Historical Experience in a comparative perspective", New York, 1992.

- Eliade, Mircea, (ed.) in the Encyclopedia of Religion, 16 vols., New York, London, 1986.

- Enlart, C., Les Monuments des croises dans le Royaume de Jérusalem: Architecture Religieuse et civile, Bidl AH, 7, 8, 2vols. et 2 albums de photos, Paris, 1925- 1928.

- Fargeon, Mourice, Les Juifs en Egypte depuis les origines, Jusqu'à ce jour, Le Caire, 1938.

- Firestone Reuven, Jewish culture in the formative period of Islam, in: cultures of the Jews, III parts, ed. By Biale, David, Schocken Books, first published, U. S. A, 1999, part I, pp.267 – 294.

- Gilbert Martin, Jewish History Atlas, 4th ed., London, 1992.

- Ginzberg Louis, Jewish Encyclopedia, 12vols., ed. by: Friedenberg, A. M., Richard Gothiel and others, New York, 1901 – 1906.

- Goodman, Paul, History of the Jews, with prefatory note by the chief Rabbi, 4th ed., London, 1943.

- Gotein, S. D., The Jews under Islam, (Summarized and trans.), Geniza sources for the crusader period A survey, in: outremer, studies in the History of the crusading kingdom of Jerusalem, ed. Kedar, Z. B., Mayer, H. E., and Smail, R. C., Jerusalem, 1982, pp.308 – 321.

- Gotheil, G., Richard, Deutsch Gotthard and others, Jerusalem an essay in Jewish Encyclopedia, vol. V, New York, 1901 – 1906.

- Hayward, C. T. R., The Jewish temple, A non – Biblical source book, London, 1996.

- Heschel, J., Abraham, Maimonides, the life & times of the great medieval Jewish thinker, New York, 1935.

- Horowitz, Elliotte, Families and Their fortunes,: The Jews of Early modern Italy, in: cultures of the Jews, III parts, ed. By Biale, David, Schocken Books, First published, U. S. A, 1999, part II, pp.573 – 638.

- Ilana Shamir, Shlomo Shavit, (eds.), Encyclopedia of JEWISH HISTORY, Events and Eras of the Jewish people, Israel, 1986.

- Johnson, Poul, A History of the Jews, London, 1988.

- Kaplan, Yosef, Ben Judesma: The western Sephardic Diaspora in: cultures of Jews, III parts, ed., by Biale, David, Schocken Books, First published, U. S. A, 1999, part II, pp.611 – 670.

- Kedourie Elie (ed.), The Jewish world, "Revelation, Prophecy and History", London, 1979.

- Krinsky Carol Herselle, Synagogues of Europe, Architecture, History, Meaning, reprinted in New York, 1996.

- Lerman Antony and others, (eds.), The Jewish communities of the world. A contemporary Guide, 4th ed., New York., 1989.

- Meek, H. A., The Synagogue, First published, London, 1995.

- Newman, E., Louis, Past Imperatives, Studies in the histories and theory of Jewish Ethics, State university, New York, 1998.

- Roth, Cecil: (ed.), The concise Jewish Encyclopedia, First printing, London 1980, Art. Obadiah of Bertinoro (ed.), Encyclopedia Judaice, 16 volumes (Jerusalem: Keter House, 1972).

-_________, The Jewish contribution to civilization, London 1938.

- Scheindlin, Raymond, P., Merchants and intellectuals, Rabbis and poets: Judeo – Arabic culture in the golden Age of Islam in: cultures of Jews, III parts, ed. By Biale, David, Schocken Books, first Published, 1999, part II, pp.313 – 388.

- Sed- Rojna, Gohielle, L'art Juif, C, L'art et les grandes civilisations, Paris, 1995.

- Sherbok, Dan Cohen, Atlas of Jewish history, 1st published, London, Great Britain, 1994.

- Sirat Colette, A History of the Jewish Philosophy in the Middle Ages, 3rd ed., Paris, 1996.

- Vincent, L. H., Mackay E. J. H. et Abel, F. M., Hebron: Le Haram el-Khahil, Sepulture des patriarches, 2vols., texte et Album de plotos, Paris 1923.

- Wigoder, Geoffrey (Ed.), The New standard Jewish Encyclopedia. 3vols., 7th ed. New York, Oxford, 1992.

رابعاً: المراجع الثانوية العربية والمعربة:

– إبراهيم الجندى: فلسطين فى عيون الرحالة الأوروبيين، بحث منشور فى: المجلة الفلسطينية للدراسات التاريخية تصدر عن الجمعية الفلسطينية للدراسات الفلسطينية للدراسات التاريخية – رام الله، المجلد الأول، العدد الثالث، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.، (ص١٢٤ – ١٦١).

– إبراهيم الفنى وطاهر النمرى: المسجد الأقصى والصخرة المشرفة، التاريخ، العمارة، الأنفاق، الحفريات، الخطط الصهيونية، دار الشروق، الطبعة الأولى، الإصدار الأول، عمان – الأردن، ٢٠٠١م.

– أحمد دراج: المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى، القاهرة، ١٩٦١م.

– أحمد راتب عرموش وآخرون: موسوعة الأديان (ميسرة) الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

- أحمد شلبى: اليهودية، الطبعة ١٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٧م.

- أحمد عبدالغفور عطار: اليهودية والصهيونية، الطبعة الأولى، دار الأندلس، بيروت ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م.

- أفيطبول، ميخال، وآخرون: اليهود فى البلدان الإسلامية (١٨٥٠ - ١٩٥٠م.)، ترجمة: جمال أحمد الرفاعى، ومراجعة: رشاد عبدالله الشامى، عالم المعرفة، العدد ١٥٧، الكويت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

- إمام عبدالفتاح إمام: معجم وديانات وأساطير العالم، ٣جـ، القاهرة ١٩٩٥م.

- بـروكلمان، كـارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية: أمين فارس ومنير البعلبكى، الطبعة العاشرة، بيروت ١٩٨٤م.

- بطرس عبدالملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، الطبعة الثانية عشرة، دار الثقافة بالقاهرة، ١٩٩٩م.

- جمال حمدان: اليهود أنثروبولوجيًا، القاهرة، ١٩٩٢م.

- جلـوب، فون باجوت: السلام فى الأرض المقدسة تحليل تاريخى لمشكلة فلسطين، ترجمة: رشاد الشـامى، ونشره تحت عنوان: اليهود واليهودية فى العصور القديمة بين وهم الكيان السياسـى وأبديـة الشـتات، الطبعة الأولى، المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات، القاهرة، ٢٠٠١م.

- جورجى كنعان: تاريخ يهوه، الدار العربية للعلوم، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م.

- حبيب غزالة: جزيرة رودس، جغرافيتها وتاريخها وآثارها، القاهرة، ١٩٢٩م.

- حسن الباشا: الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار: الدار الفنية، القاهرة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

- حسن ظاظا: الفكر الدينى الإسرائيلى، أطواره ومذاهبه ، القاهرة، ١٩٧١م.

- حسين شريف: المفهوم السياسى والاجتماعى لليهود عبر التاريخ من العهد القديم إلى مفاوضات السـلام الشـرقى أوسطية (١٩٠٠ق.م - ١٩٩٥)، ٤جـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م.

- حياة ناصر حجى: بعض ملامح الأحوال الداخلية فى عهد السلطان قايتباى (٨٧٢ – ٩٠١ هـ/ ١٤٦٨ – ١٤٩٦م) مجلة التاريخ العربى، تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة، العدد الثلاثون، ربيع ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م، (ص١٢٧ – ١٩٧).

- ديورانت، ول: قصة الحضارة، ٨جـ، ترجمة: محمد بدران، القاهرة، ١٩٦٨م.

- رشاد الإمام: مدينة القدس فى العصر الوسيط، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٦م.

- رشاد عبدالله الشامى: إشكالية الهوية فى إسرائيل، سلسلة عالم المعرفة، عدد رقم ٢٢٤، الكويت، ربيع الأول ١٤١٨هـ – أغسطس ١٩٩٧م.

- زبيدة محمد عطا: يهود العالم العربى، دعاوى الاضطهاد، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٤.

- زكى شنودة: المجتمع اليهودى، مكتبة الخانجى، القاهرة، (د–ت).

- سامى محمد عبدالحميد: القدس فى اليهودية والمسيحية والإسلام، الطبعة الأ،لى، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٢١هـ– ٢٠٠١م.

- ستيفن رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ٣جـ، ترجمة: السيد الباز العرينى، الطبعة الأولى، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨.

- ستيوارت وسيزموند: القاهرة، ترجمة: يحى حقى، تقديم: جمال حمدان، القاهرة، ١٩٩١م.

- سعيد عبدالفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى، الطبعة السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٥م.

- __________: المجتمع المصرى فى عهد سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٦٢م.

- سليمان محى الدين فتوح: اليهود والقدس، دارسة تارخية للادعاءات الصهيونية وممارستها فى المدينة، تقديم شوقى الجمل، زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٧م.

- سمية حسن: المعبد اليهودى بمصر القديمة (بن عذرا). مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٩٢م.

- سوزان السعيد يوسف: المعتقدات الشعبية حول الأضرحة اليهودية، دراسة عن مولد يعقوب أبى حصيرة بمحافظة البحيرة، دار عين للنشر، القاهرة، ١٩٩٧.

- سيد عبدالمجيد بكر: أشهر المساجد فى الإسلام والبقاع المقدسة، جدة، ١٩٨٠م.
- سيد فرج راشد: السامريون واليهود، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- السيد محمد عاشور: الصوم فى الشريعة اليهودية، الطبعة الأولى،دار الاتحاد العربى، القاهرة ١٩٧٩.
- شاحاك، إسرائيل: التاريخ اليهودى، الديانة اليهودية وطأة ثلاثة ألاف سنة، ترجمة: صالح على سوداح، الطبعة الأولى، بيسان - بيروت ١٩٩٥.
- شاحاك، اسرائيل ومتسفينسكى، نورتون: الأصولية اليهودية فى اسرائيل، ترجمة: ناصر عفيفى، الكتاب الذهبى،روزاليوسف، القاهرة ٢٠٠١.
- صابر طعيمة: التاريخ اليهودى العام، ٢جـ، الطبعة الثالثة، دار الجبل بيروت، ١٤٤١هـ - ١٩٩١م.
- صوفى أبوطالب: المجتمع العربى، القاهرة، ١٩٧٠م.
- عائشة راتب: الصهيونية العالمية وإسرائيل، القاهرة ١٩٧١.
- عارف باشا العارف: تاريخ القدس، القاهرة ١٩٥١م.
- عبدالجليل شلبى: اليهود واليهودية، دار أخبار اليوم، القاهرة مارس ١٩٩٧.
- عبدالرازق أحمد قنديل: الأثر الإسلامى فى الفكر الدينى اليهودى، دار التراث بالقاهرة بالاشتراك مع مركز بحوث الشرق الأوسط ١٩٨٤م. - ١٤٠٤هـ.
- عبدالرحمن بشير: اليهود فى المغرب العربى، ٢٢- ٤٦٢هـ./ ٦٤٢- ١٠٧٠م.، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠١م.
- عبدالمجيد بن محمد الخريجى ونايف بن عبدالله الشرعان: الدينار عبر العصور الإسلامية، دار العلم، الرياض ١٤٢٢هـ.
- عبدالوهاب المسيرى: الأقليات اليهودية بين التجارة والإدعاء القومى، دار نافع، دمنهور، القاهرة، ١٩٧٥.

- ــــــــــــ: مـــن هـــو الـــيهودى؟ البطعة الأولى، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٨هـــ - ١٩٧٧م.

- ــــــــــــ: موســـوعة المفاهـــيم والمصطلحات الصهيونية: رؤية نقدية، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة ١٩٧٥.

- ــــــــــــ: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٨جـــ، الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩م.

- عـــثمان علـــى محمـــد عطا: الأزمات الاقتصادية فى مصر فى العصر المملوكى وأثرها السياسى والاقتصادى والاجتماعى ٦٤٨ - ٩٢٣هـــ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م.، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة المصريين، رقم ٢١٣، القاهرة، ٢٠٠٢م.

- عرفه عبده على: ملف اليهود فى مصر الحديثة، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩١م.

- عطيه القوصى: صلاح الدين واليهود، بحث منشور فى المجلة التاريخية المصرية، مج٢٤، القاهرة، ١٩٧٧م، ص٣٩ - ٥٤.

- علـــى أحمـــد السيد: الخليل والحرم الإبراهيمى فى عصر الحروب الصليبية ٤٩٢ - ٥٨٣هـــ/ ١٠٩٩ - ١١٨٧م، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٨هـــ/ ١٩٩٨م.

- ــــــــــــ: وثـــيقة عهـــد البابا الكسندر الثالث بدير صهيون فى القدس ١١٧٨م، عرض ودراســـة وتحلـــيل،بحث ألقى فى مؤتمر تاريخ فلسطين فى ضوء البرديات والنقوش ١٩٩٨م، ACPSI ، القاهرة ١٩٩٩م.

- على السيد على: القدس فى العصر المملوكى، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٦م.

- علـــى عبدالواحد وافى: اليهودية واليهود، بحث فى ديانة اليهود وتاريخهم ونظامهم الاجتماعى والاقتصادى، الطبعة الثانية، نهضة مصر، القاهرة، (د.ت).

- غـــازى الســـعدى: الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، عمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

- فارج فيليب ويوسف كرباج: المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى، ترجمة بشير السباعى، الطبعة الأولى، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٤م.

– فالتــرهنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها فى النظام المترى، ترجمة د. كامل العسلى، عمان، ١٩٧٠م.

– فــؤاد حســنين علــى: المجــتمع الإسرائيلى منذ تشريده حتى اليوم، ٢جــ.، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٨م.

– فــؤاد حســين مزنر: أطماع اليهود وأسفارهم، دار الكتب الثقافية، بيروت ، ١٤٠٩هــ-١٩٨٩م.

– قاســم عــبده قاسم: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسى والاجتماعى، الطبعة الأولى – ((عين)) للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية الهرم، القاهرة، ١٩٩٨م.

–________: اليهود فى مصر من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى الطبعة الأولى – دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة، ١٩٨٧م.

– كــاهن، كلــود: الشــرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، ط١، القاهرة ١٩٩٥م.

– كامل سعفان: اليهود تاريخ وعقيدة، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٨.

– كاميليا أبوجبل: يهود اليمن، دراسة سياسية واقتصادية واجتماعية منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن الشرين، الطبعة الأولى، دار النمير، دمشق ١٩٩٩م.

– كولــز، بــول: العثمانــيون فى أوروبا، ترجمة: عبدالرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.

– كيستلر، أرثر: القبيلة الثانية عشرة ويهود اليوم، ترجمة: أحمد نجيب هاشم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م.

– مارجوليــز. م.ل، ماركس. أ: تاريخ الشعب اليهودى، جــ١، أشرف على الترجمة والإعداد: ارلانجى، إبراهام، الطبعة الخامسة، نيويورك ١٩٦٤م.

– محمد بحر عبدالمجيد: اليهود فى الأندلس، دار الكتاب العربى، العدد ٢٣٧، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٩٠م.

– محمــد بديــع شريف: مدخل لدراسة مطامع اليهود فى فلسطين قديماً وحديثاً، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٣م.

- محمد جلاء إدريس: يهود الفلاشا أصولهم ومعتقداتهم وعلاقتهم بإسرائيل، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٣م.

- محمد خليفة حسن: تاريخ الديانة اليهودية، الطبعة الأولى، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨م.

- محمد خليفة حسن، النبوى جبر سراج: الجنيزة والمعابد اليهودية فى مصر، عدد٩، سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية، إصدار مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة ١٩٩٩م.

- محمد عبدالعال أحمد: بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية فى عهدهما (٦٢٨ - ٩٢٣هـ./ ١٢٣١ - ١٥١٧م.)، الهيئة المصرية العامة للكتاب - فرع الإسكندرية، ١٩٨٠م.

- محاسن الوقاد: اليهود فى مصر المملوكية فى ضوء وثائق الجنيزة (٦٤٨ - ٩٢٣هـ./ ١٢٥٠ - ١٥١٧م.)، الهيئة المصرية العامة للكتاب (تاريخ المصريين عدد ١٣٥)، ١٩٩٩م.

- مراد فرج: القراؤون والربانون، القاهرة، ١٩١٨م.

- لوتسك، هارفى: عادات وتقاليد اليهود، تعريب مصطفى الرز، دار سلمى للنشر، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٤م.

- لويس، برنارد: اليهود فى ظل الإسلام، ترجمة: حسن أحمد بسام، مركز الدراسات العسكرية،دمشق ١٩٩٥م.

- يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ٢جـ، منشورات مؤسسة فيصل، استانبول، جـ١، ١٩٨٨م.

- يوسف عيد: موسوعة الأديان السماوية والوضعية، (٥) الديانة اليهودية، الطبعة الأولى، دار الفكر اللبنانى، بيروت، ١٩٩٥.

al-maktabeh
www. .com
مكتبة المهتدين
http://almoktdeen.com

رقم الإيداع ٢٩٤١ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 322 - 185 - 7

مطابع العزم
مهندس يوسف عزم

ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق

صفحة الغلاف الداخلى لكتاب أهاقاه (الحب) أحد الكتب الأربعة عشرة
التى تكون المشناه المملوكة لموسى بن ميمون

للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES